@ketab_n

@ketab_n
Follow Me

4.12.2014

دوستويفسكي

مُذكّرات مِنَ البَيتِ الميّت



المركز الثقافي العربي

دوستويفسكي

مذكّرات من البيتِ الميّت

ترجمها عن الروسية وقدم لها:

إدريس الملياني



دوستويفسكي

مذكّرات من البيت الميِّت

الكتاب

مذكّرات من البيت الميِّت

تأليف

دوستويفسكي

ترجمة

إدريس الملياني

الطبعة

الأولى، 2014

عدد الصفحات: 448

القياس: 14 × 21

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-690-5

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 01 750507 ـ 01 352826

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

تقديم

الدم والسلطة يُسكران دوستويفسكي

1

لا شكّ أنّ المترجمين، أقارب كانوا أم أجانب، كلهم على حظّ من الاحترام سواء. ولا شك أيضاً أن جميع الترجمات، الأدبية خاصة، يرجع تقديرها إلى الذائقة القارئة العاشقة والناقدة العالمة، التي لا تضيِّع أجر مَن أجاد عمله أو اجتهد فيه، ولا تجحد فضلاً لذويه وجميلاً لمبدعيه، ولا تنظر إليه بالعين الراضية الكليلة عن كلّ عيب ولا بالعين الساخطة التي لا تبدي منه إلا المساوئ والعيوب.

2

تبدأ أخطاء الترجمة من عتبات نصية كثيرة.

أولاً؛ من اسم الكاتب، الذي ينبغي أن يُنطق: داستاييفسكي، بحسب النبر الروسي، إذ يقع النبر على المقطع الثاني الذي يُنطق أوضح من المقطعين الأول والأخير، بينما تُلفظ الألف اللينة الساكنة في المقطع الأول بين الألف (A) والواو (O) بصوت قصير كالمقطع الأخير كذلك: دَاسْتَا/ يِي/ فْسْكي، ولم يُنطق ويُكتب صحيحاً ربما إلا في اللغتين الروسية طبعاً والفارسية: داستاييفسكي. وثمة أسماء أخرى

كثيرة لا تحترم نطقاً وكتابة، كاسم تشيخوف بالخاء وليس بالكاف الفرنسي، أو اسم «ليف تالستُويْ» الذي يترجم بعضهم حتى اسمه «ليف» الذي يعني الأسد إلى «ليون» ولِمَ لا يترجمون كذلك «تالستويْ» الذي يعني السمين فيقال له بجميع اللغات «الأسد السمين»؟!

وثانياً: أن تُحذف عتبات شتى كالإهداء والهوامش والحواشي التي يضعها الكاتب، ولكن لا بأس من أن تُضاف إليها هوامش أخرى.

ولكن ثالثة الأثافي: أن يُحرّف كلام الكاتب عن مواضعه وأن يُقوّل ما لم يقُل أو أن يصرّح باسمه ويُشرح بالتفصيل المملّ أو العكس أن يُختزل ويُختصر ويُلخص أو يُمعن في جسد النص الأصلي تشريحاً وهلمّ شرحاً أو بتراً.

3

وبالتالي فإنّ مثل هذه الترجمة أقرب ما تكون إلى جريمة قاطع الطريق بّروكوست الذي قيل عنه في الأسطورة اليونانية إنه كان يمدّد أجساد ضحاياه على السرير الشهير باسمه فيبتر أو يمطّ أطرافها إذا كانت زائدة أو ناقصة عن السرير. وفي كلتا الحالتين لا بد أن يشوّه إذا لم يمت الجسد الممدّد فوق سرير بّروكوست، وكذلك روح النص الأصلي لا بد أن يقتلها الشرح أو الاختزال.

4

في السوق ترجمتان عربيتان لهذا العمل، نقلاً عن الفرنسية، التي تنسجان على منوالها، وتلهجان بمثالها وتنهجان سبيلها وتحتذيان نعلها وتهتديان أو تضلان بعقلها وتقتديان حتى بنقلها

للعنوان، الذي هو إحدى أهم العتبات النصية الموجّهة أو المضللة، إلا أنّ أولاهما مبالِغة في التمطيط والشرح والثانية مغالية في البتر والاختزال، ويمكن الرجوع إليهما للتأكُّد من ذلك، بالمقارنة مع الترجمات الفرنسية، على الأقل، وإذا ما قيست هاتان الترجمتان العربيتان بالأصل الروسي فتلك هي الطامة الكبرى. ورغم أنّ معظم الترجمات الفرنسية للآداب الروسية أقرب ما تكون إلى الأمانة وأبعد ما تكون عن الخيانة، فهي لا تخلو من خروجٍ عن النص الروسي، ولكنه خروج قد لا يحلو أحياناً إلا في اللسان الفرنسي. وتستعمل أحدث هذه الترجمات الفرنسية حتى عبارات من اللهجة الدارجة خاصة في محاورات ومشاجرات السجناء. وكثيراً ما تتصرّف في كلّ ما لا يرضيها، كأن يكون أحد الشخوص «سكران مثل سويدي» فتقول عنه إنه «سكران مثل بولندي» أو «مثل برميل» وفي هامش الصفحة نفسها تشير إلى الأصل الروسي، فما جدوى هذا التغيير والميز بين سكر سويدي وآخر بولندي؟ وتصرّ بالتالي على إفراغ النص من محتواه الروسي، بفَرْنَسة كل شيء، حسب ذوقها اللساني الخاص، كأسماء الأشخاص (أكولكا تسميها أسيلين Acyline) وحتى أسماء الكلاب (شاريك تدعوه بولو Boulot لاشتقاق اسمه من كلمة «شار» التي تعني كرة boule) وشتى الأسماء الأخرى (مثل نوع من الأرغفة الروسية الصغيرة تسمى «كالاتش» وتترجم بالسميطة، تصبح هلاليات فرنسية كرواسان croissants) ولا تكتفي تلك «الترجمة المتمركزة» على «عرقها» الثقافي الخاص، بحذف جمل ضرورية، بل تضيف جملاً أخرى لا داعي لها، فإنْ كانت «عيناها واسعتين» قيل إنهما «مثل بوابة العربات aussi grands que des portes cochères

وإن قيل «إنه يكذب في كل ذلك» زيد عليها «مثل قالع الأضراس» comme un arracheur de dents وإذا «كذب» اللسان الفرنسي «صدقه» لسان العرب الطويل، الموالي لهذه الفرنسة الأمينة لخيانة ما يسمّى «بالترجمة المتمركزة» على الذات، والمغالي في خيانة الرّوسسة الأمينة للآخر، حتى ولو بترجمته الحرفية أو ما يسمى «بالحَورفة» التي تعني رسم الأسماء بحروفها دون تحريفها أي حسب نطقها الخارجي الصحيح ومنطقها الداخلي السليم من كلّ هوى أو استهواء. على أنّ أسوأ ما في جميع مقدمات الترجمات الفرنسية للآداب الروسية، الكلاسيكية خاصة، هو تلك المقاربة النقدية «السياسية» المغْرضة والمناهضة للاتحاد السوفييتي، كمقارنة سجون الأشغال الشاقة «كاتورغا» القيصرية بالـ «غولاغ السوفييتي» حتى كادت أن تجعل كلّ عباقرة الآداب الروسية منشقين مرتدين عن الاتحاد السوفييتي ومعادين له قبل ميلاده بزمن طويل. وللأسف فإن أقدم - وأهم - الترجمات الفرنسية للعمل التالي قد سقطت منها - سهواً ربما - كثير من الفقرات الطويلة، ولكنها واردة في الترجمة العربية، الشارحة والمفسّرة، أما تلك المختزلة والمختصرة والملخّصة فهي بالتأكيد بضاعة فاسدة وكاسدة حتى بلغة المال ومنطق الاتجار. ولا شك أنّ ما بُني على ترجمة باطلة فهو ترجمة باطلة ولكن لا تخلو كل محنة من منحة كذلك.

5

من العيوب التي وقعت فيها تلك الترجمة العربية، الشارحة والمفسرة، أنها ترجمة مغرمة بالمترادفات اللغوية والمقابلات

البلاغية، التي تكاد لا تخلو منها أيّة صفحة من الكتاب، إلى حدّ القول إن رُبعه على الأقل، أو ما يزيد عن ذلك، إنما هو من قبيل الحشو والتَّكرار والتوكيد والاستطراد والإسهاب والإطناب، ممّا يدل على تردد تلك الترجمة في اختيار الكلمة الملائمة، بل وعلى مصادرة حقّ القارئ في المشاركة المتفاعلة المحللة والمؤولة. والأمثلة على ذلك واضحة وفاضحة وفادحة في كل الفصول وتكاد لا تخلو منها صفحة واحدة، ويحتاج تعدادها كلها إلى صفحات كثيرة ولكن يمكن العدّ منها على سبيل الذكر لا الحصر ولا داعي للرجوع فيها حتى إلى الأصل الروسي، ولا بد من الاعتذار للقارئ الكريم عن الإكثار من هذه الأمثلة، القليلة والمملَّة، التي لا قصد لها غير صدق المسألة وهي كالتالي في كل الفصول والصفحات:

السكاكين والخناجر والمدى ص 33، الكره والبغض والحقد ص 35، لا يبالي شيئاً ولا يحفل بشيء ص 36، خفية في السر ص 38، لا يلفت النظر أو يثير الانتباه ص 44، هي المشقة أو العناء أو التعب ص 45، فهدفه معقول وغايته مفهومة ص 45، لا تفيد هؤلاء السجناء في شيء ولا تعود عليهم بنفع ص 45، طيب المذاق لذيذ الطعم ص 47، يسخرون منه ويستهزئون به ص 58، خلسة وخفية ص 60، يكرهونه ويمقتونه ص 61، بخضوعه وامتثاله وانصياعه كما عرف أيضاً بسكوته وصمته ص 62، رغم المنزلة العالية التي ينزلها فيه السجناء ورغم القيمة الكبرى التي يضفونها عليه ص 72، الاحتفاظ به والإبقاء عليه ص 72، من العجب بنفسه أو الزهو أو الخيلاء أو الغرور ص 73، دميم الوجه بشع المنظر ص 76، منزّهة عن الغرض مبرّأة من المنفعة ص 76، يحدث جلبة وضجة

وصخباً ص 77، لفت نظري واستأثر بانتباهي وأثار حبّ الاطلاع في نفسي سجين شاب وسيم الوجه حلو الملامح رقيق القسمات ص 82، من شدة الفرح وشدة الابتهاج ص 82، سخر منه وهزئ به ص 83، يتصرف تصرفاً لائقاً ويسلك سلوكاً لا غبار عليه ص 86، يفقد الوعي ويسقط مغشيّاً عليه ص 87، يصمت فما يجيب بشيء ص 88، بريئاً لم يقارف إثماً ص 91، لا يولونه أي اهتمام ولا يلتفتون إليه أي التفات ص 93، تشدّهم إليك وأن تربطهم بك ص 93، خاضعين راضخين مذعنين ص 94، فاقد الوعي مغشياً عليه ص 98، يبلغ غاية من الغايات أو أن يحقّق هدفاً من الأهداف ص 101، يثير دهشته أو يوقظ استغرابه ص 101، الإشفاق عليّ والرأفة بي ص 102، عابس الوجه مقطّب الأسارير ص 106، يخفّف عني ويسري عني ص 108، صليل الأغلال وصريف القيود ص 116، مختبئة مختفية ص 175، متبجّح مزهو مفاخر ص 175، هدف يسعى إليه أو غاية ينشدها ص 176، دون هدف أو غاية ص 180، مهما يصغر شأنه ومهما يهبط قدره ومهما تكن قيمته ص 188، بل يقتصد ويوفر ويدخر ص 192، أحاطوا به واحتشدوا حوله ص 193، لم أكُن قد ألفته بعد ولا تعودت عليه ص 200، هذه العناية بي وهذه الرعاية لي ص 214، أن يبلِّغا عني ويشيا بي ص 214، أن يفهم ذنبه وأن يدرك جرمه ص 218، متسولة تستعطي الصدقات ص 239، ولا ضجة ولا جلبة ولا ضوضاء ص 253، واضحة مسرفة في الوضوح ظاهرة مفرطة في الظهور ص 256، فارحمني واشفق عليّ ص 305، يؤثر ذلك ويفضله ص 315، يبتهل ويتضرع ويطلب الصفح والمغفرة ص 320، التوسلات والضراعات المألوفة المعتادة ص 320، أن يمتدح نفسه

وأن يفاخر بها ص 351، أن يغضّ من قدره وأن يحطّ من قيمته ص 351، وابتهجت من ذلك أشدّ الابتهاج واغتبطت له أعظم الاغتباط ص 369، غاية مخبأة أو هدف مبيت ص 370، يسري عنه ويخفف بلواه ويعزيه ص 395، صامتاً لا يتكلم 406، الإفراج عنه وإطلاق سراحه ص 433، سرّاً مكتوماً لا يعلم به أحد ص 457، يخفى سرّه ويكتم أمره ص 463، يلزمون الصمت فلا يتكلمون ص 470، على قدر المديح والثناء والإطراء ص 470، مجازفة كبيرة ومخاطرة عظيمة ص 475. . . إلخ.

6

ومن ذلك القبيل الكثير، لم نذكر منه غير هذا القليل الجميل. وكم من أشياء قضيناها بتركها مثل حذف: «داء الحَفَر» اسقُربوط بالفرنسي "scorbut" وبالروسي تْسينغا " цинга " أو حذف «حيوان المرموط» المشبّه به في آخر الجملة الآتية: «أن يختبئوا تحت الأرض.. ص 362». فضلاً عن تحريف كثير من أسماء الأعلام والأماكن والنقل الحرفي لبعض الجمل المجازية كالقول: remède de bonne femme الذي يُقصد به «علاج معروف ومتداول» يصبح «أدوية تصفها امرأة عجوز ص 294» ومثل العبارة التالية: L'un deux surtout a de vieille date une dent contre l'autre التي يقصد بها في «التركيب» الفرنسي والروسي أيضاً أن أحدهما يضمر العداوة للآخر، أو كان له حساب قديم معه (السن بالسن) ولا تعني أن «لأحدهما سنّاً تركب سنّاً أخرى ص 230» كان ذلك من زمن بعيد! فهل «أنزلها» الآن؟ كما أن: Chateaux en Espagne ليست

«بناء قصور بإسبانيا ص 407» وما هي بالتالي غير أضغاث أحلام أو أوهام الترجمان الفرنسي العربي اللسان ولا وجود لأي قصر إسباني في الأصل الروسي على كلّ حال. وإذا بالفلاح الروسي لا يسكن في بيت خشبي كان يسمى «إيزبا» - أو «إسْبة» ولا يعيش في عِزْبة على الأقل، بل «في عربة 411». ولا غروّ إذن أن تغدو لعبة ورق بين أربعة تسمى بالروسية «ВИСТ فيستْ» وبالفرنسية «whist» هويست تصير رقصة «twist» لم تكن في ذلك العهد موجودة بعد فكيف «يلعب التويست ص 389» وتصبح خمس بنات ثلاثاً ص15، وسبع فئات ستّاً ص 366، والثروة فروة ص 344، وباع خيوله ص 451 بينما هما حصانان فحسب، وجلد الطبل الذي يُقرع عدة مرات في اليوم يغدو جلد الحمار ص 31، وبضعة مبانٍ وعشرة أرطال، وعشر سنين، وعشر دقائق تكتب: بضع مبان ص 24، وعشر أرطال ص 288، وعشرة سنين ص 344، وعشرة دقائق ص 478، والسُّرّة تضرب «ضربات شديدة على صُرّته ص 87» و«أن البنات كانت تحبني ص 237» و«كانت الفتيات هي التي تحبه ص 345» بدل: كنّ يحببنه و«كان لا يعرفون ص 305» عوض: كانوا لا يعرفون. ولا غرو بالتالي أن يغدو الشيشاني «شركسياً ص 106» وفي بعض المواقع (التي أشاد فيها روائياً بالشرائع الثلاث) كاد داستاييفسكي أن يبدو حتى موسّولْمانْسكي - «إسلامياً»: «خاضعاً لله ساجداً على الأرض شاعراً بحرارة الإيمان وروعة الخشوع ص 367». «سبحان الله! ص 230». «ربنا تبارك وتعالى لا شريك له! ص 186». وأما الخطايا البريئة منها المطبعية فهي منتشرة في تلك الترجمة العربية الشارحة والمفسرة كالقمّل والصئبان.

7

وأغرب ما في الأمر أنّ معظم هؤلاء المترجمين، المحترمين، الأجانب والأقارب، كالمنجّمين والعرّافين، المرجمين بالغيب، يُجمعون على الاعتراف بأنّ ترجماتهم للعنوان غير دقيقة، ومخالفة لكل حقيقة، ومع ذلك، لم يتردّدوا عن اقتراف هذا الذنب، الذي لا مسوّغ له غير ما لا أدري «وسوف إخال أدري» كما قال الشاعر الجاهلي الحكيم زهير بن أبي سلمى. ويتفق هؤلاء المترجمون، المحترمون، على أنّ هذا العمل «ذكريات من منزل الأموات» أو «بيت الموتى» بينما يتحدث داستاييفسكي عن منزل أو بيت هو «الميت» ويحمل الفصل الأول عنوان: «ميورتفي دوم» يعني «البيت الميت» maison morte وليس «بيت الموتى» ومع ذلك أبقوا جميعاً على «منزل ميت حي» une maison morte-vivante فلِمَ لم يترجموه هو أيضاً إلى «منزل أموات أحياء»؟!

وأغرب ما في الأمر أيضاً أن جميع هؤلاء المترجمين، المحترمين، كانوا ملتزمين بترجمة كلمة «زابّيسكي» ترجمة أمينة في مواقع كثيرة داخل النص إلى «مذكرات» mémoires ولكنهم يخونون الأمانة في العنوان بترجمتها إلى «ذكريات» souvenirs التي ليست كذلك في الروسية، بل هي «فاسبّامينانيا» أما «زابّيسكي» فهي «مذكرات». ومن المعلوم أن داستاييفسكي كان مولعاً بتسمية كثير من أعماله الإبداعية بـ«المذكرات» مثل «مذكرات من القبو» - زابّيسكي إيز بّودبّوليا - وفي «المقامر» - إيغروك - وفي «قرية ستيبّانتشيكوفو وسكانها - سيلو ستيبّانتشيكوفو إي يبفو أوبيتاتيلي - عنوانان فرعيان هما «من مذكرات مجهول» - إيزْ زابّيسوك نيئيزفيستنافا - ومن «مذكرات شاب» - إيز زابّيسوك مالادوفا تشيلافيكا -

وفي تلك الترجمة العربية الشارحة يذكر: «المنزل الميت ص 141» وهو المعتقل، والقلعة، والثكنة، والمنفى السيبيري، وسجن الأشغال الشاقة، و«البيت الميت» الذي لم يقم فيه داستاييفسكي إلا أربع سنوات. إنّ صفة «ميورتفي» لا تعني «الميت» فقط، بل تعني المقفر والموحش أيضاً، وبالتالي فإن وصف البيت بالميت، الذي لا حياة فيه، إنما هو تعبير بليغ، مجازي ورمزي وحقيقي واستعاري، وشاعري كذلك أكثر شعرية وانزياحية حتى من وصف «الموتى» نزلاء البيت، المنفيين، السجناء، المعتقلين في سجن الأشغال الشاقة أو جحيم المنفى السيبيري الرهيب. ترى، ماذا لو كان عنوانه «البحر الأسود» أو «البحر الأحمر» أو « البحر الميت» فهل كانوا ينقلونه إلى «بحر السود» أو «بحر الحمر» أو «بحر الموتى»؟ وما أكثر «البيوت الميتة» les maisons mortes حتى في اللغة الفرنسية نفسها ومنها على سبيل المثال «البيت الميت»: *La maison morte* للكاتب هنري بوردو (Henry Bordeaux) وفي ترجمة الشعر أيضاً يوجد «البيت الميت وقصائد أخرى»: *La maison morte et autres poèmes* للشاعر يانيس ريتسوس (Yannis Ritsos) نقلها من اليونانية جيرار بييرا (Gérard Pierrat) ولعل الترجمة الفرنسية الوحيدة التي حافظت على «البيت الميت» la maison morte هي للشاعر الفرنسي أندريه ماركوفيتش (André Markowicz) (الذي ولد في براغ بتشيكوسلوكيا عام 1960 من أم روسية وأب فرنسي بولوني الأصل) وقد صدرت عام 1999عن منشورات «Actes Sud» بالعنوان التالي: *Les carnets de la maison morte* ضمن أعمال داستاييفسكي الكاملة التي استغرق في ترجمتها عشر سنين. وهي أحدث ترجمة فرنسية،

بعد الترجمات الأولى - الثلاث - التي قال عنها كلها إنها ترجمات رديئة ولكن بفضلها اطّلع بروست أو جيد على داستاييفسكي:
Je trouve les premières traductions mauvaises, mais je sais que j'ai tort, car c'est grâce à elles que Proust ou Gide ont découvert Dostoievski.

وهو فعلاً كما قال ليس محقاً، لأن حكمه هذا - برداءة الترجمات الأولى - ينطبق حتى على ترجمته، وإن كانت الأخيرة (عام 1999) فإنها لم تأتِ بما لم يستطعه الأوائل (غير إثبات «البيت الميت» في العنوان) ولا تتفوّق ربما على أخواتها الثلاث إلا بالمبالغة في استعمال كثير من «أصبغة» البلاغة الفرنسية واللغة المحكية، أو اللهجة الدارجة، لا سيما في محاورات ومشاجرات السجناء. وإذا كان لا بد من المفاضلة بين «الأخوات الفرنسيات الأربع» فالشقيقة الأولى، السابقة على أخواتها الثلاث بقرن ونيف «عام 1886» هي بالتأكيد التي أتت بالجديد، وليس لجمالها «النيرودي» الفريد سابقة ولا لاحقة، رغم ما في بعض فصولها من فقرات مبتورة من النص الروسي.

8

وفي مقدمة تلك الترجمة العربية الكثيرة الشروح يردُ بوضوح الإشارة وصريح العبارة: والحق أن ترجمة عنوان الكتاب على هذا النحو ليست دقيقة كل الدقة، فإن دوستويفسكي يحدّثنا في هذا الكتاب عن «منزل ميت» وعلى الصفحة التالية ذكر أيضاً «أن دوستويفسكي يتحدث عمّا عاناه هو نفسه في السجن. ولئن نسب هذه المذكرات إلى رجل سماه ألكسندر جوريانتشيكوف، فإن هذا التمويه لم ينطلِ على أحد». ولا ينطلي على أحد كذلك أنّ كل «هذا التمويه»

يعود إلى استقاء الدلاء العربية من ماء البئر الغربية، دون روية ولا رؤية نقدية ودية وندية، وإلى اندلاق «لسان العرب» الطويل العنان مع أشواق الترجمان الفرنسي دون الرجوع إلى العنوان الروسي، المطبوع الأصل في الكتاب العربي بحرف أعجمي غير سليم النطق أيضاً وعلى سبيل «التمويه» كذلك: «ZAPISKI IZ MERTVAGO DOMA» (الصحيح نطقاً miortvava ميورتفافا) فلمَ لا يُحترم اختيار الكاتب لهذا العنوان: «زابيسكي إيز ميورتفافا دوما» ويترجم بالتالي على هذا النحو الدقيق كل الدقة: «مذكرات من البيت الميت» تماماً كما جاء أيضاً في خاتمة «مدخلها» على لسان بطلها الكاتب والسارد: «لكن مذكرات الأشغال الشاقة هذه - التي دوّنها وعنونها هو نفسه في مخطوطته بـ«مشاهد من البيت الميت»، بدت لي غير خالية من المتعة والمنفعة». . .

9

وهذه بالتالي إحدى روائع داستاييفسكي محلِّل الطبائع والنفوس البشرية والرِّغاب والأهواء الإنسانية ومن أجمل أعماله العبقرية عن «الجريمة والعقاب» ولا تتخطى زمنها الكتابي فحسب، بل تتجاوز حتى مسكنها «الجني» العبقري إذ تكشف عمّا اقترف وما سوف يقترف من جرائم ومظالم كل «جِنة عبقرية» -بتعبير زهير بن أبي سلمى - لا تزال تعيث فساداً وتعبث رخاء أيضاً في مثل هذا الكون غير الإنساني تماماً كما قال داستاييفسكي عن جرائم تلك الكائنات ومظالم هذه الموجودات المازوخية السادية التي تفلت دائماً من «العقاب» على «الجريمة» والانتهاكات الجسيمة لحقوق وكرامة الإنسان:

- لا أدري إن كان ما زال هناك بعض السادة، الذين كانوا يوجدون منذ زمن ليس بالبعيد، والذين كانوا يتلذّذون بجلد ضحاياهم، مما يذكِّرنا بالماركيز دو ساد والماركيزة دو برانفيليي. أظنّ أن هذه اللذة ناتجة من ضعف نفسي، وأنّ هؤلاء السادة كانوا يتلذّذون ويتألمون في وقت واحد.

هناك أناس مثل النمور، متعطشون للدم، الذي يحبون أن يلعقوه. أولئك الذين امتلكوا هذه السلطة اللامحدودة على لحم ودم وروح أشباههم، إخوانهم في شريعة المسيح، أولئك الذين شعروا بهذه السلطة وكانت لديهم القدرة على إهانة كائن آخر أكبر إهانة، كائن خلق على صورة الرب، هؤلاء عاجزون عن كبح أحاسيسهم الجامحة.

إنّ الاستبداد عادة، قادرة على أن تنمو وتتطور وأن تغدو مع الوقت مرضاً. وأؤكد أنّ أفضَل إنسان في العالم يمكن بحكم العادة أن يقسو وأن يتبلّد حتى ينحطّ إلى مستوى حيوان مفترس.

إنّ الدم والسلطة يسكران: إنهما يساعدان على نمو العنف والفجور، وإذا بالعقل والشعور يجدان في أكثر الظواهر شذوذاً ملذّات عظيمة.

إن الإنسان والمواطن يموتان إلى الأبد داخل نفس المستبد، وعند ذلك تصبح العودة إلى الكرامة الإنسانية والندامة والتوبة والانبعاث الأخلاقي، شبه مستحيلة.

زِدْ على ذلك أنّ فسقاً مماثلاً يمكن أن تسري عدواه في المجتمع بأسره: ومثل هذه السلطة مغرية، والمجتمع الذي ينظر إلى هذه

الأشياء بعين اللامبالاة، هو مجتمع سرت فيه هذه العدوى حتى النخاع.

قصارى القول، إن الحق الذي يعطى لشخص كي يعاقب جسدياً إنساناً آخر، إنما هو أحد جراح مجتمعنا، وأقوى وسيلة لقتل روح المواطنة، وهو حق يحمل بذرة الانحطاط الوشيك، الذي لا مفر منه.

إدريس الملياني

القسم الأول

مدخل

في أنحاء سيبيريا، وسط البراري، والجبال أو الغابات الكثيفة غير السالكة، تلوح، من حين إلى آخر، مدن صغيرة، يتراوح تعداد سكانها بين ألف نسمة وألفين على الأكثر، ذات بيوت خشبية، كريهة المنظر، مع كنيستين، إحداهما في المدينة والأخرى في المقبرة. هذه المدن مثل قرية جميلة في ضواحي موسكو، أكثر مما تشبه المدينة بحصر المعنى. وهي، عادة، مزودة إلى درجة كافية، برؤساء شرطة الناحية، وبمحلّفين، وموظفين آخرين مأمورين. وعلى العموم في سيبيريا، بغضّ النظر عن البرد، الخدمة الحكومية في غاية الدفء والحرارة. والناس يعيشون بسطاء، دون أفكار متسامحة، بحسب العادات القديمة، الراسخة، والمكرَّسة عبر القرون. أما الموظفون، الذين يمثِّلون بحقّ دور النبالة السيبيرية، - فهم إما من السكان الأصليين، السيبيريين العريقين، أو الوافدين من روسيا، ومعظمهم من العاصمتين، تحت إغراء الراتب المرتفع، والإعانات المالية المضاعفة التي تُمنح لهم كتعويضات السفر، فضلاً عن آمال أخرى مغرية في المستقبل. الذين يقدِرون على حلّ لغز الحياة يبقون تقريباً دائماً في

سيبيريا وعن طيب خاطر يستقرون فيها نهائياً. وفيما بعد يجنون ثماراً وفيرة ولذيذة. بينما آخرون، من الناس الخفاف العقل، الذين لا يعرفون كيف يتصرّفون، فإنهم سرعان ما يضجرون من سيبيريا ويتساءلون متحسرين: لماذا جاؤوا إليها؟ وبنفاد صبر يمضون السنوات الثلاث، التي هي الفترة القانونية للخدمة، وفور انتهاء تلك المدّة، يلتمسون نقلهم للعودة إلى ديارهم، وهم يشتمون سيبيريا ويتهكّمون عليها. وإنهم في ذلك لمخطئون: لأن سيبيريا أرض الغبطة والسعادة، ليس فيما يتعلق بالخدمة العامة فقط، بل حتى من وجهات نظر أخرى كثيرة. فالمناخ هناك رائع، وثمة كثير من التجار الأثرياء والمضيافين، والموسرون جداً من المدن الأخرى كثيرون. أما بناتها فإنهنّ مزهرات كالورود، وأخلاقهن لا عيب فيها. وفي شوارعها تحوم الطرائد ومن تلقاء نفسها ترتطم بالصيادين. والشامبانيا تشرب بصورة غير طبيعية. والكافيار مدهش. ومحصول الأرض في بعض الأماكن أضعاف ما يبذر فيها بخمس عشرة مرة... وعلى العموم الأرض مباركة. ينبغي فقط أن يعرف المرء كيف ينتفع بها. وفي سيبيريا يحسنون الاستفادة منها.

وفي إحدى تلك المدن الصغيرة، البهيجة والراضية عن نفسها، والتي كانت لي مع سكانها الظرفاء ذكرى لا تُمحى من قلبي، التقيت بألكسندر بيتروفيتش غوريانتشيكوف، المستوطن، الذي كان نبيلاً وملّاكاً في روسيا، ثم حكم عليه بالأشغال الشاقة من الدرجة الثانية، من أجل قتل زوجته، وبعد انقضاء مدة الحكم المحدّدة بعشر سنوات من الأشغال الشاقة، استقر في مدينة ك... الصغيرة تلك، مستوطناً، وديعاً، لا يثير ضجة، ولا انتباه أحد. وفي الحقيقة، كان مسجلاً في

منطقة مجاورة، ولكنه يعيش في مدينة ك. . . حيث كان يستطيع أن يكسب قوته بتلقين دروس خاصة للأطفال. في المدن السيبيرية كثيراً ما يصادف المرء معلمين من المستوطنين المنفيين. لا يحتقرهم الناس، لأنهم يدرّسون اللغة الفرنسية، الضرورية جداً للحياة، ولولاهم لما استطاع أحد أن يعرف منها شيئاً في هذه المناطق السيبيرية النائية. التقيت بألكسندر بيتروفيتش لأول مرة في منزل إيفان إيفانّيتش غفوزديكوف وهو موظف قديم عظيم الاحترام ومضياف وله خمس بنات، مختلفات السن، تُعلّق عليهنّ أجمل الآمال. كان ألكسندر بيتروفيتش يعطيهن دروساً أربع مرات في الأسبوع، لقاء ثلاثين كوبيكاً من الفضة عن كل درس. أثار اهتمامي مظهره. فهو رجل في غاية النحول والشحوب، لا يزال شاباً، في نحو الخامسة والثلاثين من العمر، قصير وضئيل. كان يرتدي دائماً ثياباً نظيفة جداً، من الزيّ الأوروبي. لو دخلت معه في حديث لنَظَر إليك بإمعان نظرة ثاقبة، وأصغى بأدب جمّ إلى كلّ كلمة تتفوه بها، كأنه يتأمل فيها، كما لو أنك تطرح عليه مشكلاً أو تريد أن تنتزع منه سراً، و، أخيراً، يجيبك بوضوح وباختصار، ولكنه قبل ذلك كان يزن كل كلمة من جوابه، بحيث تشعر فجأة لسبب ما بالحرج، وتسرّ أخيراً أنت نفسك بانتهاء الحديث. وفي الوقت نفسه سألت عنه إيفان إيفانّيتش وعلمت أن غوريانتشيكوف يعيش حياة لا غبار عليها، وإلا لما دعاه إيفان إيفانّيتش لتدريس بناته، ولكنه محبّ للعزلة إلى درجة مخيفة، ويهرب من الجميع، ومثقف.للغاية، يقرأ كثيراً، ولكنه يتكلم قليلاً جداً، وعموماً يصعب نوعاً ما الدخول معه في حديث.

كان بعضهم يؤكّد أنه مجنون قطعاً، ولو أنهم في حقيقة الأمر لم

يروا في ذلك عيباً كبيراً وخطيراً، وأن أعيان المدينة مستعدون لمجاملة ألكسندر بيتروفيتش بكلّ الوسائل، لأن في وسعه أن يكون مفيداً عند الحاجة، مثل كتابة العرائض وما إلى ذلك. كان له فيما يُظنّ أقارب من مكانة رفيعة في روسيا وربما حتى من ذوي المناصب العليا، ولكن، كان معلوماً أنه بعد نفيه أصرّ على قطع كل علاقة معهم،- وبكلمة واحدة، لا يضرّ إلا ذاته. زدْ على ذلك أنّ جميع الناس عندنا كانوا يعرفون قصته، ويعلمون أنه قتل زوجته خلال السنة الأولى من زواجه، قتلها بدافع الغيرة وسلّم نفسه إلى القضاء (مما خفّف عنه الحكم كثيراً). مثل هذه الجرائم يُنظر إليها دائماً بمثابة مصائب، تبعث على الشفقة. ولكن، بغض النظر عن كل ذلك، فإن هذا الغريب الأطوار كان يصرّ على الابتعاد عن الناس جميعاً ولا يظهر بينهم إلا لإعطاء الدروس.

في البداية لم أكُن أعيره أي اهتمام خاص، ولكنه، لسبب لا أعرفه أنا نفسي، بدأ شيئاً فشيئاً يسترعي انتباهي. كان فيه شيء ما خفيّ. لم يكن في الحديث معه أدنى إمكانية، طبعاً، كان يجيب دائماً عن أسئلتي، بل كان يعتبر ذلك من واجبه في المقام الأول، ولكنني بعد أجوبته كنت أتضايق بعض الشيء من طرح المزيد من الأسئلة عليه، وعقب كل تلك الأحاديث كان يعلو محياه دوماً نوع من الألم والتعب. أذكر أنني خرجتُ معه ذات مساء صيفي جميل من بيت إيفان إيفانّيتش. فخطر ببالي فجأة أن أدعوه إلى بيتي لحظة لتدخين سيجارة. لا أستطيع وصف الرعب، الذي ارتسم على وجهه، ذهل تماماً، وأخذ يدمدم بكلمات متقطعة، وفجأة، نظر إليّ بحنق ثم انطلق يعدو في الاتجاه المعاكس. دُهشتُ كثيراً. ومنذ ذلك

الحين صار يتوجّس خيفة مني كلما رآني. ولكنني لم أفقد أملاً، لأن شيئاً ما كان يجذبني إليه، وبعد شهر، بلا أي سبب، توجّهت من تلقاء نفسي إلى غوريانتشيكوف. بطبيعة الحال، تصرّفت بحماقة وبطريقة غير لائقة. كان يسكن في أحد أطراف المدينة، عند امرأة عجوز من البرجوازية الصغيرة، كانت لها بنت مصدورة، ولهذه الأخيرة، ابنة غير شرعية، طفلة في نحو العاشرة من عمرها، مليحة ومرحة. كان ألكسندر بيتروفيتش جالساً إلى جانبها، ويعلّمها القراءة في هذه اللحظة. عندما رآني، اضطرب اضطراباً شديداً، كأنني ضبطته متلبّساً بجريمة. ثم انتفض من مقعده، وارتبك كلياً، وحدّق في عينيّ بذهول. وأخيراً جلسنا، وتابع كلّ نظرة من نظراتي بمنتهى الانتباه، كأنّ فيها نية سيئة مبيّتة. فخمّنتُ حينئذٍ أنه مرتاب حتى الجنون. كان يحدق فيّ بحقد، ويكاد أن يطلب مني: «هلّا خرجت سريعاً من هنا؟» كنت أحدثه عن مدينتنا الصغيرة، وعن الأنباء الشائعة، غير أنه ظلّ صامتاً يبتسم بحنق، وبدا لي أنه لا يجهل فقط أخبار المدينة العادية، المعروفة لدى الجميع، ولكن لا يعنيه أن يعرفها أيضاً. وحدّثته بعد ذلك عن منطقتنا، وعن حاجاتها، وهو يصغي إليّ صامتاً ويتفرّس فيّ بنظرة غريبة، بحيث أخذت أخيراً أشعر بوخز الضمير من جرّاء هذا الحديث. على كلّ حال، كدت أن أغضبه إذ عرضت عليه كتبي ومجلاتي الجديدة، التي وصلتني بالبريد حديثاً، وكانت لا تزال بين يديّ، ولم تفضّ بعد. ألقى عليها نظرة نهمة، ولكنه ما لبث أن غيّر نيته فرفض العرض، متعللاً بضيق الوقت. وأخيراً ودّعته وأنا خارجٌ من عنده، أحسستُ بعبء لا يطاق انزاح عن قلبي. كان من العيب عليّ وفي منتهى الحمق أن أضايق

إنساناً، جعل قضيته الأساس بالذات أن يظلّ أبعد ما يمكن عن الناس جميعاً. ولكن ما وقع قد وقع. أذكر أن الكتب لديه تكاد لا تلاحظ تماماً، وبالتالي ليس من الإنصاف ما قيل عنه إنه يقرأ كثيراً. على كلّ حال، عندما مررتُ أمام بيته مرتين، في وقت متأخر جداً من الليل، رأيته مضاء، هل كان يكتب؟ وإذا كان كذلك، ماذا كان يكتب بالضبط؟

أبعدتني الظروف عن مدينتنا ثلاثة أشهر تقريباً، وحين عدتُ إلى بيتي في الشتاء علمتُ أن ألكسندر بيتروفيتش قد مات في الخريف، مات وحيداً ولم يدع إليه ولو مرة أي طبيب. وقد نُسي تقريباً في المدينة. وبقيت شقته فارغة. وعلى الفور تعرفتُ بربّة البيت التي كان يسكن عندها الفقيد، قاصداً تنسّم الأخبار منها: ولا سيما بماذا كان يشتغل المستأجر الراحل، وهل كان يكتب شيئاً؟ ولقاء قطعة نقدية من فئة عشرين كوبيكاً حملت لي سلّة مليئة بالأوراق، التي بقيت بعد الفقيد. واعترفت العجوز بأنها استخدمت دفترين منها. كانت امرأة متجهّمة وواجمة، ومن الصعب انتزاع شيء صالح منها. لم تستطع أن تقول لي شيئاً جديداً عن الرجل الذي كان مقيماً عندها. وبحسب قولها، فإنه لم يكن يعمل شيئاً تقريباً، ويظلّ شهوراً دون أن يفتح كتاباً أو يتناول قلماً، مقابل هذا، كان يتمشى في الغرفة ذهاباً وإياباً ليالي كاملة، ولا يكفّ عن التفكير في شيء ما، وأحياناً يتكلم مع نفسه، وأنه كان يحب ويداعب كثيراً حفيدتها، كاتيا، ولا سيما منذ عَلِمَ أنّ اسمها كاتيا، وفي عيد القديسة كاتيرين كان يذهب كل مرة لإقامة القدّاس على روح شخص ما. لم يكن يستطيع احتمال الضيوف، ولا يخرج إلا لإعطاء بعض الدروس للأطفال، بل إنه كان ينظر شزراً

حتى إلى صاحبة البيت العجوز، عندما كانت تأتي، مرة كل أسبوع، لتنظيف غرفته وترتيبها ولو قليلاً جداً، وخلال السنوات الثلاث، التي كان مقيماً عندها، لم يوجّه إليها كلمة تقريباً. سألت كاتيا: هل تتذكر أستاذها؟ فنظرت إليّ في صمت، وأشاحت بوجهها نحو الجدار وأخذت تبكي. وهكذا استطاع إذن هذا الإنسان أن يجعل شخصاً ما على الأقل يحبه!

مضيت بأوراقه وأمضيت اليوم كله في مراجعتها. ثلاثة أرباع هذه الأوراق كانت عديمة الجدوى، قصاصات لا أهمية لها أو تمارين تلاميذ مع مثال للخط. ولكن، ما لبثت أن عثرت تواً على دفتر كبير الحجم إلى حد ما مغطى بكتابة دقيقة الخط وغير مكتمل، ربما، أهمله أو نسيه كاتبه ذاته. إنه سرد، وإن كان غير مترابط، للسنوات العشر التي قضاها ألكسندر بيتروفيتش في سجن الأشغال الشاقة.

وفي بعض الأمكنة كان هذا السرد متقطّعاً بقصة أخرى، وذكريات غريبة ورهيبة، متناثرة بصورة مضطربة ومتشنجة، كأنها منتزعة من الكاتب قسراً. أعدت قراءة هذه المقاطع عدة مرات وتيقَّنت تقريباً بأنها مكتوبة في لحظات جنون. ولكن مذكرات الأشغال الشاقة هذه - التي دوَّنها وعنونها هو نفسه في مخطوطته بـ«مشاهد من البيت الميت»، بدت لي غير خالية من المتعة والمنفعة. عالم جديد تماماً، غير معروف حتى الآن، غرابة وقائع أخرى، بعض الملاحظات الخاصة عن أناس هلكى، شغفت بكل ذلك، فقرأتُ بنوع من الفضول. بطبيعة الحال، يمكن أن أخطئ. وعلى سبيل التجربة أختار أولاً فصلين أو ثلاثة فصول، فليحكم الجمهور . . .

1. البيت الميت

كان سجننا يقع في طرف القلعة، قرب متراسها بالذات. إذا اتفق أن نظرت عبر فروج السياج إلى دنيا الله، لعلك ترى على الأقل شيئاً؟ - لن ترى غير طرف السماء، ومتراس ترابي عالٍ، تكسوه أعشاب طفيلية طويلة، وعلى المتراس ذهاباً وإياباً، وليل نهار، يتمشى الحراس، فتفكر عندئذٍ أنّ سنين كاملة ستمضي، وأنت على هذا النمط بالضبط ستظلّ تنظر من خلال فروج السياج نفسه وترى المتراس نفسه، والحراس أنفسهم، وطرف السماء نفسه، ليست تلك السماء التي فوق السجن، بل سماء أخرى، بعيدة، وحرة.

تصوروا فناء واسعاً طوله مائتا قدم، وعرضه مائة وخمسون قدماً، على شكل مسدس الزوايا والأضلاع غير المنتظمة، يحيط به من كلّ جهة سياج من أوتاد طويلة، مسنّنة من أعلى، مغروزة في الأرض عميقاً، ومسنود أحدها بالآخر ومشدود بعوارض قوية: ذلك هو المحيط الخارجي للسجن. وفي إحدى جهات السياج بوابة كبيرة قوية، مغلقة دائماً، ومحمية دائماً بالحراس ليل نهار، لا تفتح إلا حسب الطلب، من أجل إخراج السجناء إلى العمل.

وخلف هذه البوابة كان يوجد عالم مضيء، حرّ، حيث يعيش الناس طلقاء. ولكن من داخل السياج كان هذا العالم العجيب الغريب يُتصور مثل حكاية خرافية. ولهذا المكان عالمه الخاص، لا يشبه شيئاً، له قوانينه الخاصة، وله أزياؤه، وله عاداته وتقاليده، وثمة بيت ميت حي، وحياة لا شبيه لها في أي مكان، والناس فيه ليس لهم نظير. ذلك هو الركن الخاص الذي أحاول أن أصفه.

حين نجتاز السياج نرى داخله عدّة مبان. وعلى جانبي الفناء الداخلي الفسيح يمتد مبنيان خشبيان طويلان من طبقة واحدة. إنها الثكنات، التي يحتجز فيها السجناء، مقسمين إلى عدّة فئات. وفي آخر الفناء مبنى آخر، يستخدم قبواً للمؤونة ومستودعاً للعربات ومخزناً للغلال في الآن نفسه. وفي وسط الفناء، العاري تماماً، ساحة فسيحة جداً. وهنا بالذات يصطف السجناء. حيث تتمّ مراقبتهم ومناداتهم، ثلاث مرات في اليوم: صباحاً وظهراً ومساء، وأحياناً عدة مرات في النهار، إذا ما ارتاب الحراس أو لم يحسنوا العدّ. وما بين السياج والمباني تبقى مساحة واسعة فارغة، يحب بعض السجناء، الحانقين على المجتمع والمتّصفين بأمزجة سوداء، أن يتنزهوا فيها عندما لا يكون لهم عمل: إذ يجترّون أفكارهم هناك، بعيداً عن الأنظار. كنت عندما ألتقي بهم أثناء نزهاتهم أحبّ أن أتطلّع إلى وجوههم الكالحة والموسومة، وأن أخمن ما يخالجهم من أفكار. أحد السجناء، كان يحب أن يشغل نفسه، في وقت الفراغ، بعدّ أوتاد السياج. كان عددها ألفاً وخمسمائة وتد، عدّها كلها وحفظها عن ظهر قلب. كلّ وتد منها كان يمثل يوماً من أيام الاعتقال، وفي كل يوم كان يسقط من الحساب وتداً، وبهذه الطريقة كان يستطيع أن يعرف بدقّة كم بقي له من الأيام التي عليه أن يقضيها في السجن. وكم كانت فرحته عارمة حين ينتهي من عدّ أوتاد أحد جوانب السياج السداسي الأضلاع: رغم أن عليه أن ينتظر حريته سنوات طويلة، ولكن السجن يعلِّم الصبر. ذات يوم رأيت سجيناً يودّع رفاقه بعد أن أنهى مدة الحكم وأطلق سراحه. كان قد قضى في السجن عشرين عاماً من الأشغال الشاقة. أكثر من سجين كان يتذكر يوم رآه يدخل السجن شاباً، غير مبالٍ، لا يفكّر لا في

جريمته ولا في عقوبته: وهو الآن شيخ أبيض الشعر كئيب الوجه وعبوس. طاف على ثكناتنا الست صامتاً، وكلما دخل إلى ثكنة كان يصلي أمام صورة العذراء، ويحيي رفاقه بعمق راجياً أن لا يحفظوا عنه ذكرى سيئة. أذكر أيضاً حين دُعي مساء إلى المدخل أحد السجناء الذي كان فلاحاً سيبيريّاً ثرياً. قبل ستة أشهر، علم أنّ زوجته تزوجت، أحزنه الخبر كثيراً. وفي ذلك المساء، جاءت إلى السجن، لتعطيه صدقة. تحاوراً دقيقتين وبكياً معاً وافترقا إلى الأبد. رأيت وجه هذا السجين حين عاد إلى الثكنة . . . أجل، في هذا المكان يمكن للإنسان أن يتعلم احتمال كل شيء.

حين كان يُقبل الغسق، كنا ندخل إلى الثكنات، التي نُحبس فيها الليل كله. كان يشقّ عليّ دائماً أن أغادر الفناء إلى الثكنة. لنتصوّر غرفة طويلة، واطئة، وخانقة، وبالكاد تضيئها شموع شحمية باهتة وتنتشر فيها رائحة كريهة تبعث على الغثيان. لا أستطيع أن أعرف الآن كيف عشتُ فيها عشر سنوات كاملة. كان سريري عبارة عن ثلاثة ألواح خشبية: كان هذا مكاني الوحيد الذي أستطيع التصرف فيه. وعلى الأسرة الخشبية نفسها كان يُحشر في الغرفة الواحدة أكثر من ثلاثين رجلاً.

في فصل الشتاء خاصة كنا نسجن باكراً، وكان لا بد من انتظار أربع ساعات على الأقل حتى ينام جميع السجناء، وقبل ذلك - الصخب، اللغط، القهقهة، الشتائم، البخار الكريه، الدخان الخانق، الرؤوس الحليقة، الوجوه الموسومة، الملابس الممزقة، كل ذلك كان يثير التقزز والاشمئزاز. يا للإنسان المعمّر! الإنسان هو الكائن الذي يتعوّد كل شيء. وأظنّ أن هذا أحسن تعريف للإنسان.

كان عددنا مائتين وخمسين سجيناً. وكان هذا العدد ثابتاً تقريباً. إذ لا يكاد يكمل بعض السجناء مدة العقاب حتى يحلّ مجرمون آخرون، وبينهم مَن كان يقضي نحبه في السجن أيضاً. وكان هناك جميع أنواع البشر.

أعتقد أنّ كل حكومة، وكل منطقة في روسيا كان لها من يمثِّلها في السجن. كان هناك أجانب، وحتى بعض المنفيين من جبال القوقاز. وكان هذا العالم كله مقسماً إلى فئات مختلفة، تبعاً لخطورة الجريمة وحسب مدة العقاب. وأغلب الظنّ أنّ كل الجرائم كان لها من يمثِّلها بين السجناء. كان سكان السجن في معظمهم يتألفون من المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة من الفئة المدنية («المحكوم عليهم بشدة»، كما يقول السجناء أنفسهم ببساطة). كانوا مجرمين محرومين تماماً من حقوقهم المدنية، منبوذين من المجتمع، وموسومة وجوههم بالحديد والنار لكي تكون شاهدة باستمرار على عار الجريمة التي اقترفوها. كانوا يُحبسون مدة تتراوح بين ثماني سنوات واثنتي عشرة سنة، وبعد انقضاء مدة الحكم كانوا يُرسلون إلى أحد أقاليم سيبيريا بصفتهم مستوطنين. أما المجرمون من الفئة العسكرية فلم يكونوا يجردون من حقوقهم المدنية، - هذا ما كان معتاداً في السرايا التأديبية الروسية - ولم يكونوا يرسلون إلا فترة قصيرة نسبياً. وبعد انقضاء مدة العقوبة كانوا يعودون من حيث أتوا ويلتحقون جنوداً بكتائب الخط السيبيري. وكثير منهم كانوا يرجعون إلينا سريعاً بسبب جرائم خطيرة، غير أنهم في هذه المرة لا يسجنون إلا عدداً قليلاً من السنين، بل عشرين عاماً على الأقل، ويصبحون عندئذٍ في عداد فئة كانت تسمى «المؤبّدين». ومع ذلك، لم يكن هؤلاء «المؤبّدون»

يجرّدون من حقوقهم. كان يوجد أيضاً صنف آخر كبير العدد يتألف من أسوأ الأشرار، كلهم تقريباً عريقون في الإجرام، وكان يطلق عليهم اسم «القسم الخاص». كان يرسل إلى هناك محكومون من كل أنحاء روسيا. كانوا يعتبرون أنفسهم سجناء مؤبدين، لأن مدة حبسهم لم تكن محدّدة. وكان القانون يقضي بأن تُعطى لهم من الأعمال تضعيفاً وتثليثاً. كانوا يمكثون في السجن إلى أن تباشر في سيبيريا أشدّ الأشغال الشاقة إرهاقاً. «أنتم هنا لستم إلا لمدة محددة، هكذا كانوا يقولون للسجناء الآخرين، أما نحن، فعلى العكس، باقون هنا مدى الحياة». سمعت فيما بعد أن هذا القسم قد ألغي. وأبعد في الوقت نفسه المحكومون المدنيون، كي لا يُحتفظ إلا بالمحكومين العسكريين الذين نظموا في سرية التأديب الوحيدة. الإدارة غيرت طبعاً. وبالتالي، أنا أصف ممارسات زمن آخر وأشياء زالت منذ عهد طويل...

أجل، مضى على ذلك زمن طويل. حتى ليبدو لي كأنه حلم، أذكر يوم دخولي إلى السجن، ذات مساء ديسمبري، عند الغسق. كان السجناء عائدين من الأشغال: ويستعدون للمراقبة. ضابط صف ذو شارب كثيف فتح لي باب هذا البيت الغريب الذي كان عليّ أن أمكث فيه كثيراً من السنوات، وأن أقاسي كثيراً من الانفعالات التي ما كان بوسعي أن أكوّن عنها فكرة حتى تقريبية لو لم أعانِ منها. وهكذا إذاً، هل كان بإمكاني، مثلاً، أن أتصور الألم الموجع والمفزع عندما لا أخلو أبداً إلى نفسي ولو لحظة طوال عشر سنين؟ أثناء العمل تحت الحراسة، وفي الثكنة مع مائتي «رفيق»، أبداً لم أكن وحيداً، أبداً! وما تبقى كان لا بد لي أن أتعوّد عليه.

كان هناك قتلة عن طريق الخطأ، قتلة محترفون، قطاع طرق ورؤساء عصابات، شطّار عاديون، مهرة في إيجاد النقود في جيب العابرين أو اختطاف أي شيء من فوق الطاولة. ومع ذلك كان من الصعب قول لماذا وكيف كان يوجد في السجن بعض السجناء. كل واحد منهم كانت له قصته، الملتبسة والثقيلة، والمضنية مثل غداة السكر. على العموم قلماً كان السجناء يتحدثون عن ماضيهم، الذي لا يحبون أن يحكوه، بل يبذلون جهدهم كي لا يفكروا فيه. من بين رفاقي في القيد عرفت بعض القتلة الذين كانوا في غاية البهجة واللامبالاة بحيث يمكن التأكيد من دون شك أنّ ضمائرهم لم تُشعرهم أبداً بأدنى تأنيب بتاتاً، ولكن توجد وجوه كئيبة أيضاً، ودائماً صامتة تقريباً.

كان من النادر جداً أن يحكي أحد قصته، لأن هذا الفضول لم يكن موضة متَّبعة، أو عادة جارية، ولا حتى مقبولاً. ومع ذلك كان يحدث أحياناً أن يحكي سجين قصة حياته بسبب البطالة لآخر يصغي إليه برباطة جأش وبرودة. لا أحد هنا كان يستطيع أن يثير دهشة آخر. كثيراً ما كانوا يقولون بشيء غريب من الغرور: «إننا أناس متعلمون!». أذكر لصّاً سكران (كان يمكن أن يسكر أحياناً بعض السجناء) روى ذات يوم كيف قتل وشرّح طفلاً عمره خمس سنوات: استماله أولاً بلعبة، ثم أخذه إلى مرأب وهناك فصّله. الثكنة كلها، التي كانت، عادة، تضحك من مزاحه، أطلقت صرخة إجماع واحدة، فاضطرّ اللصّ إلى أن يخرس. وإذا كان السجناء قاطعوه، فليس لأن حكايته أثارت سخطهم، بل لأنه لم يكن الكلام على «ذلك» مقبولاً. يجب أن أقول هنا، إن المعتقلين كانوا على درجة معينة من التعليم.

كان نصفهم، - إنْ لم يكن أكثر - يعرف القراءة والكتابة. أين يمكن أن نجد في روسيا، في أية شريحة اجتماعية، مائة وخمسين رجلاً يعرف نصفهم القراءة والكتابة؟ فيما بعد، سمعت من يقول، مستخلصاً من هذه المعطيات، إنّ التعليم كان يفسد أخلاق الشعب. ليس صحيحاً: التعليم غريب تماماً عن هذا الانحلال الخلقي. مع ذلك يجب الإقرار بأنه كان ينمّي روح العزيمة والإقدام في الشعب. ولكن من المستبعد أن يكون عيباً.

كانت لكل فئة من المسجونين ثياب مختلفة: فئة كانت ترتدي سترة نصف بنية ونصف رمادية، وسراويل إحدى ساقيها بنية والأخرى رمادية. ذات يوم، حين كنا في العمل، اقتربت من السجناء بنت صغيرة كانت تبيع نوعاً من الأرغفة يسمى سميطة (كالاتش) تطلّعت إليّ طويلاً ثم انفجرت ضاحكة وصاحت: «أف! ما أبشع أشكالهم! ليس لهم حتى ما يكفي من جوخ رمادي أو بني لخياطة ثيابهم». سجناء آخرون كانوا يرتدون سترة جوخ ذات لون واحد رمادي، ولكن أكمامها كانت بنية. الرؤوس أيضاً كانت تحلق بأشكال مختلفة: كانت قمة الرأس تحلق تارة طولاً وتارة عرضاً، ومن الرقبة إلى الجبين أو من أذن إلى أذن.

من أول نظرة كان يبدو التشابه الواضح بين أفراد هذه الأسرة الغريبة، حتى الشخصيات البارزة جداً، تلك التي تسيطر دون قصدٍ منها على سجناء آخرين، كانت تبذل جهدها لتتأقلم مع العادات المتبعة في البيت. كل المعتقلين، - باستثناء عدد قليل منهم كانوا يتمتّعون بمرح لا ينتهي، ولذلك، كانوا محطّ احتقار عام، - كانوا مقطّبين، وحسودين، مغرورين جداً، ومعجبين بأنفسهم، سريعي

التأثر، ومفرطين في التمسّك بالشكليات. كانت القيمة الأساسية في نظرهم أن لا يدهش المرء من أي شيء، لذلك كانوا يهتمون كثيراً بحُسن المظهر. ولكن المظهر المتعالي غالباً ما يحلّ محله بسرعة البرق جبن واضح وصريح. ورغم ذلك كان هناك رجال أقوياء حقاً: هؤلاء كانوا طبيعيين وصادقين، ولكن، شيء غريب! كانوا في أغلب الأحيان على جانب كبير من الغرور الزائد عن الحدّ والمرضي. كان الغرور دائماً في المقام الأول. معظم المعتقلين كانت أخلاقهم فاسدة ومنحلة، كما كانت النميمة والثرثرة تنهمر مدراراً.

كانت حياتنا جحيماً لا تُطاق.

ولكن أحداً لم يجرؤ على رفع صوته احتجاجاً على أنظمة السجن الداخلية والعادات المقبولة، التي يخضعون لها طوعاً أو كرهاً.

بعض الطِّباع الشرسة لم تكن تذعن إلا بصعوبة، ولكنها كانت تستسلم على أيّة حال.

إنّ بعض السجناء، الذين كانوا، وهم بعد أحرار، قد تجاوزوا كل الحدود، ومدفوعين غالباً بغرورهم الأهوج إلى ارتكاب جرائم فظيعة، لا شعورياً، كما لو كانوا في حالة هذيان، والذين أرعبوا مدناً بأسرها، كان نظام سجننا يروِّضهم خلال مدة قصيرة. والوافد «الجديد» الذي كان يحاول الانقياد سرعان ما يلاحظ أنه هنا لن يدهش أحداً، فيرضخ شيئاً فشيئاً، ويتأقلم مع الجوّ العام، ويتخذ نوعاً من الوقار الشخصي، الذي يقتنع به تقريباً كل سجين، تماماً كما لو كانت تسمية السجين عنواناً للشرف.

ومع ذلك لا وجود لأيّة علامة من علامات الخجل أو الندم، ولكنّ نوعاً من الخضوع الخارجي، الرسمي إذا صحّ القول، هو الذي

كان يعلّل السلوك المتبع. كانوا يقولون: «نحن أناس ضائعون، لم نعرف كيف نعيش أحراراً، الآن علينا أن نجتاز بكل قوانا «الشارع الأخضر» وأن نحصى ونُعدّ مراراً وتكراراً كالبهائم» «لم تشأ أن تطيع أباك وأمك، فأطِع الآن جلد الطبل» «مَن لم يودّ أن يوشي بالذهب، فليكسر الآن الحجر بالمطرقة» كل ذلك كان يُقال ويُعاد قوله غالباً على سبيل العبرة والموعظة، وبمثابة الحكم والأمثال، ولكن دون أن تحمل على محمل الجدّ. لم تكن سوى كلمات تطلق في الهواء. وهل كان هناك أحد يعترف بإثمه؟ ما إن يحاول غريب، لا سجين، أن يلوم أحد السجناء على جريمته أو أن يسبّه حتى تنهمر الشتائم من كلّ جهة دون نهاية. وما أرهف السجناء في ما يتعلق بالشتائم! إنهم يشتمون برقّة، وهم في ذلك فنانون. كانت الشتيمة علماً حقيقياً، لم يكونوا يسعون إلى أن يهينوا باللفظ، بل بالمعنى، الذي هو روح الجملة المسمومة. وكانت مشاجراتهم التي لا تنقطع تساهم كثيراً في تنمية هذا الفنّ الخاص.

وبما أنهم لم يكونوا يعملون إلا تحت التهديد بالعصا، فقد كانوا كسالى وفاسدين. والذين لم يكونوا فاسدين عند وصولهم إلى سجن الأشغال الشاقة، فإنهم يفسدون فيه سريعاً. ولمّا كانوا، مجتمعين رغم أنفهم، فقد كانوا غرباء بعضهم عن بعض.

كانوا يقولون: «إن الشيطان أبلى ثلاثة أزواج من الأحذية قبل أن يجمعنا». الدسائس، والوشايات، والثرثرة، والحسد، والمشاجرات، كل ذلك كان يحتلّ المقام الأول في هذه الحياة التي كنّا نعيشها جحيماً. لا لغة بذيئة تبزّ هؤلاء القتلة، الذين لا تفارق الشتيمة أفواههم.

كما قلت سابقاً، كان يوجد بينهم رجال قُدّ طبعهم من فولاذ، أقوياء وشجعان، ومتعودون على التحكم في سلوكهم. هؤلاء كان الآخرون يحترمونهم دون قصد منهم، ورغم غيرتهم على سمعتهم كانوا يحاولون أن لا يسيطروا على أحد، ولم يكونوا يتشاتمون أبداً دون سبب، وكان سلوكهم من جميع الوجوه مفعماً بالكرامة، كانوا متعقلين ومطيعين تقريباً دائماً، ليس عن مبدأ، أو شعوراً بالواجب، بل بمثابة اتفاق بينهم وبين الإدارة، وهو وفاق كانوا جميعاً يدركون مزاياه. ومع ذلك كانت المعاملة معهم بحذر.

أذكر أنّ سجيناً جريئاً ومقداماً، ومعروفاً بميوله الوحشية، استدعُي ذات يوم لكي يُجلَد. كان ذلك أثناء الصيف، ولم يكن أحد يعمل. كان الضابط، الرئيس المباشر المسؤول عن السجن قد وصل إلى مركز الحراسة، الذي كان يوجد بجانب الباب الكبير، لحضور تنفيذ العقاب. كان هذا الضابط، الماجور، كائناً مشؤوماً بالنسبة إلى السجناء، الذين جعلهم يرتجفون أمامه خوفاً. كان قاسياً إلى حدّ فقدان الرشد والصواب، كان «ينزل» عليهم، حسب تعبيرهم: ولكن نظرته الثاقبة مثل نظرة الفهد، هي التي كانت تُرعبهم بشكل خاص. كان من المستحيل إخفاء أي شيء عنه. كان يرى، تقريباً، حتى دون أن ينظر. كان متى دخل إلى السجن، يعلم قبلاً ما كان يجري في أقصى الطرف الآخر من السور. لذلك كان السجناء يلقّبونه «بالرجل ذي العيون الثماني». كان أسلوبه سيئاً، لأنه لم يؤدّ إلا إلى إثارة هؤلاء الناس الحانقين أصلاً، ولولا الضابط القائد، المهذب كثيراً والعاقل، الذي كان يخفّف من الطلعات المتوحّشة للماجور، لأحدث هذا الأخير كثيراً من المصائب بسبب إدارته السيئة. لا أفهم كيف

استطاع أن يتقاعد سليماً ومعافى، صحيح أنه ترك الخدمة بعدما قدِّم للمحاكمة.

امتقع لون وجه السجين حين نودي. عادة، كان يستلقي أرضاً بشجاعة، ودون أن ينبس ببنت شفة، ليتلقى ضربات السوط الرهيبة، وبعدها، كان ينهض وهو ينفض جسمه. كان يتحمّل هذا العذاب بهدوء، كفيلسوف. صحيح أنه لم يكن يعاقَب إلا لذنب جناه، وبكل أنواع الحيطة والحذر، لكنه في هذه المرة، كان يعتبر نفسه بريئاً. امتقع لون وجهه، واستطاع وهو يدنو برفق من جنود الحرس، أن يدسّ في كمّه شفرة إسكاف. ومع ذلك كان ممنوعاً على السجناء منعاً باتاً أن يمتلكوا آلات حادة كالسكاكين وغيرها. وكانت عمليات التفتيش المتكررة، والمباغتة، تجري بكثير من التدقيق، وكل مخالفة لهذا النظام كانت تعاقب بقسوة شديدة، ولكن لما كان من الصعب أن يُنتزع من مجرم ما يريد أن يخفيه، وبما أن الآلات الحادة كانت موجودة في السجن بالضرورة، فإنها لم تكن تنعدم فيه أبداً. وإذا اتفق أن صودرت من السجناء، فإنهم سرعان ما كانوا يحصلون على أخرى جديدة. اندفع جميع السجناء نحو السياج، خافقي الأفئدة، لمشاهدة ما يجري من خلال فروج السياج. كانوا يعرفون أن بيتروف سيرفض في هذه المرة أن يستسلم للجَلد وأن نهاية الماجور حانت. ولكن في اللحظة الحاسمة ركب هذا الأخير عربته وذهب، بعد أن عهد إلى الضابط المأمور بتنفيذ العقوبة: «نجاه الله!» هكذا علّق فيما بعد السجناء. أما بيتروف، فتحمّل عقابه بهدوء حالما انصرف الماجور، كان قد خفّ غضبه. إنّ السجين يخضع ويُطيع إلى حدٍّ ما، ولكن هناك حدود لا ينبغي تجاوزها. لا شيء يثير العجب أكثر من ذلك

الفوران الغريب من الغضب العنيف والتمرّد والعصيان. كثيراً ما نرى رجلاً تحمّل طوال سنين أقسى العقوبات، يثور من أجل ترهة وتفاهة. حتى ليمكن القول إنه مجنون . . . وهذا ما كان يقع على كل حال.

سبق لي أن قلت إنني لم ألاحظ طوال سنوات أدنى علامة للندامة، ولا أي قلق من الجريمة المرتكبة، وإن معظم السجناء كانوا يعتقدون في قرارة نفوسهم أنّ من حقهم أن يتصرّفوا كما يروق لهم. ولا شك أن الغرور، والقدوة السيئة، والتباهي، أو الخجل الزائف، من شيم نفوس كثيرة. ومن جهة أخرى، من يستطيع القول إنه سبر غور هذه القلوب المستسلمة للضياع، فوجدها مغلقة دون كل ضياء؟ الواقع أنه كان يمكنني خلال عدة سنوات أن ألتقط بعض العلامات، ولو عابرة، تدلّ على أسف أو ندم أو تأنيب ضمير. إلا أنني لم ألاحظ شيئاً من ذلك على الإطلاق. لا يمكن الحكم على الجريمة بآراء جاهزة، وفلسفتها أعقد قليلاً مما يظن. ومن المؤكد أنّ المجرم لا تُصلحه سجون ولا معتقلات ولا أشغال شاقة، فهذه العقوبات لا تستطيع إلا أن توقِع به القصاص وأن تُسكن روع المجتمع من الجرائم التي يمكن أن يرتكبها. وليس في وسع الاعتقالات والأشغال المرهقة إلا أن تفاقم في هؤلاء الرجال الحقد العميق، والعطش إلى الملذّات المحرّمة والاستهتار الفظيع. ومن جهة ثانية، أنا على يقين من أنّ النظام الشهير للسجن الانفرادي لا يحقّق سوى غرض ظاهري وخادع. فهو يبتزّ من المجرم كلّ قوته وطاقته، ويثير حفيظة نفسه، فيضعفها ويخيفها، وأخيراً يخرج مومياء جافة وشبه مجنونة كمثال على الإصلاح والتوبة.

إنّ المجرم الذي تمرد على المجتمع، يكرهه ويعتبر نفسه دائماً

على حق: المجتمع في نظره مخطئ، أما هو فلا. وفضلاً عن ذلك ألمْ ينل عقابه؟ وهو بالتالي يرى نفسه بريئاً. ورغم اختلاف الآراء، فكلّ إنسان يعترف بأن هناك جرائم في كل مكان وزمان، وتقرّ جميع الأنظمة والشرائع والقوانين بأنها ستظل جرائم لا جدال فيها، وسوف ينظر إليها كذلك ما دام الإنسان إنساناً. لم أسمع إلا في السجن من يحكي وهو يضحك مثل طفل ولا يكاد يمسك نفسه عن الضحك، أشدّ قصص الجرائم غرابة وفظاعة. ولن أنسى أبداً قصة الابن الذي قتل أباه، كان سابقاً موظفاً ومن طبقة النبلاء. إنه السبب في شقاء أبيه. ابن مبذر حقيقي. وعبثاً حاول الأب العجوز أن يقيه بالتحذيرات والإنذارات من الوقوع في الهاوية القاتلة التي كان ينزلق إليها. ولما كان مثقلاً بالديون، ويظن أن أباه يملك - فضلاً عن المزرعة - مالاً يخفيه، فقد عمد إلى قتله ليضع يده بسرعة على تركته. لم تُكتشف هذه الجريمة إلا بعد شهر. وفي غضون ذلك استمرّ القاتل، الذي أبلغ القضاء مع ذلك باختفاء أبيه، على أخلاقه الفاجرة. وأخيراً، اكتشفت الشرطة، أثناء غيابه، جثة العجوز في قناة بالوعة مغطاة بألواح خشبية. كان الرأس الأشيب مفصولاً عن الرقبة، ومسنداً إلى الجسم، الكاسي تماماً، وتحت الرأس وضع القاتل وسادة كما على سبيل السخرية. لم يقرّ الشابّ بشيء: غير أنه جرِّد من رتبته العسكرية، وانتُزعت منه امتيازات النبالة، وأرسِل إلى الأشغال الشاقة لمدة عشرين سنة. طوال المدة التي عرفته فيها، رأيته دائماً خليّ البال. لم ألتقِ شخصاً أكثر منه طيشاً وتهوّراً، رغم أنه ليس غبياً تماماً. ولم ألاحظ فيه يوماً فظاظة مفرطة. كان السجناء الآخرون يحتقرونه، ليس بسبب جريمته، التي لم تكن مطروحة أبداً، بل لأنه

كان يعوزه حسن اللياقة. كان يتكلم أحياناً عن أبيه. وهكذا ذات يوم، بينما كان يمتدح البنية القوية الوراثية في أسرته، أردف قائلاً: «خذوا، «أبي»، مثلاً، حتى وفاته»، لم يمرض قط». إن مثل هذا الإحساس البليد الشديد البلادة يبدو أمراً مستحيلاً. إنه ظاهرة شاذّة إلى أبعد الحدود، ولا بد أن يكون ثمة خلل عضوي، وتشوه ما بدني وخلقي لم يكتشفه العلم بعد، وليس مجرّد جريمة. لم أصدق طبعاً وقوع مثل هذه الجريمة الوحشية، لكنّ أناساً من مدينته، كانوا يعرفون تفاصيل قصته، قد حكوها لي. وكانت الوقائع في غاية الوضوح، بحيث يستحيل أن لا تصدق. وسمعه السجناء يصيح ذات مرة، أثناء نومه: «أمسكه! أمسكه! اقطع رأسه! الرأس! الرأس!».

كل السجناء تقريباً كانوا يحلمون بصوت مرتفع، أو يهذون أثناء نومهم، وكثيراً ما كانت تردُ في أحلامهم كلمات الشتم، وألفاظ اللصوص، وأسماء الخناجر والفؤوس. كانوا يقولون: «نحن أناس محطّمون، ليس لنا أحشاء، لذلك نصرخ في الليل».

إن الأشغال الشاقة في قلعتنا لم تكن عملاً، بل كانت فرضاً: كان السجناء يؤدّون مهمتهم أو يعملون عدداً من الساعات محدداً بالقانون، ثم يعودون إلى السجن. ومع ذلك كان لهم هذا العمل الكريه. ولو لم يكن للسجين عمل شخصي يُقبل عليه طواعية واختياراً بكلّ ما لديه من ذكاء، لاستحال عليه احتمال حياة الاعتقال. كيف يمكن لهؤلاء الرجال، الذين لهم كلهم طبيعة قاسية، الذين عاشوا حياة طويلة وما زالوا يريدون أن يعيشوا، الذين اجتمعوا دون إرادتهم، بعد أن نبذهم المجتمع، هل كان بإمكانهم أن يعيشوا بطريقة عادية وطبيعية؟

وحده الكسل ينمي لدى السجين أعتى الميول الإجرامية، حتى تلك التي لم تخطر له على بال.

لا يستطيع الإنسان أن يوجد دون عمل، ودون ملكية شرعية وطبيعية، وخارج هذه الشروط تفسد أخلاقه ويتحوّل إلى وحش كاسر. لذلك كانت لكل سجين، عندنا، بحكم الضرورة الطبيعية جداً، وغريزة حفظ البقاء، مهنة، أو أية مشغلة. كانت أيام الصيف الطويلة تمضي كلها تقريباً في الأشغال الشاقة، بينما كان الليل قصيراً بالكاد يكفي للنوم. ولم يكن الأمر كذلك في الشتاء، إذ كان على المساجين، حسب القوانين، أن يحبسوا في الثكنة، عند حلول الليل. فماذا عسى أن يفعلوا خلال الأمسيات الطويلة الحزينة، غير أن يعملوا؟ لذلك كانت كل ثكنة، رغم أنها مغلقة بالمزلاج، تتخذ مظهر ورشة كبيرة. في الواقع، لم يكن العمل ممنوعاً، بل كان محظوراً امتلاك آلات، من المستحيل العمل بدونها. كان السجناء يعملون خفية، وكانت الإدارة، فيما يبدو، تغضّ الطرف عن ذلك. كثير من المعتقلين جاؤوا إلى السجن دون أن يعرفوا عمل شيء بأصابعهم العشرة، فإذا بهم يتعلمون من رفاقهم حرفة، وحين خرجوا من السجن، صاروا عمالاً مهرة. كان هناك أساكفة، وحذّاؤون، وخياطون، ونجارون، وحدادون، وعمال التذهيب. وكان بينهم حتى يهودي، اسمه إشعيا بومشتاين، يعمل صائغاً ومرابياً في الوقت نفسه. جميع السجناء كانوا يعملون ويكسبون بعض الكوبيكات، لأن كثيراً من الطلبات كانت تأتي إليهم من المدينة. إنّ المال حرية رنانة وراجحة، لا تقدَّر بثمن بالنسبة إلى إنسان حُرم حرماناً كاملاً من الحرية الحقيقية. إذا أحسّ ببعض المال في جيبه، فإنه يتعزّى عن

حاله، حتى ولو لم يستطع أن ينفقه. ولكنّ المال يمكن إنفاقه دائماً وفي كل مكان، لا سيما وأن الفاكهة المحرّمة أحلى مرتين. ويمكن الحصول على الفودكا حتى داخل السجن. ورغم أن الغلايين كانت ممنوعة منعاً قاطعاً فإنّ السجناء جميعاً كانوا يدخّنون. كان المال والتبغ يحميان السجناء من الإصابة بداء الحفَر «إسقربوط» (تسينغا بالروسي وبالفرنسي scorbut) ومن أمراض أخرى. كما كان العمل ينقذهم من الجريمة: ولولا العمل لخرب السجناء بعضهم بعضاً، كعناكب مسجونة في إناء من زجاج. ورغم ذلك، كان العمل والمال معاً محظورين. وكثيراً ما كانت الإدارة تقوم ليلاً بحملات تفتيش مفاجئة، فتصادر كل ما لا يَسمح باقتنائه القانون. ومهما برع السجناء في إخفاء الأشياء فإنّ أيادي رجال التحري كانت تقع عليها أحياناً. لذلك لم يكونوا يحفظونها زمناً طويلاً، بل يقايضونها سريعاً بأشياء أخرى، كالخمر، ممّا يفسّر كيف كانت هذه تدخل إلى السجن. وبعد كلّ تفتيش كان المجرم المذنب لا يُحرم من ماله فحسب، بل كان فضلاً عن ذلك يعاقب كالعادة عقاباً أليماً.

لا يكاد يمرّ وقت قصير على كلّ حملة تفتيش حتى كان السجناء يحصلون من جديد على أدوات أخرى مثل تلك التي صودرَت منهم، ويعود كلّ شيء إلى ما كان عليه. كانت الإدارة تعرف ذلك، ورغم أنّ ظروف المعتقلين كانت أشبه بظروف سكان بركان فيزوف، فلم يكن أحد منهم يهمس أو ينبس أبداً بأدنى كلمة ضد العقوبات المفروضة عليهم من أجل تلك الزلات.

ومَن لم تكن له صناعة يدوية، كان يتاجر بطريقة ما. وكانت معاملات الشراء والبيع في غاية الطرافة. كان بعضهم يهتمّ بشراء

أمتعة مستعملة رديئة، وأحياناً كان يعيد بيع أشياء لم يفكِّر أحد غير سجين في أن يبيعها أو يشتريها، ولا حتى أن يعتبرها ذات قيمة ما. ومع ذلك كان لأدنى خرقة ثمنها ويمكنها أن تفيد أيضاً. وتبعاً لفقر السجناء أنفسهم، كان المال يَكتسب قيمة أعلى من قيمته في الواقع. إن أشغالاً شاقة وطويلة، وفي غاية التعقيد أحياناً، لم يكن يؤدى عنها إلا كوبيكات قليلة. بعض السجناء كانوا يقرضون لمدة أسبوع، ويجنون من ذلك ربحاً. كان السجين المبذّر أو المفلس يحمل إلى المرابي الأشياء القليلة التي يملكها ويرهنها عنده لاقتراض مبالغ ضئيلة مقابل فائدة فاحشة. وإذا لم يستردها بتسديد الدين في الموعد المحدَّد، كان المرابي يبيعها في المزاد العلني دونما رحمة ولا إبطاء. كان الربا مزدهراً في سجننا إلى حدّ أنه كانت ترهن حتى الأشياء التابعة للدولة: كالملابس والأحذية أو غيرها من الأشياء التي لا غنى عنها في أية لحظة. عندما كان الدائن يقبل مثل هذه الوديعة، فإن الأمور كانت كثيراً ما تتخذ مجرى غير متوقع: إذ كان صاحب الأمتعة يمضي فوراً بعد أن يقبض ماله إلى ضابط الصف (رئيس حراسة السجن) فيخبره بإخفاء الأمتعة التابعة للدولة، فتنتزع عندئذٍ من المرابي، حتى دون أن يرى أحد أيّ داعٍ لرفع الأمر إلى الإدارة العليا. ولكن لم يكن يحدث أي شجار - وهذا أغرب ما في الأمر - بين المرابي وصاحب المتاع، فكان الأول يردّ الأغراض المطلوبة صامتاً ومقطباً وكئيباً، كأنه كان يتوقع ذلك منذ زمن طويل. وربما كان يقرّ على نفسه بأنه لو كان مكان المدين لتصرّف مثله، لذلك، إذا ما تشاتما بعد هذه المصادرة، فليس عن حقد، بل لإرضاء الضمير ليس إلا.

كان السجناء يسرقون بعضهم بعضاً بلا حياء. كان لكلّ سجين صندوق صغير، مع قفل، يخبئ فيه الأشياء التي تسلمها له الإدارة. ورغم السماح باستعمال هذه الصناديق، فإن ذلك لم يمنع السرقات على الإطلاق. ويستطيع القارئ أن يتصور بسهولة أي لصوص بارعين كانوا بيننا. أحد السجناء، الذي كان مخلصاً لي، - أقول هذا دون ادّعاء - سرق مني كتابي المقدس، وهو الكتاب الوحيد الذي كان مسموحاً به في السجن، وفي اليوم نفسه، اعترف لي بذلك، ليس ندماً، إنما شفقة عليّ، لأنه رآني أبحث عنه مدة طويلة. كان في عداد رفاقنا في القيد عدّة سجناء يسمون «خمارين» كانوا يبيعون الفودكا، ويغتنون نسبياً من هذه المهنة. سأتحدث عنها فيما بعد، لأن هذه التجارة في غاية الغرابة، فينبغي التوقف عليها قليلاً. عدد كبير من المساجين اعتقلوا بسبب التهريب، مما يفسّر كيف كان يمكن أن تنقل الفودكا سرّاً إلى السجن، رغم المراقبة التي كانت عندنا في غاية الصرامة، والمرافقة التي لا مفرّ منها. ومن الجدير بالذكر عبوراً أنّ التهريب جريمة مستقلة. هل يمكن لامرئ أن يتصوّر أن المال، والربح الحقيقي من هذه التجارة، ليس لهما غالباً إلّا أهمية ثانوية بالنسبة إلى المهرّب؟ ومع ذلك هذا هو الواقع. إنه «يعمل» بموهبة: وهو في فنّه شاعر. إنه يجازف بكلّ ما يملك، ويعرِّض نفسه لمخاطر رهيبة، يمكر، يبتكر، يتخلص، يتدبّر أمره، ويتصرف في بعض الأحيان حتى بنوع من الإلهام. إن هذا الهوى عنيف مثل هوى القمار.

عرفت معتقلاً ضخم القامة، كان إنساناً وديعاً وهادئاً ومذعناً أكثر من جميع من رأيت. ويتساءل المرء كيف أمكن أن يسجن هذا

الرجل: الذي كان طبعه لطيفاً، وألوفاً، بحيث إنه لم يتشاجر مع أي أحد، طوال المدة التي قضاها في السجن. كان من روسيا الغربية، ويسكن على الحدود، وقد أرسل إلى الأشغال الشاقة بسبب التهريب.

وبطبيعة الحال لم يستطِع كبح الرغبة في حمل ماء الحياة إلى السجن. وكم من مرّة عوقب على ذلك، ويعلم الله كم كان يخاف من الجَلد! هذه المهنة الخطيرة جداً لم تكن تدرّ عليه إلا ربحاً زهيداً: إذ كان المقاول هو الذي يغتني على حسابه. كان كلما عوقب يبكي كامرأة عجوز ويقسم أغلظ الأيمان على أن لا يعود إلى هذا العمل. كان يبرّ بقسمه شهراً، ولكنه كان ينساق مع هواه من جديد. . . وبفضل هواة التهريب هؤلاء لم يخلُ السجن يوماً من ماء الحياة.

كان ثمة مورد آخر، وإن لم يكن يغني السجناء، ولكنه ثابت ونافع لهم، هو مورد الصدقة. إن الطبقات الراقية في مجتمعنا الروسي لا تعرف مدى عناية التجار، والبرجوازيين الصغار وشعبنا على العموم بـ«المساكين». لم تنعدم الصدقة يوماً وكانت دوماً تتكون من سميطة «كالاتش» وهي أرغفة خبز صغيرة بيضاء، ومن مال أحياناً، - ولكن نادراً جداً، - ولولا الصدقات، لكانت حياة السجناء، ولا سيما حياة أولئك المحبوسين، الذين كانت تغذيتهم سيئة للغاية، حياة أشدّ عناء. كانت الصدقة تقسَّم بالتساوي بين جميع السجناء. وإذا لم تكن الصدقة كافية، كانت السميطة «كالاتش» تُشطَر نصفين وفي بعض الأحيان كانت تُكسر ست كسرات، حتى ينال كل سجين نصيبه منها.

أذكر صدقتي الأولى، التي تلقيتها - قطعة نقدية صغيرة، - بعد وصولي بوقت قصير، ذات صباح، بينما كنت عائداً من العمل وحدي

مع أحد الحرس، التقيتُ بأم وابنتها، التي كانت طفلة في العاشرة من عمرها، وجميلة كملاك. سبق لي أن رأيتهما مرة من قبل. (كانت الأم أرملة جندي مسكين، حين كان لا يزال شاباً، حوكم أمام مجلس حربي ومات في عيادة السجن، أثناء وجودي فيها. لقد بكتا بكاء حاراً حين جاءتا معاً لإلقاء آخر نظرة عليه.) لمّا رأتني الطفلة احمرّت وجنتاها وهمست ببعض الكلمات في أذن أمها، التي توقّفت وتناولت من سلة ربع كوبيك وسلّمته إلى البنت الصغيرة. فركضت البنت نحوي وقالت لي:

- خذ، أيها المسكين، خذ هذا الكوبيك الصغير، باسم يسوع المسيح!

وأخذت القطعة النقدية التي دستها في يدي.

ورجعت البنت الصغيرة نحو أمها في غاية الفرح.

احتفظت زمناً طويلاً، بذلك الكوبيك الصغير!

2. الإحساسات الأولى

الأسابيع الأولى وعلى العموم بدايات حياتي في السجن تتمثَّل حية لمخيلتي الآن. وبالعكس، الأعوام التالية تلاشت ولم تترك في نفسي سوى ذكرى غامضة. حتى أن بعض المراحل من هذه الحياة امحت من ذاكرتي تماماً، ولم أحتفظ منها إلا بإحساس وحيد، هو نفسه دائماً، بأنها شاقة، رتيبة، وخانقة.

ولكن كل ما رأيته وخبرته خلال هذه الأوقات الأولى من سجني، يبدو لي كأنه حدث بالأمس. وكان ينبغي أن يكون الأمر كذلك.

أذكر بوضوح، منذ خطوتي الأولى في هذه الحياة، أن ما أدهشني بالأخص هو أنني لم أجد فيها شيئاً مدهشاً، وخارقاً، أو بعبارة أوضح، غير متوقع. كل هذا لاحَ من قبل أمامي في خيالي، عندما كنت أحاول، وأنا ذاهبٌ إلى سيبيريا، أن أخمن مقدّماً مصيري. ولكن هوة الوقائع المفاجئة الأغرب والأفظع سرعان ما بدأت تستوقفني في كلّ خطوة. وفيما بعد، فقط، لما عشت في السجن وقتاً طويلاً كافياً، فهمت تماماً كل ما في مثل هذه الحياة من أمور استثنائية وغير متوقعة، فاستغربتُ من ذلك أكثر فأكثر. وأعترف، أنّ هذا الاستغراب رافقني طوال المدة التي قضيتها في سجن الأشغال الشاقة، ولم أستطع أن أتصالح مع هذه الحياة أبداً.

أحسستُ، قبل كل شيء، باشمئزاز لا يُقهر، حين وصولي إلى السجن، لكن، شيء غريب! الحياة فيه بدت لي أقل مشقة ممّا لم أكن أتصور خلال الطريق.

وبالفعل، كان السجناء، رغم ضيقهم بقيودهم، يذهبون ويجيئون في السجن بحرية، كانوا يتشاتمون، ويغنون، ويعملون لأنفسهم، ويدخنون الغليون ويشربون حتى الخمر (رغم أن الشاربين كانوا قليلين جداً) وفي الليل يقيم بعضهم مباريات للقمار في لعبة الورق وفق الأصول. الأشغال نفسها، على سبيل المثال، لم تبدُ لي البتة صعبة جداً، لم تكن «شاقة» للغاية. ولم أخمن إلا بعد مدة طويلة أن صعوبة و«مشقة» هذه الأعمال ليست في عسرها واستمرارها، بل لأنها «إجبارية»، وإلزامية، وتؤدى رهبة لا رغبة.

لا شك أنّ الفلاح يعمل أكثر من السجين، لأنه يكدّ في الصيف ليل نهار، لكنه يكلّ من أجل مصلحته، فهدفه معقول، لذلك لا

يقاسي ما يعانيه المحكوم عليه الذي يقوم بعمل إجباري لا يجني منه أية فائدة.

خطر ببالي ذات يوم أنه إذا أريد إهلاك إنسان، ومعاقبته بفظاعة، وسحقه سحقاً شديداً، حدّ أن يرتجف أمام هذا العقاب ويرتاع منه سلفاً حتى أعتى القتلة، يكفي أن تضفى على عمله صفة عدم الجدوى تماماً، لا، بل العبثية. إن الأعمال الشاقة كما هي واقعاً لا تنطوي على أية فائدة للسجناء، ولكن لديهم على الأقل مسوّغ للوجود: فالسجين يصنع لبنات، يحفر الأرض، يطيّن الحائط، يبني، ولكلّ هذه المشاغل معنى وهدف، بل إن السجين قد يهتمّ أحياناً بما يعمل. ويريد عندئذٍ أن يشتغل بكثير من البراعة والمنفعة، لكن إذا أجبر، مثلاً، على نقل الماء من برميل إلى آخر، والعكس بالعكس، وعلى تفتيت الرمل، أو على نقل كومة تراب من مكان إلى آخر، والعكس بالعكس أيضاً، فأنا على يقين أنّ السجين سيشنق نفسه بعد بضعة أيام، أو سيرتكب ألف جريمة تستوجب عقوبة الإعدام، بدلاً من العيش في مثل هذا الهوان وهذا العذاب. وغني عن البيان أنّ عقاباً كهذا سيكون تعذيباً فظيعاً، وانتقاماً مريعاً، أكثر ممّا هو إصلاح، سيكون عبثياً، لأنه لا يحقّق أي هدف محسوس.

وعلى كلّ حال لم أصل إلى السجن إلا في فصل الشتاء، في شهر كانون الأول/ ديسمبر، كانت الأشغال قليلة الأهمية في قلعتنا. ولم تكن لي أيّة فكرة عن عمل الصيف، الذي كان خمس مرات أشدّ إرهاقاً. كان السجناء خلال الفصل القاسي يهدمون على ضفة نهر إيرتيش زوارق قديمة تابعة للدولة، يعملون في الأوراش، يجرفون الثلج المكدّس بالعواصف فوق المباني، أو يحرقون ويدقون

الجبس. . . إلخ. وبما أن النهار كان قصيراً جداً، كان العمل يتوقف باكراً، ويرجع الجميع إلى السجن، حيث لا يعملون شيئاً تقريباً، سوى العمل الإضافي الذي ابتدعه السجناء.

ربما كان الثلث فقط من السجناء يقوم بعمل خاص، أما الآخرون فقد كانوا خاملين يتسكّعون دون هدف في الثكنات، يكيدون لبعضهم، ويتشاتمون. ومَن كان لهم مال كانوا يسكرون أو يخسرون مدّخراتهم في لعب القمار في الليل، وكل ذلك، بسبب الكسل، والملل، والتعطُّل عن العمل. وفيما بعد فهمت أن هناك شكلاً من العذاب، ربما كان أشدّ أشكال العذاب ألماً، في حياة السجن، فضلاً عن الحرمان من الحرية، والعمل الاضطراري. إنه السكن المشترك الإجباري. العيش المشترك يوجد طبعاً في أماكن أخرى، ولكنه ليس أفظع ممّا في سجن، كهذا، حيث يوجد أناس لا يحبّ كلّ واحد أن يعيش معهم. وأنا على يقين أنّ كل سجين كان يحسّ بهذا العذاب، ولو دون وعي طبعاً في أغلب الأحيان.

بدا لي طعام السجناء مقبولاً. وكانوا هم أنفسهم يؤكّدون أنه أحسن بما لا يُقاس حتى من طعام أي سجن في روسيا. ولكنني لا أستطيع إثبات ذلك، - لأنني لم أسجن في مكان آخر. ومع ذلك كان في مقدور الكثير منا الحصول على الطعام الذي يلائمهم، رغم أنّ اللحم لم يكن يكلف إلا ثلاثة كوبيكات، فإنّ هؤلاء، الذين كان لهم وحدهم دائماً مال، يسمحون لأنفسهم بترفِ أكله: بينما كان معظم السجناء يكتفون بالحصة القانونية.

ومتى تبجّحوا بطعام السجن، فليس في متناول نظرهم إلا الخبز، الذي كان يوزّع على كل غرفة لا على كلّ فرد وبالوزن. كان هذا

الشرط الأخير مفزعاً للسجناء، لأن ثلثهم على الأقل، في هذه الحالة، كان عليه أن يعاني من الجوع دوماً، أمّا مع النظام المتّبع فقد كان كل واحد منهم راضياً عنه. كان خبزناً طيّب المذاق بوجه خاص، وحتى ذائع الصيت في المدينة: وكانت جودته تُعزى إلى حسن بناء أفران السجن. أما حساؤناً من الكرنب الحامض (شْشِي) الذي كان يطبخ في قدر كبيرة ويخثر بالدقيق، فلم يكن حسن المنظر على الإطلاق. في أيام العمل، كان خفيفاً كثيراً وهزيلاً جداً وقليل الدسم، ولكن ما كانت تشمئز منه نفسي خاصة، إنما هو كثرة الحشرات التي كانت توجد فيه. غير أن السجناء لم يكونوا يعيرون ذلك أي انتباه.

في الأيام الثلاثة الأولى التي أعقبت وصولي، لم أذهب إلى العمل: إذ كان السجناء الجدد يمنحون دائماً مهلة ريثما يستريحون من وعثاء السفر. وفي اليوم التالي كان عليّ أن أخرج من السجن لتغيير أغلالي. لم تكن سلسلتي «نظامية» إذ كانت تتألف من حلقات ذات رنة حادة، ذلك ما سمعته يقال لسجناء آخرين. كانت تحمل من الخارج، فوق الثياب، بينما كانت لرفاقي قيود لا تتألف من حلقات، إنما من أربعة قضبان سميكة كالأصبع، ومتصلة بثلاث حلقات تحمل تحت السروال. وكانت الحلقة المركزية مربوطة بحزام، معقود هو الآخر بزنار مشبوك فوق القميص.

ما زلت أرى بوضوح أول صباح قضيته في السجن. دقّ الطبل نفير الصباح في مركز الحراسة، قرب الباب الكبير، وبعد عشر دقائق بدأ ضابط الصفّ الخفير في فتح أبواب الثكنات. وأخذ السجناء يستيقظون بعضهم إثر بعض، وينهضون مرتجفين من برد ألواح أسرتهم الخشبية، على ضوء شمعة باهت. كانوا جميعاً تقريباً واجمين

وكالحين من النوم. كانوا يتثاءبون ويتمطّون، ويقطّبون جباههم الموسومة، بعضهم يرسم إشارة الصليب، وآخرون يتفوّهون بالتفاهات. كان الجوّ الخانق كريهاً برائحة النتانة. غير أن الهواء البارد كان يندفع من الخارج حالماً يفتح الباب ويزوبع في الثكنة.

ويتجمّع السجناء حول دلاء الماء ويأخذون المغرفة بالتتابع ويملؤون أفواههم ماء ويغسلون أيديهم ووجوههم من الفم. هذا الماء كان قد حمله بالأمس «باراشنيك».

في كلّ ثكنة كان هناك بحسب القانون سجين، منتخب من الجماعة، يتكلّف بخدمة الثكنة. كان هذا المكلف يسمى «باراشنيك» وهو الفرّاغ منظف أقذار المراحيض، ولا يذهب إلى العمل. كان شغله ينحصر في الإشراف على نظافة الثكنة، وعلى غسل وصقل الأسرة والأرض، وعلى إدخال وإخراج السطل الليلي، وعلى جلب الماء البارد في دلوين - صباحاً للاغتسال، ونهاراً للشرب.

وبسبب المغرفة، التي كانت واحدة، نشبت على الفور المشاجرات.

- ماذا تفعل هنا، أيها الموسوم الجبين؟

هكذا كان يزمجر سجين، طويل القامة، ضامر الجسم، وأسمر البشرة. كان يستوقف النظر بالنتوءات الغريبة التي كانت تغطي جمجمته. ودفع بيده سجيناً آخر مستدير الجسم، قصير القامة، وذا وجه بشوش وأحمر.

وردَّ عليه الثاني:

- انتظر قليلاً إذن!

- لماذا تصرخ؟ ألا تعرف أنّ الذي يطلب الانتظار من

الآخرين عليه أن يدفع الثمن؟ هيا اذهب من هنا. انظروا إلى هذا التمثال الجميل، أيها الإخوة، ... كلا، ليس فيه ذرة من «فارتيكولتيابنوست».

كان لهذه الكلمة «فارتيكولتيابنوست» وقعها، فانفجر السجناء ضاحكين، وكان ذلك كلّ ما يتمناه البشوش، الضحوك، الذي كان يمثِّل طبعاً دور المهرِّج في الثكنة. ورماه السجين الآخر بنظرة ازدراء عميق.

قال الأول:

- يا هذا! يا لك من بقرة صغيرة! انظروا كم سمّنه أبيض(*) السجن.

- ماذا تحسب نفسك؟ طائراً جميلاً؟

- تماماً! كما قلت.

- قل لنا إذن أي طائر جميل أنت.

- أنت تراه.

- كيف؟ أراه؟

- طائر، قلت لك.

- لكن أي طائر؟

كان أحدهما يلتهم الآخر بعينيه. وكان قصير القامة ينتظر جواباً وهو يشدّ قبضتيه كأنه يستعدّ للقتال. كنت أتوقع أن حرباً ستقع. كل ذلك كان جديداً عليّ، لذلك كنت أتابع هذا المشهد بفضول. وفيما بعد علمت أنّ مثل تلك المشاجرات في غاية البراءة، ولا يُراد منها

(*) أبيض السجن: كان يسمى «الأبيض» الخبز المصنوع من الدقيق الخالص.

سوى تسلية السجناء الآخرين، كأنها تمثيلية هزلية، ولا تكاد تصل إلى حدّ استعمال الأيدي. وذلك ما كان يميِّز عادات السجن بوضوح.

ظلّ السجين الطويل القامة هادئاً ومهيباً. كان يدرك أنهم ينتظرون منه جواباً، وتحت طائلة أن يتسربل بالعار، وأن يبدو أضحوكة، كان عليه أن يدافع عمّا قاله، وأن يثبت أنه كان طائراً رائعاً، وأنه شخصية. لذلك رمى خصمه بنظرة شزراء كلها ازدراء لا يوصف، محاولاً إثارته ناظراً إليه من فوق الكتف، من أعلى إلى أسفل، كما كان يمكن أن يفعل بإحدى الحشرات. وأجابه بصوت بطيء ومتميز:

- كاغان!

يعني أنه كان طائراً من نوع الكاغان. وانطلقت قهقهة هائلة ترحيباً بهذه الالتماعة، وتصفيقاً لهذه البراعة.

- أنت لست طائر كاغان، بل أنت نذل حقير.

هكذا صاح الرجل القصير السمين، الذي أدرك أنه هُزم شرّ هزيمة، وثارت حفيظته لانهزامه، وكاد أن ينقض على خصمه، لولا رفاقه الذين أحاطوا بالطرفين معاً خوفاً من نشوب شجار خطير.

وصاح من ركنه أحد المتفرجين:

- لمَ لا تتعاركان بالأيدي بدلاً من التراشق باللسان؟

فرد عليه آخر:

- بلى! امنعوهما! سوف يقتتلان. نحن أشداء، الرجل منا بسبعة رجال، لا نستاء من أي نزال.

- آه! يا للمصارعين البواسل! واحد هنا لأنه خطف رطل خبز، والثاني لأنه لصّ أوانٍ، أشبعه الجلاد ضرباً بالسوط، لأنه سرق من امرأة عجوز وعاء لبن رائب.

- هيا! هيا! كفى!

كذلك صاح رجل من معطوبي الحرب، كانت مهمته أن يحافظ على النظام داخل الثكنة، وكان نائماً في ركن، على فراش صغير خاص.

- الماء، يا أولاد! الماء لنيفاليد بيتروفيتش، الماء لأخينا الصغير نيفاليد بيتروفيتش! ها هو يصحو الآن.

- أخوك . . . هل أنا أخوك؟ لم نشرب يوماً معاً خمراً بروبل واحد!

هكذا دندن الرجل المعطوب واضعاً ذراعيه في كمَّي معطفه.

كان السجناء يستعدّون للمراقبة، إذ كان النهار قد طلع، وهم يتدافعون مزدحمين نحو المطبخ. كانوا قد ارتدوا معاطفهم الفروية القصيرة «بالوشوبكي» ويتلقون في قبعاتهم ذوات اللونين الخبز الذي يوزعه عليهم أحد الطباخين، الذين تختارهم الجماعة، اثنين اثنين في كل مطبخ، يعني أربعة في السجن كله. وقد كانوا يتصرفون في السكين الوحيد المسموح به داخل السجن، ويستعملونه لقطع الخبز واللحم على السواء.

كان السجناء متفرقين في الزوايا وحول الموائد، معتمرين قبعاتهم، ومرتدين فروياتهم، ومتزنّرين بأحزمتهم، ومستعدّين للذهاب إلى العمل. وكان أمام بعض السجناء شراب الـ«كفاس» (شراب حامض من الخبز الأسود) يفتّتون فيه خبزهم ثم يزدردونه.

كان الضجيج لا يُطاق، ومع ذلك كان عدّة سجناء يتحدّثون في الأركان بصورة جادة وهادئة.

- عم صباحاً، وطابت شهيتك، أيها الأب أنتونيتش.

هكذا قال سجين شاب، وهو يجلس إلى جانب شيخ أدرد وعبوس. فردّ عليه هذا الأخير دون أن يرفع عينيه، وهو يحاول جاهداً أن يمضغ خبزه بلثته الدرداء:

- إنْ لم تكن تمزح، عم صباحاً إذن!

- في الواقع، كنت أظنّ أنك متّ، يا أنتونيتش، حقاً!

- كلا، مُتْ أنت أولاً، وأنا بعدك . . .

جلست بالقرب منهما. عن يميني، سجينان وقوران يتبادلان الآراء والإصغاء ويحاولان أن يحافظا على وقارهما أثناء الحديث.

قال أحدهما:

- ليس أنا الذي يمكن أن يسرقه أحد، بل أخشى أن أسرق أنا نفسي . . .

- اليد التي تمتد علي: أحرقها.

- وماذا عساك أن تفعل؟ لست سوى سجين . . . ليس لنا اسم آخر. . . سترى سوف تسرقك، تلك الخبيثة، دون أن تقول لك حتى شكراً. لقد فعلت بي ذلك. تصور أنها جاءت منذ بضعة أيام. أين يمكن أن نختلي؟ طيب! أطلب الإذن للذهاب إلى فيدكا الجلاد: كانت لا تزال له دار في الضاحية، تلك التي اشتراها من سالومون الأجرب، تعرف ذلك اليهودي الذي شنق نفسه، منذ وقت غير بعيد. . .

- نعم، أعرفه، ذلك الذي كان خماراً هنا، منذ ثلاث سنين والذي يسمى غريشكا - الخمار الأعور، أعرف. . .

- وإذن! كلا، أنت لا تعرف. . . أولاً هو خمار آخر . . .

- كيف، خمار آخر! أنت لا تعرف ماذا تقول. أستطيع أن آتيك بقدر ما تريد من الشهود.

- أنت تأتيني بالشهود؟ من أنت؟ أتدري مع من أنت تتكلم؟

- أنا من؟ أنا الذي ضربك مراراً، رغم أني لا أفتخر بذلك. فكفاك اختيالاً!

- أنت ضربتني؟ من يضربني لم يوْلَد بعد، والذي ضربني يرقد الآن تحت التراب!

- ليُصبك طاعون بينديز!

- لينخرك جذام سيبيريا!

- ليشقك سيف تركي!

وانهمرت الشتائم مدراراً.

- هيا، تعالوا! انظروا إليهما يتصايحان - قال أحدهم - مَن لا يعرف كيف يتصرّف فعليه بالهدوء، إنهما سعيدان بالمجيء إلى هنا ليأكلا خبز الحكومة، يا لها من شجاعة!

وفرقوهما فوراً. فأن يتشاتما أو أن «يتلاكما» باللسان، فذلك شيء مباح، وفيه تسلية للجميع، أما أنْ يصل الأمر إلى حدّ الشجار بالأيدي فلا. ولا يتشاجر المتخاصمون بالأيدي إلا في حالات استثنائية. وإذا وقع شجار بالأيدي، يُخبر الماجور، الذي يأمر بإجراء تحقيقات - يتدخل فيها بنفسه - وعندئذٍ تجري الأمور بما لا تُحمد عقباه بالنسبة إلى السجناء، لذلك يسارعون إلى وضع حدٍّ لأيّ نزاع جدي، ثم، إن المتخاصمين يتشاتمون في المقام الأول بدافع التسلية، ومن أجل مران اللسان على الفصاحة والبيان. إنهم يهتاجون ويتّخذ الخصام طابع الحدة والضراوة: فيتوقع المرء أن يرى أحدهما ينحَر الآخر، لكن لا يقع شيء من ذلك، إذ لا يكاد غضبهما أن يصل إلى حدٍّ معين حتى يفترقا في الحال. أدهشني ذلك كثيراً، وإن كنت

أحكي بعض محاورات السجناء، فإنما أفعل ذلك عمداً وقصداً. هل كان يمكنني أن أتصور أن يتشاتم شخصان رغبة في المتعة، وأن يجدا في الشتيمة لذة معينة؟ لا يجب أن ننسى حب الظهور والميل إلى الغرور: فالمحاور الذي يجيد السباب كفنان يحظى بالاحترام، بل يكاد أن يصفق له السجناء كما يصفق الجمهور لممثل قدير.

لقد سبق لي أن لاحظت في المساء الماضي نظرات شزراء نحوي. بينما كان عدّة سجناء يحومون حولي، لظنِّهم أنني كنت أحمل معي مالاً إلى السجن: فحاولوا أن ينالوا رضاي، بأن بدأوا يعلِّمونني كيف أضع قيودي دون أن تضايقني، وقدَّموا لي أيضاً - مقابل مال، طبعاً - صندوقاً صغيراً ذا قفل لأودع فيه الأمتعة التي سلَّمتني إياها الإدارة، والملابس القليلة التي سمح لي بإدخالها معي إلى السجن. وفي اليوم التالي فقط، سرق مني هؤلاء السجناء أنفسهم صندوقي الصغير وشربوا خمراً بالنقود التي جنوها منه. أحدهم أخلص لي الودّ كثيراً فيما بعد، رغم أنه كان يسرقني كلما سنحت له الفرصة بذلك. ولم يكن يخامره أدنى شعور بالخجل من هذه السرقات، لأنه كان يرتكب تلك الجنايات تقريباً دون وعي، كما لو كانت واجباً. لذلك لم أستطِع أن أحمل له ضغينة.

علَّمني هؤلاء السجناء أن بالإمكان الحصول على الشاي، وأنه يحسُن بي أن أجد غلاية، ودلوني إلى واحدة، استأجرتها مدّة محددة. ونصحوني أيضاً بطباخ يمكنه أن يهيئ لي، لقاء ثلاثين كوبيكاً في الشهر، الأطعمة التي أرغب فيها، إذا كنت أنوي أن أقتني بعض المؤن، وأن يكون لي غذاء مستقل... كما أنهم اقترضوا مني مالاً، يوم وصولي، بل أتوا إلي يومئذٍ يطلبون الاقتراض ثلاث مرات.

إن الذين كانوا نبلاء قبل دخولهم إلى السجن، كان ينظر إليهم شزراً، رغم أنهم جرّدوا من جميع حقوقهم، وأصبحوا مثل باقي السجناء، فإن هؤلاء لم يكونوا يعترفون بهم رفاقاً. وليس في هذا الإقصاء الفطري أي نصيب من الصواب. كنا في عيونهم دائماً نبلاء، وإن كانوا يسخرون من سقوطنا كثيراً. كانوا يقولون:

- إيه، إيه! قضي الأمر! كانت عربة السيد تدوس الناس قديماً في موسكو، واليوم السيد يفتل حبال القنب. ومن هذا القبيل مجاملات أخرى.

كانوا يستمتعون بآلامنا، التي كنا نحاول إخفاءها بأقصى ما نستطيع من جهد. وكنا كثيراً ما نعاني لا سيما حين نعمل معهم، لأن قوانا لم تكن تعادل قواهم، ولم نكن نستطيع أن نساعدهم حقاً. لا شيء أصعب من كسب ثقة الناس، وكسب ثقة أمثال هؤلاء خاصة، ونيل محبَّتهم بجدارة.

لم يكن في السجن كله إلا عدد قليل من قدماء النبلاء. أولاً خمسة من البولونيين - الذين سأتحدث عنهم فيما بعد بتفصيل - كان السجناء يكرهونهم، ربما أكثر ممّا يكرهون النبلاء الروس. كان البولونيون (لا أتكلم إلا عن المحكومين السياسيين) يتعاملون معهم بشيء من التهذيب الجارح والقسري، ولا يوجّهون الكلام إليهم إلا لماماً، ولا يخفون إطلاقاً نفورهم من مثل هذه المعاشرة، وكان السجناء يدركون ذلك ويكيلون لهم بالكيل نفسه.

احتجت تقريباً إلى سنتين لأنال عطف بعض رفاق السجن، ولكن معظمهم كان يحبّني ويعلن أنني إنسان طيب.

كان عديدنا - بمن فيهم أنا - أربعة من النبلاء الروس في

السجن. كنت قد سمعت من يتكلّم عن أحدهم، حتى قبل وصولي، بأنه كائن حقير وضيع، وفاسد بشكل فظيع، ويمتهن التجسُّس والوشاية، لذلك رفضت منذ اليوم الأول أن تكون لي أية صلة مع هذا الرجل. والثاني كان قاتل أبيه الذي تكلمت عنه في هذه المذكرات. أما الثالث، الذي كان يسمى أكيم أكيميتش: فنادراً ما رأيت إنساناً غريب الأطوار مثله، ولا تزال ذكراه حية في نفسي.

إنه طويل القامة، نحيف الجسم، ضعيف العقل، وجاهل بشكلٍ مخيف، وكان متفلسفاً فوق العادة، ومدققاً بشدة كألماني. كان السجناء يتهكمون عليه، ولكنهم يهابونه لأنه ذو مزاج مماحك، ومتشدِّد، ومحبٌّ للخصام. ومنذ وصوله، أخذ يعاملهم معاملة الندّ للند، ويبادلهم الشتائم والضرب. ولما يتحلى به من نزاهة نادرة، كان يكفي أن يلاحظ ظلماً حتى يتدخل في أمر لا يعنيه. وفضلاً عن ذلك كان مفرط السذاجة، ففي مشاجراته مع السجناء، كان يلومهم لكونهم لصوصاً، وينصحهم مخلصاً بالكفّ عن السرقة. سبق له أن أدّى الخدمة العسكرية بصفته ملازماً ثانياً في القوقاز. وقد ارتبطت به منذ اليوم الأول، وسرعان ما حكى لي قضيته. بدأ في القوقاز، مع طلبة كلية عسكرية، في فوج مشاة، خدم مدة طويلة خدمة روتينية، وأخيراً رقي إلى رتبة ضابط، وأرسل إلى الجبال رئيساً على أحد الحصون. وكان هناك في الجوار أمير صغير، أشعل النار في هذا الحصن، وحاول الهجوم عليه ليلاً، فلم يحالفه النجاح. ولجأ أكيم أكيميتش إلى الحيلة مع الأمير فتظاهر بأنه يجهل أنه هو الذي شنّ الهجوم: وعزاه إلى بعض المتمردين الذين كانوا يتسكّعون في الجبل. وبعد شهر دعا الأمير وديّاً لزيارته. فجاء هذا الأخير ممتطياً صهوة حصانه،

دون أن يخامره شكّ في أي شيء، وحشد أكيم أكيميتش جنود حاميته وكشف أمامهم عن معصية وخيانة زائره، وأنّبه على تصرفه، وأثبت له أن إحراق حصن جريمة نكراء، وشرح له بدقة الواجبات الواقعة على عاتق أمير تابع للحكومة، وبمثابة خاتمة لهذه الخطبة، أمر بإعدام الأمير رمياً بالرصاص، وأخبر رؤساءه فوراً بتنفيذ حكم الإعدام في الأمير، ذاكراً لهم كل التفاصيل الضرورية. وقدم أكيم أكيميتش للمحاكمة، أمام مجلس حربي، وحكم عليه بالإعدام، ثم خفّف الحكم، وأرسل إلى سيبيريا سجيناً من الفئة الثانية، يعني محكوماً عليه بالسجن اثنتي عشرة سنة. كان يعترف من تلقاء نفسه بأن تصرفه كان غير قانوني، وأنّ الأمير كان يجب أن يحاكم محاكمة مدنية، وليس في مجلس عسكري. ورغم ذلك، لم يستطع أن يفهم أنّ العمل الذي قام به كان جريمة. وكان يردّ على جميع اعتراضاتي قائلاً:

- لقد أشعل النار في حصني، ماذا كان عليّ أن أفعل؟ أن أشكره على ذلك؟

ولو أنّ السجناء كانوا يسخرون من أكيم أكيميتش ويدعون أن به مسّاً من جنون، فقد كانوا يقدّرونه لحذاقته ودقّته مع ذلك.

كان يعرف كل الحرف الممكنة، ويعمل لك ما تريد: إسكافاً، حذّاء، صباغاً، نقاشاً، قفّالاً. اكتسب هذه المواهب في السجن. إذ كان يكفيه أن يرى شيئاً حتى يقلّده. كان يبيع في المدينة، أو في الأصحّ يكلف أحداً ليبيع له سلالاً، وفوانيس وبعض اللعب.

وبفضل أعماله كان يملك دائماً بعض المال، الذي يستخدمه فوراً في شراء ملابس، وسادة... إلخ، وهيّأ له فراشاً. وبما أنه كان ينام في الثكنة نفسها التي أنا فيها، فقد أفادني كثيراً في بداية سجني.

قبل الخروج من السجن للذهاب إلى العمل، كان السجناء يقفون صفّين أمام مركز الحراسة، محاطين بجنود مدجّجين بالبنادق المحشوة. وعندئذٍ كان يأتي ضابط مهندس مع مراقب الأشغال وبعض الجنود المشرفين على أعمال السجناء. فكان المراقب يحصي السجناء ويرسلهم أفواجاً إلى الأماكن التي كان عليهم أن يعملوا فيها.

وذهبت، مع سجناء آخرين، إلى ورشة الهندسة، وهي بيت من الآجر شديد الانخفاض، مبني وسط فناء واسع، كثير المواد المتراكمة فيه. كان هناك مصهر الحديد، وورشات النجارة والأقفال والدهان. كان أكيم أكيميتش يعمل في هذه الورشة الأخيرة: كان يحرق زيتاً للدهان، ويحضر الألوان، ويطلي موائد وأدوات أخرى بلون الجوز المموّه.

وفي انتظار أن يضعوا لي قيوداً جديدة، نقلت إليه انطباعاتي الأولى فقال:

- أجل، إنهم لا يحبّون النبلاء، خاصة المحكومين السياسيين، ويسعدهم أن يسيئوا إليهم، أليس ذلك مفهوماً في العمق؟ أنت لست منهم، أنت لا تشبههم: لقد كانوا جميعاً أقناناً أو جنوداً. قلْ لي، أي شعور بالعطف يمكن أن يكنّوا لك؟ الحياة قاسية هنا، ولكنها لا تُقاس بقسوة معسكرات التأديب في روسيا. هناك يعانون الجحيم، بل إن أولئك الذين يأتون منها يمتدحون سجننا، ويقولون عنه إنه جنة إذا قيس بهذا المطهر. ليس لأن العمل هنالك أقسى. يُقال إن الإدارة، - التي ليست عسكرية هناك فحسب كما هي هنا - تتعامل مع سجناء الفئة الأولى معاملة مختلفة تماماً عن المعاملة معنا. إنّ لهم بيوتهم

الخاصة (حُكي لي هذا، ولم أره) ولا يرتدون زياً موحداً، ولا تُحلق رؤوسهم، ومع ذلك، فإن الزيّ الموحد، وحلق الرؤوس، ليسا في نظري من الأشياء السيئة، إنهما أكثر تنظيماً للأمور، ثم إن منظرهما أجمل! هم فقط، لا يحبّون ذلك. انظروا يا له من برج بابل! أطفال مجندون، شراكسة، مؤمنون قدامى، أرثوذكس، فلاحون تركوا نساءهم وأبناءهم، يهود، غجر، وأخيراً أناس يعلم الله من أين! وعلى هذا العالم كله أن يكون عائلة واحدة، وأن يعيش جنباً إلى جنب، وأن يأكل من الأطباق نفسها، وأن ينام على الألواح الخشبية نفسها. وما من لحظة حرية، ولا يمكن للمرء أن يرفِّه عن نفسه إلا خلسة، وعليه أن يخبئ ماله في جزمتيه... ثم السجن دوماً وليس غير السجن! ودون إرادة، تخطر على بالك حماقات.

كنت أعرف كل ذلك من قبل. ولكنني بالأخص كنت أحبّ أن أسأل أكيم أكيميتش عن الماجور. فلم يخف عني شيئاً، ولم يكن ممتعاً ذلك الانطباع الذي تركته أقواله في نفسي.

كان عليّ أن أعيش سنتين تحت سلطة هذا الضابط. كل ما حكى لي عنه أكيم أكيميتش لم يكن إلا الحقيقة المحضة. إنه رجل شرير، ومختل، ومرعب، خاصة لأنه يملك سلطة مطلقة تقريباً على مائتي إنسان. كان ينظر إلى السجناء كأعدائه الشخصيين، وهذه أول خطيئة شديدة الخطورة.

إن بعض كفاءاته النادرة، وربما حتى حسناته القليلة، كان يفسدها تطرّفه وأذاه.

كان يأتي أحياناً كالقنبلة إلى الثكنات، وسط الليل، وإذا لاحظ سجيناً نائماً على ظهره أو على جنبه الأيسر، كان يوقظه ليقول له:

«يجب أن تنام كما أمرت أنا» كان السجناء يكرهونه ويخشونه كالطاعون. كان وجهه الكريه، المحمرّ يبعث الرعب في نفوس الجميع. وكل سجين كان يعرف أن الماجور خاضع تمام الخضوع لخادمه فيدكا وأنه كاد يجنّ حين مرض كلبه تريزوركا: كان يفضل هذا الكلب على سائر البشر. عندما أخبره فيدكا أن سجيناً بيطرياً بالمصادفة، يقوم بعلاجات عجيبة، استدعى في الحال هذا السجين وقال له:

- أعهد إليك بكلبي، إذا عالجت تريزوركا سأكسوك ذهباً.

هذا الرجل، الفلاح السيبيري، القوي الذكاء، كان بالفعل بيطرياً ممتازاً، ولكنه قبل كل شيء فلاح ماكر، وقد حكى لرفاقه زيارته للماجور، بعد أن نسيت هذه القصة فقال:

- نظرت إلى كلبه تريزوركا، كان مضطجعاً على أريكة، واضعاً رأسه فوق وسادة بيضاء، فرأيت حالاً أنه مصاب بالتهاب، وأنه يجب أن يفصد، وأظن أنني يمكن أن أشفيه، لكنني قلت لنفسي: ماذا سيحدث لو نفق؟ سأكون أنا المذنب، فقلت له: لا يا صاحب النبالة، لقد دعوتني في وقت متأخر، لو رأيت كلبك بالأمس أو أول أمس، لكان الآن يمشي، وفي هذه الساعة لا أستطيع أن أفعل له شيئاً، إنه سيموت!

ومات تريزوركا.

حكي لي ذات يوم أن أحد السجناء أراد قتل الماجور. كان هذا السجين قد لوحظ عليه، منذ عدة سنوات، خضوعه وصمته أيضاً، بل لقد عدّ حتى مختل العقل. وبما أنه كان نوعاً ما على جانب من الثقافة، فقد كان يقضي لياليه في قراءة الكتاب المقدّس. حين كان

ينام الجميع، كان ينهض، ويصعد فوق المدفأة، ويشعل شمعة كنيسة، ويفتح إنجيله ويقرأ. وعلى هذه الحال ظلّ سنة كاملة.

ذات يوم، خرج من الصفوف وأعلن أنه لا يريد الذهاب إلى العمل. فأُخبر الماجور، الذي استشاط غضباً شديداً، وجاء فوراً إلى الثكنة، وما إن رآه السجين حتى اتجه إليه ورماه بقرميدة كان قد هيأها من قبل، ولكنه أخطأه. وقبض على السجين، وحوكِم، وجُلد، لم يستغرق الأمر إلا لحظات، ونقل إلى المستشفى حيث توفي بعد ثلاثة أيام. وأثناء احتضاره صرّح أنه لم يكن يكره أحداً، ولكنه كان يريد أن يتألم. إلا أنه لم يكن ينتمي إلى أية ملة من المنشقين. حين كان يجري الحديث عنه في الثكنات، كان يُذكر دائماً باحترام.

وأخيراً وضعوا لي أغلالي الجديدة، وبينما كانوا يلحّمونها دخلت إلى مصهر الحديد بائعات السميطة «كالاتش» - وهي أرغفة صغيرة من الخبز الأبيض - واحدة إثر أخرى، وهنّ في أغلبهن فتيات صغيرات، كن يأتين لبيع أرغفة السميطة، التي حضرتها أمهاتهن، ولما تقدّمن في السن، بقين يحمن حولنا باستمرار، ولكن دون أن يحملن السميطة. كان المرء يصادف دائماً واحدة منهن. كان ثمة أيضاً نساء متزوجات. كل رغيف من السميطة كان يساوي كوبيكين، وجميع السجناء تقريباً كانوا يشترون.

لاحظت سجيناً نجاراً، أشيب الشعر، محمرّ الوجه، ومفتر الثغر. كان يمازح بائعات الأرغفة الصغيرة. قبل وصولهن كان قد لفّ حول عنقه منديلاً أحمر. وضعت امرأة سمينة، ذات وجه كثير البثور، سلتها فوق طاولة النجار. وجرى بينهما هذا الحوار، سألها النجار، بابتسامة رضى وارتياح:

- لماذا لم تجيئي أمس؟

فردَّت عليه المرأة بجرأة:

- جئت، ولكنك كنت قد ذهبت.

- نعم، ذهبوا بنا من هنا، وإلا لكنا التقينا بالتأكيد، أول أمس، جئن جميعاً لرؤيتي.

- ومن اللواتي جئن؟

- جاءت مارياشكا، جاءت خافروشكا، وتشيكوندا (التي لا تساوي شيئاً) جاءت ودفوغروشيفايا (ذات الأربعة كوبيكات) كانت هنا أيضاً.

سألت أكيم أكيميتش:

- إيه ماذا، هل من الممكن أن. . .؟

فقال وهو يغضّ بصره، لأنه كان رجلاً في غاية العفّة:

- نعم، يحدث ذلك أحياناً.

كان ذلك يحدث أحياناً، لكن نادراً، وبكثير من الصعوبات الخارقة. كان السجناء يفضّلون أن ينفقوا أموالهم في الشراب. رغم ما يعانونه في حياتهم من عنت وكبت. كان من الصعب جداً اللحاق بأولئك النساء، كان يجب الاتفاق على المكان والزمان، وتحديد موعد، وإيجاد خلوة، وذلك من أصعب الأمور، وكان لا بد من تفادي الحرس، وهو أمر مستحيل تقريباً، وكان ينبغي إنفاق مبالغ طائلة - نسبياً - ومع ذلك رأيت بعض المشاهد الغرامية. ذات يوم كنا ثلاثة منهمكين في تسخين فرن القرميد، في سقيفة على ضفة نهر إيرتيش، وكان جنود الحرس لطفاء، وإذا بامرأتين، من اللواتي كنّ يطلق عليهن اسم «الصفارات» تقبلان.

قال أحد السجناء للمرأتين، اللتين كان ينتظرهما دون شك:

- أين غبتما طوال هذه المدة؟ تأخرتما عند آل زفييركوف، أليس كذلك؟

فقالت إحداهما منشرحة:

- عند آل زفييركوف؟ لم أبقَ عندهم إلا أقل ممّا يبقى قندس فوق وتد.

كانت هذه أقذر فتاة يمكن أن تتصور. كان يطلق عليها اسم تشيكوندا «التي لا تساوي شيئاً»، وقد وصلت مع صديقتها «ذات الأربعة كوبيكات» - دفوغروشيفايا، التي كانت فوق كل وصف.

قال الشاب المتغزل مخاطباً «ذات الأربعة كوبيكات»:

- إيه! ما عدنا نراك منذ وقت طويل، يبدو جسمك نحيلاً قليلاً.

- ربما، كنت من قبل جميلة، سمينة، بينما الآن كأني ابتلعت إبراً.

- وما زلت تذهبين مع الجنود، أليس كذلك؟

- انظروا إلى هؤلاء الخبثاء، يتقولون علينا. وماذا إذن؟ على كل حال، إذا كان يجب أن أوسع ضرباً، أحبّ أن أصاحب جنوداً!

- دعي جنودك جانباً، عليك أن تحبينا نحن، إن معنا مالاً.

تصوروا هذا الشاب المغازل، الحليق الرأس، المغلول القدمين، في لباس من لونين، وتحت حراسة...

ولما كنت أستطيع أن أعود إلى السجن، - بعد وضع أغلالي - ودّعت أكيم أكيميتش، وانصرفت، بحراسة أحد الجنود. أولئك الذين يعملون التزاماً بأداء مهمة معينة، لا على أساس عدد الساعات، هم أول العائدين، لذلك عندما وصلت إلى ثكنتنا، كان قد سبقني إليها

بعض السجناء العائدين. إن الوسيلة الوحيدة لحمل السجناء على العمل الدؤوب، هي أن يكلّفوا بإنجاز مهمة معينة. ومهما تكن ضخمة هذه المهمة، فإنهم ينجزونها عندئذٍ في نصف الوقت الذي يحتاجونه لإنجازها حتى ولو عملوا بلا انقطاع إلى أن يقرع الطبل. وحالما ينتهي السجين من إنجاز مهمته، يعود إلى السجن، دون أي عائق، ولا أحد يمنعه من العودة.

وبما أن المطبخ كان غير قادر على أن يتّسع لثكنة كاملة مرة واحدة، لم يكن السجناء يتناولون الطعام جماعة، فالذين يصلون أولاً يأكلون حصّتهم ويتركون المكان للآخرين. لقد ذقتُ حساء الملفوف الحامض (شْشِي) ولكنني لم أستسغه لأني لم أتعوّد عليه وحضَّرت لنفسي الشاي. وجلستُ إلى جانب مائدة مع سجين، نبيل سابق مثلي.

كان السجناء يدخلون ويخرجون. لم يكن يعوزهم المكان، لأنّ عددهم كان لا يزال قليلاً، وجلس خمسة منهم على حدة، قرب المائدة الكبيرة. وصبّ لهم الطباخ ملء جفنة من الحساء الحامض، وأتى لهم بقصعة من السمك المقلي. كان هؤلاء الرجال يحتفلون بعيد وهم يستمتعون. كانوا ينظرون إلينا شزراً. ودخل أحد البولونيين وجلس إلى جانبنا.

وصاح سجين، طويل القامة، وهو يدخل ويشمل رفاقه بنظرة:

- لم أكن معكم، لكني أعرف أنكم تقصفون.

كان رجلاً في نحو الخمسين من عمره، نحيل الجسم، ومفتول العضلات. وكان وجهه ينمّ عن المكر، وعن المرح أيضاً، وكانت شفته السفلى الغليظة والمتدلية تضفي عليه مظهراً مضحكاً. قال وهو

يجلس بالقرب من أولئك الذين كانوا يحتفون:

- وإذن! هل نمتم جيداً؟ لماذا لا تردّون التحية؟ حسناً، أصدقائي الكورسكيون، شهية طيبة! جئتكم بضيف جديد.

- لسنا من مقاطعة كورسك.

- إذاً! أصدقائي التامبوفيون.

- وما نحن أيضاً من تامبوف. وليس لك أن تطلب منا شيئاً. إذا أردت مأدبة فاخرة فاذهب إلى فلاح غني.

- عندي اليوم إيفان تاسكون وماريا إيكوتيشنا (إيكوتا، بالروسية يعني الفُواق) في معدتي، أعني أنني أكاد أموت جوعاً، ولكن أين يسكن، فلاحكم، ذاك الغني؟

- حسناً! هو غازين، فاذهب إليه.

- غازين يشرب اليوم، يا إخوتي الصغار، إنه يأكل ماله.

وقال سجين آخر:

- لديه على الأقل عشرون روبلاً، بيع الخمر يدر ربحاً كثيراً.

وردّ الرجل قائلاً:

- طيب! لا تريدونني؟ فلآكل إذن طبيخ الحكومة.

- تريد شاياً؟ هيا، اطلبه من هذين السيدين اللذين يشربانه!

- أين ترون سيدين؟ لم يعودا نبيلين، وليسا أفضل منّا.

قال هذا بصوت قاتم سجين آخر كان يجلس في ركن ولم يجازف بكلمة حتى ذلك الحين.

قال السجين السمين الشفة، وهو يرنو إلينا بنظرة مرحة:

- أودّ أن أشرب كوب شاي، لكنني أخجل أن أطلبه، لأن لنا كرامتنا.

فقلت له وأنا أدعوه بإشارة من يدي:

- سأقدِّمه لك، إن شئته، هل تريده؟

- هل أريده؟ وكيف لا أريده؟ ومن ذا الذي لا يريده؟

قال ذلك وهو يدنو من المائدة.

وتابع السجين ذو المظهر القاتم قائلاً:

- انظروا إليه! في بيته، حين كان حراً، لم يكن يأكل إلا الحساء الحامض، والخبز الأسود، بينما في السجن لا بد له من الشاي! مثل نبيل حقيقي.

وسألت هذا الأخير ولكنه لم يجدني جديراً بالجواب:

- ألا يشرب الشاي هنا أحد؟

- أرغفة صغيرة بيضاء! أرغفة صغيرة بيضاء! من يفاتح التاجر!

كان سجين شاب يحمل فعلاً أرغفة صغيرة بيضاء، مربوطة في خيط، وهي حمل من أرغفة السميطة (كالاتش) كان يبيعها في الثكنات. وعن كلّ عشرة أرغفة يبيعها، كانت التاجرة تترك له رغيفاً لقاء تعبه، وعلى هذا الرغيف الصغير العاشر بالضبط كان يعوّل لطعامه.

كان يصيح وهو يدخل إلى المطبخ:

- أرغفة صغيرة بيضاء! أرغفة صغيرة بيضاء! أرغفة صغيرة بيضاء من موسكو، ساخنة، ساخنة! أود أن آكلها كلها، ولكن لا بد من المال، كثير من المال. هيا! يا أولاد، لم يبقَ منها إلا رغيف واحد! فليشتره مني من يحب منكم أمه. . . . !

طرب الجميع بهذا الدعاء إلى حبّ الابن للأم، فاشتروا منه بضعة أرغفة صغيرة بيضاء.

قال:

- إن غازين يفرط الآن في الشرب، يا لها من خطيئة حقيقية! اختار لحظته المناسبة جداً! ماذا لو وصل «ذو العيون الثماني» - الماجور-

- سنخبئه... أهو سكران؟

- نعم، ولكنه خبيث، إنه عصي.

- لا شك أننا سنصل إلى اللكمات...

سألت البولوني، جاري:

- عمّن يتكلمون؟

- عن غازين، سجين يبيع الخمر. حين يكسب من تجارته بعض المال، يشربه حتى آخر كوبيك. إنه وحش كاسر، وشرير، متى شرب. أما على الريق، فهو هادئ، لكنه عندما يسكر يظهر على حقيقته: إذ يهاجم الناس بسكين حتى ينتزعوه منه.

- وكيف يستطيعون ذلك؟

- يهجم عليه عشرة رجال ويضربونه ضرباً مبرحاً إلى أن يفقد وعيه. وعندما يكون شبه ميت، يضعونه فوق سريره الخشبي الألواح ويغطونه بمعطفه.

- ولكنهم قد يقتلونه!

- لو ضرب غيره مثله لمات، أما هو فلا! إنه ضليع إلى حدٍّ بعيد، وهو أقوى السجناء جميعاً. إن بنيته في غاية الصلابة، بحيث يصحو الغداة سليماً ومعافى تماماً.

وتابعت سائلاً البولوني:

- قل لي، من فضلك، هؤلاء الناس يأكلون على انفراد، ومع

ذلك يبدو أنهم يحسدونني على الشاي الذي أشربه.

- لا دخل لشايك في الأمر. إنما يقصدونك أنت: ألست نبيلاً؟ إنك لا تشبههم، سيكونون سعداء لاستدراجك إلى النزاع ليهينوك. لا تعرف ما ينتظرك من متاعب. إنه استشهاد لنا أن نعيش هنا. لأن حياتنا قاسية قسوة مضاعفة. لا بد لنا من قوّة إرادة كبيرة حتى نعتاد عليها. سيواجهونك بإهانات ومضايقات كثيرة بسبب طعامك وشايك، مع أن الذين يأكلون على حدة ويشربون الشاي كل يوم كثيرون. ومن حقهم ذلك، أما أنت فلا يحق لك.

نهض وغادر المائدة. وما هي إلا لحظات حتى تأكّدت نبوءاته السابقة.

3. الإحساسات الأولى (تابع)

ما كاد يخرج م ... تسكي (البولوني الذي تحدثت عنه) حتى دخل مسرعاً غازين إلى المطبخ سكران تماماً.

أن يرى سجين سكران في وضح النهار، بينما كان على الجميع الذهاب إلى العمل، - رغم القسوة الشديدة المعروفة عن الماجور، الذي كان يمكن أن يصل إلى الثكنة بين لحظة وأخرى، ورغم مراقبة ضابط الصف، الذي لا يبارح السجن قيد أنملة، ورغم وجود جنود وموظفين، - كل ذلك كان يشوش الأفكار التي كونتها عن السجن، وكان لا بد من وقت طويل كي أفهم وأعلّل بعض الوقائع التي بدت لي للوهلة الأولى ملغزة.

سبق أن قلت إن جميع السجناء كان لهم عمل ما، وإن هذا العمل كان بالنسبة إليهم حاجة طبيعية وضرورية. وهم يحبّون المال بشغف، ويقدرونه أكثر من أي شيء آخر، تقريباً كالحرية. إن السجين يحسّ ببعض العزاء، حين ترنّ في جيبه بضعة كوبيكات.

وعلى العكس، يشعر بالحزن والقلق واليأس، إذا لم يكن معه مال، وعندئذٍ يمكن أن يرتكب أية جناية من أجل الحصول عليه. ومع ذلك فإن هذا المال، رغم الأهمية التي يضفونها عليه، لا يبقى في جيب صاحبه زمناً طويلاً أبداً، لأن الاحتفاظ به من الصعوبة بمكان. وهو إما أن يصادر أو أن يسرق منهم. عندما كان الماجور، أثناء حملاته التفتيشية المفاجئة، يعثر على مبلغ مالي صغير، مكتسب بكثير من العناء، فإنه كان يصادره، وقد ينفقه في تحسين طعام السجناء، لأنّ كل المال المصادر منهم كان يسلم إليه. إلا أنه كان يسرق في أغلب الأحيان . ومن المستحيل أن يعهد به إلى أي كان.

غير أن السجناء اهتدوا إلى وسيلة لحفظ المال، إذ كان هناك شيخ، مؤمن قديم، جاء إلينا من ضواحي ستارودوب، التي التجأت إليها سابقاً جماعته الدينية من فييتكا، وهو الذي كان يتولى إخفاء مدخرات السجناء. لا أستطيع مقاومة رغبة تدفعني إلى قول كلمات عن هذا الرجل، رغم أن ذلك قد يحيد بي عن حكايتي.

كان هذا الشيخ في نحو الستين من عمره، نحيفاً، قصير القامة، وأشيب الشعر تماماً. شغل بالي كثيراً مذ رأيته أول مرة، لأنه لا يشبه الآخرين على الإطلاق. كانت نظرته في غاية الوداعة والعذوبة، بحيث كان يحلو لي دائماً أن أنظر إلى عينيه الصافيتين والشفافتين، المحفوفتين بعدد من الغضون الصغيرة. كثيراً ما كنت أتحاور معه،

ونادراً ما رأيت إنساناً في مثل طيبته ورقته ولطافته. كان قد أرسل إلى سجن الأشغال الشاقة من جراء جريمة خطيرة. كان عدد من قدامى المؤمنين في ستارودوب (إقليم تشيرنيغوف) قد تحولوا إلى الأرثوذكسية. وعملت الحكومة كل ما في وسعها لتشجيعهم على المضي في هذا الطريق وحثّ الآخرين على السير في الطريق نفسه. فقرَّر الشيخ مع عدد من المتعصبين (الدفاع عن العقيدة). وعندما بدا في مدينتهم بناء كنيسة أرثوذكسية، أضرموا فيها النار. وأدّى هذا الاعتداء بصاحبه إلى السجن. هذا البرجوازي الثري (كان يشتغل بالتجارة) ترك زوجة وأولاداً يحبهم، ولكنه ذهب إلى المنفى بشجاعة، معتقداً في ضلاله وعماه أنه كان يتعذب (في سبيل العقيدة). إن من يعيش بعض الوقت إلى جانب هذا الرجل لا بد أن يتساءل دون إرادة: - كيف أمكن لهذا الرجل أن يتمرّد! - سألته عن عقيدته عدّة مرات. لم يكن يبوح بشيء عن معتقداته، ولكني لم ألاحظ في ردوده أبداً حقداً ولا ضغينة. ومع ذلك دمّر كنيسة، ولم ينكر ذلك إطلاقاً. كان يبدو مقتنعاً بأنّ جريمته وما كان يسميه (شهادة) كانتا من الأعمال المجيدة. كان بيننا سجناء آخرون أيضاً من قدامى المؤمنين، معظمهم من سيبيريا، وهم على جانب كبير من الذكاء والدهاء مثل فلاحين حقيقيين. كانوا يجادلون على طريقتهم ويتبعون شريعتهم تبعية عمياء، ويحبون النقاش كثيراً. ولكنهم كانوا يتّصفون بعيوب عديدة: إذ كانوا متكبرين، متعجرفين، وشديدي التعصب للعقيدة. ولم يكن الشيخ يشبههم على الإطلاق، وإنْ كان قوياً جداً، وأقوى شرحاً وتأويلاً حتى من إخوانه في الدين، فإنه كان يتحاشى النقاش. ولما كان منفتح الطبع ومرحاً، فقد كان يحدث أن

يضحك - لكن ليس ضحكاً وقحاً وبذيئاً كالسجناء الآخرين - بل ضحكاً عذباً ومضيئاً، ينمّ كثيراً عن براءة الطفولة وينسجم تماماً مع رأسه الأشيب. (قد أكون مخطئاً، ولكن يبدو لي أنّ بالإمكان معرفة الإنسان من ضحكته فقط، إن بدت لك جذابة ضحكة رجل غريب، فكن على يقين من أنه طيب وكريم). كان هذا الشيخ يحظى باحترام جميع السجناء، دون أن يصاب بأي غرور. كان السجناء يسمونه الجدّ، ولم يسيئوا إليه أبداً. وفهمت عندئذٍ أيّ نفوذ كبير استطاع هذا الشيخ أن يبسطه على أتباع ملّته. ورغم قوة العزيمة التي كان يتحمل بها قسوة حياة السجن، كان يبدو أنه ينطوي على حزن عميق، ما له شفاء. كنت أقيم معه في الثكنة نفسها. وذات ليلة، في نحو الثالثة صبحاً، صحوت، فسمعت نشيجاً بطيئاً، ومخنوقاً. كان الشيخ جالساً فوق المدفأة، (وهو المكان نفسه الذي كان ليلاً يصلي فيه من قبل السجين الذي أراد قتل الماجور) يقرأ في كتاب ملّته المخطوط. كان يبكي، وسمعته يردد: «يا رب، لا تتركني! يا رب، شدّ أزري! أولادي الصغار الأعزاء! أولادي الصغار الأحباء! لن نلتقي أبداً». لا أستطيع أن أصف كم كنتُ حزيناً.

وهكذا بدأ شيئاً فشيئاً جميع السجناء تقريباً يودعون أموالهم عند ذلك الشيخ. في سجن الأشغال الشاقة كان الجميع تقريباً لصوصاً، وفجأة، اقتنع الجميع لسبب ما أن هذا الشيخ لا يمكن أن يسرق بحال من الأحوال. كان معروفاً أنه يخبئ الأموال المودعة عنده في مكان ما، ولكنه مخبأ سري كان من المستحيل أن يكتشفه أحد. وفيما بعد باح بسره لي ولبعض البولونيين. في أحد أوتاد السياج كان غصن صغير، في الظاهر يبدو مرتبطاً ارتباطاً قوياً بالشجرة، لكن يمكن

انتزاعه ثم إرجاعه إلى مكانه، بمهارة. وثمة كانت فجوة، كان الشيخ يخبئ فيها المال.

أعود إلى سرد حكايتي. لماذا لا يحتفظ السجين بماله؟ لا يصعب عليه حفظه فحسب، ولكن السجن أيضاً كئيب جداً! إن السجين، بطبيعته، شديد الظمأ إلى الحرية! وحسب وضعه الاجتماعي، فإنه قليل الاكتراث، كثير الفوضى، وتراود ذهنه، بطبيعة الحال، فكرة تبديد رأسماله في القصف والعربدة، والصخب والموسيقى، وليس إلا لينسى حزنه لحظة واحدة. كان يبدو غريباً أن يرى بعض الأفراد منكبين على عملهم لهدف وحيد هو أن ينفقوا في يوم واحد ما كسبوه حتى آخر كوبيك، ثم، أن يستأنفوا العمل إلى حين احتفال جديد، طال انتظاره شهوراً.

كان كثير من السجناء يحبّون الثياب الجديدة المتميزة كثيراً أو قليلاً، كالسراويل السوداء الغريبة، والصدريات، والمعاطف، السيبيرية، ولكن ذوقهم كان يميل بالخصوص إلى القمصان الهندية، وكذلك الأحزمة ذات الإبزيم المعدني.

وفي أيام الأعياد، كان المتأنقون يلبسون ثياب الآحاد: لا بد من النظر إليهم وهم يتطاوسون في كل الثكنات. إنّ فرحتهم بأناقة ملابسهم تذهب بهم إلى حدّ الصبيانية. ومع ذلك فالسجناء في كثير من الأمور ليسوا سوى أطفال كبار. ولكن تلك الملابس الجميلة سرعان ما كانت تختفي، وغالباً في مساء اليوم نفسه الذي اشتريت فيه، ولا يلبث أصحابها أن يرهنوها أو أن يبيعوها بثمن بخس. إنّ حفلات المجون والعربدة كانت تعود دائماً تقريباً إلى تواريخ محدّدة، إذ تصادف الاحتفالات الدينية، أو عيداً شخصياً للسجين القاصف.

وكان هذا الأخير يضع شمعة أمام صورة العذراء، حين يصحو صباحاً، ويؤدي صلاته، ثم يرتدي ثيابه، ويطلب لنفسه طعام الغداء. لقد سبق له أن اشترى سلفاً لحماً، وسمكاً، وفطائر محشوة صغيرة، ويتّخم كالثور، تقريباً دائماً وحده، إذ نادراً ما كان سجين يدعو رفيقه ليقاسمه عيده. وعندئذٍ كانت تظهر الخمرة: كان السجين المحتفل يشرب ملء البطن مثل نعل جزمة حتى السكر، ثم يتجول في الثكنات، مترنحاً، متعثراً، وحريصاً على أن يظهر لجميع رفاقه أنه سكران، وأنه «يتنزه» وهو بالتالي يستحق احتراماً خاصاً.

إن الشعب الروسي يشعر دائماً بشيء من العطف على الإنسان السكران، عندنا، كان احتراماً حقيقياً، ففي السجن، كان السكر تقريباً نوعاً من التميز الأرستقراطي.

ومتى سرّ السجين دعا إليه موسيقياً، وكان بيننا بولوني قصير، هارب قديم من الجندية، دميم، ولكنه كان يملك كماناً يحسنُ العزف عليه. وبما أنه دون أيّة مهنة، كان يتبع السجين الطروب، من ثكنة إلى أخرى، عازفاً له ألحاناً راقصة بكلّ قواه. كثيراً ما كان وجهه يعبر عن الملل، والنفور، من هذه الموسيقى المتكررة باستمرار، ولكن على إثر صيحة السجين الذي يقول له: «اعزف، ما دمت قبضت مالاً على ذلك!» فإنه كان يستأنف العزف بمزيد من القوة.

كان هؤلاء السكارى واثقين من أنّ رفاقهم يحمونهم، وفي حالة ما إذا حضر الماجور فإنهم يخفونهم عن نظراته. لذلك كانت هذه الخدمة منزّهة عن الغرض والمنفعة. ومن جانب آخر كان ضابط الصف والجنود، الذين يبقون في السجن للحفاظ على النظام مطمئنين تمام الاطمئنان: فالسكير لا يمكن أن يسبب أية فوضى. وإذا ما

حاول أن يتمرد أو أن يحدث ضجة فإن رفاقه يهدئونه وقد يقيدونه أيضاً، لذلك كانت إدارة الحراسة (من المراقبين وغيرهم) تغضّ الطرف. وكانت تدرك أنّ منع الخمرة كان سيقلب الأمور رأساً على عقب. - فكيف كان يمكن الحصول على هذه الخمرة؟

كانت تُشترى في السجن نفسه، من (الخمارين) كما كان السجناء يسمون أولئك المشتغلين بهذه التجارة، - المربحة جداً، رغم قلة عدد الشاربين والمحتفلين، لأنّ كل احتفال كان يكلف كثيراً، بالقياس إلى موارد الزبائن الهزيلة. كانت التجارة تبدأ، وتستمر، وتنتهي بطريقة في غاية الطرافة. هذا أحد السجناء لا يجيد أية حرفة، ولا يريد أن يعمل، إلا أنه يودّ أن يغتني سريعاً، فإذا به يقرِّر، متى حصل على مال، أن يشتغل بتجارة الخمرة شراء وبيعاً. كانت هذه المقاولة خطيرة، تتطلب الكثير من الجرأة والشجاعة، لأن متعاطيها يخاطر فيها بجلده، ناهيك عن البضاعة. غير أنّ الخمّار لا يتراجع أمام هذه العقبات. وما دام في البداية لا يملك إلا قليلاً من المال، فإنه يحمل الخمرة بنفسه ويتاجر فيها بطريقة مربحة. ويكرر هذه العملية، مرة ثانية، فثالثة، إذا لم تَكتشف الإدارة أمره، وسرعان ما يكسب مالاً يتيح له أن يوسع تجارته، فيصبح مقاولاً، رأسمالياً: له عملاء، ومساعدون. فيخاطر عندئذٍ أقلّ ويربح أكثر. ومساعدوه هم الذين يجازفون من أجله.

إن السجن مليء دائماً بسجناء لا مال لهم ولا حرفة، ولكنهم يملكون الجسارة والمهارة. ورأسمالهم الوحيد هو ظهرهم، وكثيراً ما يقررون استغلال هذا الرأسمال المتحرك، فيقترحون على الخمارين إدخال الخمرة إلى الثكنات. ويوجد دائماً في المدينة جندي،

برجوازي صغير وأحياناً حتى فتاة، لشراء الخمر بمال الخمار، مقابل ربح متفق عليه - وهو على العموم هزيل جداً - ولإخفائه في مكان يعرفه السجين - المهرب، قريباً من الورشة التي يعمل فيها هذا الأخير. والمهرب دائماً تقريباً هو أوّل من يذوق جودة الفودكا، ويعوّض دون إنسانية ما شربه منها بالماء الخالص قائلاً في نفسه: «خذ أو لا تأخذ» - ولا يمكن للخمار أن يكون متعنتاً كثيراً ومتشدداً جداً، بل عليه أن يعدّ نفسه محظوظاً أيضاً، إذا لم يسرق منه ماله تماماً، وإن وصلت إليه الفودكا، كيفما كانت، فهي فودكا على كلّ حال.

ويصل المزود الذي عين له الخمار سابقاً مكان اللقاء إلى ذلك المورّد ومعه أمعاء ثور، مغسولة سلفاً، ومملوءة ماء، حتى تبقى لينة ومرنة، وملائمة لاستيعاب الفودكا على توالي الأيام.

وبعد أن تُملأ الأمعاء بالفودكا، يلفها السجين المهرِّب حول جسمه، في أكثر الأماكن سرية وخفاء. وأثناء ذلك يظهر المهرب كلّ ذكائه ودهائه اللصوصي. إنّ شرفه على المحك، وعليه أن يخدع الحرس ومركز الحراسة، وسيخدعهم. إذا كان المهرب بارع الحيلة فإن جندي الحراسة (مجنّد جديد في بعض الأحيان) لم يلاحظ شيئاً. وذلك لأن السجين قد درسه عميقاً، ورتّب الوقت ومكان اللقاء. فإن كان المهرب، - «قرميدياً» على سبيل المثال - فإنه يصعد فوق الفرن الذي يشوى فيه القرميد، وبالتأكيد لن يصعد معه جندي الحراسة ليراقب حركاته. ومن ذا الذي سيرى إذن ماذا يفعل هناك؟ وحين يقترب من السجن يهيئ كيفما اتفق قطعة نقدية من خمسة عشر أو عشرين كوبيكاً وينتظر عند الباب ... عريف الحرس. وهذا الأخير يفتش وينبش كل سجين حين عودته إلى الثكنة، ثم يفتح له الباب.

ويأمل حامل الفودكا أن يستحي من تفتيشه وجسّه دقة وتفصيلاً، في بعض الأماكن الحساسة. ولكن إذا كان العريف ماكراً فإنه يجسّ الأماكن الحرجة بالذات فيعثر على الفودكا المهربة. ولا تبقى للسجين عندئذٍ سوى فرصة وحيدة للسلامة، وهي أن يدسّ خلسة في يد ضابط الصف القطعة النقدية الصغيرة المعدّة، وبهذه الطريقة غالباً ما تصل الفودكا إلى يدي الخمار بدون مشاكل. ولكن قد لا ينجح الأمر أحياناً. وحينئذٍ يدخل رأس مال المهرب إلى التداول فعلاً. فيُكتب تقرير يرفع إلى الماجور الذي يأمر بجلد الرأسمالي السيئ الحظ بلا هوادة. أما الفودكا فتُصادر. وينال المهرب عقابه دون أن يخون المقاول، ليس لأن هذه الوشاية سوف تلطخ شرفه، بل لأنها لن تعود عليه بأيّة فائدة: فهو سوف يجلد على كل حال، والعزاء الوحيد الذي كان يمكن أن يحصل عليه هو أن يقاسمه الخمار عقوبته، ولكن، ما دام محتاجاً إلى هذا الأخير، فإنه لا يشي به، رغم أنه لا ينال أي أجر، إذا لم يستطع أن ينجح فافتضح.

غير أن الوشاية كانت مزدهرة في السجن. ولا أحد يغضب من الجاسوس أو يبتعد عنه، بل كثيراً ما يتخذ صديقاً، وإذا خطر ببال أحد أن يبيِّن للسجناء أنّ الوشاية غاية في الحقارة، فما كان يمكن أن يفهمه أحد في السجن. إن النبيل السابق الذي تحدثت عنه، هذا الكائن الجبان والدنيء الذي قَطعت صلتي به منذ وصولي إلى القلعة، كان صديق فيدكا، خادم الماجور، وكان يروي له ما كان يقع في السجن، وكان فيدكا، يسارع بالطبع فينقل إلى سيده كلّ ما كان يسمع. وكان جميع السجناء يعرفونه، ولكن، لم يخطر ببال أحد منهم أن يعاقبه أو أن يعاتبه على ذلك السلوك.

ولكنني ابتعدت عن حكايتي من جديد فلأعد إليها. حين كانت الفودكا تصل بنجاح إلى السجن، كان المقاول يدفع للمهرب أجرته، ويراجع حسابه. لقد كلفته بضاعته ثمناً غالياً جداً، لذلك كان، كي يكون الربح أكبر، يضيف إلى الفودكا نصف مقدارها ماء قراحاً: كان مستعداً، ولم يبق إلا أن ينتظر المشترين. في مطلع يوم عيد، وحتى بداية الأسبوع، يأتي سجين: عمل عدة أشهر، مثل زنجي، لكي يجمع كوبيكاً بعد كوبيك، قدراً صغيراً من المال، يقرر أن ينفقه دفعة واحدة. منذ مدة طويلة ويوم الاحتفال هذا مقرر ومحدد: حلم به طوال ليالي الشتاء، وخلال أشغاله الشاقة، فكان هذا يقوي عزيمته أثناء عمله الثقيل. وأخيراً يبزغ فجر ذلك اليوم المنتظر بنفاذ صبر: إنّ ماله في جيبه، لم يُسرق ولم يُصادر منه، وهو حرٌّ في أن ينفقه، فيحمل مدخراته إلى الخمار، الذي يعطيه في أول الأمر فودكا خالصة تقريباً، - لم تمزج بالماء إلا مرتين، - ولكن كلما فرغت الزجاجة يملأ فراغها ماء. لذلك يدفع السجين في ثمن قدح من الفودكا أغلى بخمس أو ستّ مرات مما يدفع في خمارة. ويمكن للمرء أن يتصور كم يحتاج السجين من هذه الأقداح ولا سيما كم يلزمه أن يدفع من مال، قبل أن يسكر. ولكن، بما أنه فقد عادة الشراب، فإنّ القليل من الكحول الذي يوجد في السائل يسكره بسرعة فائقة. ويظلّ يشرب حتى ينفق كلّ ما معه من مال: ثم يرهن أو يبيع كل أمتعته الجديدة، - فالخمار نفسه يقرض بالرهن - ولكن، بما أنّ أمتعته الشخصية قليلة، فإنه لا يلبث أن يرهن الأمتعة التي قدمتها له الحكومة. وعندما يشرب آخر قميص وآخر خرقة، ينام ويصحو الغداة على خُمار شديد. وعبثاً يتوسل إلى الخمّار أن يمنحه قطرة خمر ديناً ليذهب عنه ذلك

الصداع. ولا يملك إلا أن يتحمّل الرفض حزيناً. وفي اليوم ذاته يعود إلى العمل. ويظلّ طوال عدة أشهر متتالية حالما باليوم السعيد الذي مضى، وشيئاً فشيئاً يستعيد شجاعته، وينتظر مثل ذلك اليوم، الذي ما زال بعيداً جداً، ولكنه آتٍ لا محالة.

أما الخمار، فإنه إذا جنى مبلغاً كبيراً - بضع عشرات من الروبلات- يستمرّ في جلب الخمر، لكن هذه الخمرة الجديدة، لا يمزجها بالماء، لأنه هذه المرة يخصّ بها نفسه: كفى تهريباً! حان وقت التسلية! فيشرب ويأكل ويدفع أجر الموسيقى. وتتيح له موارده أن يغدق على الموظفين المرؤوسين في السجن. وتستمر هذه الحفلة عدة أيام. ومتى استنفد مؤونته من الشراب، يمضي إلى الخمارين الآخرين، الذين يتوقعون ذلك: فيشرب عندئذٍ آخر كوبيك. ومهما يكن انتباه السجناء شديداً لحماية رفاقهم المحتفلين الثملين، فقد يحدث أن يلاحظ الماجور أو ضابط الحرس ما في السجن من فوضى. وعندئذٍ يُقاد السكّير إلى مركز الحراسة، حيث يصادر رأسماله، - إنْ وُجِد معه مال - ويجلد. ثم ينفض السجين جسمه مثل كلب ملطّخ بالوحل، ويعود إلى ثكنته، ويستأنف مهنته خماراً بعد بضعة أيام.

ويوجد أحياناً بين السجناء بعض عشاق الجنس اللطيف: إذ يستطيعون، بمبلغ كبير من المال، تحت حراسة الجندي الذي رشي، أن يتسللوا خلسة خارج القلعة إلى إحدى الضواحي، بدلاً من الذهاب إلى العمل. وهناك في منزل صغير هادئ المظهر، تقام حفلة تنفق عليها مبالغ طائلة. إنّ مال السجناء لا يُستهان به، لذلك يرتِّب الجنود سلفاً مثل هذا الفرار، في بعض الأحيان، واثقين من مكافأتهم

بسخاء. وعلى العموم، هؤلاء الجنود مرشحون مستقبلاً للأشغال الشاقة. وتبقى عمليات الفرار هذه سرية دائماً تقريباً. وعليّ أن أقرّ بأنها نادرة جداً، لأنها تكلّف كثيراً، وعشاق الجنس اللطيف يلجؤون إلى وسائل أخرى أقل كلفة.

في بداية وجودي بالسجن، أثار انتباهي سجين شاب وسيم. كان اسمه سيروتكين: إنه كائن ملغز من نواحٍ عديدة. لفتَ نظري محياه، لم يكن يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره وكان ينتمي إلى القسم الخاص، أي أنه كان محكوماً عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة: فكان يجب النظر إليه باعتباره واحداً من أخطر المجرمين العسكريين. إنه وديع وهادئ، يتكلم قليلاً، ويضحك نادراً. عيناه الزرقاوان، بشرته الصافية، شعره الأشقر الناصع كل ذلك كان يضفي عليه تعبيراً جميلاً لا تفسده حتى جمجمته الحليقة. ورغم أنه دون أية حرفة، كان من وقت لآخر يحصل على قدر من المال قليل. كان على سبيل المثال كسولاً بشكل واضح، ودائماً قذر الثياب. وإذا تكرَّم عليه أحد فأهداه قميصاً أحمر، لا يصدق من شدة الفرح أنه يملك ثوباً جديداً، فيرتديه ويطوف به بين الثكنات. لم يكن سيروتكين يشرب خمراً ولا يلعب قمارا، ولا يتشاجر أبداً مع السجناء الآخرين. كان يتجول دائماً واضعاً يديه في جيبي سرواله، بخطى هادئة ونظرات متأملة. فيمَ كان يمكن أن يفكر؟ لا أعرف شيئاً من ذلك. إذا ناداه أحد طالباً منه شيئاً، فإنه كان يجيب حالاً باحترام وبوضوح، دون أن يثرثر كالآخرين: كان يرنو إليك دائماً بعينين ساذجتين كعيني طفل في سن العاشرة. وإذا كان معه مال، لم يكن يشتري شيئاً مما كان يعتبره الآخرون ضرورياً، وإنْ تمزقت سترته لم يكن يرقّعها، كما لم يكن

يشتري أحذية جديدة. ما كان يستهويه أكثر أن يشتري أرغفة السميطة، والفطائر، التي يقضمها بلذة طفل في السابعة من العمر. كان السجناء يقولون له: «آه يا سيروتكين! يا يتيم قازان المسكين!» عندما لم يكن هناك عمل، كان يتسكّع كالعادة في الثكنات. وإذا كان الجميع منشغلين، ظلَّ هو ساكناً متأرجح اليدين. وإذا مازحه أحد أو سخر منه، - الأمر الذي كان يحدث كثيراً - كان يدور على عقبيه، دون أن يقول كلمة، ويمضي إلى مكان آخر. وإن كانت المزحة مفرطة القوة، كان وجهه يحمر. كنت أتساءل كثيراً عن الجريمة التي أرسل بسببها إلى الأشغال الشاقة. وبينما كنت يوماً مريضاً راقداً في المستشفى، كان سيروتكين متمدداً على فراش غير بعيد عني، فأخذت أتحدث معه: فتحمس وروى لي من دون تحفّظ كيف جند، وكيف رافقته أمه باكية ووصف لي أنواع العذاب التي عاناها في الخدمة العسكرية. وأضاف أنه لم يستطع أن يتحمل هذه الحياة: حيث كان الناس جميعاً قساة، ويغضبون لأتفه الأسباب، وكان رؤساؤه غير راضين عنه في أغلب الأحيان.

- ولكن لماذا أرسلت إلى هنا؟ وأيضاً إلى القسم الخاص، آه! سيروتكين! يا سيروتكين!

- نعم، يا ألكسندر بيتروفيتش! لم أقضِ إلا سنة في الجندية وأرسلوني إلى هنا لأنني قتلت قائدي، غريغوري بيتروفيتش.

- سمعت أحداً يروي ذلك، لكني لم أصدقه. كيف استطعت أن تقتله؟

- كل ما قيل لك صحيح. لقد ثقلت عليّ حياتي كثيراً.

- ولكن المجندين الآخرين يتحملونها جيداً، هذه الحياة!

صحيح أنها قاسية قليلاً في البداية، ولكن المرء يعتاد عليها سريعاً ويصبح جندياً ممتازاً. لا شك أنّ أمك دللتك وغنجتك، وأنا على يقين أنها ظلّت تغذيك بكعك الأبازير وحليب الدجاج حتى الثامنة عشرة من عمرك!

- حقاً، كانت أمي تحبني كثيراً. عندما ذهبت، رقدت على سريرها ولم تبرحه. كم كانت قاسية عليّ آنذاك حياة الجندية! كل شيء كان يجري رأساً على عقب. كنت أعاقب باستمرار، ولماذا؟ كنت مطيعاً للجميع، وخاضعاً للأوامر، ومعتنياً بكل شيء، ولا أشرب خمراً، ولا أستدين من أحد، - شيء سيء، حين يبدأ الإنسان يستدين. ومع ذلك كان كلّ مَن حولي شديد القسوة، وعنيفاً جداً! كنت في بعض الأحيان أنحاز إلى أحد الأركان وأجهش بالبكاء، وأنتحب. ذات يوم، أو بالأحرى، ذات ليلة، كنت قائماً بالحراسة. كان الفصل خريفاً، والجوّ شديد الرياح، والظلمة التي لا ترى فيها قطة. وكنت حزيناً، حزيناً جداً، حزيناً كثيراً! نزعت حربة بندقيتي ووضعتها جانباً، ثم صوبت فوهة البندقية إلى صدري، وبإبهام قدمي - بعد خلع حذائي - ضغطت على الزناد. لم تنطلق الطلقة: فحصت بندقيتي، وحشوتها ببارود جديد، وأخيراً ضبطتُ صوّانتي، وصوبت الفوهة نحو صدري. وإذن! الطلقة لم تنطلق مرة ثانية. ما العمل؟ قلت لنفسي، ثم انتعلت حذائي، وأعدتُ حربتي من جديد إلى مكانها في البندقية، وأخذتُ أتجول جيئة وذهاباً، وبندقيتي على كتفي. قلت لنفسي: فليرسلوني إلى حيث شاءوا، ولكني لا أريد أن أكون جندياً. خلال نحو نصف ساعة، وصل الضابط، الذي كان يقوم بالجولة التفتيشية. وجاء إليّ مباشرة وقال لي: «أهكذا يسير الجندي حين

يكون حارساً؟» وإذا بي أمسك بندقيتي وأغرز الحربة في جسمه. وقد جلدت أربعة آلاف جلدة بالسوط... وهكذا وصلت إلى القسم الخاص.

لم يكن يكذب، ومع ذلك لا أفهم لماذا أرسل إلى هنا. إنّ جرائم مماثلة يعاقب عليها عقاباً أقل قسوة. كان سيروتكين السجين الوحيد الذي كان وسيماً حقاً. أما رفاقه في القسم الخاص، - وعددهم خمسة عشر سجيناً - فقد كان منظرهم رهيباً، وكانت سحناتهم بشعة، مقزِّزة. والرؤوس الشائبة فيهم كثيرة. سأتحدث عن هذه العصابة فيما بعد.

كان سيروتكين في أكثر الأحيان على صداقة مع غازين، - الخمار الذي تكلمت عنه في بداية هذا الفصل.

إن غازين هذا كائن رهيب. يترك لدى الجميع إحساساً بالرعب والحيرة والقلق. كان يخيل إليّ أنه لا يمكن أن يوجد كائن أشدّ منه ضراوة ووحشية. ولكني رأيت في توبولسك، قاطع الطريق، كامينييف، الشهير بجرائمه. وفيما بعد، رأيت سوكولوف، السجين الهارب، الفار من الجندية، والسفاح الكاسر. ولكن لا هذا ولا ذاك، بعث في نفسي الاشمئزاز الذي بعثه غازين. كنت أظنّ أن أمام عيني عنكبوتاً ضخماً، عملاقاً، في حجم إنسان. كان تترياً، ولم يكن أي سجين أقوى منه. كان يثير الرعب في النفوس بهامته الضخمة والمشوّهة أكثر مما يثيره بقامته الطويلة وبنيته الهرقلية. كانت تنتشر حوله أغرب الشائعات: قيل إنه كان جندياً، وزعم آخرون أنه فرّ من نيرتشينسك، وأنه نفي عدة مرات إلى سيبيريا، ولكنه كان يهرب في كل مرة. ثم فشل أخيراً في سجننا، الذي ينتمي فيه إلى قسم المؤبدين.

وعلى ما يظهر، كان يحب قتل الأطفال الصغار، الذين يستدرجهم إلى مكان منعزل، وعندئذٍ يمعن في الطفل إرعاباً وتعذيباً، وبعد أن يشفي غليله من الاستمتاع بخوف الطفل وارتعاشه من الذعر، كان يقتله ببطء، وهدوء، متلذذاً بذلك. ربما كانت هذه الفظائع تتصور من خلال الإحساس المؤلم الذي يتركه هذا الوحش في النفوس، ولكنها كانت فظائع حقيقية ومتطابقة مع سحنته. غير أنّ غازين حين لا يكون سكران، كان يتصرف تصرفاً شديد اللياقة. كان هادئاً دائماً، لا يتشاجر أبداً، ويتفادى الخصام احتقاراً لمن حوله، تماماً كما لو كان له رأي رفيع عن ذاته. لم يكن يتكلم إلا قليلاً. كلّ حركاته كانت موزونة، هادئة، ورزينة. ولم تكن نظرته تخلو من الذكاء، ولكنها تنمّ عن قسوة وسخرية، كابتسامته. كان بين السجناء المتاجرين في الخمرة أغناهم جميعاً. وكان يسكر مرتين في السنة، وعندئذٍ كان يكشف عن وحشيته الضارية. كان ينتشي شيئاً فشيئاً، ويزعج السجناء بسخرياته المسمومة، التي هيأها سلفاً منذ مدة طويلة. وأخيراً، حين يسكر تماماً، كانت تستبدّ به نوبات من الحنق المسعور، فيتناول سكيناً، ويندفع نحو رفاقه. فكان السجناء الذين يعرفون قوته الهرقلية يتحاشونه ويتنحون جانباً، لأنه كان ينقضّ على أول من يراه قادماً منهم. ومع ذلك وجدوا وسيلة لتجريده من سلاحه. إذ كان ينقضّ على غازين بغتة عشرة من السجناء ويضربونه ضرباً مبرحاً على سرته، وبطنه، وتحت قلبه، حتى يسقط مغمى عليه. كان يمكن أن يقتل أي إنسان بهذه الطريقة، لكن غازين كان ينجو منها. وعندما كانوا يشبعونه ضرباً مبرحاً كانوا يلفّونه بمعطفه ويلقون به فوق سريره الخشبي الألواح، قائلين: «فلينمْ الآن!» وفي الغداة كان يصحو سليماً معافى تقريباً،

ويذهب إلى العمل، صامتاً، واجماً. كلما سكر غازين كان جميع السجناء يعرفون كيف سينتهي النهار بالنسبة إليه. وهو نفسه كان يعرف ذلك، ولكنه كان يسكر رغم كل شيء. ومضت عدة سنوات على هذه الحال. ولاحظ السجناء أن غازين بدأ يدب إليه الهزال والضعف. وأنه أصبح لا يكفّ عن الأنين، شاكياً من علل كثيرة. وازدادت زياراته إلى المستشفى. فقال السجناء: «إنه يستسلم أخيراً».

في ذلك اليوم، كان غازين قد دخل إلى المطبخ، متبوعاً بالبولوني القصير، الذي كان يعزف على الكمان، ويستأجره السجناء القاصفون ليتمّ بهجة أعيادهم بموسيقاه. وقف غازين وسط القاعة صامتاً، محدقاً في رفاقه واحداً بعد آخر. لم ينبس أحد ببنت شفة. عندما رآني مع رفيقي، رمقنا بنظرته الخبيثة الساخرة، وابتسم ابتسامة رهيبة، بهيأة رجل يبدو مسروراً وهو يتخيل مقلباً جيداً سوف يقوم به. دنا من مائدتنا مترنحاً وقال:

- أيمكن أن أعرف من أين تأتون بالموارد التي تتيح لكم شرب الشاي هنا؟

تبادلت نظرة مع رفيقي، وأدركتُ أن من الأفضل أن نلوذ بالصمت، وأن لا نردّ عليه بشيء. فإن أدنى معارضة يمكن أن تثير حفيظة غازين.

وتابع كلامه قائلاً:

- لا شك أن لكما مالاً، لا بد أن يكون لكما منه الكثير، حتى تشربا الشاي، قولا إذن! هل أنتم في الأشغال الشاقة من أجل شرب الشاي؟ هيه! هل جئتم إلى هنا لتشربوه؟ ألا تتكلمان؟ أجيبا قليلاً لنرى، أن . . .

ولما أدرك أننا صامتان، وأننا قررنا أن لا ننتبه إليه، هرع، كابياً، مرتجفاً غيظاً. وعلى بعد خطوتين منا كانت توجد منضدة كبيرة، يوضع عليها الخبز المقطع لغداء وعشاء السجناء، كانت منضدة ضخمة تسع الخبز الذي يكفي لإطعام نصف السجناء. وفي تلك اللحظة كانت فارغة. فرفعها بكلتا قبضتيه ولوح بها فوق رأسينا. ورغم أن جريمة قتل أو محاولة قتل كانت معيناً لا ينضب من المزعجات بالنسبة إلى السجناء (إذ تجري عندئذٍ التحقيقات والتحقيقات المضادة والحملات التفتيشية التي لا تنقطع) ورغم أن السجناء كانوا عادة يمنعون المشاجرات الوخيمة العواقب، فقد لاذوا جميعاً بالصمت وظلوا ينتظرون . . .

لا كلمة لصالحنا! لا نأمة ضد غازين! - إن حقد السجناء على النبلاء كان شديداً جداً، إلى حدّ أنّ كل واحد منهم كان بالتأكيد يلتذّ بأنْ يرانا في خطر، وأن يحس بأننا في خطر. . . ولكن حادثاً سعيداً أنهى هذا المشهد الذي كاد أن يصبح مأسوياً، كان غازين يهمّ بأن يرخي فوق رأسينا المنضدة الكبيرة التي يديرها بين يديه، عندما هرع سجين مسرعاً من الثكنة التي كان ينام فيها وصاح:

- غازين، لقد سُرق خمرك!

وإذا بالرجل الشرير يدَع المنضدة تهوي على الأرض وهو يطلق شتيمة فظيعة، ويندفع خارج المطبخ. قال السجناء فيما بينهم، وظلوا يرددون هذه الجملة زمناً طويلاً: «هيا! لقد خلصهما الله!»

لم أستطع أن أعرف أبداً هل سرق خمره فعلاً، أم تلك حيلة لإنقاذنا ليس إلا . . .

وفي ذلك المساء نفسه، قبل إغلاق الثكنات، حيث كان الجو

معتماً، كنت أتجوّل بمحاذاة السياج. سقط على نفسي حزن ساحق، لم أشعر أبداً طوال المدة التي قضيتها في السجن، بتعاسة أشدّ من تلك التي شعرت بها في ذلك المساء. رغم أنّ أول يوم في السجن هو أصعب أيام السجن، أينما كان، في الأشغال الشاقة أو في الزنزانة . . . ظلّت تشغلني فكرة، ولم تترك لي راحة طوال مدة اعتقالي، - فكرة سؤال معقّد حينذاك ومعقّد الآن أيضاً - كنت أفكّر في اختلاف العقاب على الجرائم المتماثلة. لا يمكن، في الواقع، مقارنة جريمة بأخرى، ولو بصورة تقريبية. هذان رجلان قاتلان، كل منهما قتل إنساناً، وبحثتُ ظروف اقتراف الجريمتين بحثاً عميقاً ووزنت وزناً دقيقاً. ويطبّق على هذه وعلى تلك تقريباً العقاب نفسه، ومع ذلك ما أعمق الهوة بين الفعلين! أحدهما قتل من أجل شيء تافه، من أجل بصلة، - لقد قتل على الطريق فلاحاً عابراً ولم يجِد معه غير بصلة.

- وماذا، إذن! أرسلوني إلى الأشغال الشاقة من أجل فلاح لم يكن معه إلا بصلة.

- يا لك من غبي! ثمن البصلة كوبيك. فلو قتلت مائة فلاح لكان لك مائة كوبيك. يعني روبلاً! (أسطورة السجن).

أما القاتل الثاني، فقد قتل فاسقاً اضطهد أو لوّث شرف زوجته أو أخته أو ابنته. رجل ثالث، متشرد، شبه ميت من الجوع، تطارده زمرة من الشرطة، فيدافع عن حريته، وعن حياته. فهل هو مساوٍ لذلك الرجل الشرير، الذي قتل الأطفال، متمتعاً، متلذذاً بأن يحسّ جريان دمهم الدافئ على يديه، ورؤيتهم وهم يرتعشون كآخر رعشة عصفور، تحت السكين الذي يمزق لحمهم؟ وإذن! هؤلاء وأولئك

القتلة كلهم سيذهبون إلى الأشغال الشاقة. قد لا يكون للحكم مدة متساوية، - لكن أنواع العقوبات قليلة، بينما يجب أن تعدّ أنواع الجرائم بالآلاف. بقدر ما هنالك من أنواع الطباع، بقدر ما هنالك من أنواع الجرائم المختلفة. لنفترض أنّ من المستحيل إزالة هذا التفاوت الأول في الجريمة، وأنّ المشكل يتعذّر حلّه، وفي شأن العقوبة، إنه أمر مستحيل، كتربيع الدائرة. لنسلم بذلك. حتى لو تغاضينا عن هذا التفاوت، هناك تباين آخر: هو الاختلاف في نتائج عواقب العقوبة . . . هو ذا إنسان يهلك، ويذوب كشمعة. وها هو ذاك على العكس إنسان آخر، لم يخطر بباله، قبل أن ينفى، أنّ من الممكن أن توجد حياة في غاية المرح والخمول، حيث سيجد في السجن حلقة ممتعة من الأصدقاء. هنالك بعض الأفراد من هذه الفئة الأخيرة يلتقون في سجن الأشغال الشاقة. خذ الآن إنساناً نقي القلب، مثقف الذهن ومهذب الضمير. إنّ ما يحسّ به يقتله بألم أشدّ من العقاب المادي. وإنّ الحكم الذي أصدره هو نفسه على جريمته لهو عديم الشفقة أكثر من حكم أقسى محكمة، ومن القانون الأكثر جوراً. وهو يعيش جنباً إلى جنب مع سجين آخر لم يفكر مرة واحدة في الجريمة التي يعاقب عليها، طوال إقامته في السجن، وربما يظنّ أنه بريء منها. - ثم أليس هنالك كذلك بعض الرجال المساكين الذين يرتكبون جرائم من أجل أن يرسلوا إلى الأشغال الشاقة وان يتخلصوا بذلك من حرية أشق بما لا يقاس من السجن؟ الحياة بائسة وتعيسة، ربما لم يأكل المرء أبداً حتى الشبع، ويقتل نفسه عملاً ليغتني سيده. . . في سجن الأشغال الشاقة، يصبح العمل أقلّ مشقّة، وأقل صعوبة، يأكل ملء بطنه، أفضل ممّا لا يمكنه أن يأمل الآن.

وفي أيام الأعياد، يأكل لحماً، ثم هناك الصدقات، وعمل المساء الذي يعود عليه ببعض المال. والمجتمع الذي يوجد في السجن، ألا يساوي شيئاً؟ السجناء أناس مهرة، مكرة، يعرفون كل شيء. وبإعجاب لا يخفى ينظر الوافد الجديد إلى رفاقه في القيد، لم ير شيئاً كهذا، لذلك يعتبر نفسه وسط أفضل صحبة في العالم.

أيمكن أن يكون لهؤلاء الرجال المختلفين الشعور نفسه بالعقوبة الصادرة عليهم؟

ولكن ما جدوى الانشغال بسؤال عصي الجواب؟

هذا الطبل يدق، يجب الدخول إلى الثكنة...

4. الإحساسات الأولى
(تتمة)

راقبونا مرة أخرى ثم أغلقوا أبواب الثكنات، كلّ باب بقفل خاص، وبقي السجناء محبوسين حتى مطلع الفجر.

قام بالمراقبة ضابط صفّ، بصحبة جنديين. إذا اتفق أن حضر ضابط، يصف السجناء في الفناء، ولكنهم في أغلب الأحيان يفحصون داخل المباني نفسها. وبما أن الجنود غالباً ما يخطئون العدّ، فقد كانوا يخرجون ويدخلون ليعيدوا عدَّنا من جديد واحداً واحداً، إلى أن يتأكدوا أن عدّهم كان صحيحاً، وعندئذٍ يغلقون الثكنات. كلّ ثكنة كانت تضمّ نحو ثلاثين سجيناً، لذلك كانت الأسرة محصورة في مكان ضيق كثيراً ومتقاربة. وقبل موعد النوم، كان السجناء يباشرون العمل.

علاوة على الجندي المعطوب، الذي تكلمت عنه، والذي كان ينام في مرقدنا، ويمثل أثناء الليل، إدارة السجن، كان هناك في كل ثكنة سجين «قديم» معين من طرف الماجور، جزاء سلوكه الحسن. ورغم ذلك لم يكن من النادر أن يرتكب «القدماء» جنحاً يعاقبون عليها بالجلد ويفقدون عندئذٍ مكانتهم ويستبدلون بسجناء آخرين ممّن يكون سلوكهم مرضياً. كان «قديمنا» هو أكيم أكيميتش بالذات، وقد دهشت كثيراً من أنه كان يوبخ السجناء بعنف، ولكنهم لم يكونوا يردون على وبخاته إلا بالسخريات. أما الجندي المعطوب، فهو نبيه أكثر، ولا يتدخّل في شيء، وإذا فتح فاه بالكلام، فليس إلا مراعاة للمجاملات، وتبرئة للذمّة. كان يبقى جالساً، صامتاً، فوق مرقده، ومشغولاً برتق جزمات قديمة.

في ذلك اليوم، لاحظت شيئاً تأكّدت من صحته فيما بعد، هو أنّ كل أولئك الذين ليسوا سجناء، سواء من جنود الحرس أم من الموظفين، كانوا ينظرون إلى السجناء من زاوية نظر خاطئة ومغالية، ويتوقّعون أن ينقض عليهم السجناء، بسكين، لأسباب تافهة، بمجرد أن يقولوا لا أو نعم. وكان السجناء، الذين يدركون تماماً هذا الخوف الذي يبعثونه في النفوس، يظهرون نوعاً من العجرفة والكبرياء. لذلك فإنّ أحسن رئيس للسجن هو بالضبط من لا يحسّ في حضورهم بأيّ انفعال. ورغم المظاهر التي يتخذها السجناء فإنّهم يفضلون أن يحظوا بالثقة، بل يمكن حتى كسب مودّتهم بفضل تلك الثقة. وأتيح لي أكثر من مرة أن ألاحظ دهشتهم حين دخول رئيس إلى سجنهم بدون حراسة، وليس في هذه الدهشة بالتأكيد أي تملق: فالزائر الشجاع يفرض احترامه على نزلاء السجن، وإذا ما وقع أيّ شيء سيئ فلن

يكون أبداً في حضوره. إنّ الرعب الذي يبعثه السجناء في النفوس عام، ولكنه في نظري لا يقوم على أي أساس. فهل سحنة السجين، وهيئته الإجرامية هي التي تسبب نوعاً من النفور؟ أليس هو بالأحرى الشعور الذي يستبدّ بنا منذ دخولنا إلى السجن، بأن نعرف أنّ من المستحيل على المرء، رغم جميع الجهود، والإجراءات المتخذة، أن يحول إنساناً حياً إلى جثة، وأن يخنق عواطفه، وعطشه إلى الانتقام وإلى الحياة، وأهواءه وحاجته القوية إلى إرضاء هذه الأهواء.

ومهما يكن، أؤكد أنّه لا داعي للخوف من السجناء. فلا إنسان ينقض بسكين على شبيهه بمثل هذه السرعة والسهولة. وإذا وقعت بعض الحوادث أحياناً فهي نادرة جداً وخالية من أية خطورة. لا أتكلم بالطبع إلا عن السجناء المحكومين، الذين يقضون عقوبتهم، ويكاد بعضهم أن يشعر بالسعادة لوجوده أخيراً في السجن: لأن شكلاً جديداً من الحياة يجذب الإنسان دوماً! وهم يعيشون هادئين وخاضعين. أما المشاغبون فالسجناء أنفسهم يرغمونهم على التزام الهدوء، ولا تذهب بهم عجرفتهم بعيداً أبداً، فالسجين، مهما يكن جسوراً ومتهوّراً، يخاف من كل شيء في السجن. وليس الأمر كذلك بالنسبة إلى المتهم الذي لم يتقرّر مصيره بعد. فهذا الأخير قادر تماماً على الانقضاض، على أي شخص، دون داعٍ من بغض، لا لشيء إلا لأنه لا بد أن يجلد غداً، وفعلاً، إذا ارتكب جرماً جديداً، تعقَّدت قضيته، وتأخَّرت عقوبته، وكسب وقتاً. ولهذا الاعتداء ما يفسّره، لأن له سبباً، وهدفاً، فالسجين عندئذٍ يريد «أن يغير مصيره» مهما كلّف الأمر، وعلى الفور. وبهذه المناسبة، كنت شاهداً على واقعة نفسية شديدة الغرابة.

في قسم المحكومين العسكريين كان يوجد جندي قديم أرسل إلى سجن الأشغال الشاقة لمدة سنتين، وكان مدعياً متشدقاً وجباناً في الآن نفسه. - وعلى العموم، الجندي الروسي غير متبجّح على الإطلاق، لأنه لا وقت لديه لذلك، حتى لو أراد. وإن وجد أحد بين الجنود شديد المباهاة فهو دوماً جبان ومحتال. - دوتوف - هو اسم السجين الذي أتكلم عنه، - قضى عقوبته والتحق من جديد بفرقة على الحدود، ولكنه مثل كل الذين أرسلوا إلى السجن لإصلاحهم كان قد فسد فيه تماماً. إن هذه الخيول العائدة إلى السجن بعد أسبوعين أو ثلاثة أسابيع من الحرية، ليس لقضاء مدة قصيرة نسبيا، بل ليقضوا فيه خمسة عشر عاماً أو عشرين سنة. وذلك ما حدث لدوتوف. بعد ثلاثة أسابيع من إطلاق سراحه، سرق أحد رفاقه قسراً وتمرّد. فحوكم، وصدر عليه حكم جسدي قاسٍ. ومن شدّة خوفه، لأنه كان جباناً، من العقاب المقبل، انقضّ بسكين على ضابط الحرس الذي دخل إلى زنزانته، عشية اليوم الذي كان يجب أن ينفذ فيه الحكم بجلده. كان يدرك تماماً أنه بذلك يفاقم جريمته ويزيد في مدة عقوبته. لكن كلّ ما كان يريد أن يؤجّل، لبضعة أيام أو عدّة ساعات على الأقل، ساعة العقاب الرهيبة. ومن شدّة جبنه لم يستطِع حتى أن يجرح الضابط بالسكين الذي شهره عليه، فلم يرتكب هذا الاعتداء إلا ليضيف إلى ملفّه جريمة جديدة، كانت توجب إعادة محاكمته.

إنّ اللحظة التي تسبق تنفيذ العقاب هي لحظة رهيبة بالنسبة إلى السجين المحكوم عليه بالجلد. رأيت كثيراً من المحكومين، عشية اليوم المحتوم المشؤوم. كنت ألتقي بهم عادة في المستشفى حين أكون مريضاً، وكثيراً ما كنت أمرض. في روسيا، أرحم الناس

بالمحكومين هم الأطباء بكلّ تأكيد، لا يتعاملون مع السجناء بأي نوع من أنواع الميز التي يعاملهم بها الأشخاص الآخرون الذين لهم معهم صلة مباشرة. وربما الشعب وحده يحارب مع الأطباء رحمة بالسجناء، لأنه لا يلوم المجرم أبداً على الجريمة التي ارتكبها مهما تكن هذه الجريمة، ويغفرها له بسبب ما تحمله من عقاب.

ليس عبثاً أن يسمّي الشعب، في عموم روسيا، الجريمة تعاسة والمجرم تعيساً. ولهذا التعريف دلالة بليغة، وعميقة، وهامة لا سيما وأنه لاشعوري وفطري. - فالأطباء إذن هم الملجأ الطبيعي للسجناء، خاصة حين يكون على هؤلاء أن يكابدوا عقوبة بدنية... فالمتّهم المحال على مجلس عسكري يعرف تقريباً في أية لحظة سينفّذ الحكم، وحتى يفلت منه، يتمارض كي يرسل إلى المستشفى، من أجل تأجيل اللحظة الرهيبة بضعة أيام. وعندما يظهر أنه تعافى، لا يجهل أن تلك اللحظة آتية، غداة خروجه من المستشفى، لذلك يلوذ السجناء بالصمت دوماً في ذلك اليوم. يحاول بعضهم حقاً أن يخفي انفعاله، حتى يحافظ على كبريائه، ولكن لا أحد ينخدع بهذا التظاهر الزائف بالشجاعة. كل واحد يفهم قسوة هذه اللحظة، ويصمت شفقة! عرفت سجيناً شاباً، كان سابقاً جندياً، أدين بتهمة القتل، وكان عليه أن يتلقى أقصى ضربات بالسياط. عشية اليوم الذي كان سيجلد فيه، قرر أن يشرب زجاجة فودكا، ينقعها بالسعوط. - إن السجين المحكوم عليه بالجلد، كان يشرب دائماً، قبل اللحظة الحاسمة، خمراً، هيأها سلفاً، منذ مدة طويلة، واقتناها بثمن باهظ: كان يمكن أن يحرم نفسه مما هو ضروري لمدة ستة أشهر، ولكنه يوفر مهما كلفه الأمر ما يشتري به ربع لتر من الفودكا، التي يتجرعها ربع ساعة قبل

تنفيذ العقوبة. فالسجناء مقتنعون بأنّ الإنسان الثمل يتألم من ضربات العصا أو السوط أقل مما لو كان صاحياً. - وأعود إلى حكايتي. فقد سقط الشاب المسكين مريضاً بعد لحظات من شرب زجاجة الفودكا وتقيأ دماً ونُقِل مغمى عليه إلى المستشفى. ومن شدّة تمزق صدره اعتبر أن سلاً أصابه وأودى بحياة الجندي بعد بضعة أشهر. ولم يعرف الأطباء الذين كانوا يعالجونه سبب مرضه أبداً.

وإذا لم تكن الأمثلة على الجبن نادرة بين السجناء، فيجب أن نضيف كذلك أنه توجد بينهم أمثلة على شجاعة مذهلة. أذكر عدة أشكال من البسالة وصلت إلى حدّ فقدان الشعور. ولا يزال محفوراً في ذاكرتي وصول قاطع طرق مخيف إلى المستشفى. ففي أحد أيام الصيف، انتشرت في مشفانا شائعة تقول إنّ قاطع الطرق الشهير أورلوف كان سيجلد في ذلك المساء نفسه وبعد ذلك يحمل إلى سيارة الإسعاف. كان السجناء الذين يوجدون في المستشفى يؤكدون أنّ تنفيذ العقاب سيكون قاسياً، لذلك كان الجميع واجمين. أنا نفسي أعترف بذلك، كنت أنتظر بفضول وصول قاطع الطرق هذا الذي تحكى عنه أشياء فظيعة. كان مجرماً قلَّ نظيره، وقادراً على أن يقتل بدم بارد شيوخاً وأطفالاً، وكان يتمتع بقوة إرادة لا تروض، ويطفح زهواً واعتداداً بقوته. وبما أنه ارتكب جرائم عديدة، فقد حكم عليه بالجلد. وأتوا به أو بالأحرى حملوه في المساء. كانت القاعة غارقة في الظلام، وشرع السجناء يشعلون الشموع. كان أورلوف شديد الشحوب، دون وعي تقريباً، وذا شعر كثيف ومعقوص، وأسود كامد، غير لامع. وكان ظهره كله مسلوخاً ومنتفخاً، وأزرق، مع بقع من الدم. وظلّ السجناء يعالجونه طوال تلك الليلة، يغيّرون له

الضمادات، ويضجعونه على جنبه، ويحضّرون له الغسل الذي أمرَ به الطبيب، وبكلمة، اعتنوا به كما يعتني المرء بقريب له أو أحد أحسن إليه. وفي الغداة، استعاد حواسه كاملة، وقام بجولة في القاعة. فأدهشني ذلك، لأنه كان مدمّراً، ومنهك القوى حين جيء به، كان قد تلقّى نصف الجلدات المحددة في القرار. ثم أوقف الطبيب التنفيذ، لاقتناعه بموت أورلوف حتماً إذا استمروا في جلده. كان هذا المجرم ضعيف البنية، قد هدّه طول الإقامة في السجن. ومن رأى سجناء حكم عليهم بالجلد، سيظلّ يتذكر دائماً وجوههم الهزيلة والمنهكة، ونظراتهم المحمومة. وسرعان ما تعافى أورلوف: لا شك أنّ طاقته الجبارة ساعدته على استعادة عافيته الجسمية، إنه ليس بالرجل العادي. وقد تعرّفت إليه بدافع حبّ الاطّلاع، واستطعتُ أن أدرسه على مهل طوال أسبوع كامل. لم أصادف في حياتي رجلاً مثله أشدّ عزيمة وأقوى شكيمة. رأيت في توبولسك رجلاً ذائع الصيت من هذا الصنف، كان زعيماً قديماً لعصابة من قطاع الطرق. كان هذا الأخير وحشاً ضارياً حقاً، لا يكاد المرء يلمسه حتى يتوجّس أنه كائن خطير. ما أرعبني منه خاصة، هو غباؤه، فقد كانت المادة فيه غالبة على الروح، حتى أن مَن يراه للوهلة الأولى يحسّ بأنه لم يعُد لديه شيء، سوى الإشباع الوحشي لحاجاته الجسدية. ومع ذلك أنا على يقينٍ تامّ أنّ قاطع الطرق كورينيوف، - وهذا هو اسمه - كان سيغمى عليه عند سماع الحكم بالعقاب البدني القاسي كالذي أوقعوه بأورلوف، ولكان ذبح أول قادم دون أن يرفّ له جفن. أورلوف، بالعكس، كان انتصاراً رائعاً للروح على الجسد. هذا الرجل كان متحكماً في نفسه تماماً: كان لا يشعر نحو العقوبات إلا بالاحتقار، ولا يخشى شيئاً في

العالم. إن الشيء المهيمن فيه، هو طاقة ما لها حدود، هو ظمأ إلى الانتقام، هو نشاط شديد، وإرادة لا تتزعزع، عندما كان الأمر يتعلق بتحقيق هدف. أذهلني مظهره المتعجرف، كان ينظر إلى كل شيء من علٍ، ليس تكلُّفاً، فقد كان هذا التكبر فطرياً فيه. لا أظنّه متأثراً بأحد. كان ينظر إلى كلّ شيء ببرودة أعصاب، كأنّ لا شيء يمكن أن يثير دهشته. كان يعلم جيداً أن السجناء الآخرين كانوا يحترمونه، ولكنه لم يستغلّ ذلك قطعاً من أجل التظاهر بالاستعلاء. ومع ذلك فالغرور والتكبُّر من العيوب التي لا يخلو منها أي سجين. كان ذكياً، ولا تمت صراحته العجيبة بصلة إلى الثرثرة. كان يجيب دون لفٍّ ولا دوران عن كل الأسئلة التي طرحتها عليه، واعترف لي بأنه كان ينتظر شفاءه بنفاد صبر حتى ينتهي من العقوبة التي كان عليه أن يكابدها. قال لي غامزاً: «الآن، انتهى الأمر! سأنال ما تبقى لي من العقوبة، ثم أرحّل إلى نيرتشينسك مع قافلة من السجناء، وسأنتهز هذه الفرصة كي أهرب. وسوف أفرّ، بكل تأكيد! لو تلتئم جراح ظهري بسرعة فقط!» خلال خمسة أيام، وهو يتحرق شوقاً إلى تحسن حالته ليستطيع مغادرة المستشفى. كان في بعض الأحيان يبدو مرحاً، ورائق المزاج. وكنت أغتنم هذه اللحظات من الصفاء لأسأله عن مغامراته. كان يقطب وجهه قليلاً، ولكنه كان دائماً يجيب عن أسئلتي بصدق. وعندماً أدرك أنني كنت أحاول أن أخترقه، وأن أجد فيه بعض آثار الندامة، نظر إليّ باستعلاء وازدراء، كما لو كنت صبياً غبياً، كان يشرفه كثيراً أن يتحدث معه. وفوجئت بنوع من الإشفاق عليّ يرتسم في وجهه. وبعد لحظة قصيرة، انفجر بالضحك ملء حلقه، ولكن دون أدنى سخرية، ويخيل إليّ أنه كان لا بد أن يضحك بأعلى صوته

أكثر من مرة كلما تذكر كلماتي. وسجل اسمه أخيراً للخروج من المستشفى، رغم أن جراح ظهره لم تندمل تماماً، وبما أنني شفيت تقريباً، فقد غادرنا المستشفى معاً: عدت أنا إلى السجن، بينما أعيدَ هو إلى المركز الذي كان مسجوناً فيه من قبل. عندما تركني، صافحني، وكان ذلك في نظره علامة على الثقة العالية. في الواقع، كان يحتقرني دون شك، لأنني كنت إنساناً ضعيفاً، يُرثى له من جميع النواحي، ومستسلماً لمصيره. وفي الغداة، نفذ فيه النصف الثاني من عقوبة الجلد...

عندما أغلقت علينا أبواب ثكنتنا، اتخذت فوراً مظهراً آخر، كمسكن حقيقي، ومنزل عائلي. وحينئذٍ فقط رأيت رفاقي السجناء كما لو كانوا في بيوتهم الخاصة. أثناء النهار، كان يمكن أن يأتي بغتة ضباط الصف أو بعض الرؤساء الآخرين، لذلك كان السجناء قلقين، ومتنبهين دائماً، ولا يشعرون بالاطمئنان التام. وعندما تدور المفاتيح في الأقفال، وتغلق الأبواب، كان كل سجين يجلس في مكانه ويشرع في عمله الخاص. وقد أضيئت الثكنة بصورة غير منتظرة: لكل سجين شمعة وشمعدان من خشب. كان بعض السجناء يرتقون أحذية، وآخرون يخيطون بعض الثياب.

كان الهواء الفاسد قبلاً يزداد فساداً. وكان بعض السجناء الذين يقرفصون في ركن يلعبون بالورق فوق سجادة ممدودة. في كل ثكنة كان هناك سجين يملك سجادة طولها ثمانون سنتيمتراً، وشمعداناً ومجموعة من أوراق اللعب ملطخة بالزفت والشحم. كل هذا مجتمعاً كان يسمى «ميدان». كان صاحب الورق يتلقى من المقامرين خمسة عشر كوبيكاً عن كل ليلة، كانت هذه هي تجارته. كانوا يلعبون عادة

لعبة «ثلاث ورقات» لعبة «رهان»... إلخ. وهي كلها من ألعاب الحظ. كان كل سجين يضع أمامه كومة من القطع النقدية النحاسية، - هي كل ثروته - ولم يكن ينهض من اللعب إلا حين كان يخسرها أو يربح كل ما لدى الآخرين الخاسرين. كان اللعب يمتدّ حتى وقت متأخر من الليل، وفي بعض الأحيان كان الفجر يبزغ على لاعبينا الذين لم يفرغوا بعد من المقامرة، بل كثيراً ما لا ينقطعون عن اللعب إلا قبيل فتح الأبواب بدقائق معدودة. كان في ثكنتنا، - كما في كل الثكنات - متسولون، بايغوشيون، خسروا كل ما يملكون في القمار أو الشراب، أو على الأصح «فطروا» على التسول. أقول «فطروا» وأعني ما أقول.

في الواقع، يوجد وسط شعبنا وسيظلّ يوجد دائماً ومهما تكن الظروف عدد من هذه الشخصيات العجيبة والمسالمة، وغالباً ما لا تكون كسولة، ولكن كتب عليها أن تبقى دائماً متسولة. إن هؤلاء المتسولين مساكين طوال حياتهم، قذرون، ومرهقون، ويظلون تحت هيمنة، ووصاية أحد من الناس، ولا سيما من المبذّرين، ومحدثي النعمة المغتنين. كل جهد، وكل مبادرة، عبء عليهم. إنهم لا يعيشون إلا شريطة أن لا يبادروا إلى أي شيء بأنفسهم، ولكن أن يخدموا دائماً، وأن يعيشوا دائماً بإرادة شخص آخر، مقدَّر عليهم أن يتصرفوا من خلال الآخرين ومن أجل الآخرين. ولا يمكن لأيّ ظرف أن يغنيهم، حتى وإن كان ظرفاً لم يتوقع قط، إنهم دائماً متسولون. التقيت بأناس من هؤلاء في جميع طبقات المجتمع، وفي جميع الفئات، وفي جميع الهيئات، وحتى في عالم الأدب. ويوجدون في كل سجن، وفي كل ثكنة.

كلما شكلت حلقة «ميدان» - قمار، نودي أحد أولئك الشحاذين، الذي كان ضرورياً للمقامرين، فيتقاضى خمسة كوبيكات، عن كل ليلة عمل كاملة، وأي عمل! كان عمله أن يحرس الدهليز، في ظلام دامس وبرد قارس يصل إلى ثلاثين درجة تحت الصفر، خلال ست أو سبع ساعات. كان هذا المراقب يرصد أدنى صوت، لأن الماجور أو ضباط الحرس كانوا يقومون بجولتهم التفتيشية في ساعة متأخرة من الليل. كانوا يأتون خلسة ويفاجئون اللاعبين متلبسين بالمخالفة، بفضل ضوء الشموع، الذي كان يمكن أن يلاحَظ من الفناء. حين كان يُسمع صرير المفتاح في القفل، الذي يغلق الباب، يفوت الأوان على الاختباء وإطفاء الشموع والاستلقاء فوق الألواح الخشبية. كانت مثل هذه المداهمات نادرة جداً. وكانت الكوبيكات الخمسة بخسة حتى في سجننا. ومع ذلك كان يدهشني دائماً تشدّد اللاعبين القساة في هذه الحالة، وفي حالات أخرى، - «لقد دفعنا لك أجرك، فعليك أن تخدمنا!» وتلك حجّة لا تُدحض. كان يكفي أن تدفع لأحد من الناس دريهمات قليلة لتستغله إلى أقصى حدٍّ ممكن، ولتطالبه حتى بالاعتراف لك بالجميل. أكثر من مرة أتيح لي أن أرى بعض السجناء ينفقون مالهم بلا حساب، وبلا تمييز، ويغشون «خادمهم»، رأيت ذلك في أكثر من سجن وعدّة مرات.

سبق لي أن قلت إن لجميع السجناء عملاً خاصاً، باستثناء المقامرين: وهناك خمسة سجناء فقط كانوا لا يقومون بأي عمل، وينامون تقريباً مباشرة بعد إغلاق الباب. كان مكاني على ألواح الخشب يوجد قرب الباب، ثم يليه مكان أكيم أكيميتش ومتى رقدنا تلامس رأسانا. ظلّ يشتغل حتى الساعة العاشرة أو الحادية عشرة،

بإلصاق فانوس متعدِّد الألوان، طلبه منه أحد سكان المدينة، وكان سيتقاضى عنه مبلغاً كبيراً. كان بارعاً في هذا العمل، الذي ينجزه بطريقة منهجية، وبلا انقطاع، ولمّا فرغ منه، جمع أدواته بعناية، ومدّ فراشه، وأدّى صلاته، ونام ملء جفنيه. كان يبالغ في التقيد بالنظام والدقة إلى حدِّ الحذاقة، ولا شك أنه في قرارة نفسه يعتبر نفسه إنساناً ذكياً، كحال محدودي وقليلي الذكاء. لم يعجبني في بادئ الأمر، رغم أنه أتاح لي كثيراً أن أفكر في ذلك اليوم: وأدهشني خاصة أن يوجد مثل هذا الرجل في سجن الأشغال الشاقة، بدلاً من أن يكون خارجه فائق النجاح في مهنته. وسأتحدث عن أكيم أكيميتش أكثر من مرة في قصتي التالية.

ولكن عليَّ أن أصف جماعة ثكنتنا. لقد قدِّر لي أن أعيش فيها عدداً من السنوات، وهؤلاء الذين يحيطون بي لا بد أن يكونوا رفاقي في كل دقيقة. وبالطبع كنت أنظر إليهم بكثير من حبّ الاطِّلاع! عن يساري، كانت تنام عصابة من الجبليين القوقازيين، الذين كانوا جميعاً تقريباً منفيين، لأنهم من قطّاع الطرق، وحكم عليهم بعقوبات مختلفة، كان هناك ليزغينيان، وشيشاني، وثلاثة من تتر داغستان. كان الشيشاني مقطباً، كئيباً، ولا يتكلم تقريباً أبداً، ويختلس النظر إليك، بابتسامة خبيثة كابتسامة بهيمة سامة.

أما أحد الليزغينيين فكان شيخاً، أقنى الأنف، طويل القامة، نحيل الجسم، ويبدو بوضوح أنه قاطع طرق، وفي المقابل، فإن الليزيغيني الآخر، واسمه نورّا، قد ترك فيَّ أثراً طيباً، وأشعرني بالارتياح. كان مربوع القدّ، وما زال شاباً، هرقلي البنية، أشقر الشعر، أزرق العينين، أخنس الأنف قليلاً، وفنلندي القسمات: مثل

كل الفرسان، كان يمشي مقوّس الساقين. وكان جسمه مزرّداً بالندوب، ومجرّحاً بحربات البنادق أو طلقات الرصاص. ورغم أنه جبلي خاضع من القوقاز، فقد انضم إلى المتمردين، وشن معهم غارات متواصلة على أراضينا الروسية. كان يحبّه جميع مَن في السجن، بسبب مرحه، وبشاشته، كان يعمل دون تذمر، هادئاً ومسالماً دائماً، ويشمئز من السرقات والاحتيالات والعربدات، أو يستشيط منها غضباً، وبكلمة، لم يكن يحتمل كلّ ما كان منافياً للشرف، ولا يحاول أن يتشاجر مع أحد، بل يشيح بوجهه مستنكراً ليس إلا.

خلال وجوده في السجن لم يسرق ولم يقُم بأي شيء سيئ. كان ورعاً مولعاً بالعبادة بصورة خارقة للعادة، يؤدي صلواته بطهارة ويصوم قبل الأعياد المحمّدية كمتعصب أو متزمِّت ويقضي ليالي كاملة في الصلاة. كان الجميع يحبونه ويرونه إنساناً شريفاً وصادقاً حقاً. كان السجناء يقولون إن «نورّا أسد!» وبقي اسم الأسد هذا له وحده. كان مقتنعاً تماماً أنه عندما يقضي مدة سجنه سيرسل إلى القوقاز: وفي الواقع، لم يكن يعيش إلا على هذا الأمل: وأظن أنه لو حُرم من هذا الأمل لمات. لقد لاحظته بالذات يوم وصولي إلى السجن. وكيف كان يمكن لي أن لا أميز هذا الوجه الوديع والشريف، بين تلك الوجوه القاتمة والمنفّرة؟ خلال نصف الساعة الأول مرَّ بجانبي وربت على كتفي برفق وهو يبتسم لي بطيبة قلب. لم أفهم في بادئ الأمر ما كان يودّ أن يقول لي، لأنه لم يكن يجيد الكلام بالروسية، ولكنه بعيد ذلك مرَّ بجانبي من جديد، وربت أيضاً على كتفي بابتسامته الودية. وظلّ ثلاثة أيام يكرر هذه الحركة الفريدة، وكما خمنت فيما بعد، كان يشير بذلك إلى أنه يرثي لحالي ويحسّ بما أعانيه من عذاب هذه

اللحظات الأولى في السجن، كان يريد أن يعبِّر لي عن تعاطفه معي ويشدّ أزري ويؤكِّد حمايته لي. يا لطيبة وسذاجة نورّا!

من بين تتر داغستان الثلاثة، الذين هم إخوة، كان الكبيران رجلين ناضجين، بينما كان الأصغر، علْيِيّ لا يتجاوز الثانية والعشرين من عمره، ومن يراه يظنّ أن عمره أقلّ من ذلك. كان فراشه إلى جانبي. اجتذبني، منذ البداية، وجهه الذكي، والصريح، الطيب القلب والسليم الطوية. وأنا مدينٌ للقدر بالشكر على أنه وهبنيه جاراً بدلاً من سجين آخر.

إن نفسه كلها كانت تُقرأ على وجهه الوسيم المفتوح. ولابتسامته الوديعة براءة طفولية، وفي عينيه الواسعتين السوداوين رقة وحنان، مما كان يجعلني أشعر دائماً بلذّة خاصة حين أنظر إليه، وكان ذلك يعزيني في لحظات الحزن والضجر.

في بلده، أمره أخوه الأكبر (كان له خمسة إخوة، منهم اثنان في مناجم سيبيريا) ذات يوم أن يحمل سيفه، وأن يمتطي حصانه، وأن يتبعه. كان احترام الجبليين لإخوتهم الكبار قوياً، بحيث إن الفتى علْيِيّاً لم يجرؤ على أن يسأل أخاه عن هدف الرحلة، وربما لم تخطر في باله أية فكرة عنها. ولم يرَ حتى إخوته من الضروري أن يخبروه بشيء. وانطلق الإخوة الثلاثة فقطعوا الطريق على قافلة تاجر أرمني ثري، استطاعوا فعلاً أن يضللوه، وقتلوا التاجر ونهبوا بضاعته. ولسوء حظهم، افتُضح أمرهم: فحوكموا، وجُلدوا، ثم أرسلوا إلى سيبيريا، وسجن الأشغال الشاقة. ولم تقبل المحكمة بظروف التخفيف إلا لصالح الفتى علِيِيّ، الذي حكم عليه بأقل مدة: أربع سنوات سجناً.

كان أخواه يحبانه كثيراً: وهو حبّ أبوي أكثر مما هو حبّ أخوي. كان عزاءَهما الوحيد في منفاهما، ورغم أنهما عادة عابسان وحزينان، كانا يبتسمان له دائماً، حين يتكلمان معه، - الأمر الذي لم يحدث إلا نادراً، لأنهما كانا يعتبرانه طفلاً، لا يمكن أن يُقال له شيء جدي - كان وجهاهما المتجهمان يشرقان، فخمّنت أنهما كانا لا يكلمانه إلا هزلاً، كما يخاطب طفل، وكلما أجابهما، تبادلا نظرة سريعة وابتسامة طيبة. وما كان يجرؤ على أن يتوجّه إليهما بكلام بسبب ما يكنّه لهما من احترام.

كيف استطاع هذا الفتى أن يحافظ على قلبه رقيقاً وشرفه الفطري بريئاً ومودته نقية دون أن يفسد ويتلوث، طوال المدة التي قضاها في سجن الأشغال الشاقة؟ ذلك ما لا يفسَّر تقريباً. وبالرغم من وداعته وعذوبته كان ذا طبيعة قوية وبأس شديد، كما تأكد لي فيما بعد. كان حييّاً كعذراء، وما من فعل سيئ، وطائش، ومعيب، أو ظالم إلا ويلهب عينيه السوداوين استياء واستنكاراً، فيزيدهما ذلك جمالاً. ودون أن يكون من أولئك الذين يتساهلون مع من يُسيئ إليهم، كان يتحاشى المشاجرات والشتائم ويحافظ على كرامته. ومع من كان يمكن أن يتشاجر؟ كان يحبه ويلاطفه الجميع.

لم يكن إلا مؤدباً معي في البداية، لكن شيئاً فشيئاً أخذنا نتجاذب أطراف الحديث في المساء، واحتاج إلى بضعة أشهر فقط ليجيد الكلام بالروسية، بينما أخواه لم يتوصّلا أبداً إلى إجادة الكلام بهذه اللغة. رأيت فيه شاباً خارق الذكاء، وفي الآن ذاته، شديد التواضع ومرهف الإحساس وراجح العقل. كان علِْيّ شخصاً فذّاً وفريداً، وما زلت أعتبر لقائي به من أفضل المكاسب في حياتي. إن ثمة أناساً

يتحلون تلقائياً بهذه الطباع الجميلة ورزقهم الله مزايا عظيمة، لا يتصور المرء أن يفسدوا يوماً. ويمكن الاطمئنان عليهم دائماً، ولذلك لم أخشَ شيئاً على الفتى علْيِيّ، لكن تُرى أين هو الآن؟

ذات يوم، بعد مدة طويلة من وصولي إلى السجن، كنت مستلقياً فوق فراشي، وكانت تهزني خواطر أليمة. كان علْيِيّ، الحيويّ دوماً، لا يعمل في تلك اللحظة. ولم يحِنْ بعد أوان النوم. وكان الإخوة الثلاثة يحتفلون بعيد إسلامي، لذلك كانوا لا يعملون. كان عليي مضطجعاً، واضعاً رأسه بين يديه، مستغرقاً في أحلامه. وإذا به يسألني فجأة:

- وإذن، أنت حزين جداً؟

نظرت إليه بفضول، إذ بدا لي هذا السؤال غريباً من علييّ، الذي كان دائماً ناعماً ومفعماً بالرقة، ولكني نظرت إليه ملياً فلاحظت على محياه حزناً شديداً وألماً حميماً، ولا شك أن هذا الألم أيقظته في نفسه الذكريات التي خطرت بباله، فأدركت أنه في تلك اللحظة كان هو ذاته شديد الحزن. ذكرتُ له هذه الملاحظة فتنفّس الصعداء وابتسم ابتسامة كئيبة. كنت أحبّ ابتسامته التي كانت دائماً لطيفة وودية: عندما كان يضحك، يفتر ثغره عن صفين من الأسنان يمكن أن يغبطه عليهما أجمل إنسان في العالم.

- لا شك أنك كنت تتذكر، يا علييّ، كيف يحتفل بهذا العيد في داغستان؟ هيه؟ كان رائعاً هناك؟

قال علييّ متحمساً، وساطع العينين:

- أجل، ولكن كيف أدركت أنني كنت أحلم بذلك؟

- كيف يمكن لي أن لا أدرك؟ أليس هناك أجمل من هنا؟

- أوه! لماذا تقول لي هذا؟

- يا لها من أزهار جميلة في بلادكم، أليس كذلك؟ إنها جنة حقيقية؟

- اسكت! اسكت! رجاء.

كان بادي الانفعال الشديد.

- اسمع، يا عليّ، كانت لك أخت؟

- نعم، لماذا تسألني هذا السؤال؟

- لا شك أنها جميلة جداً، إذا كانت تشبهك.

- أوه! لا مجال للمقارنة بيني وبينها. في داغستان كلها لا توجد فتاة جميله مثلها. ما أجمل أختي! أنا على يقين أنك لم ترَ أبداً فتاة في مثل جمالها. ثم إن أمي كانت أيضاً جميلة جداً.

- وكانت أمك تحبك؟

- ماذا تقول؟ لعلها ماتت حزناً، كانت تحبني كثيراً! كنت الأثير لديها. أجل، كانت تحبني أكثر من أختي، وأكثر من الآخرين جميعاً. في هذه الليلة، في الحلم، جاءت إليّ، وذرفت دموعاً فوق رأسي.

قال ذلك ثم لاذَ بالصمت، وطوال الأمسية لم ينبس ببنت شفة، لكن، منذ تلك اللحظة، سعى إلى مصاحبتي ومحاورتي، رغم أنه، من باب الاحترام، لم يسمح لنفسه أن يبادرني بالكلام. وفي المقابل، كان يسعد حين أتحدث معه. كان يتكلم كثيراً عن القوقاز، وعن حياته الماضية. لم يكن أخواه يمنعانه من الكلام معي، بل أظن أنهما كانا مسرورين بذلك. وعندما رأيا أنني أعطف على عليّ أصبحا هما أيضاً أكثر تودداً إليّ.

كان عليّ يساعدني في أعمالي كثيراً، وكان في الثكنة يفعل كلّ ما يظن أنه يفرحني ويمنحني بعض العزاء. ولم يكن في عنايته بي لا عبودية ولا طمع في منفعة، بل شعور حار ودود لم يكن يخفيه قط. كان لديه ولع شديد بالفنون الميكانيكية، فتعلّم الخياطة، ورتق الجزم، وألمّ حتى بالنجارة نوعاً ما، وذلك ما كان يمكن تعلمه في السجن. وكان أخواه فخورين به.

قلت له ذات يوم:

- اسمع، يا عليّ، لماذا لا تتعلم القراءة والكتابة بالروسية؟ سينفعك هذا كثيراً مستقبلاً في سيبيريا.

- أودّ ذلك، ولكن من سيعلمني؟

- الذين يعرفون القراءة والكتابة ليسوا قلّة هنا. وإن أردتَ أعلمك أنا بنفسي.

نهض عليّ وجمع يديه وتطلع إليّ بنظرة متوسلة قائلاً:

- آه! علمني أرجوك.

وشرعنا في العمل منذ مساء الغد. كانت لديّ ترجمة روسية للإنجيل، وهو الكتاب الوحيد الذي لم يكن ممنوعاً في السجن. وبهذا الكتاب وحده، وبدون تعلم الحروف الأبجدية أتقن عليّ القراءة خلال بضعة أسابيع. وبعد ثلاثة أشهر فهم تماماً لغة الكتابة، لأنه كان ينكبّ على الدراسة بحماسة، وممارسة رائعتين.

وذات يوم قرأنا معاً، موعظة الجبل كاملة. فلاحظت أنه كان يقرأ بعض المقاطع بلهجة واثقة بوجه خاص، فسألته حينئذٍ إن كان أعجبه ما قرأ. فألقى عليّ نظرة ثاقبة، واشتعل وجهه بحمرة مفاجئة. وقال:

- آه! نعم، عيسى نبي مقدّس، عيسى ينطق بكلام الله. يا له من كلام جميل!

- لكن قلْ لي ما أعجبك أكثر؟

- الآية التي قيل فيها: «اغفروا، أحبوا، أحبوا أعداءكم، لا تؤذوا أحداً» آه ما أجمل كلامه!

والتفت إلى أخويه، اللذين كانا يتابعان حوارنا، وقال لهما بضع كلمات حارّة. كانوا يتحدثون طويلاً بنبرة جادة، وفي بعض الأحيان كان أخواه يؤيدان كلامه بهزة رأس، ثم، أكّدا لي، وهما يبتسمان ابتسامة وقورة عطوفة، ابتسامة إسلامية (أحب كثيراً مهابة هذه الابتسامة) أن عيسى كان نبياً عظيماً، وقد قام بمعجزات كبرى، إذ خلق طيراً من طين، ونفخ فيه الروح فطار... وأن ذلك مكتوب في صحفهم. كانا مقتنعين بأنهما يدخلان على نفسي سروراً كبيراً وهما يمدحان عيسى، أما عليّ فكان سعيداً بأن يرى أخويه يؤيدان كلامي، ويعبِّران لي عما كان يعتبر أنه يسرّ نفسي.

إن النجاح الذي حققته مع تلميذي بتعليمه الكتابة كان نجاحاً باهراً حقاً.

اقتنى عليّ الورق «لم يشأ أن يكون ذلك على حسابي» واقتنى أقلاماً وحبراً ولم يمضِ شهران حتى تعلم الكتابة.

ودهش حتى أخواه من التقدُّم السريع الذي أحرزه عليّ، وشعرا بزهو وسرور لا حدود لهما، ولم يعرفا كيف يعبران لي عن اعترافهما بالجميل.

وفي الورشة، إذا اتفق أن عملنا معاً، كانا يتنافسان على مساعدتي: وكانا يجدان في ذلك متعة عظيمة. ناهيك عن عليّ الذي

كان يكنّ لي شعوراً لا يقلّ عمقاً عن عاطفته نحو أخويه.

ولن أنسى أبداً يوم إطلاق سراحه. لقد قادني خارج الثكنة، وارتمى على عنقي وأجهش بالبكاء. لم يسبق له أن قبّلني من قبل ولا بكى أمامي أبداً. قال لي:

- لقد قدَّمت لي خيراً كثيراً، كثيراً جداً، فلا أبي ولا أمي كانا أفضل منك في رعايتي: «لقد جعلت مني رجلاً، الله يبارك فيك، ولن أنساك أبداً، مدى الحياة»...

أين هو الآن؟ أين هو صديقي الطيب العزيز، عليّ؟

وكان في ثكنتنا أيضاً، عدا الشراكسة، عدد من البولونيين، الذين يشكِّلون عصابة على حدة، لا صلة لهم تقريباً بالسجناء الآخرين.

قلت سابقاً إنهم بسبب تعصبهم وحقدهم على الروس، كانوا مكروهين من الجميع، وذوي طبائع مضطربة، ومريضة. كان عددهم ستة، اثنان منهم كانا متعلمين، سأتحدث عنهما بتفصيل في ما يلي من قصتي هذه. ومن هذين استعرتُ بضعة كتب خلال الفترة الأخيرة التي قضيتها في السجن. أول كتاب قرأته ترك في نفسي أثراً غريباً وعميقاً... وسوف أتحدث لاحقاً عن هذه الإحساسات التي أعتبرها شديدة الغرابة، يمكن أن يجد المرء عناء في فهمها، أنا على يقين من ذلك، لأنه لا يستطيع الحكم على بعض الأمور، إذا لم يكابدها هو بنفسه.

وحسبي أن أقول إن الحرمان الثقافي أشقّ احتمالاً من أقسى الآلام الجسمية. إن مَن يرسل إلى السجن من عامة الناس، يجد نفسه في مجتمعه، بل ربما حتى في مجتمع أرقى. قد يفتقد كثيراً ذلك الركن الذي ولد فيه، وأسرته، ولكن بيئته تظل هي ذاتها. أما الرجل

المثقف، الذي حكم عليه القانون بالعقوبة نفسها التي حكم بها على رجل من عامة الشعب، فإنه يتألم بما لا يُقاس بألم هذا الرجل الأخير. ينبغي عليه أن يخنق حاجاته، وجميع عاداته، ولا بد أن ينزل إلى مستوى أدنى، لا يرتضيه، وأن يتعود استنشاق هواء آخر. . .

إنه سمكة ملقاة على الرمل.

إن العقاب الذي يتلقاه يعادل عقوبات السجناء جميعاً، تبعاً لروح القانون، وهو في بعض الأحيان أشد إيلاماً وتعذيباً له عشر مرات مما يعانيه رجل من عامة الناس.

هذه حقيقة لا جدال فيها، حتى لو تكلمنا فقط عن العادات المادية، لا بد له من التضحية بها.

لكن هؤلاء البولونيين كانوا يشكلون عصابة على حدة، ويعيشون معاً، ولا يحبون من بين جميع السجناء في ثكنتنا، غير يهودي، ولأنه كان أيضاً يسليهم. وعلى العموم كان هذا اليهودي محبوباً، رغم أن جميع السجناء يسخرون منه. ولم يكن بيننا يهودي سواه، وإلى اليوم لا أستطيع أن أتذكره دون أن أضحك. كنت كلما نظرت إليه، إلا وتذكرت اليهودي يانكيل الذي وصفه غوغول في «تاراس بولبا» والذي كان متى خلع ملابسه ليضاجع يهوديته، في ما يشبه الدولاب، يبدو مثل فرخ دجاجة. كان إشعيا فوميتش وفرخ الدجاجة المنتوف الريش يتشابهان مثل قطرتي ماء. كان متقدماً في السن قليلاً، خمسينياً تقريباً، قصيراً وضعيفاً، وماكراً، وفي الوقت نفسه شديد الغباء، والوقاحة، والعجرفة، مع أنه في غاية الجبن. وكان وجهه كثير الغضون وعلى جبينه وخديه ندوب الحرق الناجمة عن الوشم. لم أستطع أن أفهم يوماً كيف تحمَّل ستين جلدة بالسوط، لأنه كان

محكوماً عليه بتهمة ارتكابه جريمة قتل. وكان يحمل في جيبه وصفة طبية نصحه بها يهود آخرون، مباشرة بعد تنفيذ الوشم. وبفضل المرهم المشار إليه في هذه الوصفة، كان يمكن أن تزول الندوب خلال أقل من أسبوعين، لكنه لم يجرؤ على استعماله، وكان ينتظر انقضاء العشرين عاماً من سجنه، حتى يستعمل مرهمه السعيد بعد أن يستوطن تلك المنطقة، - كان يقول: «دون ذلك، لن أستطيع أن «أتزوز» ولا بد لي من «الزواز» قطعاً». كنا صديقين حميمين. وكان مزاجه الرائق لا ينضب له معين، ولم تكن حياة السجن تبدو له شاقة كثيراً. وبما أن مهنته الصياغة، كانت تأتي إليه طلبات كثيرة، لأنه لم يكن في مدينتنا صائغ غيره، وبذلك كان ينجو من الأعمال الشاقة. وكما ينبغي ليهودي، كان يقرض بالرهن لمدّة أسبوع بعض السجناء الذين يجني منهم فوائد ضخمة. كان قد وصل إلى السجن قبلي، فوصف لي بتفصيل أحد البولونيين دخوله المظفر. وتلك حكاية طويلة سوف أرويها فيما بعد، لأن لي عودة إلى إشعيا فوميتش.

أما السجناء الآخرون، فكان منهم أولاً أربعة من قدماء المؤمنين، الشيوخ، شرّاح الكتاب المقدس، كان يوجد بينهم عجوز ستارودوب، وأوكرانيان أو ثلاثة، وهم أناس متجهّمون وفتى رقيق الوجه، دقيق الأنف، في الثالثة والعشرين من عمره، والذي كان قد ارتكب ثماني جرائم قتل، ثم عصابة من مزيفي النقود، كان أحدهم مهرج ثكنتنا، وأخيراً بضعة سجناء مكتئبي النفوس، حزانى القلوب، حليقي الرؤوس، ومشوهي الوجوه، وصامتين دائماً وحسودين ينظرون شزراً إلى كلّ مَن يحيط بهم، وقد ظلوا ينظرون شزراً ويحسدون ويقطبون طوال سنوات.

وكلّ ذلك لمحته في ذلك المساء الحزين حين وصولي إلى السجن، وسط دخان كثيف، وهواء موبوء، وشتائم بذيئة، مصحوبة بصليل القيود، وسباب وضحكات هستيرية. استلقيت فوق الألواح الخشبية العارية، مسنداً رأسي إلى وسادة من ثيابي «لم تكن لي مخدّة بعد» والتحفت بمعطفي، ولكنني بعد تلك الإحساسات الأليمة في ذلك النهار الأول لم أستطع النوم فوراً. إن حياتي الجديدة لم تبدأ إلا الآن. وكان المستقبل... يخبئ لي أشياء كثيرة لم تكن في الحسبان ولم تخطر لي على بال.

5. الشهر الأول

بعد ثلاثة أيام من وصولي، تلقيت الأمر بالذهاب إلى العمل. ولم يزل الإحساس الذي بقي لي عن ذلك اليوم واضحاً جداً، رغم أنه لا ينطوي على أي شيء فريد، إذا لم نأخذ فيه بعين الاعتبار أن وضعي ذاته غير عادي.

ولكنها الإحساسات الأولى: ففي تلك اللحظة، كنت لا أزال أنظر إلى كل شيء بفضول. ولا شك أن الأيام الثلاثة الأولى كانت أقسى أيام سجني - كنت أقول لنفسي في كل لحظة: «انتهت أيام الارتحال، وها أنا وصلت إلى السجن، الميناء الذي سأرسو فيه سنين طويلة. هنا الركن الذي عليَّ أن أعيش فيه، إنني أدخل إليه منقبض القلب وطافح النفس ارتياباً وحذراً، ومن يدري؟ حينما ينبغي عليَّ أن أغادره، ربما سأتأسف عليه بصدق» وكنت أضيف هذا، مدفوعاً بتلك اللذة الماكرة التي تحضّ المرء على أن ينكأ جرحه، كأنه يستعذب

الآلام، وفي بعض الأحيان يجد لذّة حادّة في الشعور بضخامة ما يعانيه من شقاء. كان يملأني خوفاً أن أتصور أنني سأفارق هذا المكان آسفاً عليه. واستشعرت عندئذٍ بدرجة لا تصدَّق أن الإنسان حيوان متعود.

ولكن ذلك ليس إلا المستقبل، أما الحاضر الذي يحيط بي فقد كان عقيماً ورهيباً. أو هكذا بدا لي على الأقل.

إن النظرات الفضولية المتوحشة التي كان يراقبني بها رفاقي السجناء، وقسوتهم على ذلك النبيل السابق الذي انضم إلى جماعتهم، تلك القسوة التي كانت تصل أحياناً إلى حدّ الحقد، - كل ذلك كان يعذبني كثيراً، حتى أخذت أنا نفسي أتمنى أن أذهب إلى العمل، من أجل أن أحدِّد دفعة واحدة مدى شقائي، وأن أعيش كالآخرين، وأن أسقط معهم في الهاوية ذاتها. كانت تغيب عني وقائع شتى، ولم أستطع بعد أن أميِّز بين عداوتهم العامة لي ومودتهم نحوي. لذلك فإن ما أحاطني به بعض السجناء من مودة وبشاشة قد أعاد لي قليلاً من الشجاعة وأنعش نفسي. كان أكثرهم لطفاً معي وعطفاً عليَّ هو أكيم أكيميتش. وسرعان ما لاحظت أيضاً بعض الوجوه الوديعة والطيبة وسط ذلك الحشد القاتم والحقود، من السجناء الآخرين. - وسارعت إلى القول لنفسي على سبيل العزاء: «يوجد في كل مكان أشرار، ولكن حتى بين الأشرار، هناك خير، ومن يدري؟ قد لا يكون هؤلاء الناس أسوأ من «الآخرين» الذين هم أحرار طلقاء». هكذا كنت أفكر مع نفسي، وأنا أهزّ رأسي، ومع ذلك، يا إلهي، لم أعرف كم كنت على حق.

السجين سوشيلوف على سبيل المثال: رجل لم أعرفه إلا بعد

مدة طويلة، رغم أنه في جواري طوال الوقت تقريباً. ومتى تكلمت عن السجناء الذين ليسوا أسوا من «الآخرين» أفكر فيه دون إرادة مني. كان يخدمني، مثل سجين آخر، اسمه أوسيب، اقترحه عليّ أكيم أكيميتش، منذ دخولي إلى السجن: لقاء ثلاثين كوبيكاً في الشهر، تعهد هذا الرجل، بأن يطبخ لي غذاء خاصاً، إذا لم يعجبني الغذاء العادي الذي يقدِّمه السجن، ومتى استطعت أن أتغذى على حسابي. كان أوسيب أحد الطباخين الأربعة المختارين من السجناء أنفسهم في مطبخينا: بين قوسين، يمكن للطباخين أن يقبلوا هذه الوظائف أو أن يرفضوها، وأن يتركوها حين يحلو لهم ذلك. لم يكن الطباخون يذهبون إلى الأعمال المرهقة: إذ تنحصر مهمتهم في إعداد الخبز وحساء الكرنب الحامض. كان يطلق عليهم اسم «الطباخات» ليس احتقاراً لهم، بل على سبيل المزاح، لأن أذكى السجناء وأشرفهم هم المختارون لمهمة الطبخ. ولم يكن يغضبهم هذا اللقب إطلاقاً. وظلّ أوسيب «طباخة» عدة سنوات، ولم يتخلَّ عن هذه الوظيفة إلا حين كان يشعر بضجر شديد أو تعنّ له فرصة لتهريب الخمر إلى السجن. ورغم أنه أرسل إلى سجن الأشغال الشاقة بسبب التهريب، فقد كان مثالاً نادراً في العفة والاستقامة «تكلمت عنه سابقاً» وإلى ذلك كان شديد الجبن، مثلاً، والخوف من الجلد بالسوط فوق كل شيء. وكان هادئ الطبع، صبوراً ولطيفاً مع الجميع، ولا يتشاجر أبداً، ولكنه ما كان يستطيع بأيّة حال من الأحوال أن يقاوم إغراء تهريب الخمر، رغم ما يتصف به من جبن، لأنه كان يحب التهريب كثيراً. وكان يتعاطى تجارة الخمر، مثل سائر الطباخين، ولكنها كانت أكثر تواضعاً من تجارة غازين، لأنه لم يكن

يجرؤ على أن يجازف مراراً، وكثيراً في الآن ذاته. كانت علاقتي طيبة دائماً مع أوسيب.

لا يحتاج السجين إلى أن يكون غنياً جداً، لكي يعدّ له طعاماً خاصاً: كنت أنفق على طعامي روبلاً في الشهر تقريباً، عدا الخبز، الذي كان يزودنا به السجن، وأحياناً كنت آكل حساء الكرنب الحامض المقدَّم إلى السجناء، حين يستبد بي الجوع الشديد، رغم الاشمئزاز الذي كان يبعثه في نفسي، وفيما بعد زال هذا الاشمئزاز تماماً. كنت أشتري عادة رطلاً من اللحم في اليوم، فيكلّفني ذلك روبلين.

كان الجنود المعطوبون الذين يراقبون داخل الثكنات يقبلون الذهاب إلى السوق كل يوم كي يشتروا للسجناء ما يحتاجون إليه: لم يكونوا يتقاضون أي أجر على ذلك، إن لم يتكرّم عليهم أحد بمبلغ زهيد من حين لآخر. كانوا يفعلون ذلك لضمان راحتهم، ولو رفضوا القيام بهذه المهمة لأصبحت حياتهم عذاباً متصلاً في السجن. كانوا يشترون للسجناء تبغاً وشاياً ولحماً، أي كلّ ما كانوا يريدون، سوى الخمر. وعلى كلّ حال لم يطلب منهم أحد ذلك، رغم أنهم كانوا ينادمونهم في بعض الأحيان.

طوال عدة سنوات، ظلّ أوسيب يعدُّ لي شريحة من اللحم المقلي، أما كيف كان يستطيع طهوها، بلا انقطاع، فذلك هو سرّه. وأغرب ما في الأمر، أنني لم أتبادل معه ربما كلمتين، طوال تلك المدة: وحاولت غير ما مرة أن أتكلم معه، ولكنه كان عاجزاً عن إجراء أي حوار، كان يكتفي بالابتسام والجواب بنعم ولا عن كل الأسئلة. كان فريداً من نوعه، هذا الرجل الذي له جسم هرقل وعقل طفل في السابعة من العمر.

كان سوشيلوف أيضاً في عداد الذين كانوا يساعدونني. لم أدعه ولم أبحث عنه. وإنما ارتبط بي بمحض حركته، ولا أذكر حتى في أية لحظة. كان يهتم أساساً بغسل ثيابي. - ولهذا الغرض كان حوض في الفناء، يتحلق حوله السجناء، ويغسلون ملابسهم في دلاء تملكها الدولة. - وقد وجد سوشيلوف وسيلة ليسدي لي مجموعة من الخدمات الصغيرة. كان يقوم بغلي الماء في غلاية الشاي الخاصة بي، ويركض ذات اليمين وذات الشمال لتنفيذ مختلف المهام التي أكلفه بها، وإعداد كل ما أحتاج إليه، فيعتني بترقيع بذلتي، وتلميع جزمتي أربع مرات في الشهر. وكان يفعل كل ذلك بحماس وانهماك، كما لو كان يحسّ بما يقع على كاهله من واجبات، وبكلمة، فقد ربط مصيره بمصيري، وأخذ يتدخل في كل ما يعنيني. ولم يخطر على باله قط أن يقول لي مثلاً: «لديك قمصان كثيرة... بذلتك ممزقة»، وإنما «لدينا قمصان كثيرة... بذلتنا ممزقة» لم يكن يرى شيئاً جميلاً غيري، بل أظن أنني أصبحت الهدف الوحيد في حياته كلها. وبما أنه لم يكن يعرف أية مهنة، لم يكن يتلقى أيّ مال غير ما أعطيه أنا، من مال هزيل طبعاً، إلا أنه كان راضياً دائماً، مهما يكن المبلغ الذي أعطيه إياه. ما كان يمكن أن يعيش دون أن يخدم أحداً، وقد آثرني لأنني كنت ألطف معه وأنصف بالأخص من الآخرين فيما يتعلق بمكافأته. كان واحداً من الناس الذين لا يمكنهم أن يغتنوا أبداً، ولا أن يحسنوا تدبير شؤونهم، كان من أولئك الناس الذين يستأجرهم المقامرون ليراقبوا الـ(ميدان) طوال الليل في الدهليز، منصتين إلى أية نأمة تدلّ على وصول الماجور، مقابل خمسة كوبيكات للّيلة الكاملة. وفي حالة ما إذا جرى تفتيش ليلي، لا يتقاضون شيئاً، وكانت

ظهورهم هي التي تجيب عن عدم انتباههم. ما يميز هذا الصنف من الناس، هو الغياب التام لشخصيتهم: إذ إنهم يفقدونها في أي مكان وزمان، وهم دائماً في مكانة ثانية أو ثالثة. وهذه فطرة فيهم. كان سوشيلوف شخصاً مسكيناً، وديعاً، وجِلاً، كأنه قد ضرب توّاً، هو هكذا ولد، ومع ذلك لا أحد كان يمدّ عليه يداً. كنت أشفق عليه دائماً دون أن أدري لماذا. كنت لا أستطيع أن أنظر إليه دون أن أشعر بالشفقة عليه. - لماذا كنت أشفق عليه؟ لا أستطيع الإجابة عن هذا السؤال. لم أكن أستطيع الكلام معه، لأنه لا يحسن الحديث: ولا ينتعش إلا حين أضع حداً للحوار لأعهد إليه بعمل، أو لأطلب منه الركض إلى أي مكان. وأصبحت على يقين من أنه يسرُّ غاية السرور حين أصدر إليه أمراً. لا هو طويل ولا قصير، لا دميم ولا جميل، لا غبي ولا ذكي، لا شيخ ولا شاب، كان من الصعب قول شيء محدد، عن هذا الرجل المغطى الوجه بقليل من بثور الجدري، والأشقر الشعر. صفة واحدة كانت تبدو لي صادقة عليه، إذا لم يخني تخميني، أنه كان ينتمي إلى فئة سيروتكين، من جراء ذهوله وعدم شعوره بالمسؤولية. كان السجناء يسخرون منه أحياناً لأنه قايض نفسه أثناء طريقه إلى سيبيريا، وقايض نفسه من أجل قميص أحمر وروبل فضة. كانوا يضحكون من هذا المبلغ البخس الذي باع به نفسه. ومقايضة النفس تعني أن يبادل السجين اسمه باسم سجين آخر، وأن يتحمل بالتالي كل منهما عقوبة الآخر. قد يبدو هذا الأمر غريباً جداً ولكنه واقع لا ريب فيه. كانت هذه العادة، التي رسختها التقاليد، لا تزال موجودة بين السجناء الذين رافقوني إلى منفاي في سيبيريا. رفضت في البداية تصديق أمر كهذا ولكني تأكّدت منه بعد ذلك.

وبهذه الطريقة تتم هذه المقايضة: في الطريق إلى سيبيريا قافلة من المعتقلين المحكومين، هناك سجناء من كل الفئات: بعضهم محكوم بالأشغال الشاقة في السجن، وبعضهم بالعمل في المناجم، وآخرون بالاعتقال لا غير. وأثناء الطريق، في مكان ما، في إقليم مقاطعة بيرم، مثلاً، يرغب أحد المعتقلين في مقايضة مصيره بمصير معتقل آخر. هذا ميخائيلوف، محكوم عليه بالأشغال الشاقة لارتكابه جناية قتل، يرى أنه لا يحتمل أن يقضي سنين طويلة محروماً من الحرية، وبما أنه داهية وذو حيلة، يعرف ما يجب عليه أن يفعل، إنه يبحث في القافلة عن رفيق بسيط وساذج، وهادئ الطبع، على أن يكون أقل عقاباً وعذاباً، كأن يكون محكوماً عليه بضع سنين من العمل في المناجم أو الأشغال الشاقة أو النفي فقط. وإذا به يعثر على رجل اسمه سوشيلوف، وهو قنّ قديم، ولا يتعدى الحكم عليه الحبس. وقد سار هذا الأخير حتى الآن ألفاً وخمسمائة فرسخ دون أن يكون في جيبه كوبيك واحد، لسبب بسيط هو أن رجلاً مثل سوشيلوف لا يستطيع أن يكون له مال، إنه متعب، منهك، لأنه لا يقتات إلا على الوجبة القانونية، ولا يرتدي غير لباس السجناء، ولا يستطيع حتى تأمين لقمة طيبة من حين إلى آخر، ويخدم الجميع لقاء دريهمات هزيلة. ويفتح ميخائيلوف حواراً مع سوشيلوف، وإذا بهما يتوافقان ويتصادقان، وفي مرحلة معينة، يسكر ميخائيلوف رفيقه. ثم يسأله إن كان يريد «أن يقايض مصيره» . - «اسمي ميخائيلوف، محكوم عليَّ بأشغال شاقة، ولكنها غير شاقة، لأنني سأدخل إلى قسم خاص. هي أشغال شاقة، إن شئت، ولكنها ليست كالأخرى، فرقتي خاصة، ويجب أن تكون أفضل!»

قبل إلغاء الفرقة الخاصة، كان كثير من الناس الذين ينتمون إلى العالم الرسمي، حتى في مدينة بطرسبورغ، لا يتصورون وجود هذه الفرقة الخاصة. كانت تقع في ركن منعزل جداً من أبعد أصقاع سيبيريا، من الصعب على الناس أن يعلموا بوجودها، وفضلاً عن ذلك كانت غير مهمة نظراً إلى العدد القليل من أفرادها المحكومين «في وقتي لم يكونوا يتجاوزون سبعين سجيناً». التقيت فيما بعد بأناس خدموا في سيبيريا، وكانوا يعرفون جيداً هذه البلاد، والذين كانوا يسمعون لأول مرة بوجود «فرقة خاصة». وفي «مجموعة القوانين» لا توجد إلا ستة أسطر عن هذه المؤسسة: «تلحق بسجن... فرقة خاصة بأخطر المجرمين، في انتظار تنظيم أشق الأشغال الشاقة». والمعتقلون أنفسهم لم يكونوا يعرفون شيئاً عن هذه الفرقة الخاصة، أكانت مؤبدة أم مؤقتة؟ في الواقع، لم تكن المدّة محدَّدة، وإنما هي فترة تطول «حتى افتتاح أصعب الأشغال الشاقة» أي إلى أجل غير مسمى. لا سوشيلوف، ولا أحد من المحكومين في القافلة، ولا ميخائيلوف نفسه، ما كان أحد منهم يستطيع أن يخمن معنى هاتين الكلمتين. غير أن ميخائيلوف كان يتصور الطبيعة الحقيقية لهذه الفرقة الخاصة، من خلال خطورة الجريمة، التي جعلوه يقطع من أجلها ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف فرسخ سيراً على القدمين. وبالتأكيد، لا يرسلونه إلى مكان يعيش فيه حياة رغيدة. وكان على سوشيلوف أن يكون مستوطناً، فهل كان يمكن أن يرغب ميخائيلوف فيما هو أفضل من ذلك؟ وهكذا سأل ميخائيلوف صاحبه سوشيلوف: «ألا تريد أن تقايض؟» بينما كان سوشيلوف شبه سكران، وهو إنسان بسيط، طيب القلب، وطافح بالشكر الجزيل والعرفان بالجميل لرفيقه الذي يغدق

عليه، فلا يجرؤ على أن يرفض. ثم إنه سمع سجناء يقولون لآخرين إن المقايضة «بالنفس» ممكنة، وإن سجناء آخرين قايضوا، ولا يوجد بالتالي شيء خارق، غير معتاد، في هذا العرض. وتوافق الطرفان، استغل ميخائيلوف المحتال بساطة سوشيلوف، فاشترى منه اسمه مقابل قميص أحمر وروبل فضة قدمه له أمام شهود. وفي الغداة يصحو سوشيلوف من سكرته، ولكن صاحبه ميخائيلوف يسكره من جديد، لذلك لن يستطيع أن يرفض: فقد شرب بالروبل، وبعد وقت قصير، يصبح للقميص الأحمر المصير نفسه. ويقول له ميخائيلوف: «إذا لم تعد راغباً في الصفقة، فأعِدْ إليّ المال الذي أعطيتك إياه!» ومن أين يحصل سوشيلوف على روبل؟ وإن لم يردّ الروبل، فإن أفراد القافلة يجبرونه على ردّه، إذ يحرص السجناء على هذه المسألة. لا بد أن يفي بوعده، يصرّ على ذلك أفراد القافلة، وإلا، الويل له! يقتل الرجل المخلّ بالشرف أو يرعب ويعذّب على الأقل بكل جدية.

وبالفعل، يكفي أن تتسامح الجماعة مرة واحدة، مع أولئك الذين لا يفون بوعودهم، حتى تزول هذه المقايضات بالأسماء. إذا كان بإمكان المرء أن يخلف الوعد وأن ينقض العهد الذي قطعه على نفسه، وأن يفسخ الصفقة التي عقدها. بعد أن يقبض المبلغ المحدد، فمن ذا الذي يمكن أن يلتزم بالشروط المتفق عليها؟ وفي كلمة واحدة، إنها قضية حياة أو موت بالنسبة إلى الجماعة، مسألة تمسّهم جميعاً، لذلك يُبدي السجناء صرامة شديدة في هذه الحالة. ويدرك سوشيلوف أخيراً أنه من المستحيل عليه أن يتراجع، وأنه لا شيء يمكن أن ينقذه، فيذعن بالتالي لما يطلب منه. وعندئذٍ تعلن الصفقة للقافلة كلها، وإذا كان يخشى من الوشايات، يرشى أولئك الذين لا

يوثق بهم. وذلك سيان، عند الآخرين! سواء كان ميخائيلوف أم سوشيلوف هو الذاهب إلى الجحيم، فقد شربوا الخمر، واستمتعوا، لذلك يبقى السرّ مكتوماً لدى الجميع. وفي مرحلة تالية، يجري النداء بالأسماء، إذا جاء دور ميخائيلوف، يقول سوشيلوف: حاضر! وإذا نودي سوشيلوف يجيب ميخائيلوف: حاضر! وتسير القافلة. ولا يعود يتحدث في الأمر أحد. وفي توبولسك، يفرز السجناء، فيمضي ميخائيلوف ليستوطن البلاد، بينما يُقاد سوشيلوف إلى الفرقة الخاصة تحت حراسة مضاعفة. ويستحيل عليه عندئذٍ أن يعترض، أو يحتجّ، فأي دليل لديه؟ وكم من سنة تؤجل القضية؟ وماذا يجني من شكواه؟ وأخيراً أين هم الشهود؟ وحتى لو وجدوا، فإنهم ينكرون، - وها هو ذا كيف أرسل سوشيلوف إلى الفرقة الخاصة لقاء روبل فضة وقميص أحمر.

كان السجناء يسخرون منه، ليس بسبب مقايضة نفسه، رغم أنهم يحتقرون الأغبياء الذين يرتكبون حماقة استبدال عمل سهل بآخر شاق، بل لأنه لم يحصل لقاء هذه الصفقة إلا على قميص أحمر وروبل، وذلك تعويض زهيد وبخس. يقايض المرء عادة على مبالغ ضخمة - بالنسبة إلى موارد السجناء - فقد يتقاضى حتى بضع عشرات من الروبلات. غير أن سوشيلوف كان من التفاهة وانعدام الشخصية والقيمة حتى إنه لا داعي للسخرية منه.

لقد عشنا معاً مدة طويلة، هو وأنا، فتعودت على هذا الرجل، وتعلق بي. إلا أنه ذات يوم، - ولن أغفر لنفسي أبداً ما فعلت هنا - لم ينفّذ أوامري، ولما جاء يطلب مني مالاً، قلت له بقسوة شديدة: «تعرف جيداً كيف تطلب المال، ولكنك لا تقوم بما يُقال لك!» لاذ

سوشيلوف بالصمت وأسرع إلى تنفيذ أوامري، ولكنه أصبح حزيناً جداً على حين غرة. مرّ يومان. ولم أستطِع أن أصدق أنه قد تأثر تأثراً شديداً بما قلت له. كنت أعرف أنّ سجيناً اسمه فاسيلييف كان يطلب منه بإلحاح تسديد دين صغير عليه. كان على الأرجح خالي الوفاض من المال، ولكنه لم يجرؤ على أن يطلبه مني، فقلت له: «سوشيلوف، أظن أنك كنت تودّ أن تطلب مني مالاً لردّ دين أنطوان فاسيلييف، فإليك هذا المال!» كنت جالساً فوق فراشي. وبقي سوشيلوف واقفاً أمامي، مذهولاً أشدّ الذهول من أن أعرض عليه المال بنفسي، وأن أتذكر وضعه الشائك، لا سيما في هذه الأوقات الأخيرة، حسب رأيه، كان قد طلب مني سلفات كثيرة ولم يجرؤ على أن يأمل أن أمنحه سلفة جديدة. نظر إلى الورقة النقدية التي مددتها إليه، وتطلّع إليّ، ثم استدار فجأة وخرج. أدهشني ذلك غاية الدهشة. وركضت وراءه فوجدته خلف الثكنات. كان واقفاً، مسنداً وجهه إلى السياج، متكئاً بمرفقيه على الأوتاد.

سألته:

- سوشيلوف، ما بك إذن؟

لم يردّ علي. وما أشدّ دهشتي إذ لاحظت أنه كان على وشك أن يبكي.

قال لي بصوت مرتعش، محاولاً ألّا ينظر إليّ:

- أنت ... تظن ... ألكسندر ... بيتروفيتش ... أنني أخدم ... من أجل المال ... لكنني ... أ.... إيه!

واستدار من جديد وهوى على السياج بجبهته، وأجهش بالبكاء والنحيب. كانت أول مرة، في السجن، أرى رجلاً يبكي. وأخذت

أواسيه بكثير من العناء، وشرع يخدمني بمزيد من الحماس، وإذا أمكن، كان «يراقبني»، لكنني استطعت أن أخمن، من بعض الأمارات التي لا تكاد تلاحظ، أنّ قلبه لن يغفر لي يوماً لومي. ومع ذلك كان آخرون يسخرون منه، ويضايقونه كلما سنحت لهم الفرصة، بل ويشتمونه أيضاً دون أن يغضب، ولكنه، على العكس، كان يعيش معهم بصداقة طيبة. أجل، من الصعب أن يعرف المرء إنساناً، حتى بعد أن يعاشره سنين طويلة.

ذلك هو السبب في أن السجن لم تكن له عندي في بادئ الأمر الدلالة التي صارت له من بعد. ذلك هو السبب في أنني لم أستطع، رغم انتباهي الشديد، أن أميز كثيراً من الوقائع التي فقأت عيني فيما بعد. إن الأشخاص الذين لفتوا نظري في أول الأمر هم الذين كانوا بارزين جداً، لكن وجهة نظري كانت خاطئة، فلم يتركوا في نفسي غير إحساس ثقيل وحزين ومخيب للأمل. والذي أدى خاصة إلى هذه النتيجة، هو لقائي مع أ. ف، المعتقل الذي وصل إلى السجن قبلي، والذي أدهشني بشكل مؤلم في الأيام الأولى. فقد سمّم بداية إقامتي في السجن، وفاقم كثيراً آلامي الروحية التي كانت قبلاً قاسية إلى حدّ بعيد.

كان أقذر مثال على النذالة الكريهة وأقصى الحقارة، التي يمكن أن ينحدر إليها إنسان مات فيه كل إحساس بالشرف دون مقاومة ولا ندامة. كان هذا الشاب، النبيل سابقاً، ينقل إلى الضابط الماجور كل ما يجري في الثكنات، لأنه كان على صلة بخادمه فيدكا. وهذه حكايته.

لقد وصل إلى بطرسبورغ قبل أن يستطيع إنهاء دراسته، بعد

شجار مع والديه، اللذين أصيبا بالذعر من انصرافه إلى حياة الفسق والفجور، ولم يتورع عن ارتكاب الوشاية من أجل الحصول على المال، وقرَّر أن يبيع دم عشرة رجال، إرواء لظمأه الذي لا يشبع إلى الملذات الحيوانية والبذيئة. لقد بلغ من نهمه الشديد في الاستمتاع بهذه الملذات المنحطة، ومن فرط فساده التام في الخمارات والمواخير ببطرسبورغ، أنه لم يتردَّد عن التورط في قضية كان يعرف ما فيها من جنون، لأنه لم يكن ينقصه الذكاء: فحكم عليه بالنفي، وبعشر سنين من الأشغال الشاقة في سيبيريا. حياته هذه ليست إلا البداية. يبدو أن هذه الضربة الرهيبة التي أصيب بها كان يمكن أن تفاجئه، وأن توقظ فيه شيئاً من المقاومة، وأن تؤزمه، ولكنه قَبِل مصيره الجديد دون أي اكتراث، ولم يشعر حتى بالخوف، وما كان يخيفه، هو أن يضطر إلى العمل وأن يهجر إلى الأبد عادات المجون. إن اسم سجين لم يزده إلا إمعاناً في الإقبال على شتى أشكال الدناءة والحقارة المقيتة. كان يقول «أنا الآن سجين، يمكن لي إذن أن أهيم، على هواي، بلا حياء». هكذا كان ينظر إلى وضعه. إنني أتذكّر هذا الكائن المثير للاشمئزاز كظاهرة بشعة. طوال سنوات عشت وسط قتلة وماجنين ومجرمين حقيقيين، ولكنني لم أصادف في حياتي حالة كاملة من الانحطاط الأخلاقي والفساد المقصود والخِسَّة الوقحة. كان بيننا شاب من أصل نبيل قتل أباه، - تحدثت عنه من قبل - ولكنني استطعت أن أقتنع من سمات كثيرة أن هذا الأخير كان أكثر لياقة وإنسانية من أ. ف. طوال المدة التي قضيتها في السجن، لم يكن في عيني شيئاً آخر غير كتلة لحم، لها أسنان ومعدة، نهمة إلى أقذر الملذات الحيوانية والمتع الوحشية، التي كان مستعداً أن يقتل

أي إنسان من أجل الحصول عليها. إنني لا أبالغ قط، لأنني عرفت في أ. ف. واحداً من أكمل نماذج الحيوانية، التي لا يردعها مبدأ، ولا تضبطها قاعدة. كم كنت أشمئزّ وأتقزَّز من الابتسامة الساخرة، باستمرار، لهذا الوحش، هذا الكوازيمودو الأخلاقي! وبالإضافة إلى أنه ماكر، وذكي، كان وسيماً قليلاً وعلى جانب من الثقافة، ويتمتع ببعض الكفاءات. كلا! الحريق، الطاعون، المجاعة، وأية كارثة أفضل من وجود مثل هذا الرجل في المجتمع. قلت سابقاً إن التجسس والوشايات كانت مزدهرة في السجن، كثمرة طبيعية للخِسَّة، دون أن يستاء منها السجناء على الإطلاق، بالعكس، كانوا على صلة ودية بصاحبنا أ. ف. ويتقربون إليه أكثر ممّا يفعلون معنا. وكانت المعاملات الحسنة التي يخصّه بها الماجور السكير تضفي عليه بعض الأهمية وحتى بعض القيمة في عيون السجناء.

وبالمناسبة، أقنع الماجور بأنه يستطيع أن يرسم بورتريهات (كما أقنع السجناء بأنه كان برتبة ملازم في الحرس القيصري) لذلك أعفاه من الأشغال الشاقّة واستقدمه إلى بيته ليرسم له بطبيعة الحال صورة شخصية. وفي عين المكان تصادق مع الخادم فيدكا، الذي كان له نفوذ خارق للعادة على سيده، وبالتالي، على جميع السجناء وكل شيء في السجن. فأخذ أ. ف. يتجسس علينا بأمر الماجور، الذي كان متى سكر يصفعه ويشتمه واصفاً إياه بالجاسوس والواشي. كان يحدث، في كثير من الأحيان، بعد صفعه وشتمه، أن يجلس على كرسي وأن يأمره بمتابعة رسم صورته. كان ماجورنا، كما يبدو، يصدِّق فعلاً أن أ. ف. كان فناناً معروفاً، يكاد أن يكون في مستوى بريوللوف، الذي سمع عنه، ولكن، مع ذلك، كان يظن أنه يحقّ له

أن يصفعه، قائلاً في نفسه: مهما كنت فناناً، فأنت في السجن، ولو كنت مثل بريوللوف، فأنا رغم ذلك أظلّ رئيسك، أفعل بك ما أريد. وبالمناسبة، كان يأمر أ. ف. أن يخلع له جزمته، وأن يخرج من غرفة النوم مختلف الآنية كالمبولة الليلية، ومع ذلك لم يستطع مدة طويلة أن يتخلى عن فكرة أن أ. ف. فنان عظيم. واستمر رسم البورتريه بلا نهاية، تقريباً سنة.

وأخيراً، خمَّن الماجور أنه خدع، فاقتنع تماماً أن البورتريه لا يتمّ، بل على العكس، يغدو كل يوم أكثر فأكثر غير شبيه به، فاستشاط غضباً، وضرب الفنان ضرباً شديداً وأبعده إلى السجن من أجل العقاب، وأعاده إلى العمل الأسود. وكما يبدو أسف أ. ف. على ذلك، وكان صعباً عليه أن يحرم من أيام الفراغ، ومن صدقات ومائدة الماجور، ومن الصديق فيدكا، ومن جميع الملذات، التي كانا ينعمان بها عند الماجور في المطبخ. وبعد إبعاد أ. ف. كفّ الماجور على الأقل عن اضطهاد م. السجين، الذي كان أ. ف. يفتري عليه بلا انقطاع، للسبب التالي: أثناء وصول أ. ف. إلى السجن كان م. وحيداً. كان مكتئباً جداً، ولا صلة له مع سائر السجناء، وكان ينظر إليهم برعب ونفور، ولم يلاحظ فيهم كلّ ما كان يمكن أن يؤثر فيه بشكل ودّي وسلمي، فلم يتآلف معهم. وبادله هؤلاء حقداً بحقد. على العموم كان وضع م. في السجن رهيباً. ولم يكن م. يعرف السبب الذي أوصل أ. ف. إلى سجن الأشغال الشاقة. ولمّا أدرك أ. م. مع من يتعامل، أقنعه في الحال أنه نفي بسبب وشاية مناقضة تماماً، تقريباً للسبب نفسه الذي أدّى إلى نفي م. ففرح م. كثيراً به رفيقاً، وصديقاً. واعتنى به، وآساه في أيام سجنه الأولى، معتقداً أنه

لا بد كان يعاني ألماً شديداً، وأعطاه آخر نقوده، وأطعمه، وقاسمه أشياء ضرورية. ولكن أ. ف. أخذ يكرهه لكرمه بالذات، ولأنه بمثل هذه الفظاعة كان يختلس النظر إلى أيّة دناءة، ولأنه بالضبط لا يشبهه على الإطلاق، وكل ما كان م. يخبره به خلال الأحاديث السابقة، عن السجن، وعن الماجور، كان أ. ف. يبادر في أقرب فرصة سانحة إلى إبلاغه للماجور، فكره م. لذلك كرهاً شديداً واضطهده، ولولا نفوذ آمر السجن لقاده حقده حتى إلى القضاء عليه. ولم يشعر أ. ف. بأيّ إحراج أو إزعاج، بعد ذلك، عندما علم م. بنذالته ولكنه كان أيضاً يحبّ أن يلتقيه وأن ينظر إليه بازدراء. كان هذا، على ما يظهر، يجلب له سروراً كبيراً. وقد أثار انتباهي إلى ذلك عدة مرات م. نفسه.

فيما بعد فرّ هذا الكائن الجبان مع سجين آخر، وأحد جنود الحراسة، ولكنني سأحكي قصة هذا الفرار في الوقت والمكان المناسبين. قبل كل شيء أخذ يطوف حولي، معتقداً أنني لم أكن أعرف قصته. أكرِّر القول مرة أخرى إنه سمّم الأيام الأولى من سجني، حتى أوصلني حقاً إلى حدّ اليأس. لقد أرعبني هذا الوسط المنحطّ الحقير الذي ألقيت فيه. وكنت أظنّ أن كل من هناك يمثل تلك الدناءة والنذالة، ولكنني أخطأت حين تصورت كل الناس مثل أ. ف.

في تلك الأيام الثلاثة الأولى كنت ما فتئت أتسكّع داخل السجن، عندما لا أبقى مستلقياً فوق سريري الخشبي. وقد عهدت إلى سجين كنت واثقاً فيه، بالقماش الذي سلّمتني إياه الإدارة، ليصنع لي منه قمصاناً. وعملاً بنصيحة أكيم أكيميتش دائماً، أعددت لنفسي

فراشاً يطوى. كان من اللبد، مغطى بقماش، رقيق مثل فطيرة، وشديد الخشونة لمن لم يتعوّد عليه. وتعهد أكيم أكيميتش بأن يزوّدني بكل المواد التي لا غنى عنها، وصنع لي بيديه غطاء من قطع بالية من جوخ الدولة، وهي قطع اختارها وقصّها من السراويل والبذل، التي لم تعُد صالحة للاستعمال، اشتريتها من عدة سجناء.

إن ملابس الدولة، عندما تُرتدى المدة القانونية، تصبح ملكاً للسجناء، ولا يلبث هؤلاء أن يبيعوها، لأن قطعة لباس، مهما بليت، تظلّ لها قيمة دائماً. كل ذلك أذهلني كثيراً، لا سيما في البداية، خلال اللحظات الأولى من احتكاكي بهذا العالم. صرت واحداً من رفقائي، وسجيناً مثلهم. وأثّرت في عاداتهم وأفكارهم وتقاليدهم، ولكن من الخارج، دون أن تنفذ إلى أعماق نفسي. كنت مذهولاً ومحتاراً، كأني لم أسمع كل ذلك قط، ولا تصورت شيئاً مثل ذلك، إلا أنني كنت أعرف ما كان ينتظرني في السجن، على الأقل، من خلال ما قيل لي عنه. ولكن الواقع أقوى تأثيراً من السماع.

هل كان بمستطاعي أن أتصوّر أن خرقة ممزقة يمكن أن تبقى لها قيمة؟

ومع ذلك كان غطائي كله مصنوعاً من الثياب الرثة!

كان من الصعب أن أميِّز الجوخ المستعمل لثياب السجناء، كان شبيهاً بالجوخ الرمادي السميك، المصنوع للجنود، ولكنه لا يكاد يُلبس مدة قليلة، حتى تنسلّ خيوطه ويتمزق شرّ ممزق.

كان على اللباس الموحّد أن يكفي سنة كاملة، ولكنه لم يكن يدوم أبداً ذلك الوقت.

إن السجين يشتغل، ويحمل أعباء ثقيلة، وسرعان ما يهترئ

ويتمزّق القماش في هذه المهنة. كان على المعاطف أن تُلبس ثلاث سنين، وخلال هذه المدة، كانت تُستخدم أردية وأغطية ومخدات، ولكنها كانت متينة، ورغم ذلك، لم يكن من النادر أن ترى، في نهاية السنة الثالثة، مرقعة بقماش عادي. ومهما كانت مهترئة، فإنها تجد من يشتريها، بأربعين كوبيكاً للقطعة الواحدة. وإذا كانت بعد جيدة، يصل سعرها حتى إلى ستين كوبيكا، وهذا مبلغ كان كبيراً في السجن.

قلت سابقاً، إن للمال سلطة عليا في حياة السجن. يمكن الجزم، بأن السجين الذي يملك مالاً يتألم عشر مرات أقلّ ممّا يتألم السجين الذي لا يملك شيئاً.

كان رؤساؤنا يقولون: «ما دامت الدولة تؤمِّن كل حاجات السجين، فما حاجته إلى المال؟» - هكذا كان يفكر رؤساؤنا. ومع ذلك، أكرر القول، لو حرم السجناء من القدرة على امتلاك شيء خاص بهم، لفقدوا العقل، أو لماتوا كالذباب، أو لارتكبوا جرائم غير مسموعة، - بعضهم ضجراً، وبعضهم حزناً، - والآخرون ليعاقبوا بسرعة وبالتالي «كي يتغير مصيرهم» كما كانوا يقولون.

إن السجين الذي كسب بضعة كوبيكات بالعرق الدامي المتصبب من جسمه، وتورط في عمليات خطيرة ليحصل عليها، إذا أنفق هذا المال بلا تمييز، بسذاجة صبيانية، فلا يعني ذلك إطلاقاً أنه لا يقدِّر قيمة المال، كما يمكن أن نظنّ لأول وهلة.

إنّ السجين جشع إلى المال، جشعاً يفقده صوابه، ولكن، إذا كان يلقي به من النافذة، فلكي يحصل على ما هو أفضل عنده من المال. وماذا يضع فوق المال؟ الحرية، أو على الأقل ما يشبه الحرية، الحلم بالحرية! إن السجناء جميعاً حالمون كبار.

وسأتحدث عن هذا بتفصيل أكثر، ولكن، حسبي الآن أن أقول إنني رأيت سجناء محكومين بعشرين سنة من الأشغال الشاقة يقولون لي بنبرة هادئة: «حين أنهي مدة سجني، إن شاء الله، عندئذٍ، سوف...» إن اسم السجين وحده يدل على إنسان محروم من حرية الإرادة. والحال أن هذا الرجل حين ينفق ماله، إنما يتصرف حسب هواه. وبالرغم من الندوب والقيود، رغم حاجز السور الذي يحجب عن عينيه العالم الحر، ويحبسه في قفص مثل حيوان كاسر، فإنه يستطيع أن يحصل على ماء الحياة، وفتاة الملذات، وحتى أحياناً (ليس دائماً) أن يرشو حراسه المباشرين، من معطوبي الجنود، وحتى من ضباط الصف، الذين يغضّون الطرف عن مخالفات النظام، ويستطيع أيضاً، - وهذا ما يعشقه - أن يتبجح أمامهم، أي أن يظهر لرفاقه وأن يقنع نفسه، لمدة من الزمن، أنه يتمتع بقدر من الحرية هو أكبر مما يتمتع به في الواقع، يريد المسكين، بكلمة واحدة، أن يقنع نفسه بما يعرف أنه مستحيل: ولهذا السبب يحب السجناء أن يتباهوا، وأن يعظموا بطريقة مضحكة وساذجة شخصياتهم البائسة، والوهمية.

وأخيراً، حين يجازفون بشيء في هذا التبذير فإنما هو عندهم مظهر حياة وحرية، وخير ما يشتهون. إن مليارديراً يوضع في عنقه حبل، ألا يعطي كل ملايينه من أجل جرعة هواء؟

إن سجيناً عاش هادئاً عدة سنين متتالية، ولسلوكه المثالي عيِّن «عريفاً» وإذا بهذا الرجل، يتحول فجأة، أمام دهشة رؤسائه، إلى شيطان، يتمرد، ولا يتردد عن ارتكاب أية جريمة، كالقتل أو الاغتصاب، وما إلى ذلك. إنه أمر يدعو إلى الدهشة والاستغراب.

إن سبب هذا الانفجار غير المتوقع، لدى رجل لم يكن يُنتظر منه

مثل ذلك، إنما هو مظهر الشخصية القلقة، العصبية، السويداء، المالنخوليا، الغريزية، ورغبة في إثبات أناه المُهانة، وعواطف تستعصي على الفهم. إنه أشبه بنوبة صرع أو تشنج: فالرجل الذي دفن حياً ثم صحا فجأة لا بد أن يضرب ضرباً يائساً غطاء تابوته، يحاول جاهداً أن يدفعه، أن يرفعه، رغم أنّ عقله يقنعه بأن جهوده كلها غير مجدية، ولكن العقل لا دخل له في هذه التشنجات.

لا ينبغي أن ننسى أن كل إظهار إرادي لشخصية السجناء يكاد يعدُّ جريمة، كيفما كان هذا الإظهار مهمّاً أو غير مهم، فذلك عندهم سواء.

وإذا كانت المخاطرة هي المخاطرة، وما دام الفساد هو الفساد، فمن الأفضل أن يمضي السجين إلى أقصى حدّ، ولو إلى جريمة القتل. الخطوة الأولى هي الصعبة، ثم يجنّ السجين شيئاً فشيئاً، وينتشي، ولا يكبح له جماح. لهذا السبب من الأفضل أن لا يُدفع إلى مثل هذا الموقف المتطرف. وسيكون الجميع أكثر أماناً.

نعم، ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟

6. الشهر الأول
(تتمة)

عند دخولي إلى السجن، كنت أملك مبلغاً صغيراً من المال. ولكني لم أحمل منه في جيبي إلا قدراً يسيراً، لأني خشيت أن يُصادر مني. كنت قد ألصقت بعض الأوراق النقدية في تجليد إنجيلي (الكتاب الوحيد المسموح به في السجن). هذا الإنجيل كان قد

أعطاني إياه بمدينة توبولسك أشخاص منفيون منذ عشرات السنين وكانوا قد اعتادوا على أن يعدوا أخاً لهم كل «مسكين». في سيبيريا أناس كرّسوا حياتهم لنجدة «المساكين» بطريقة أخوية، وكانوا يشعرون نحوهم بالعطف نفسه الذي كان يمكن أن يشعروا به نحو أبنائهم، وشفقتهم مقدسة ومنزَّهة عن الغرض. ولا أستطيع أن أمنع نفسي من أن أروي في بضع كلمات لقاء كان لي آنذاك.

في المدينة التي كان يوجد فيها سجننا كانت تسكن أرملة، اسمها ناستاسيا إيفانوفنا. بطبيعة الحال، لا أحد منا كان على صلات مباشرة مع هذه المرأة. كانت قد نذرت حياتها لإغاثة كل المنفيين، ولا سيما لنا نحن السجناء. هل حلت بأسرتها مصيبة؟ هل كان أحد الأشخاص الأعزاء لديها يقضي عقوبة مثل عقوبتنا؟ لا أعرف ذلك، إلا أنها كانت تفعل من أجلنا كل ما تستطيع. وما كانت تستطيع أن تفعل غير القليل جداً، لأنها كانت هي نفسها في غاية الفقر. ولكننا نحن السجناء كنا نشعر أن لنا خارج السجن صديقة مخلصة. كثيراً ما كانت تُطلعنا على أخبارٍ كنا في أمس الحاجة إليها (كنا فقراء جداً إلى الأنباء) حين تركت السجن وذهبت إلى مدينة أخرى، أتيح لي أن أزورها وأتعرف إليها. كانت تسكن عند أحد أقاربها في مكان بالضاحية.

ناستاسيا إيفانوفنا، لم تكن مسنّة ولا شابة، لا مليحة ولا قبيحة، وكان من الصعب، بل من المستحيل أن يعرف المرء هل كانت ذكية ومثقفة. ولكن كل فعلٍ من أفعالها كان ينمّ عن طيبة لا متناهية، وعن رغبة لا تقاوم في الملاطفة والمواساة، وفي فعلِ ما يُسِرُّ ويُفرح. كانت عواطفها تُقرأ في نظرتها الطيبة والوديعة. قضيت عندها أمسية

كاملة مع رفيق آخر من رفاق القيد. كانت تنظر إلينا وجهاً لوجه، وتضحك حين نضحك، وتوافق فوراً على كل ما نقول، وتسارع إلى مشاطرتنا رأينا، وتبذل ما في وسعها لإكرامنا بما لديها من طعام وشراب.

قدَّمت لنا الشاي وبعض الحلاوى، ولو كانت غنية، لما سُرّت بغناها، دون شك، إلا لأنه يتيح لها أن تُفرحنا بشكل أفضل، وتواسي رفاقنا السجناء.

عندما استأذناها بالانصراف، أهدَت كلّ واحد منا علبة سيجار مصنوعة من الكرتون، على سبيل الذكرى، كانت قد صنعتها بنفسها - يعلم الله - من الورق الملون، ذلك الورق الذي تجلَّد به كتب الحساب للمدارس. وزينتها بحافة رقيقة من ورق مذهَّب، ربما اشترته من أحد الدكاكين، ولا شك أنه أضفى عليها مزيداً من الجمال.

قالت لنا بخجل كأنها كانت تعتذر من هديتها المتواضعة:

- ما دمتما تدخنان ربما تناسبكما هاتان العلبتان.

هناك أناس يدعون (قرأت وسمعت هذا) أنّ المحبة الشديدة لقريب ليست في الوقت ذاته إلا الأنانية الشديدة. أيّة أنانية يمكن أن تكون هنا؟ لن أدرك ذلك أبداً.

رغم أني لم أكن أملك مالاً كثيراً حين دخلت إلى السجن، لم أستطع مع ذلك أن أغتاظ حقاً من أولئك السجناء، الذين كانوا منذ وصولي إلى السجن، قد جاؤوا هادئين جداً، بعد أن خدعوني مرة أولى ليقترضوا مني مرة ثانية، فثالثة، وحتى أكثر أحياناً. إلا أنني أعترف، بصراحة، أن ما كان يثير حنقي الشديد أن هؤلاء الناس جميعاً كانوا بحيلهم الساذجة يظنونني غبياً ويسخرون مني، لأنني

بالضبط كنت أقرضهم المال للمرة الخامسة. لا شك أنهم كانوا يتصوّرون أن حيلهم وخدعهم تنطلي عليّ، ولو أني على العكس رفضت أن أقرضهم وطردتهم، أنا على يقين من أنهم كانوا سيشعرون نحوي بكثير من الاحترام، ولكنني لم أستطع أن أردّ لهم طلباً، رغم أنه حدث لي أن غضبت غضباً شديداً.

كنت مشغول البال قليلاً خلال الأيام الأولى بأن أعرف أين أضع قدمي في السجن، وكيف أتصرف مع رفاقي. كنت أحسّ وأدرك جيداً أن هذا الوسط كان جديداً عليَّ تماماً، وأنني أسري داخله في الظلمات، وسيكون من المستحيل على المرء أن يعيش في الظلمات عشر سنين. فقررت أن أتصرف بوضوح حسب ما يمليه عليّ ضميري وشعوري. ولكنني كنت أعلم أيضاً أن ذلك ليس إلا حكمة صالحة من الناحية النظرية، وأن الواقع سيكون مليئاً بما ليس في الحسبان.

لذلك، رغم جميع الهموم الجزئية الناجمة عن إقامتي في ثكنتنا، تلك الهموم التي تحدثت عنها سابقاً، والتي آزرني فيها خاصة أكيم أكيميتش، فقد كان هناك قلق رهيب يسمِّم نفسي ويقضّ مضجعي أكثر فأكثر. «**البيت الميت!**»- هكذا كنت أقول لنفسي عندما كان يخيم الليل، وأنا أتطلع في بعض الأحيان من عتبة ثكنتنا إلى السجناء العائدين من العمل الشاق، الذين كانوا يتنزهون في الفناء، من المطبخ إلى الثكنة والعكس. كنت أحاول وأنا أتأمل حينئذٍ حركاتهم وسيماهم أن أخمِّن أي الرجال هم وما هي طباعهم. كانوا يطوفون أمامي، مغضني الجبين أو مرحين جداً، وهذان مظهران يقترنان ويمكن حتى أن يميزا السجن، كانوا يتشاتمون أو يتحدثون بكل بساطة، أو يسيرون منعزلين مستغرقين في تأملاتهم على ما يبدو،

بعضهم منهك وفاتر الشعور، وبعضهم يختال شاعراً بالتفوق والاستعلاء (عجباً، حتى هنا!) مرخياً طاقيته فوق أذنه، وملقياً معطفه على كتفه، جائلاً بنظراته الجريئة والماكرة، وموزعاً سخريته بوقاحة. قلت لنفسي: «هذا هو وسطي الآن، عالمي الحالي، الذي لا أريد ولكن لا بد لي أن أعيش فيه..»

حاولت أن أسائل أكيم أكيميتش، الذي كنت أحب أن أشرب الشاي معه حتى لا أكون وحيداً، وأن أستطلعه عن أمور مختلف السجناء. بالمناسبة، أذكر مستطرداً، أن الشاي كان غذائي الوحيد تقريباً في بداية سجني. ولم يكن أكيم أكيميتش يرفض أن يتناوله معي وأن يشعل هو نفسه ساموفارنا البالي الذي صنع من الحديد الأبيض في السجن، وكنت قد استأجرته من م...

كان أكيم أكيميتش يشرب عادة قدحاً من الشاي (كانت له أقداح) يشربه هادئاً في صمت، ويشكرني حين ينتهي من شربه ويشرع حالاً في صنع غطائي من جديد. إلا أنه لم يستطع أن يطلعني على ما كنت أرغب في معرفته ولم يفهم حتى الفائدة من اهتمامي بمعرفة طباع الناس الذين كانوا يحيطون بنا، فقد أصغى إليّ بابتسامة ماكرة لم تزل ماثلة أمام ناظري. كلا! قلت في نفسي، يجب أن أختبر كل شيء بنفسي، لا أن أسأل الآخرين.

في اليوم الرابع، اصطفّ السجناء صفَّين، في الصباح الباكر، في الفناء، أمام مقر الحراسة، قرب أبواب السجن. أمامهم وخلفهم، جنود، يمسكون بنادقهم المحشوّة بالرصاص، المزودة بالحراب.

يحق للجندي أن يطلق الرصاص على السجين، إذا حاول الفرار ولكنه بالمقابل مسؤول عن إطلاق النار، إن لم يكن في حالة الضرورة

القصوى، وكذلك الأمر في حالات تمرد السجناء، ولكن من ذا الذي يمكنه أن يفكِّر في الفرار جهاراً؟!

وصل ضابط من سلاح الهندسة برفقة سائق وضباط صف عسكريين، ومهندسين، وجنود مكلفين بالأشغال. نودي بالأسماء، كان أول الذاهبين السجناء الذين كانوا يتوجهون إلى ورشات الخياطة، كان هؤلاء يعملون في السجن ويعدون الملابس لجميع السجناء. ثم ذهب السجناء الآخرون إلى المعامل، حتى جاء أخيراً دور السجناء المعينين للعمل الشاق، وكنت أنا في عداد هؤلاء، - كنا عشرين سجيناً. خلف القلعة، على النهر المتجمِّد، كان يوجد زورقان قديمان تملكهما الدولة، غير صالحين للإبحار وكان يجب أن نفكِّكهما، حتى لا يظل خشبهما دون فائدة. وفي الواقع، لم يكن يساوي شيئاً، لأن حطب التدفئة في المدينة كان زهيد الثمن. والمنطقة كلها مكسوة بالغابات.

كلِّفنا بهذا العمل حتى لا نبقى مكتوفي الأيدي. وكان السجناء يعرفون ذلك جيداً، لذلك كانوا يباشرون العمل بفتور ولا مبالاة، وعلى العكس تماماً حين يكون للعمل قيمته وغايته، وحين يطلب من السجين أن يقوم بمهمة محددة. فالعاملون كانوا ينشطون حينئذٍ ولو لم يكونوا يجنون منها أيّة فائدة، رأيت سجناء يرهقون أنفسهم لينهوا عملهم بأقصى سرعة، لأن كرامتهم كانت على المحكّ.

عندما كان العمل - مثل الذي تحدثت عنه - ينجز شكلاً لا ضرورة، لم يكن يُطلب أن يؤدّى كمهمة معينة، بل كان يجب أن يستمر العمل حتى يُقرع الطبل، الذي كان يُعلن العودة إلى السجن في الساعة الحادية عشرة من الصباح.

كان النهار دافئاً وغائماً والثلج على وشك الذوبان. كانت جماعتنا كلها تتجه نحو الشاطئ، وراء القلعة، محركة بخفّة أغلالها، التي كانت مختفية تحت الثياب، وترنّ رنيناً واضحاً وحاداً مع كل خطوة. وذهب سجينان أو ثلاثة سجناء لجلب الأدوات من المستودع.

مشيت مع الجميع، بل انتعشت قليلاً، لأنني كنت أودّ أن أرى وأن أعرف نوع هذا العمل الشاقّ. وعلى ماذا كانت تشتمل الأشغال الشاقة؟ وكيف سأعمل للمرة الأولى في حياتي؟

ما زلت أتذكر أدقّ التفاصيل. في الطريق التقينا برجل من أهل المدينة، طويل اللحية، توقف ودسّ يده في جيبه. فانفصل سجين عن جماعتنا فوراً، ومدّ له قبعته وتوصل بالصدقة - خمسة كوبيكات - ثم عاد إلينا مسرعاً. رسم الرجل المديني إشارة الصليب وتابع طريقه. وفي ذلك الصباح أنفقت تلك الكوبيكات الخمسة على شراء سميطة «كالاتش» وهي أرغفة صغيرة من الخبز الأبيض، وزعت علينا بالتساوي.

كان في جماعتنا أناس عابسون صامتون، وآخرون لا مبالون متكاسلون، وكان بينهم المتكلمون بتوانٍ. أحد هؤلاء الرجال كان في غاية الحبور والسرور، - يعلم الله لماذا - ظلّ يغني ويرقص طوال الطريق، وترنّ قيوده عند كل وثبة: هذا السجين القصير والسمين كان هو ذلك الرجل نفسه الذي تشاجر يوم وصولي بسبب الماء، أثناء الاغتسال، مع أحد.رفاقه الذي تجرأ على أن يدّعي أنه كان طائر الكاغان. كان يسمى سكوراتوف. وما لبث أن أخذ يردِّد أغنية مرحة ما زالت لازمتها عالقة بذاكرتي:

زوجوني دون إذني،
حينما كنت في الطاحونة.

لم تكن تنقصه إلا بالالايكا.

كان من الطبيعي أن يغتاظ عدة سجناء من مزاجه المرح غير الاستثنائي، الذي اعتبروه إهانة لهم. قال أحدهم بنبرة لوم، رغم أن ذلك لا يعنيه بتاتاً:

- ها هو ذا يعوي.

وأضاف آخر، قائلاً بلهجة تنمّ عن أنه من أوكرانيا:

- ليس للذئب إلا أغنية واحدة، وقد استعارها منه هذا التولاوي (من مدينة تولا).

وردّ سكوراتوف فوراً:

- صحيح، أنا من تولا، أما أنتم، في بولتافا، فتموتون اختناقاً بالفطائر المحشوة لحماً «غالوشكي».

- كذاب! ماذا كنت تأكل أنت؟ حساء الكرنب الحامض بالنعال المصنوعة من لحاء الزيزفون!

وأضاف ثالث:

- لكأن الشيطان أطعمك لوزاً.

فقال سكوراتوف وهو يتنهد قليلاً ودون أن يوجه كلامه إلى أحد بعينه، كأنه كان يشعر بالندم في الواقع لكونه مترفهاً:

- في الواقع، يا رفاق، أنا إنسان مدلَّل. منذ نعومة أظفاري، نشأت في الترف، وتغذيت بالخوخ اللذيذ والخبز الشهي، ولإخوتي

الآن تجارة واسعة في موسكو، إنهم تجار بالجملة، تجار فاحشو الثراء، كما ترون.

- وأنت، ماذا كنت تبيع؟

- لكل إنسان مزاياه، وأنا، عندما تلقيت أول مائتي . . .

قاطعه سجين فضولي، انتفض لما سمع مثل هذا المبلغ الضخم:

- روبل؟ مستحيل.

- لا، يا عزيزي، ليس مائتي روبل، بل مائتي ضربة بالعصا. إيه! لوقا! لوقا!

فأجابه، مستاء، سجين قصير القامة، نحيل الجسم، مدبب الأنف:

- هناك من يجوز لهم أن ينادوني لوقا فقط، أما أنت فلا يجوز لك أن تناديني إلا باسمي كاملاً: لوقا كوزميتش.

- حسناً، لوقا كوزميتش، ليأخذك الشيطان. . .

- كلا! لست بالنسبة إليك لوقا كوزميتش، بل عمك المحترم.

- ليأخذك الشيطان مع عمك المحترم! إنك حقاً، لا تستحق أن تخاطب بكلمة واحدة. ومع ذلك كنت أريد أن أتكلم معك بمودة، - وعلى كل حال، اسمعوا يا رفاق كيف حدث ولم أبقَ في موسكو مدة طويلة، فقد جُلدت آخر جلداتي الخمس عشرة، ثم أرسلت إلى هنا. . . وهذا ما في الأمر. .

قال سجين كان يصغي إلى حكايته بانتباه:

- لكن، لماذا نفيت؟

- لا تذهب إلى الكورَنْتينة، لا تشرب من فم القنّينة، لا تلعب

بحدّ السكّينة. لهذا السبب، يا رفاق، لم أصبح غنياً في موسكو. ومع ذلك كم كنت أتوق إلى أن أكون غنياً! كنت أتلهف على ذلك، لهفة لا يمكنكم أن تتصوروا مداها.

أخذ كثير من السجناء يضحكون.

كان سكوراتوف من أولئك الفكهين الطيبي القلب، والمازحين الذين يعتنون عناية خاصة بتسلية رفاقهم المكتئبين، والذي لم يكن، طبعاً، يتلقى مقابل ذلك إلا الشتائم. كان ينتمي إلى طراز من البشر فريد ربما أتحدث عنهم فيما بعد.

وعلق لوقا كوزميتش قائلاً:

- وكم هو الآن جسور، إنه زبلين (سمور سيبيري) حقيقي. وثيابه وحدها تساوي مائة روبل.

كان سكوراتوف يرتدي معطفاً لا يمكن أن يرى المرء أعتق منه ولا أبلى، كان مرقعاً في مواضع مختلفة، بقطع كانت تتدلى. ونظر بإمعان إلى لوقا، من أخمص قدميه إلى قمة رأسه ثم قال:

- ولكن رأسي، أيها الرفاق، رأسي هو الذي يساوي مالاً كثيراً! حين قلت وداعاً لموسكو، كان نصف عزائي أن رأسي سيرافقني طوال الطريق فوق كتفي.

وداعاً، موسكو! شكراً على حمّامك الدافئ، وهوائك الطلق، وعلى الضربات المتصلة التي تلقيتها! أمّا معطفي، يا عزيزي، فلست بحاجة إلى أن تنظر إليه.

- لعلك تريد أن أنظر إلى رأسك.

صاح لوقا كوزميتش:

- إذا كان ما زال له! ولكن تصدّقوا عليه به، في مدينة تومين، حين مرت بها القافلة.

- سكوراتوف، هل كان لك مصنع؟

قال أحد السجناء الحزانى:

- أي مصنع يمكن أن يكون له؟ كان مجرد إسكاف بسيط، يدقّ الجلد على الحجر.

قال سكوراتوف، دون أن يلاحظ لهجة مخاطبه اللاذعة:

- صحيح، حاولت رتق بعض الجزم، ولكني لم أرقع في المجموع إلا زوجاً من الأحذية.

- وماذا إذن، هل وجدت من يشتريه منك؟

- نعم، وجدت فتى، لا شك أنه كان لا يخشى الله، ولم يكرم أباه ولا أمه، فعاقبه الله، فاشترى عملي!

انفجر بالضحك كلّ من كانوا حول سكوراتوف.

وتابع سكوراتوف قائلاً بهدوء لا يعكِّره شيء:

- ثم عملت في سجن الأشغال الشاقة، فغيّرت نعل حذاء ستيبان فيودوروفيتش بومورتسيف، الملازم الأول.

وهل كان راضياً عن عملك؟

- لا والله! يا رفاق، بالعكس. لقد شتمني شتماً يكفيني طوال حياتي، ثم دفعني أيضاً من عجيزتي بركبته. كم كان غضبه شديداً! - آه! يا لها من غادرة، حياتي العاهرة، حياتي في سجن الأشغال الشاقة!

قال سكوراتوف ذلك ثم أخذ يغني من جديد ويضرب الأرض بقدميه راقصاً:

ما هي إلا لحظة انتظار
وإذا بزوج أكو-لينا في الفناء. . .

غمغم الأوكراني الذي كان يمشي بجانبي وهو ينظر إليه شزراً:

- أوه! يا له من طائش!

وقال آخر بلهجة جادة وجازمة:

- رجل عديم الفائدة!

لم أستطع أن أفهم أبداً لماذا كانوا يشتمون سكوراتوف، ولماذا كانوا يحتقرون السجناء الذين كانوا مرحين، كما أتيح لي أن ألاحظ في تلك الأيام الأولى. عزوت غضب الأوكراني والآخرين إلى عداوة شخصية، ولكني أخطأت الظنّ، فقد كانوا غير راضين عن سكوراتوف، لأنه لم يكن يتَّخذ هيأة الوقار الزائف التي كان يصطنعها السجن كله، ولأنه كان على حدِّ تعبيرهم رجلاً عديم الفائدة. إلا أنهم لم يكونوا يغتاظون من جميع المازحين ولا يعاملونهم كما كانوا يعاملون سكوراتوف. كان يوجد بينهم من يعرفون كيف يدافعون عن أنفسهم ولا يتسامحون في شيء، ولا بد من احترامهم طوعاً أو كرهاً. وكان حقاً بين عصابتنا سجين من هذا النوع، فتى لطيف ظريف، دائم الفرح والمرح، لم أعرفه على حقيقته إلا فيما بعد، كان شاباً رشيق القامة، وعلى خدّه خال كبير ويعلو محياه تعبير مضحك جداً، وإن كان في غاية الوسامة والذكاء. كان يطلق عليه اسم «الرائد» لأنه كان قد خدم في سلاح الهندسة: كان ينتمي إلى القسم الخاص. سأتحدث عنه فيما بعد.

على أن جميع السجناء «الجادين» لم يكونوا صريحين مثل

الأوكراني، حين كان يغيظهم أن يروا بعض الرفقاء مرحين. كان في سجننا رجال يسعون إلى التفوّق، إمّا بسبب مهارتهم في العمل، أو لبراعتهم في التصرف، أو قوة الطبع أو توقد الذهن. وكان كثير منهم يملكون الذكاء، والطاقة، ويصلون إلى تحقيق الهدف الذي يسعون إليه، أي أن يكون لهم على رفاقهم سلطان ونفوذ معنوي. وغالباً ما كانوا أعداء ألداء، وكان لهم حساد كثيرون. كانوا ينظرون إلى السجناء بنوع من الوقار الطافح بالتسامح المتعجرف ولا يتشاجرون أبداً سدى. ولما كانت علاماتهم جيدة لدى الإدارة، فإنهم كانوا يسيِّرون الأعمال إلى حدٍّ ما، ولا أحد منهم كان ينزل إلى مستوى الشجار بسبب أغانٍ مثلاً، لم يكونوا ينحطّون إلى هذه الدرجة. وكل هؤلاء كانوا مهذّبين معي على نحو رائع طوال المدة التي قضيتها في السجن، ولكنهم لا يتواصلون إلا قليلاً جداً. وسأتحدث عن هذا أيضاً بتفصيل.

وصلنا إلى الشاطئ، كان الزورق العتيق، الذي علينا أن نفكّكه، غائصاً، في جليد النهر، وعلى الطرف الآخر من الماء، كان السهب يمتد أزرق، والأفق يلوح حزيناً مقفراً. كنت أتوقع أن أرى جميع السجناء منهمكين بحيوية في العمل، لكن لم يحدث شيء من ذلك. كان بعض السجناء يجلسون بلا مبالاة فوق جذوع الشجر الملقاة على الشاطئ، كانوا كلهم تقريباً يسلون من جزماتهم أكياساً تحتوي على تبغ هذه المنطقة (كان يباع أوراقاً في السوق، بثلاثة كوبيكات للرطل) ويسحبون غلايينهم الخشبية القصيرة القصبة. كانوا يشعلون غلايينهم بينما كان الجنود يشكلون دائرة حولنا ويستعدون لحراستنا وعلى وجوههم أمارات الضجر والضيق.

قال سجين بصوت مرتفع دون أن يوجّه كلامه مع ذلك إلى أيّ أحد:

- مَن ذا الذي خطرت بباله فكرة تحطيم هذا القارب؟ أتراهم بحاجة إلى الحطب؟

ولاحظ آخر:

- أولئك الذين لا يخافون منا، هؤلاء هم الذين خطرت ببالهم هذه الفكرة الجميلة.

وقال الأول، بعد لحظة صمت:

- إلى أين يمضي هؤلاء الفلاحون؟

لم يسمع عن سؤاله جواباً. وأشار بأصبعه، في البعيد، إلى جماعة من الفلاحين، الذين كانوا يسيرون صفاً فوق الثلج البكر. التفت جميع السجناء بتكاسل نحو هذه الجهة، وأخذوا يتهكمون على هؤلاء المارة من أجل تزجية الفراغ. كان أحد الفلاحين، الأخير في الصف، يمشي مشية مضحكة جداً، مباعداً ذراعيه، مائلاً برأسه إلى جانب، معتمراً قبعة عالية جداً على شكل قالب فطيرة من الحنطة السوداء. وكان شبحه يرتسم بوضوح فوق الثلج الأبيض. قال أحد رفقائي محاكياً نطق الفلاحين:

- انظروا ما أجمل لباس أخينا بيتروفيتش!

والمضحك في الأمر أن السجناء كانوا ينظرون إلى الفلاحين باستعلاء، رغم أنّ أغلبهم هم أنفسهم من الفلاحين.

- الأخير خاصة... كأنه يزرع فجلاً!

وقال ثالث:

- ما أضخم قبعته... لا شك أنه ذو مال كثير.

وأخذ جميع السجناء يضحكون، لكن بتراخٍ وتوانٍ، كأنما على مضض يضحكون. وفي ذلك الوقت وصلت بائعة أرغفة السميطة «كالاتش»: كانت امرأة حيوية الحركة، يقظة الهيأة. فاشترى منها السجناء أرغفة بالكوبيكات الخمسة التي تصدَّق بها عليهم ذلك الرجل المديني، واقتسموا الخبز بينهم بالتساوي.

واشترى منها الفتى الذي كان يبيع الـ«كالاتش» عشرين رغيفاً وأجرى مع البائعة مناقشة حامية وحادة من أجل تخفيض الثمن. إلا أنها لم توافق على هذه المساومة، فقال لها:

- وإذن، ألن تعطيني حتى هذا؟

- ماذا؟

- ما لا تأكله الفئران؟

قالت المرأة صارخة ومقهقهة:

- طاعون يسمّك!

وأخيراً وصل ضابط الصف المكلَّف بمراقبة الأشغال، وبيده عصاً، فقال:

- إيه! ما لكم قاعدون؟ هيا ابدأوا العمل!

فردّ عليه أحد «القادة» وهو ينهض بتثاقل:

- وإذن، حدّد لنا أعمالاً، يا إيفان ماتفيئيتش.

- ماذا تريدون أكثر؟ اسحبوا القارب، هذا عملكم.

وما لبث السجناء أن نهضوا ونزلوا إلى النهر، وهم يتقدّمون بخطى بطيئة. وظهر «مديرون» مختلفون، مديرون قولاً على الأقل. كان ينبغي أن لا يحطم القارب، كيفما اتفق. وإنما كان يجب الاحتفاظ بألواحه الخشبية سليمة، ولا سيما الألواح المعترضة،

المثبتة في قاعه على طوله كله بواسطة دعائم. وهو عمل يستغرق وقتاً طويلاً ويبعث على الضجر.

صاح أحد السجناء الذي لم يكن لا «مديراً» ولا «قائداً»، بل مجرد عامل بسيط:

- يجب قبل كل شيء سحب هذا اللوح، يا أولاد!

هذا الرجل الهادئ، إنما البليد قليلاً، والذي لم ينبس ببنت شفة قبل الآن، قد انحنى، وأمسك بيديه لوحاً سميكا، منتظراً أن يهبّ أحد لمساعدته. ولكنّ أحداً لم يلبّ نداءه.

همس أحدهم قائلاً من بين أسنانه:

- حاول أنت! لن ترفعه، جدك، الدبّ، لن يستطيع رفعه.

قال ذلك المبادر بالعمل، مرتبكاً وهو يترك اللوح الخشبي ويقف منتصباً:

- وإذن، يا إخوان، هل نبدأ؟ أما أنا، فلا أدري كثيراً...

- لن تقوم بكل العمل لوحدك؟ فلِمَ العجلة؟

فاعتذر المسكين الخائب:

- ولكن، يا رفاق، قلت هذا هكذا فقط...

ومن جديد صاح ضابط الصف المفوض، متطلعاً إلى هؤلاء الرجال العشرين، الذين كانوا لا يعرفون كثيراً من أين يبدؤون:

- هل يجب حتماً أن نعطيكم أغطية تستدفئون بها؟ أم يجب أن نملّحكم لفصل الشتاء؟ هيا ابدأوا! أسرعوا!

- لن نذهب بعيداً أبداً عندما نتعجل، يا إيفان ماتفيئيتش!

- ولكنك لا تفعل شيئاً، إيه! سافيلييف! ما لك تظل محملقاً بعينيك؟ هل ستبيعهما يا ترى؟ ... هيا، ابدأ!

- ماذا بوسعي أن أفعل وحدي؟

- حدِّد لنا عملاً، يا إيفان ماتفيئيتش.

- قلت لكم إنني لن أعين أعمالاً قط. فكّكوا الزورق، وبعد ذلك سوف تعودون. ابدأوا!

وشرع المساجين في العمل ولكن على مضض، وبتوانٍ وتكاسل. يدرك المرء حنق الرؤساء حين يرى هذه الجماعة من الرجال الأقوياء الأشداء الذين كان يبدو أنهم لا يعرفون من أين يبدؤون العمل. ما إن رفعت العارضة الأولى، وهي صغيرة، حتى انكسرت على الفور.

«لقد انكسرت من تلقاء نفسها» هكذا قال السجناء للمفوّض مسوغين، لا يمكن العمل بهذه الطريقة، كان لا بد من العمل بطريقة أخرى. ما العمل؟ وعقب ذلك جرت مناقشة طويلة بين السجناء، ولم تلبث أن تحولت إلى سباب، وشيئاً فشيئاً كاد الأمر أن يصل حتى إلى أبعد من ذلك . . . وصاح المفوض مرة أخرى وهو يلوح بعصاه، ولكن العارضة الثانية انكسرت كالأولى. وأدرك السجناء عندئذٍ أنهم بحاجة إلى فؤوس وأدوات أخرى. فأرسل اثنان تحت الحراسة إلى القلعة لجلب أدوات.

وفي انتظار عودتهما، جلس السجناء الآخرون على متن القارب في غاية الهدوء، وسحبوا غلايينهم وأخذوا يدخنون. وأخيراً، بصق المفوض احتقاراً. ودمدم متذمراً:

- هيا، إن ما تقومون به من عمل لن يقتلكم، آه، يا لكم من ناس! أي ناس!

أشار بيده ممتعضاً، ومضى إلى القلعة وهو يلوح بعصاه.

وبعد ساعة أقبل المراقب. استمع للسجناء بهدوء ثم أعلن أنه يحدِّد لهم عملاً هو تفكيك عوارض كاملة، دون أن تنكسر، وتقويض جزء كبير من القارب، ومتى أنجزوا هذا العمل كان في وسعهم أن يعودوا إلى البيت.

كانت مهمة ضخمة، يا إلهي! كم كان السجناء مسرعين مندفعين إلى العمل! أين ما كانوا عليه من كسل، وجهل قبل قليل؟ وإذا بالفؤوس تدخل إلى العمل، بل إلى الرقص فتخرج المسامير الخشبية. وأولئك الذين ليست لهم فؤوس كانوا يدسّون تحت العوارض عصياً غليظة وما هي إلا لحظات حتى كانوا يخرجونها بطريقة ممتازة ومهارة عالية.

وما أشدّ دهشتي حين كنت أراها ترتفع كاملة دون أن تنكسر.

كان السجناء يسرعون في العمل. وكانوا كأنهم أصبحوا فجأة أذكياء. لم يكن يسمع لا كلام ولا سباب، كان كل واحد يعرف جيداً ما كان عليه أن يقول، وأن يعمل، وأن ينصح، أو أين كان عليه أن يقف.

وبعد نصف ساعة وقبل أن يقرع طبل العودة، كانت المهمة الموكلة إليهم قد أنجزت، وعاد السجناء منهكين ولكن مسرورين بربح نصف ساعة راحة من الوقت الذي يحدده لهم النظام.

أما فيما يتعلق بي، فقد لاحظت أمراً فريداً جداً: أينما أردتُ أن أعمل، وأن أساعد العاملين إلا شعرت أنني في غير مكاني، كنت أضايقهم دائماً، فأطرد من كل مكان وأكاد أشتم تقريباً.

أول قادم رثيث الثياب، عامل رديء لم يكن يجرؤ على أن يفوه بكلمة واحدة أمام السجناء الآخرين الذين هم أذكى وأحذق منه، كان

يظنّ أنه يحق له أن يزجرني، حين أدنو منه، بدعوى أنني كنت أعيق عمله. وأخيراً قال لي أحدهم بصراحة وفظاظة وهو أكثرهم لباقة:

- ماذا جئت تفعل هنا؟ هيا اذهب! لماذا تأتي حين لا يدعوك أحد؟

وسرعان ما أضاف آخر:

- وقع في الحصار!

وقال لي ثالث:

- أجدر بك أن تحمل جرّة، وأن تنقل الماء إلى ذلك المنزل الذي يُبنى هناك، أو أن تمضي إلى الورشة حيث يفتت التبغ: لا عمل لك هنا.

كان عليّ أن أتنحى جانباً، إلا أن البقاء جانباً، بينما الآخرون يعملون، يبدو أمراً مخجلاً. ولما ذهبت إلى الطرف الآخر من القارب، ازدادوا شتماً لي قائلين: «انظروا أي عمال يرسلون إلينا! لا حاجة لنا بأمثال هؤلاء الأشداء».

كل ذلك قيل بنيَّة مبيّتة، كان يسعدهم أن يسخروا من شخص نبيل وكانوا ينتهزون هذه الفرصة.

يمكن أن تُفهم الآن أولُ فكرة خطرت على ذهني عند دخولي إلى السجن، تساءلت فيها كيف ينبغي لي أن أتصرف مع أمثال هؤلاء الناس.

كنت أحسّ أن حوادث مثل هذه لا بد أن تتكرر كثيراً، ولكنني قررت أن لا أغير سلوكي، مهما تكن هذه الاحتكاكات وهذه الاصطدامات. وكنت أعلم أنني على صواب في هذا التفكير. فقررت

أن أعيش بسيطاً، مستقلاً، دون أن أظهِر أية رغبة في التقرُّب من رفاقي، ولكن دون أن أبعدهم أيضاً، إذا رغبوا هم في التقرب إليّ، وأن لا أخشى أبداً تهديدهم، وحقدهم، وأن أتظاهر ما استطعت بأنني لا ألاحظ لا هذا ولا ذاك. كانت هذه خطتي. وأدركت من أول وهلة أنهم سيحتقرونني إذا تصرّفت بخلاف ذلك. إلا أنني، حسب مفهومهم «وقد علمت ذلك فيما بعد بلا شك» كان عليَّ مع ذلك أن أراعي وأن أحترم أمامهم حتى أصْلي النبيل، أي أن أترفّه، وأن أتصنّع، وأن أشمئزّ منهم، وأن أتذمّر في كل خطوة، وأن لا أفعل شيئاً بيديَّ الناعمتين. هكذا بالضبط كانوا يفهمون معنى النبيل. بطبيعة الحال، كانوا سيوسعونني سبّاً على ذلك، إلا أنهم في قرارة أنفسهم كانوا سيحترمونني. غير أنني لم أكن قادراً على أداء مثل هذا الدور، ولم أبدُ يوماً على هيأة نبيل حسب منظورهم، ولكنني مقابل هذا وعدت نفسي وعداً قاطعاً على أن لا أتذلل أمامهم وأن لا أتنازل عن أي شيء من تكويني ومن نمط تفكيري. ولو حاولت، إرضاءً لهم، أن أتقرب منهم، وأن أتوافق معهم، وأن أعاملهم بلا كلفة، وأن أسترسل في مختلف «مزاياهم» حتى أكسب عطفهم، - لظنّوا حالاً أنني إنما أفعل هذا خوفاً وجُبناً، ولتعاملوا معي باحتقار.

لم يكن أ. ف مثالاً صالحاً للاقتداء: كان يشي بالسجناء إلى الماجور، وكانوا هم أنفسهم يخشونه. ومن جهة أخرى لم أكن أريد أن أتعامل معهم بمجاملة باردة وصعبة، كما كان يفعل البولنديون. لقد رأيت الآن بصورة جيدة جداً، أنهم يحتقرونني لأنني كنت أريد أن أعمل، مثلهم، ولم أكن أتدلل، وأتصنع أمامهم، وإن كنت أعرف تماماً أنهم مضطرون فيما بعد إلى أن يغيروا رأيهم فيّ، ولكن مع ذلك

فالتفكير بأنهم الآن كأنما يحقّ لهم أن يحتقروني، ظناً، بأنني كنت أتزلف إليهم بالعمل، - فهذا التفكير كان يزعجني بشكل رهيب.

عندما عدت في المساء إلى السجن بعد عمل الظهيرة، متعباً، مضطرباً، استولى عليَّ حزن عميق. فقلت لنفسي:

«كم من آلاف الأيام المماثلة تنتظرني أيضاً! هي نفسها دائماً!».

وبينما كنت أجول وحيداً، ساهماً، مفكِّراً، عند هبوط الليل، على طول السياج وراء الثكنات، رأيت فجأة شاريك السمين (من «شار» - كرة) يهرع نحوي مباشرة.

كان شاريك كلب السجن، لأن للسجن كلبه، كما كان لفصائل المشاة والفرسان، وبطاريات المدفعية كلابها. كان يعيش في هذا السجن من زمن طويل، ولا ينتمي إلى أي أحد، ويعتبر كلّ واحد من السجناء سيده، ويقتات بفضلات المطبخ.

كان كلباً كبيراً أسود، ذا بقع بيضاء، ليس مسنّاً كثيراً، له عينان ذكيتان وذيل كثيف الشعر. لم يكن يداعبه وينتبه إليه أحد.

منذ وصولي إلى السجن اتخذته صديقاً وأنا أعطيه كسرة خبز. حين كنت أداعبه، كان يظلّ ساكناً في مكانه، متطلعاً إليَّ بنظرة وديعة، وكان مسروراً يحرِّك ذيله برفق.

وفي ذلك المساء، بما أنه لم يَرَني طوال النهار، أنا، الأول الذي، منذ سنوات، خطر بباله أن يداعبه، - فقد ركض بحثاً عني في كل مكان، وقفز مسرعاً إلى لقائي وهو ينبح. لا أدري ما شعرت به حينئذٍ، ولكنني أخذت أقبِّله، وأضمّ رأسه إلى صدري: فوضع رجليه على كتفيّ وأخذ يلحس وجهي. قلت لنفسي:

«هذا هو الصديق الذي يرسله إليّ القدر!».

وخلال هذه الأسابيع الأولى الشاقة القاسية كثيراً، كنت حين أعود في كلّ مرة من الأشغال، قبل العناية بأي شيء آخر، أسرع إلى ما وراء الثكنات، مع شاريك الذي كان يقفز أمامي فرحاً، وكنت أمسك برأسه بين يدي، وأقبّله، وألثمه، وأبوسه، بشعور عذب جداً ومقلق ومُرّ في الآن نفسه كان يعتصر قلبي.

ما زلت أذكر كم كان يسرني أن أفكر - كنت إلى حدٍّ ما أستعذب عذابي - أنه لم يعد لي إلا كائن وحيد يحبني ويتعلق بي، هو صديقي، صديقي الوحيد، - كلبي الوفي، شاريك.

7. معارف جدد - بيتروف

ولكن، مع مرور الوقت، وتدريجياً تعودت على حياتي الجديدة، ولم تعد المشاهد التي كانت تمرّ أمام عينيّ يومياً تؤلمني كما من قبل، وباختصار أصبح السجن، بسكّانه وعاداته، لا يثير فيّ إلا اللامبالاة وعدم الاكتراث. كان التصالح مع هذه الحياة مستحيلاً، ولكن كان عليَّ تقبلها كأمر لا مفرَّ منه. لقد دفنت في أعماق كياني جميع المخاوف التي كانت تزعجني. لم أعُد أهيم في السجن كالتائه. كما لم أترك للقلق المجال كي يتغلّب عليّ. وخفّ فضول السجناء المتوحش تجاهي، وقلَّت الوقاحة المتكلفة في نظراتهم إليّ. ولم أعد بالنسبة إليهم أثير اهتماماً، وقد أراحني ذلك تماماً. فأصبحت أتجوَّل في الثكنة كأنني في بيتي، كما عرفت مكان نومي بالليل، وتعودت على أشياء كان مجرّد التفكير فيها غير مقبول. وأخذت أذهب، أسبوعياً وبانتظام لحلاقة رأسي.

كنا نُدعى كل سبت تباعاً إلى مقرّ الحرس، حيث كان حلاقو الفوج يغسلون جماجمنا بماء الصابون البارد بدون شفقة، ثم يكشطونها بشفراتهم المثلّمة. ما زال مجرد التفكير في ذلك العذاب يجعل جلدي يقشعر. ولكنني ما لبثت أن وجدت علاجاً لذلك؛ إذ دلّني أكيم أكيميتش على معتقل من القسم العسكري، كان مقابل كوبيك واحد، يحلق للهواة بشفرته الخاصة، كان ذلك مصدر رزقه. وكان الكثير من المعتقلين يلجؤون إليه هرباً من الحلاقين العسكريين، رغم أنهم لم يكونوا أناساً مترفين. كان حلاقنا يلقَّب بـ«الماجور»، لماذا؟ لا أعرف عن ذلك شيئاً، بل إنني متحير في أوجه الشبه بينه وبين الماجور؟ وحتى كتابة هذه السطور ما زلت أرى بوضوح الماجور ووجهه النحيل؛ كان شاباً طويل القامة، صامتاً، كثير الغباء، منشغلاً دائماً بمهنته؛ كان لا يُشاهَد إلا حاملاً في يده حزاماً جلدياً يشحذ عليه ليلاً ونهاراً شفرة حادة. كان بالتأكيد يعتبر هذا العمل أكبر هدف لحياته. وكان أكثر ما يسعده أن تكون شفرته مشحوذة وأن يطلب أحد خدماته. كان صابونه دائماً ساخناً؛ وكانت يده خفيفة جداً، كالمخمل. وكان يتباهى بمهارته ويتناول الكوبيك الذي ربحه غير حافل به كأنما يعمل حباً بفن الحلاقة وليس رغبة في الأجر.

وذات يوم، حينما كان أ. ف. يتحدث عن الحلاق، زلّ لسانه فوصفه بلقب «الماجور» في حضور الماجور نفسه، فاستشاط الماجور الحقيقي غضباً وعاقب أ. ف. بشدة وصرخ قائلاً له وهو يرغي ويزبد، ممسكاً بتلابيبه كعادته:

– أتعرف، أيها الوغد، ما معنى ماجور؟ أتدري ما قيمة

الماجور؟ كيف تجرؤ على تسمية سجين حقير بلقب «الماجور» أمامي، وبحضوري؟

وحده أ. ف. كان باستطاعته أن يتلاءم مع شخص كهذا.

منذ اليوم الأول من سجني، بدأت أحلم بالإفراج عني. كان شغلي الشاغل أن أعدّ ألف مرة وبألف طريقة مختلفة، عدد الأيام التي كان عليَّ أن أقضيها في السجن. لم أكن أستطيع التفكير في شيء آخر، وكل سجين محروم من حريته لمدّة محدَّدة لا يفعل غير ما فعلت، أنا متأكد من ذلك. لا أستطيع القول إن السجناء كانوا يعدون الأيام مثلما أعدّها، ولكن رعونة آمالهم كانت تدهشني بطريقة غريبة.

إن آمال السجين تختلف وبطريقة أساسية عن الآمال التي يتغذى بها الرجل الحرّ. فهذا الأخير قد يرجو تحسين أوضاعه، أو تحقيق أحد مشاريعه، ولكنه بانتظار ذلك، يعيش، ويعمل، وتأخذه الحياة الواقعية في دوامتها. ولا شيء مثل ذلك بالنسبة إلى السجين، إنه يعيش كذلك، إذا صحّ القول، ولكن ليس هناك سجين محكوم بالأشغال الشاقة عدداً من السنوات يسلِّم بقدره كشيء إيجابي، وحاسم ونهائي، وكجزء من حياته الحقيقية. ذلك شيء غريزي لديه، يحس بأنه ليس في بيته، وكأنه مجرد زائر. إنه ينظر إلى السنوات العشرين التي حكم عليه بها كأنها سنتان على أكثر تقدير. وهو متأكد من أنه حين بلوغه سنّ الخمسين، عند إنهائه مدة عقوبته، لن يكون أقلّ نضارة ولا قوة منه وهو في سنّ الخامسة والثلاثين. «ما زال لدينا وقت لنحياه» ذلك ما يحدِّث به نفسه. وهو يطرد بعناد كلّ الخواطر المثبطة والشكوك المحبطة. حتى المحكوم عليه بالسجن المؤبد نفسه يتوقع أنه في يوم جميل ما سيأتي الأمر من بطرسبورغ «انقلوا فلاناً

إلى مناجم نيرتشينسك، وحددوا موعداً للإفراج عنه» كم سيكون ذلك جميلاً! أولاً لأن الرحلة إلى نيرتشينسك تستغرق تقريباً ستة أشهر، ولأن الحياة في القافلة أفضل مائة مرة من الحياة في السجن! سيُنهي فترة عقوبته في نيرتشينسك، وعند ذلك. . .

ما أكثر الشيوخ الشيب الذين يفكرون بهذه الطريقة!

رأيت في توبولسك رجالاً مغلولين إلى الجدران؛ كانت سلاسلهم تبلغ المترين طولاً؛ وإلى جانبهم كانت هناك مضاجع. كانوا يغلون بهذه السلاسل بسبب جريمة بشعة ارتكبوها بعد ترحيلهم إلى سيبيريا. وكانوا يبقون على هذه الحال لمدة خمسة أعوام أو عشر سنين. كلهم تقريباً كانوا قطّاع طرق. لم أرَ بينهم إلا واحداً كان يظهر أنه رفيع المنزلة، كان يعمل في إحدى الدوائر الحكومية، كان يتكلم بلسان متملق، وهو يصفر، ويبتسم ابتسامة حلوة رقيقة. أرانا سلسلته، وشرح لنا أفضل طريقة للنوم بها. لا بد أنه إنسان لطيف! كل هؤلاء التعساء كانوا يتصرفون بطريقة مثالية، وكل منهم كان يبدو سعيداً، ومع ذلك فكل منهم ينتظر الخلاص من أغلاله بفارغ الصبر. لماذا؟ قد تتساءلون. لأنه عند ذلك سيخرج من زنزانته المنخفضة، الخانقة، الرطبة، ذات الأقواس القرميدية، إلى فناء السجن، و. . . هذا كل شيء. فلن يسمح له أبداً بمغادرة السجن؛ إنه لا يجهل أنَّ مَن كبلوا بالسلاسل لن يبارحوا السجن أبداً، وأنه سينهي حياته هناك، وأنه فيه سيموت، إنه يعرف كل ذلك، ولكنه مع ذلك يتمنى الخلاص من أغلاله. بدون هذه الرغبة، هل يستطيع البقاء مغلولاً إلى جدار لمدة خمسة أعوام أو ست سنين، دون أن يموت أو يُجنّ؟ هل يستطيع مقاومة ذلك؟

فهمت بسرعة أن العمل وحده يستطيع إنقاذي، وتقوية صحتي وجسدي، في حين أن القلق النفسي الدائم، والتوتر العصبي المستمر وهواء الثكنة الموبوء سيدمرني كليّاً.

وكنت مقتنعاً بأن الهواء الطلق، التعب اليومي، حمل الأثقال لا بد أن يقوّيني، وبفضل ذلك سوف أخرج قوياً، معافى الجسم، ومليئاً بالحياة. لم يخطئ ظنّي: فإن العمل والحَراك نفعاني كثيراً.

كنت أشاهد في جزع أحد رفاقي (من النبلاء) وهو يذوب كما تذوب الشمعة. مع أنه عند وصوله معي إلى السجن، كان شاباً، وسيماً وقوياً؛ أما حين خروجه فقد كانت صحته قد تدمرت، ورجلاه لا تكادان تحملانه، وكان الربو يخنق صدره. لا، كنت أقول لنفسي وأنا أنظر إليه، أنا أريد العيش وسأعيش. جلب لي حبي للعمل أول الأمر احتقار رفاقي وسخريتهم اللاذعة. ولكنني لم أعِرْ ذلك أي اهتمام، وكنت أمضي مبتهجاً إلى حيث أرسلت لإحراق ودقّ الرخام مثلاً. كان هذا العمل، الذي هو من أوائل الأعمال التي عهد بها إليّ، عملاً سهلاً. كان المهندسون يفعلون ما بوسعهم لتخفيف وطأة العمل على المساجين ذوي الأصل النبيل؛ لم يكن ذلك تسامحاً، ولكن كان عدلاً. ألن يكون غريباً أن يُطلب العمل نفسه من عامل ومن رجل لا تبلغ قواه نصف قوى الرجل الأول، كما أنه لم يعتد العمل بيديه؟

ولكن هذا «الدلال أو الامتياز» لم يكن دائماً، بل إنه كان يتمّ خفية، لأن الرقابة كانت شديدة علينا. وبما أن الأعمال المضنية لم تكن نادرة، فكثيراً ما كانت المهام فوق قدرة السجناء النبلاء، الذين كانوا يعانون ضعفَي معاناة رفاقهم. كانوا يرسلون عادة ثلاثة أو أربعة

رجال لدق الرخام؛ وغالباً ما كانوا شيوخاً أو أشخاصاً ضعفاء، وكنا بطبيعة الحال من هؤلاء؛ وكانوا يرسلون معنا علاوة على ذلك عاملاً حقيقياً، خبيراً بهذه المهنة. وطوال عدة سنوات ظلَّ يصحبنا الشخص نفسه هو ألمازوف، كان قاسياً، مسنّاً، ملوحاً بالشمس، وشديد النحول، وكان قليل الكلام وصعب المراس. كان يحتقرنا بشدة، ولكنه كان قليل التعبير عمّا بداخله حتى أنه كان لا يكلف نفسه عناء شتمنا. كانت السقيفة التي نحرق تحتها الرخام قد بنيت على شاطئ النهر الوعر والمهجور.

في الشتاء، وفي يوم كثير الضباب، كان المشهد حزيناً على النهر وعلى الضفة المقابلة التي كانت تبدو بعيدة. كان هناك شيء مفجع في هذا المشهد الكئيب والعاري. وكان ممّا يزيد من كآبة المنظر عندما تشرق شمس ساطعة على هذا السهل الأبيض، اللانهائي. حتى ليتمنى المرء أن يطير إلى بعيد في هذه السهوب التي تبدأ عند الضفة الأخرى وتمتدّ إلى أكثر من ألف وخمسمائة فرسخ إلى الجنوب، منبسطة كأنها مفرش كبير جدّاً. كان ألمازوف يبدأ العمل في صمت مكفهر، وكنا نخجل من عدم قدرتنا على مساعدته بطريقة فعالة، ولكنه كان يكمل عمله وحده، دون طلب مساعدتنا، كأنما يريد أن يعرّفنا أخطاءنا تجاهه، وأن يجعلنا نطلب العفو على عدم جدوانا. وكان هذا العمل يتمثَّل في إشعال الفرن، لإحراق الرخام الذي كنا نكدِّسه فيه.

وفي اليوم التالي، عندما يحترق الرخام احتراقاً كاملاً، كنا نخرجه. ويتناول كلّ منا مدقّة ثقيلة ويملأ صندوقاً بالرخام الذي يبدأ بدقِّه. كان هذا العمل ممتعاً، فالرخام الهشّ ما يلبث أن يتحول إلى مسحوق أبيض لامع، يتفتت بسرعة وبسهولة. كنا نرفع مطارقنا الثقيلة

ونهوي بضربات هائلة تثير إعجابنا. وعندما نتعب، كنا نحسّ بخفة أكثر، كانت خدودنا تحمرّ، وكان الدم يجري في عروقنا بسرعة أكبر. وكان ألمازوف ينظر إلينا عندئذٍ بتساهل، كأنما ينظر إلى أطفال صغار. وكان يدخن غليونه وعلى وجهه تعبير متسامح، إلا أنه لم يكن يستطيع منع نفسه من الدمدمة ما إن يفتح . . . فمه. كان دائماً هكذا على كلّ حال، ومع الجميع، وأعتقد أنه في أعماقه كان شخصاً طيباً.

كانوا يكلفونني أيضاً بعمل آخر يتمثل في تحريك عجلة المخرطة، وكانت هذه العجلة عالية وثقيلة؛ وكان يلزمني الكثير من الجهد لإدارتها، خاصة عندما كان العامل (من ورشة الهندسة) بصدد أن يصنع لأحد الموظفين درابزين سلّم أو قوائم مائدة كبيرة، ممّا كان يحتاج إلى جذع شجرة كامل تقريباً. ولما كان هذا العمل فوق قدرة رجل واحد، فقد كانوا يرسلون سجينين، هما ب. . . أحد النبلاء السابقين، وأنا. وأصبح هذا العمل من مهامنا الدائمة تقريباً وذلك لعدة أعوام، كلما احتاج شيء ما للخراطة. كان ب. . . ضعيفاً، مغروراً، وما زال شاباً، كما كان يعاني من مرض صدري، وكان قد سُجن قبلي بسنة، مع رفيقين له من النبلاء أيضاً. كان أحدهما عجوزاً يدعو الله ليلاً ونهاراً (وكان السجناء يحترمونه لذلك)، وقد مات أثناء فترة سجني. وكان الثاني شاباً، متورد الوجه، قوياً وشجاعاً، وقد حمل رفيقه ب. . . لمسافة سبعمائة فرسخ إثر سقوطه من التعب بعد منتصف المرحلة الأولى من مراحل الرحلة. ولذلك كان يجب أن ترى صداقتهما. كان ب. . . رجلاً عالي التهذيب، ذا خلق نبيل وكريم، ولكن المرض أفسده. كنا ندير العجلة نحن الاثنين، وكانت هذه المهمة تثير اهتمامنا. وكنت أعتبرها تمريناً ممتازاً.

وكنت أحبّ جرف الثلج، وذلك ما كنّا نفعله بعد الأعاصير المتكررة في الشتاء. فإذا هبّ أحد الأعاصير يوماً كاملاً، كانت عدة منازل تطمر تحت الثلج حتى نوافذها، هذا إذا لم تدفن كاملة. فإذا انتهى الإعصار وظهرت الشمس من جديد، أمرنا بإزالة الثلج عن المباني المحاصرة. كنا نرسل إلى هناك جماعات كبيرة، وأحياناً جميع المساجين مرة واحدة. كان كل منا يتسلَّم مجرفة، وكان عليه أن ينجز عملاً محدداً يبدو له في الكثير من الأحيان مستحيل الإنجاز، كان الكل يبدأ العمل بنشاط. وكان الثلج الهش لا يزال لم يتكدّس بعد، ولم يتصلب منه إلا السطح. كنا نجرف منه كتلة كبيرة ننثرها حولنا، وكانت تتحول في الهواء إلى غبار لامع. كانت المجرفة تنغرز بسهولة في الكتلة البيضاء، المتلألئة تحت الشمس. كان السجناء دائماً ينفذون هذا العمل في غبطة: فريح الشتاء البارد، والحركة تنعشانهم. وكان الكل يشعر بالفرح: وكانت الضحكات، والصرخات، والدعابات تملأ المكان. وكنا نتراشق بكرات الثلج، مما كان يثير بعد قليل سخط العقلاء الذين لا يحبون الضحك ولا الفرح؛ لذلك كانت الحيوية العامة كثيراً ما تنتهي بالشتائم.

وشيئاً فشيئاً بدأت دائرة معارفي تتسع، رغم أنني لم أسعَ إلى ذلك؛ فقد كنت دائماً قلقاً، عابساً، ومرتاباً. وقد تجمّعت هذه الصلات من تلقاء نفسها. وكان أول من جاء يزورني، السجين بيتروف، أقول يزورني وأؤكد هذه الكلمة. كان يقيم في القسم الخاص، الذي كان يعدّ أبعد ثكنة عن ثكنتي. في الظاهر، كان لا يمكن أن تقوم بيننا علاقة، فلم يكن بيننا رابط يقربنا من بعضنا أو يمكن أن يكون. مع ذلك، وأثناء المرحلة الأولى من إقامتي، ظنّ

بيتروف أنّ من واجبه أن يأتيني يومياً تقريباً في ثكنتنا، أو على الأقل أن يوقفني أثناء وقت الراحة، عندما أذهب خلف الثكنات، بعيداً جداً عن كل الأعين. هذا الإصرار بدا لي أول الأمر مزعجاً، ولكنه عرف كيف يحسِن التصرف حتى أصبحت زياراته تسلية لي، رغم أنه لم يكن سهل التواصل. كان قصير القامة، قوي البنية، رشيقاً وماهراً. كان وجهه اللطيف شاحباً، ناتئ الوجنتين، جريء النظرة، ذا أسنان صغيرة بيضاء ومكتظة. وكان دائماً يضع مضغة من التبغ المبشور بين اللثة والشفة السفلى (كثير من السجناء اعتادوا مضغ التبغ). كان يبدو أصغر سنّاً مما هو في الواقع، إذ كان الناظر إليه لا يعطيه أكثر من ثلاثين سنة، في حين أنه كان في الأربعين. كان يكلمني بدون أي حرج، ويقف مني على قدم المساواة، مع كثير من اللياقة والرقة. إذا لاحظ، مثلاً، أنني أبحث عن الوحدة، تحدّث إليّ لمدة دقيقتين ثم تركني في الحال؛ كان يشكرني كل مرة على العطف الذي أخصه به، وذلك ما لم يكن يفعله مع أي شخص. وأضيف أن هذه العلاقات لم تتغير قط، ليس فقط أثناء الأوقات الأولى من إقامتي في السجن، ولكن طوال عدة سنين، ولم تصبح أبداً أكثر حميمية، رغم أنه كان مخلصاً لي كل الإخلاص. لا أستطيع تحديد ما كان يبحث عنه بالضبط في صحبتي، ولا ما كان يأتي به كل يوم إليّ. ولقد سرقني بضع مرات، ولكن كان ذلك دائماً عن غير قصد؛ ولم يكن يستدين مني أبداً: لذلك ما كان يجذبه إليّ ليس المال ولا تحقيق أيّة منفعة أخرى.

لا أدري لماذا، ولكن ممّا كان يبدو لي فإن هذا الرجل لم يكن يعيش في السجن نفسه الذي أعيش فيه، ولكن في منزل آخر، في

المدينة، بعيداً جداً؛ حتى كأنه يزور السجن بالمصادفة، لمعرفة الأخبار، للسؤال عني، وبكلمة واحدة، لرؤية طريقة عيشنا. كان دائماً مستعجلاً، كما لو أنه ترك شخصاً ما بانتظاره، أو كأنه ترك عملاً ما بدون إنهائه. كانت نظرته ثابتة ثباتاً غريباً، مع شيء من الجسارة والتهكُّم، وكان ينظر إلى بعيد، فوق الأشياء كما لو أنه يحاول أن يتبين شيئاً ما خلف الشخص الذي يقف أمامه. كان يبدو دائماً شارد الذهن. كنت أتساءل أحياناً إلى أين يذهب بيتروف بعد أن يتركني. أين ينتظرونه بنفاد صبر؟ كان يمضي بخطى خفيفة إلى ثكنة، أو إلى المطبخ، ويجلس بجانب المتحدثين، يصغي إلى حديثهم بانتباه، ويشارك فيه بحماس، ثم يسكت فجأة. ولكن سواء تكلم أم صمت، كان دائماً يبدو على وجهه الانشغال بأمر ما في مكان آخر وأنهم بانتظاره هناك، على بعد. والغريب في الأمر، أنه لم يكن لديه أي عمل، فيما عدا الأشغال الشاقة التي كان يقوم بها، بطبيعة الحال، كان يبقى دائماً متبطلاً، فهو لا يتقن أية مهنة، ولم يكن لديه أبداً مال، ولكن هذا لم يكن يزعجه على الإطلاق. عمّ كان يكلمني؟ لقد كان حديثه غريباً كغرابة أطواره. وكان عندما يلاحظ أنني ذهبت وحيداً خلف الثكنات، يستدير نحوي فجأة. كان يمشي دائماً مسرعاً، ويُكثر الالتفات.

كان يأتي مشياً ومع ذلك كان يبدو عليه كما لو جاء مهرولاً.

- صباح الخير!

- صباح الخير!

- هل أزعجك؟

- لا

- أردت أن أسألك شيئاً ما عن نابليون. أردت أن أسألك إن كان يمتّ بصلة القرابة إلى ذلك الذي أتانا في السنة الثانية عشرة (1812م).

كان بيتروف ابن جندي وكان يعرف القراءة والكتابة.

- تماماً

- يقال إنه رئيس؟ أي رئيس؟ ورئيس ماذا؟ كانت أسئلته سريعة، متقطعة، كأنه يريد معرفة ما يسأل عنه بأقصى سرعة ممكنة.

شرحت له كيف وماذا يترأس نابليون، وأضفتُ أنه ربما سيصبح إمبراطوراً.

- كيف ذلك؟

شرحت له بقدر استطاعتي، وكان بيتروف ينصت إليّ بانتباه؛ ولقد فهم تماماً كل ما قلته له، وأضاف وهو يحني أذنه ناحيتي:

-احم!... آ! أردت أن أسألك أيضاً، ألكسندر بيتروفيتش، هل هناك قرود لها أيادٍ تتدلى أمامها حتى تصل إلى أرجلها، ويبلغ طولها طول الإنسان؟

- نعم

- كيف هي؟

وصفتها له وقلت له كل ما أعرفه عن هذا الموضوع.

- وأين تعيش؟

- في البلدان الحارة. ويوجد منها في جزيرة سومطرة.

- هل هذا في أميركا؟ يقال إن الناس هناك يمشون ورؤوسهم بالأسفل؟

- طبعاً لا. تقصد بكلامك الجهتين المتقابلتين للكرة الأرضية.

شرحت له بقدر ما أستطيع ما هي أميركا وما هي الجهة المقابلة من الكرة الأرضية. كان ينصت إليّ كما لو أنّ مسألة الجهة المقابلة من الكرة الأرضية هي التي جاءت به إليّ جرياً.

- آ! آ! قرأت، السنة الماضية، قصة الكونتَسّة دي لافاليير: أحضر أريفييف هذا الكتاب من الضابط المرافق، هل هي حقيقة أم خيال؟ الكتاب من تأليف دوما.

- بالتأكيد هي قصة مبتكرة.

- هيا! الوداع. أشكرك.

ثم اختفى بيتروف؛ في الحقيقة، لم نكن نتكلم دائماً إلا على هذا النحو.

لقد استعلمت عنه، فاعتقد م... أن من واجبه أن ينبِّهني، عندما علم بالعلاقة التي تربطني به. قال لي إن الكثير من السجناء أثاروا رعبه منذ وصوله، ولكن لا أحد منهم، حتى غازين نفسه، لم يثِرْ في نفسه مقدار الفزع الذي أثاره بيتروف هذا.

- إنه الأكثر تصميماً، والأخطر من بين كل السجناء، قال لي م...، إنه قادر على كل شيء؛ لا شيء يوقفه، إذا عنّت له نزوة ما؛ قد يقتلك، إذا ما صادف ذلك هوى في نفسه، بكلّ بساطة، بدون تردد ودون أدنى ندم. أعتقد أنه لا يملك كامل عقله.

أثار هذا الكلام اهتمامي إلى أقصى حدّ، ولكن م... لم يستطع إخباري لماذا لديه مثل هذا الرأي في بيتروف. شيء غريب! لعدّة سنوات، رأيت هذا الرجل، وتحدثت معه يومياً تقريباً؛ وكان دائماً مخلصاً لي أشدّ الإخلاص (رغم أنني لم أعرف سبب ذلك)، وأثناء هذا الوقت كله، ورغم أنه عاش بهدوء ولم يفعل أي شيء خارج

المألوف، اقتنعت شيئاً فشيئاً بأن م. . . كان على حق، وأنه كان الرجل الأشدّ بأساً والأصعب مراساً في السجن كله. ولماذا؟ لا أستطيع تفسير ذلك.

بيتروف هذا كان بالتحديد من نوع السجناء الذي حين نودي لتنفيذ عقوبته، أراد قتل الماجور؛ وقد ذكرت كيف أن هذا الأخير «نجا بأعجوبة»، لأنه انصرف قبل تنفيذ العقوبة بدقيقة واحدة.

وفي مرة، عندما كان بعد جندياً، قبل مجيئه إلى السجن، ضربه كولونيله أثناء المناورة. وأظن أنه ضرب قبل ذلك عدة مرات؛ ولكن في هذا اليوم، لم يكن لديه المزاج لتحمُّل إهانة في وضح النهار، وأمام الكتيبة كلها، فذبح كولونيله. لا أعرف كل تفاصيل هذه القصة، لأنه لم يَحْكها لي أبداً. وكانت هذه الانفجارات بطبيعة الحال لا تظهر فيه إلا إذا سيطرت عليه طبيعته، لذلك كانت نادرة. كان عادة عاقلاً وحتى هادئاً. كانت انفعالاته القوية والملتهبة تختبئ كالجمر تحت الرماد.

لم ألاحظ أبداً أنه كان متباهياً ولا مغترّاً، كالعديد من السجناء الآخرين.

لم يكن يتشاجر إلا نادراً، ولم تكن تربطه صلة صداقة بأي أحد، ربما باستثناء سيروتكين، وليس إلا عندما يحتاج إلى هذا الأخير.

ومع ذلك فلقد رأيته يوماً مغتاظاً أشدّ الغيظ. ذلك أنه طالب بشيء ما فأهانوه بعدم إعطائه إياه. كان يتشاجر حول هذا الموضوع مع سجين طويل القامة، قوي البنية كالرياضي، كان اسمه فاسيلي أنتونوف، وكان معروفاً بسوء طباعه، وحبّه للمجادلة؛ هذا الرجل،

الذي ينتمي إلى فئة المحكومين المدنيين، لم يكن جباناً على الإطلاق.

تصايَح الرجلان لمدة طويلة، وظننت أن هذه المشاجرة ستنتهي كما انتهت غيرها، بلطمات بسيطة، ولكن المسألة أخذت مجرى غير متوقع: فلقد شحب بيتروف فجأة، وارتعشت وازرقّت شفتاه، وأصبح يتنفس بصعوبة. وقف، وببطء، ببطء شديد، وبخطى خفيفة غير مسموعة (كان يحبّ المشي حافياً في الصيف)، اقترب من أنتونوف. وفوراً حلّ صمت قاتل محلّ الضوضاء والصرخات في الثكنة، كان بالإمكان سماع صوت طيران ذبابة. كان الكل ينتظر الحدث. قفز أنتونوف أمام خصمه، كان وجهه قد فقد آدميته... لم أستطِع تحمُّل المنظر فخرجت من الثكنة. كنت متأكداً من أنني، قبل وصولي الدرج، سأسمع صرخات رجل يذبح ولكن لم يحدث شيء من ذلك. فقبل أن ينجح بيتروف في الاقتراب من أنتونوف، رمى له بهذا الذي تسبب في المشكلة بينهما (وكان مجرّد خرقة بائسة، ضمادة رديئة). وبعد دقيقتين، أخذ أنتونوف في شتم بيتروف، إرضاء لنفسه وللمظاهر، وليؤكد أنه لم يخف كثيراً، ولكن بيتروف لم يُعِر لشتائمه انتباهاً؛ حتى أنه لم يردّ عليه. فكل شيء انتهى لصالحه - والشتائم لا تمسّه إلا قليلاً - كان راضياً بالحصول على خرقته. وبعد ربع ساعة، كان يتجول في الثكنة، متكاسلاً، باحثاً عن رفقة يسمع فيها شيئاً طريفاً. كان يبدو أنّ كل شيء يثير اهتمامه، ومع ذلك فقد كان يصغي بغير اهتمام لما يسمعه، كان يتسكع عاطلاً، وبدون هدف في الممرات. كان يمكن مقارنته بعامل، عامل قوي «يرتعد» العمل أمامه، وليس لديه في الحاضر أي عمل يشغله، لذلك فهو يتنازل للعب مع أطفال صغار.

لم أعرف لماذا يبقى في السجن، لماذا لا يهرب، لم يكن أي تردُّد ليثنيه عن الهرب، لو أنه فقط أراد ذلك. ليس للمنطق سلطة، على أشخاص مثل بيتروف، إلا بقدر عدم رغبتهم في شيء. وعندما يرغبون في شيء ما، فليس هناك حائلٌ دون تحقيق رغبتهم. أنا متأكّد من أنه كان يستطيع الهرب بمنتهى المهارة، وخداع الجميع، والبقاء بدون طعام لأسابيع كاملة، مختبئاً في غابة أو وسط أعواد القصب على ضفة نهر ما. ولكن هذه الفكرة لم تخامر ذهنه بعد. لم ألاحظ فيه حكماً ولا منطقاً سليماً. هؤلاء الأشخاص يولدون مع فكرة تقودهم طوال حياتهم ولا شعوريّاً، تارة إلى اليمين وتارة إلى اليسار، ويظلون هائمين هكذا حتى يصادفوا شيئاً يوقظ رغبتهم الحادّة والعنيفة، وعند ذلك قد يدفعون حتى رؤوسهم ثمناً لرغبتهم هذه. استغربت أحياناً من أن رجلاً قتل كولونيله لأنه تعرَّض للضرب، يرقد ودون اعتراض تحت السياط. لأنه كان يجلد عندما يفاجأ وهو يقوم بتهريب الخمر إلى السجن: مثل كل الذين ليست لديهم مهنة محددة، كان يقوم بتهريب الخمر. كان يستسلم للسياط كما لو أنه يوافق على هذا العقاب ويقرّ بأنه مذنب ولولا ذلك لكان قتله أسهل من جعله يرقد أرضاً. ولقد تفاجأت أكثر من مرة من سرقته لي رغم محبته لي. وكان ذلك يأتيه مثل نزوات أو نوبات تصيبه بين الفينة والأخرى. إذ سرق مرة كتابي المقدس، وكنت قد طلبت منه إرجاعه إلى مكانه، ولم يكن لديه إلا بضع خطوات يمشيها، ولكنه التقى في طريقه بمشترٍ فباعه الكتاب، واشترى بثمنه خمراً. لا بد أنه رغب، يومئذٍ، في الخمر وبشدة، وهو عندما يرغب بشيء ما فيجب أن يتحقق هذا الشيء. إن شخصاً مثل بيتروف قد يقتل رجلاً من أجل الحصول على

خمسة وعشرين كوبيكاً فقط للحصول على ثمن نصف لتر من الخمر، في حين أنه قد لا يحفل في فرصة أخرى بمئات آلاف الروبلات. ولقد اعترف لي في مساء اليوم نفسه بهذه السرقة، ولكن دون أدنى علامة ندم أو خجل، وكان يتكلم عن الأمر ببساطة وقلة اكتراث كما لو أنه يتحدث عن أمر عادي. حاولت تأنيبه كما يستحق، لأنني أسفت على إنجيلي غاية الأسف، ولقد أنصت إليّ بدون انفعال، وبهدوء كبير، ويسلم بأن الإنجيل كتاب مفيد جداً، وتحسّر وبصدق على أنني لم أعد أملكه، ولكنه لم يندم ولا مرة واحدة على سرقته مني، وأخذ ينظر إليّ بمنتهى الثقة حتى توقفت عن تأنيبه. كان يتحمّل تقريعي، لأنه أمر لا بد منه، ولأنه يستحق التقريع من أجل عمل كهذا، ولأنني نتيجة ذلك يجب أن أشتمه حتى أفرّج عن غيظي وأصبِّر نفسي على هذا الفقد، ولكنه وفي قرارة نفسه، كان يؤمن بأن كل ذلك كان مجرد ترهات، ترهات يخجل رجل جادّ من الحديث عنها، بل أعتقد أنه كان يعتبرني طفلاً، وصبياً لا يفهم من هذا العالم أبسط أشيائه. وإذا أنا حدّثته في مواضيع أخرى غير الكتب والعلوم، كان يجيبني، من باب اللياقة فقط، وبعبارات مقتضبة. كنت أتساءل عما كان يدفعه لسؤالي عن الكتب بالتحديد. كنت أنظر إليه خلسة أثناء هذه الأحاديث، للتأكد من أنه لا يسخر مني، ولكن لا، كان ينصت إليّ بكامل الجدية، وبانتباه قد يتلاشى بين الفينة والأخرى، وكانت قلة انتباهه هذه تغيظني أحياناً. كانت الأسئلة التي يطرحها عليَّ واضحة ومحدّدة، ولم يكن يفاجأ من إجاباتها... لقد اقتنع وبدون شك أنه لا يستطيع محادثتي كما يحادث سائر الناس، وأنني فيما عدا الكتب لا أفقه شيئاً.

كنت متأكداً من أنه يحبني، الأمر الذي كان يدهشني كثيراً. هل كان يعتبرني طفلاً، أو رجلاً غير مكتمل النضج؟ هل كان يشعر نحوي بشفقة كتلك التي يشعر بها كل كائن قويّ تجاه آخر أضعف منه؟ هل كان يعتبرني كما. . . لست أدري! ورغم أنّ هذه الشفقة لم تمنعه من سرقتي. كنت متأكداً من أنه، وهو يسرقني، كان يشفق عليّ. وكان يحدِّث نفسه وهو يستولي على ما هو لي «إيه! يا له من شاذ غريب الأطوار! إنه لا يستطيع المحافظة حتى على ما هو له». كان يحبني لأجل ذلك. قال لي يوماً على الرغم منه:

- إنك رجل شديد النبل، بسيط، بسيط إلى درجة تثير الشفقة: لا تأخذ كلامي مأخذاً سيئاً، ألكسندر بيتروفيتش، أضاف بعد دقيقة، فأنا إنما أقوله من دون أيّة نية سيئة.

قد نرى أحياناً في الحياة أشخاصاً مثل بيتروف يظهرون وتتعزَّز مكانتهم في فترة اضطرابات أو ثورة ويجدون العمل الذي يناسبهم، إنهم ليسوا رجال كلام، ولا يستطيعون أن يكونوا محرضين أو قادة لثورات، ولكنهم هم الذين ينفِّذون ويعملون، يعملون ببساطة وبدون ضجة، وهم الأوائل الذين يتحدّون الحواجز، ويندفعون إلى الأمام بصدور عارية، بدون تفكير ولا خوف، والناس جميعاً يسيرون وراءهم، يتبعونهم على غير هدى حتى أسفل الجدار حيث يدفعون عادة حياتهم.

لا أعتقد أنّ نهاية بيتروف كانت نهاية حسنة، لقد كان مهيأ لنهاية عنيفة، وإذا لم يمُت إلى يومنا هذا، فلأن الفرصة لم تأتِ بعد. على كلّ حال، من يدري؟ قد يصل إلى أقصى سنين الشيخوخة ثم يموت بهدوء بعد أن يكون قد تسكّع دون هدف هنا وهناك. ولكني أعتقد أنّ

م. . . كان على حقّ، وأن بيتروف كان أشد مَن في السجن كله عزماً وحزماً وجزماً.

8. رجال حازمون - لوتشكا

يصعب الكلام عن أناس حازمين، في السجن كما في كلّ مكان، إنهم نادرون. يعرفون من الخوف الذي يبعثونه في النفوس، ومن معاملة الناس لهم باحتراس. في أول الأمر دفعني شعور لا يقاوم إلى الابتعاد عن هؤلاء الرجال، ولكنني غيّرت نظرتي بعد ذلك حتى نحو القتلة الأشدّ رهبة. ثمة أناس لم يقتلوا أبداً، ولكنهم أشرس من أولئك الذين سفكوا دم ستة أشخاص. يتعذّر على المرء أن يتصور بعض الجرائم، المرتكبة بغرابة. أقول هذا لأن الجرائم التي يقترفها أفراد من عامة الشعب غالباً ما تكون أسبابها باعثة على الدهشة والاستغراب.

نموذج القاتل الذي يصادف في أكثر الأحيان هو التالي: رجل يعيش حياة هادئة وساكنة، ولكن قدره قاس - فهو يتألم (إنه فلاح يعيش قيناً، قنّ يعمل خادماً، أحد سكان المدينة، أو جندي) وفجأة يحسّ بشيء يتمزق في داخله: ولا يطيق صبراً، فيغمد سكّينه في صدر مضطهده أو عدوه. ويغدو سلوكه عندئذٍ غريباً، هذا الرجل يتجاوز كل حدّ: فقد قتل مضطهده، عدوه: هذه جريمة، ولكنّ لها تفسيراً، إذ كان هناك سبب أدى إليها، وبعد ذلك لن يعود هذا الرجل يقتل أعداءه وحدهم، بل أيّ إنسان، أول قادم، يقتل رغبة في القتل، لأجل كلمة لم ترضه، أو نظرة لم تعجبه، ليجعل عدد قتلاه

شفعاً، أو بكل بساطة: «حذار! تنح عن طريقي!» إنه يتصرف مثل رجل سكران، في هذيان. وعندما يتجاوز الحدّ المرسوم، يذهل هو نفسه من أن لا يُبقي شيئاً مقدساً بالنسبة إليه، إذ يتعدى كل شرعية، ويتحدى كل سلطة، ويتمتع بحرية خلقها لنفسه طافحة دون حدود، ويلتذّ بارتجاف قلبه، وبالرعب الذي يحسّ به. ويعرف مع ذلك أن عقاباً رهيباً ينتظره. إن إحساساته ربما هي ذاتها مشاعر إنسان ينحني من أعلى برج على هوة فاغرة فاهاً عند قدميه، فيتمنى أن يلقي بنفسه وبرأسه أولاً فيها، حتى يتخلص من الأمر بأقصى سرعة. ويحدث هذا لأفراد في منتهى الهدوء، وعاديين جداً. وآخرون حتى في السكر يتبخترون. كلما اضطهد أكثر من قبل، كلما تغندَر الآن وتبختر، موحياً بالرعب. هذا اليائس يجد لذّة في الخوف الذي يُحدِثه للناس، ويسعد بما يبعثه من اشمئزاز في النفوس. إنه يرتكب حماقات بدافع اليأس، وفي أكثر الأحيان ينتظر العقاب الوشيك، ويتحرق شوقاً إلى أن يتقرر مصيره، لأنه يبدو له عبء هذا اليأس أثقل من أن يحمله وحده. وأغرب ما في الأمر أن هذا الهيجان والتيهان يستمران لديه إلى أن يوقع عليه العقاب، وبعد ذلك، يبدو كأن الخيط انقطع: فهذه النهاية محتومة، كأنها مرسومة بقواعد مقدَّرة قبل الأوان. وإذا بالرجل يهدأ فجأة، ينطفئ، ويغدو خرقة بلا أهمية. وأثناء تنفيذ العقوبة، ينهار ويطلب العفو من الناس. وحالما يدخل إلى سجن الأشغال الشاقة، يصبح شخصاً آخر تماماً، ولا يمكن لأحد أبداً أن يتصور حين يراه أنّ هذه الدجاجة المبتلّة قد قتل خمسة أشخاص أو ستة.

من بين السجناء مَن لا يروِّضهم السجن بسهولة. إنهم يحتفظون

بشيء من التبجّح، وبروح التحدي. «إيه! اسمع، لست أنا مَن تظن، لقد بعثت إلى العالم الآخر بستة، من الأرواح». إلا أنه ينتهي دائماً إلى الخضوع. ومن حين إلى آخر، يتسلى بتذكُّر ما قام به من أعمال متهورة، وأفعال طائشة، لما كان يائساً، ويحب أن يعثر على أبله، كي يتباهى أمامه، ويتطاوس، بأهمية محتشمة، ويروي له مآثره، محاولاً طبعاً إخفاء رغبته في الإدهاش بقصته، التي يختمها بقوله: «هذا هو أنا ذلك الإنسان الذي كنته!»

وبأيّة رقّة يظهر هذا الحذر المحب للذات! وبأي استخفاف فاتر تُروى قصة مثل هذه! وأيّ ادّعاء واضح في لهجة القاص، وفي كل كلمة من قصته!

وأين يا تُرى تعلم هؤلاء الناس كل ذلك؟

في إحدى الأمسيات الطويلة من أيام سجني الأولى، أصغيت إلى حديث من تلك الأحاديث، ولقلّة تجربتي تصورت الراوي شريراً جباراً، حديدي الطبع، بينما كنت أكاد أحتقر بيتروف. كان السارد، لوقا كوزميتش، قد صرع ماجوراً، لا لسبب آخر غير إرادته المطلقة.

كان لوقا كوزميتش هذا أقصر وأنحف مَن في ثكنتنا، وهو شابّ، محدب الأنف، أوكراني الأصل، سبق لي أن تحدّثت عنه. وهو في حقيقة الأمر روسي، ولكنه ولد في الجنوب، وأظن أنه كان قنّاً من الأقنان، الذين لا يعملون في الأرض، بل يشتغلون في منازل سادتهم خدماً. وكان فيه حقاً شيء من الحدة والتعالي، إنه «طائر صغير بمنقار ومخالب». إن السجناء يميزون الرجل فطرياً، فلم يكونوا يحترمونه إلا قليلاً جداً. كان سريع التأثر وكثير الغرور. في ذلك المساء كان يخيط قميصاً، جالساً فوق السرير، لأنه كان مكلَّفاً

بالخياطة. وعلى مقربة منه كان يوجد شاب قليل الذكاء، بليد الذهن، ولكنه طيب القلب وليّن الجانب، فضلاً عن كونه ضخم الجسم، وهو جاره السجين كوبيلين. كان لوتشكا يتشاجر مع جاره هذا كثيراً ويعامله باستعلاء واستهزاء وطغيان، إلا أن كوبيلين لطيبة قلبه لم يلاحظ شيئاً على الإطلاق. كان كوبيلين ينسج جورباً ويصغي إلى لوتشكا بلا مبالاة. وكان هذا الأخير يتكلم بصوت عالٍ وبكل وضوح. كان يريد أن يسمعه الجميع، وإن كان يبدو أنه لا يوجّه كلامه إلا إلى كوبيلين.

قال له وهو يغرز إبرته:

- أترى، يا أخي، لقد طُردت من بلدي، في تش...ف، بسبب التشرّد.

فسأله كوبيلين:

- منذ زمن بعيد؟

- عندما ينضج الجُلُبّان، سيكون قد مرّ على ذلك عام. وصلنا، إذن، إلى ك - ف. وأودعت السجن. كان حولي دزّينة من الرجال، كلهم من أوكرانيا، أقوياء الأجسام، أشداء الأبدان، وضخام الأجساد، كالثيران حقاً. وهادئون مع ذلك! كان الطعام رديئاً، وكان ماجور السجن يفعل بهم ما يحلو له. مضى يوم، وانقضى آخر: كل هؤلاء الأشداء جبناء، فيما أرى.

- أتخافون من مثل هذا المعتوه؟ قلت لهم.

فقالوا:

- اذهب أنت وكلمه. هيا!

وانفجروا بالضحك، هؤلاء البهائم. ولزمت الصمت.

وأضاف السارد تاركاً كوبيلين ومخاطباً الجميع:

- كان بينهم رجل مضحك ومازح سخيف، كان يحكي كيف حوْكِم أمام القضاء، وماذا قال لهم، وهو يذرف دموعاً حارة: «إن لي أطفالاً وامرأة». كان رجلاً ضخم الجسم، أشيب الشعر: «أنا، كنت أقول لهم، لا ولا! وكان هناك كلب لم يكن يفعل شيئاً غير أن يكتب، ويكتب كلّ ما كنت أقول! بينما، قلت له: ليأخذك الموت... وها هو لا ينفك يكتب، ثم يكتب أيضاً. وهنا فقد رأسي المسكين رشده!»

- فاسيا، هات خيطاً، خيوط السجن فاسدة.

أجابه فاسيا ملبياً طلبه:

- إليك هذه الخيوط التي اقتنيتها من السوق.

فقال لوتشكا وهو يُدخل الخيط في سمّ الإبرة على الضوء:

- خيوط الورشة أفضل. أرسل نيفاليد لاقتنائها منذ مدة قصيرة، ولكن لا أدري من أية امرأة شريرة اشتراها، إنها خيوط رديئة.

- من صاحبته دون شك!

- طبعاً من صاحبته.

قال كوبيلين، الذي كان قد نسي تماماً:

- حسناً، وهذا الماجور؟

لم يكن لوتشكا ينتظر غير ذلك. ولكنه لم يشأ أن يستمرّ في سرد حكايته فوراً، كما لو أن كوبيلين لم يكن جديراً بمثل هذا الاهتمام. فغرز إبرته بهدوء، وجمع رجليه بتكاسل، وقال أخيراً:

- أخذت أزعج رفاقي الأوكرانيين حتى استدعوا الماجور. في

ذلك الصبح كنت قد استعرت الخبيث(*) من جاري، وأخفيته لكل طارئ. كان الماجور مهتاجاً كالمسعور. وصل. طيب، قلت: يا أهل أوكرانيا، ليس هذا أوان الخوف. ولكن، هيهات! كل شجاعتهم كانت قد اختبأت في أبعد مكان من باطن أقدامهم: كانوا يرتجفون. وهرع الماجور سكران تماماً.

قال:

- ماذا هنالك؟ كيف تجرؤون على أن . . .؟ أنا قيصركم، أنا ربكم.

عندما قال إنه كان القيصر والرب، دنوت منه، مخفياً سكيني في كمي.

- كلا، قلت له، يا صاحب النبالة الرفيعة، واقتربت منه أكثر، لا يمكن أن يكون هذا، يا صاحب النبالة العالية، لا يمكن أن تكون قيصرنا وربنا.

وصرخ الماجور قائلاً:

- هو إذن أنت! أنت هو مثير الفتنة!

- لا، قلت له (وأنا أزداد اقتراباً منه) لا، يا صاحب النبالة السامية، كما يعلم الجميع، وكما تعلم أنت نفسك، ربنا العلي القدير، والموجود في كل مكان هو وحده في السماء. وما لنا غير قيصر واحد، وضعه الرب ذاته فوقنا جميعاً. إنه العاهل، يا صاحب النبالة العالية. وأنت يا صاحب النبالة السامية، ما زلت ماجوراً، ولست رئيسنا إلا بفضل القيصر، وبفضل مؤهلاتك.

(*) الخبيث: السكين.

- «كيف - كيف - كيف - كيف!»

لم يعد قادراً حتى على الكلام، كان يفأفئ، من شدة دهشته.

- هكذا، قلت له: وهجمت عليه وأغمدت سكيني في بطنه، السكين كاملاً! وقد تمّ ذلك بسرعة. فترنح وسقط أرضاً وهو يرتعش. ألقيت بسكيني، وقلت:

- هيا، يا رفاق، اجمعوه الآن!

سأقول الآن مستطرداً ومبتعداً قليلاً عن قصتي إن تعابير مثل «أنا القيصر، أنا الرب» وتعابير أخرى مشابهة كانت مستعملة كثيراً جداً، للأسف، في سالف الزمان، من طرف ضباط كثر. ولا بد من الاعتراف بأن عدد مستعمليها قد نقص اليوم كثيراً، وربما اختفى هؤلاء. ولنلاحظ أنّ أولئك الذين كانوا يتبخترون هكذا ويؤثرون مثل هذه التعابير، إنما هم خاصة الضباط المتخرّجون. إن رتبة ضابط كانت تقلب أدمغتهم رأساً على عقب. بعد أن تكبدوا عناء كبيراً رأوا أنفسهم فجأة ضباطاً، وقواداً، ونبلاء أيضاً، ولأنهم لم يعتادوا على ذلك، وعند انتشائهم أول مرة بترقيتهم، فإنهم يبالغون في تقدير قوتهم وأهميتهم، بالنسبة إلى مرؤوسيهم. أمّا أمام رؤسائهم فإنهم يخضعون خضوعاً ذليلاً تشمئزّ منه النفوس. حتى أن أكثرهم تزلفاً يسارعون إلى الإعلان لرؤسائهم بأنهم كانوا مأمورين وأنهم «لا يتنكرون لأصلهم». ولكنهم تجاه مرؤوسيهم، يصبحون آمرين مطلقين. طبعاً، الآن، من المستبعد أن يوجد مثل هؤلاء، وهيهات أن يصرخ أحد: «أنا القيصر، وأنا الرب». إلا أنني ألاحظ رغم ذلك أنه لا شيء يغيظ السجناء، وجميع المرؤوسين بوجه عام، أكثر من مثل تلك التعابير التي يستعملها الرؤساء. إن هذه السلاطة المبجلة للذات، وهذه

الفكرة المفرطة عن الإفلات من العقاب، تولّد الحقد في نفس الإنسان الخنوع وتُخرِجه عن صبره الأخير.

ومن حسن الحظّ أن كل ذلك أصبح تقريباً من الماضي الذي كاد أن يُنسى، وحتى في ذلك الوقت كانت السلطة العليا تعاقب الجناة بصرامة.

وأعرف أكثر من مثال على ذلك.

إنّ ما يثير حنق السجناء خاصة، إنما هو الازدراء والاشمئزاز، الذي يعاملون به. وأولئك الذين يعتقدون أن ما عليهم إلا أن يطعموا السجين جيداً وأن يرعوه، وأن يتصرفوا في كل شيء وفقاً للقانون، هم كذلك مخطئون.

إن الإنسان مهما يصغر يلحّ غريزياً على احترام كرامته كإنسان.

كلّ سجين يعرف جيداً أنه سجين وأنه منبوذ ويعرف المسافة التي تفصله عن رؤسائه، لكن لا ندوب الجراح ولا القيود تنسيه أنه إنسان. يجب إذن أن يعامل معاملة إنسانية.

يا إلهي! إنّ معاملة إنسانية تستطيع أن ترفع حتى ذلك الذي أظلمت في نفسه صورة الله من زمن طويل.

إن «التعساء» خاصة هم الذين ينبغي أن يعاملوا معاملة إنسانية: ذلك هو خلاصهم، وذلك هو فرحهم. أتيح لي أن أصادف آمرين بطبع نبيل وقلب طيب، فاستطعت أن أرى التأثير الحسن الذي كان لهم على هؤلاء المهانين.

بضع كلمات لطيفة كانت كافية لتبعث الروح في السجناء. إنهم يفرحون بها كالأطفال، ويحبّون رئيسهم بصدق. ملاحظة أخرى: لا يعجبهم أن يرفع رؤساؤهم الكلفة وأن يكونوا طيبين فوق الحدّ في

التعامل معهم. يريدون أن يحترموا رؤساءهم ولكن ذلك يمنعهم من الاحترام. إن السجناء يشعرون بالافتخار، على سبيل المثال، بأن يكون رئيسهم كثير الأوسمة، وحسن الهيأة، وأن يحظى بتقدير رئيس أعلى، وأن يكون صارماً، وقوراً، ومنصفاً، وأن يكون قويّ الإحساس بكرامته. إنّ السجناء يفضلونه حينئذٍ على الآخرين جميعاً: لأنه يعرف ما يريد ولا يهين الناس: وكل شيء يسير على أحسن ما يرام.

* * *

قال كوبيلين بهدوء:

- أظن أنك عوقبت على ذلك؟

- هيه! فيما يخص العقاب، يا رفاق، لقد عوقبت حقاً، عقاباً شديداً، لا خلاف فيه. علْيِيّ! هات المقص! وإذن! أخبروني، ألن يكون لعب بالورق في هذا المساء؟

قال فاسيا:

- منذ مدة طويلة، شُرب اللعب، ولو لم يكن قد شُرب خمراً، لكان هنا..

قال لوتشكا:

- لو! لو هذه، تساوي مائة روبل في موسكو.

وسأل كوبيلين من جديد:

- وإذن، كم كان عقابك يا لوتشكا؟

- خمسمائة جلدة يا صديقي العزيز.

قال لوتشكا ذلك ثم أردف مستخفّاً من جديد بجاره كوبيلين:

- حقاً! يا رفاق، كادوا أن يقتلوني. عندما نلت خمسمائة

جلدة، حملت في أحسن هيأة. لم أجلد أبداً من قبل. أقبل حشد من الناس. وهرعت كل المدينة لتشهد عقاب قاطع الطرق، القاتل. ما أغبى أولئك الناس، لا أستطيع أن أصف لكم غباءهم، خلع عني ثيابي «تيموشكا»(*) ومددني على الأرض وصاح: «اجلس جيداً، سوف أشويك!» انتظرت. ولما ضربني بأول سوط وددتُ أن أصرخ، لكنني لم أستطع، ما كدت أفتح فمي، حتى اختنق صوتي. ولما هوى عليّ بالسوط الثاني، صدّقوا أو لا تصدقوا، لم أسمعهم حين عدّوا «اثنين» وحين عاد إليّ رشدي سمعتهم يعدّون: سبعة عشر. لقد رفعوني أربع مرات من فوق منصة التعذيب، لكي يدعوني أتنفس نصف ساعة وأغرقوني بماء بارد. كنت أنظر إليهم جميعاً، وكادت عيناي أن تخرجا من رأسي، فقلت لنفسي: سأموت هنا!

سأله كوبيلين بسذاجة:

- ولم تمُت؟

فألقى عليه لوتشكا نظرة احتقار، وانفجر الآخرون ضاحكين مقهقهين.

- أبله حقاً...

كان يبدو كأن لوتشكا ندم على كونه تنازل فتكلّم مع مثل هذا الرجل المعتوه فأردف قائلاً:

- إنه مريض في طرفه الأعلى.

فقال فاسيا مؤكداً من جهته:

- إنه أحمق قليلاً!

(*) تيموشكا: الجلاد.

ورغم أن لوتشكا ربما كان قد قتل ستة أشخاص، فلم يكن يخاف منه أي أحد في السجن.

ولو أنه ربما كان في قرارة نفسه يريد أن يعدّ رجلاً مخيفاً...

9. إشعيا فوميتش. الحمّام.
حكاية باكلوشين.

اقترب عيد ميلاد المسيح. وكان السجناء ينتظرونه بشكل احتفالي، ولقد انتقلت إليّ عدوى فرحتهم من كثرة رؤيتهم، فصرت أنا أيضاً أترقب شيئاً مذهلاً. كان يجب أن يرسلونا إلى الحمام (البخاري) أربعة أيام قبل الاحتفال. كان الكلّ يمرح ويستعدّ للذهاب إلى هناك: كان علينا أن نذهب بعد العشاء، وبهذه المناسبة، لم يكن لدينا عمل بعد الظهيرة. ومن بين كلّ المساجين، كان أكثرهم بهجة وحركة إشعيا فوميتش بومشتاين، اليهودي، الذي تكلّمت عنه من قبل في الفصل الرابع من حكايتي هذه، وكان يحبّ التعرض للبخار حتى يُغمى عليه؛ في كل مرة أقلب فيها مجموعة ذكرياتي القديمة، فأتذكر حمام السجن (الذي يستحق أن لا يُنسى)، كان أول وجه يتراءى أمامي هو وجه رفيقي في السجن إشعيا فوميتش المجيد والذي لا ينسى. يا إلهي! ما أغربه من رجل! لقد قلت من قبل بضع كلمات عن وجهه، كان خمسينياً، مغروراً، مليئاً بالتجاعيد، مع ندوب فظيعة على الخدين والجبين، هزيلاً، ضعيفاً، مع جسد دجاجة، شديد البياض. كان وجهه يعبّر عن كفاف دائم، ولا يتزعزع، بل يكاد يعبر تقريباً: عن الغبطة والبهجة والسعادة. أعتقد أنه لم يندم يوماً على إرساله إلى

الأشغال الشاقة. ولما كان صائغاً، ولا صائغ غيره في المدينة، فقد كان له دائماً عمل يقبض ثمنه بطريقة ما. لم يكن يحتاج إلى شيء، بل كان يعيش بترف، دون أن ينفق كل أرباحه، لأنه كان يقتصد ويقرض المال لكل مَن في السجن مقابل أشياء يرهنونها لديه. كان يملك غلاية للشاي «ساموفر»، فراشاً جيداً، أكواباً، وغطاء. وكان يهود المدينة لا يبخلون عليه بحمايتهم. كما كان يذهب كل سبت إلى الكنيس تحت الحراسة (فلقد كان القانون يسمح له بذلك). كان يعيش في بحبوحة، ولكنه كان ينتظر بفارغ الصبر انتهاء مدة عقوبته، الاثنتي عشرة سنة، لكي «يتزوّز». كان خليطاً مضحكاً من السذاجة والغباء والمكر والوقاحة والبساطة والخجل والتبجح والغرور والصفاقة، وأغرب ما في الأمر بالنسبة إليّ، هو أن السجناء لم يسخروا منه على الإطلاق. وإذا كانوا يضايقونه، فذلك من باب المزاح فقط. كان إشعيا مصدراً للتسلية والمرح بالنسبة إلى الكل. كانوا يقولون: «ليس لدينا إلا إشعيا فوميتش واحد، فلا تلمسوه». ورغم أنه فهم حقيقة ذلك، إلا أنه كان يتباهى بأهميته، وكان هذا يسلي السجناء كثيراً.

وكان يوم دخوله السجن الأكثر إثارة للضحك (كان ذلك قبل مجيئي، ولكنهم حكوا لي القصة). فجأة ذات مساء، انتشر الخبر في السجن عن يهودي تتم الحلاقة له بمقر الحراسة، وسيؤتى به فوراً إلى الثكنة، وإذ لم يكن أي سجين يهودي في السجن كله، فقد انتظره السجناء بفارغ الصبر، وأحاطوا به ما إن تجاوز الباب الكبير. قاده ضابط الصف إلى الحبس المدني، وأراه مرقده فوق الألواح الخشبية. كان إشعيا فوميتش يحمل كيساً يحتوي على الأشياء التي أعطيت له، وتلك التي يمتلكها. وضع كيسه، واتخذ مكاناً فوق السرير، ثم جلس ثانياً

ركبتيه تحته دون أن يجرؤ على رفع عينيه. انفجر الكلّ حوله ضاحكاً، وحاصره السجناء بمزاحهم عن أصله الإسرائيلي. وفجأة شقّ سجين شاب الزحام، واقترب منه، حاملاً في يده سرواله الصيفي القديم، المتّسخ والممزق والمرقَّع بخرق قديمة. جلس بجانب إشعيا فوميتش وربت على كتفه. وقال له:

- إيه! صديقي العزيز، لقد انتظرتك طوال ستّ سنين. انظر قليلاً، هل ستقرضني كثيراً مقابل رهن هذه البضاعة؟

ثم بسط أمامه أسماله الرثة.

كان خجل إشعيا فوميتش كبيراً إلى درجة أنه لم يجرؤ على النظر إلى هذه الجموع الساخرة، ذات الوجوه المشوّهة المرعبة، والمتجمعة في دوائر متماسكة حوله. لم يستطع النطق بأية كلمة من شدة خوفه. فلما رأى الضمان الذي قدمه له السجين الشاب، ارتعش وأخذ يجس بنشاط تلك الأسمال الرثة، بل دنا من الضوء ليفحص الرهن هناك، كان الكلّ ينتظر ما سيقوله إشعيا.

- هيه! ألن تعطيني روبلاً فضياً؟ هذا يساوي ذاك! أردف السجين المستدين وهو يشير بطرف عينه إلى إشعيا فوميتش.

- روبلاً فضياً، لا! ولكن سبعة كوبيكات!

كانت هذه أولى الكلمات التي نطق بها إشعيا فوميتش في السجن. فلمّا سمعها الحضور انفجروا ضاحكين مقهقهين.

قال السجين الشاب:

- سبعة كوبيكات! إذن هاتها: يميناً إنك لمحظوظ. وعلى كلّ حال انتبه لرهني، فلن يكفيني فيه إلا رأسك!

- مع ثلاثة كوبيكات فائدة، سيكون المجموع عشرة كوبيكات تدفعها لي.

قالها اليهودي بصوت متقطّع متهدج وهو يدخل يده في جيبه لإخراج المبلغ المتفق عليه، محدقاً في وجوه السجناء بنظرة وجلة. كان يموت رعباً، ولكن الرغبة في إتمام صفقة رابحة غلبت خوفه.

- هيه! ثلاثة كوبيكات فائدة . . . في السنة؟

- لا! ليس في السنة وإنما في الشهر.

- أنت بخيل جداً! ما هو اسمك؟

- إشعيا فوميتش!

- طيب يا إشعيا فوميتش، ستذهب بعيداً! الوداع.

ومرة أخرى، فحص اليهودي الأسمال التي دفع في رهنها سبعة كوبيكات، ثم طواها بعناية ووضعها في كيسه، في حين واصل السجناء ضحكهم.

في الحقيقة كان الكلّ يحبه رغم أن المساجين كلهم تقريباً كانوا يدينون له بالمال، إلا أن أحداً منهم لم يهنه يوماً. ولم يكن يحمل في قلبه غلاً ولا غضباً إلا كما يحملهما قلب دجاجة. ولما رأى حسن نية الجميع تجاهه، أخذ يتصنّع الوقار ولكن بطريقة مضحكة ممّا كان يجعل الجميع يسامحونه فوراً، وكان لوقا - الذي عرف الكثير من اليهود أيام كان حرّاً - يضايقه كثيراً ليس عن سوء نية وإنما للتسلية فقط كما نلعب مع كلب أو ببغاء أو حيوانات مدربة، لذلك لم يكن إشعيا فوميتش يغضب إطلاقاً، بل كان يردّ الصاع صاعين.

- سوف ترى أيها اليهودي، سوف أشبعك ضرباً.

- إذا ضربتني مرة واحدة، فسوف أضربك عشر مرات، أجاب إشعيا فومتش بشجاعة.

- أجرَب لعين

- أنا أجرب لعين كما تريد

- يهودي أجرب

- أنا أجرب كما يحلو لك: أجرب، ولكن غني، فلدي المال

- لقد بعت المسيح

- كما تريد

- يا لصاحبنا إشعيا فوميتش، إنه دماغ حقيقي! لا تمسّوه فليس لدينا إلا واحد!

- إيه! يا يهودي، حذار من السوط، سوف تذهب إلى سيبيريا!

- أنا في سيبيريا

- سوف يرسلونك أبعد من ذلك

- أليس الله موجوداً هناك؟

- طبعاً

- إذن كما تريد! ما دام الله موجوداً هناك وكذلك المال، فكل شيء بخير.

- دماغ، صاحبنا إشعيا فوميتش! دماغ، ذلك واضح! صاح السجناء من حوله.

كان اليهودي يعرف أنهم يسخرون منه، ولكنه لم يكن يفقد شجاعته، بل كان يتصنّع الجسارة؛ وكان الثناء الذي يغدقه عليه السجناء يبهجه أشدّ الابتهاج، وبصوت رفيع يصرّ في أنحاء الثكنة كلها، كان يبدأ الغناء: ليا، ليا، ليا، ليا! على إيقاع لحن أبله

مضحك، كانت تلك هي الأغنية الوحيدة التي ظلّ يرددها طوال إقامته بالسجن. وعندما تعرّف عليّ، حلف لي أغلظ أيمانه بأنها النشيد نفسه واللحن الذي كان يغنيه ستمائة ألف يهودي، من أصغرهم إلى أكبرهم، وهم يعبرون البحر الأحمر، وأنه يجب على كل إسرائيلي أن يغنيه متى انتصر على العدو.

كان السجناء يأتون عشية كل سبت من الثكنات الأخرى إلى ثكنتنا خصيصاً لمشاهدة إشعيا فوميتش وهو يحتفل بعيد السبت. وكان من شدة غروره الساذج وتفاخره البريء فإن هذا الفضول العام كان يثيره ويسرّه. كان يغطي مائدته الصغيرة في الركن وهو يتصنّع الوقار والأهمية، يفتح كتاباً، يشعل شمعتين، يغمغم ببضع كلمات مبهمة، ثم يلبس حلته الكنسية، المبرقشة، بدون أكمام، والتي احتفظ بها بعناية في قاع صندوقه. ثم يعلِّق فوق يديه أساور جلدية، وأخيراً يثبت على جبينه، وبواسطة شريط قماشي، علبة خشبية صغيرة قد يظنها الناظر إليها قرناً خارجاً من رأسه. ويبدأ عند ذلك الصلاة. كان يقرأ وهو يمط كلماته، يصرخ، يبصق، ويقوم بحركات عنيفة ومضحكة. كل هذا كان من طقوس دينه، ولم يكن فيها أي شيء مضحك أو غريب، اللهم إلا المظاهر التي كان يصطنعها إشعيا فوميتش أمامنا باستعراض هذه الطقوس. وهكذا يغطي رأسه فجأة بيديه ويبدأ القراءة وهو ينتحب... ويتصاعد نشيجه، وهو في خضم ألمه يكاد يضع رأسه المعصوب على الكتاب مولولاً. وفجأة، ووسط هذا البكاء الفاجع، ينفجر ضاحكاً ويتلو، وهو يشخر، نشيداً بصوت مظفر، أضعفه فرط السعادة... كان السجناء أحياناً يقولون لأنفسهم: «لا يفهم المرء من هذا شيئاً»، وقد سألت إشعيا فوميتش يوماً ماذا يعني

هذا البكاء، ولماذا ينتقل من الحزن الكامل إلى قمة السعادة. وكان إشعيا فوميتش يحبّ أسئلتي هذه، لذلك سرعان ما شرح لي أن البكاء والحزن بسبب ضياع أورشليم، وأن الدين يأمر بالتأوه مع ضرب الصدر، ولكن في قمة الحزن والألم، يجب على إشعيا فوميتش فجأة أن يتذكر، كما لو بالمصادفة (والدين يأمر بهذا التذكر الفجائي)، أن هناك نبوءة وعدت اليهود بالعودة إلى أورشليم، لذلك يجب عليه أن يظهر فوراً فرحاً طافحاً وسعادة بلا حدود، أن يغني، يضحك، ويتلو صلواته بصوت سعيد، ووجْه عليه تعابير الاحتفالية والنبل. هذا المرور المفاجئ، والإلزامية التي تصاحبه كانا يعجبان إشعيا فوميتش كثيراً، ولقد شرح لي هذه القاعدة الحكيمة من قواعد دينه بِرِضاً لم يحاول إخفاءه.

وذات مساء، وهو في قمة صلاته، دخل الماجور يتبعه ضابط الحراسة وفرقة جنود. اصطف كل السجناء فوراً أمام أسرَّتهم، وحده إشعيا فوميتش، تابع صراخه وحركاته. كان يعرف أن طقوسه الدينية مسموح بها، وأن لا أحد يستطيع مقاطعته، وأنه بصراخه أمام الماجور لن يخاطر بشيء على الإطلاق. كان يعجبه كثيراً أن يتحرك أمام الرئيس. اقترب الماجور حتى صار على بعد خطوة: وأدار إشعيا فوميتش ظهره لمائدته، واستقام أمام الماجور، ثم بدأ يردد نشيد الظفر، وهو يتحرك في كل الاتجاهات ويمط صوته في بعض الكلمات، حتى إذا حان وقت إعطاء وجهه تعبير الفرح والنبل، فعل ذلك وهو يدير عينيه مع الضحك وتحريك الرأس باتجاه الماجور. دهش هذا الأخير في أول الأمر، ثم انفجر ضاحكاً، ووصف إشعيا بأنه «أبله» ثم انصرف في حين واصل اليهودي صراخه.

وبعد ذلك بساعة وبينما كان يتناول عشاءه، سألته عما كان سيفعله لو أن الماجور عنّ له أن يغضب منه.

- أي ماجور؟

- كيف؟ ألم تر الماجور؟

- لا

- لقد كان على بعد خطوتين منك، وكان ينظر إليك.

ولكن إشعيا فوميتش أكّد لي بجدية أنه لم يرَ الماجور، لأنه في ذلك الوقت من الصلاة، كان في حالة من الانتشاء لدرجة أنه لم يكن يرى أو يسمع شيئاً ممّا حوله. ما زلت أرى إشعيا فوميتش يتجول يوم السبت في أرجاء السجن، ويحاول ألا يعمل شيئاً كما تأمر الشريعة كل يهودي بذلك. كم روى لي من حكايات لا تصدق! لقد كان، كلما عاد من المعبد اليهودي، يحمل إليّ أخباراً من بطرسبورغ، وشائعات سخيفة كان يؤكّد لي أنه سمعها من أبناء ملّته في المدينة وأن هؤلاء سمعوها بدورهم من مصادرها. ولكنني تكلمت كثيراً عن إشعيا فوميتش.

لم يكن في المدينة كلها إلا حمامان عامان. الأول، يديره يهودي، كان مقسماً إلى مقصورات أجرها خمسون كوبيكاً؛ وكان أرستقراطيو المدينة يقصدونه. وكان الحمام الآخر عتيقاً، متسخاً، ضيقاً وكان مخصصاً لأبناء الشعب. وإليه كانوا يصحبون السجناء. كان الجو بارداً وصافياً، وكان السجناء يبتهجون لخروجهم من القلعة والتجول في المدينة. وخلال الطريق، كانت الضحكات والنكات لا تنقطع. وكانت فصيلة جنود مسلحة تصحبنا. كان ذلك تسلية لأهل المدينة. وعندما نصل، ونظراً إلى ضيق الحمام الذي لم يكن يسمح

بدخول الجميع للاغتسال، كانوا يقسموننا إلى مجموعتين، تنتظر إحداهما في القاعة الباردة، التي توجد قبل حمام البخار، في حين تدخل المجموعة الأخرى لتغتسل. ورغم ذلك، كانت الصالة ضيقة إلى درجة أنه كان من الصعب تصور نصف المساجين داخلها. وكان بيتروف لا يفارقني قيد أنملة. وكان يسرع إليّ دون أن أطلب مساعدته، بل كان يعرض عليّ أن يقوم بغسلي. وبالإضافة إلى بيتروف، كان باكلوشين، سجين من القسم الخاص، يعرض عليّ خدماته. ما زلت أتذكر هذا السجين الذي كانوا يطلقون عليه اسم الماجور كالأكثر مرحاً وظرفاً بين جميع رفاقي، وكان كذلك بالفعل، وقد جمعت بيننا أواصر الصداقة. كان بيتروف يساعدني على خلع ملابسي لأنني كنت أستغرق وقتاً طويلاً في هذا العمل الذي لم أكن قد اعتدتُ عليه بعد. وكان المكان بارداً بداخل الغرفة كما هو بالخارج. من الصعب على سجين مبتدئ خلع ملابسه، إذ كان عليه أن يعرف كيف يفكّ الأحزمة الجلدية التي توجد تحت الأغلال. وكانت هذه الأحزمة الجلدية تبلغ سبعة عشر سنتيمتراً، وتربط فوق اللباس الداخلي مباشرة تحت الحلقة المحيطة بالساق. وكان كل زوج من الأحزمة يكلف ستين كوبيكاً، كما كان على كل سجين الحصول على زوجين منها، لأنه كان من المستحيل المشي بدونها، فالحلقة لم تكن تحيط بالساق تماماً وإنما كان يمكن إدخال الأصابع بين الحديد واللحم، لذلك فإن الحلقة كانت تحتك بالساق أثناء المشي، لدرجة أن يوماً واحداً من المشي دون أحزمة جلدية يمكن أن يسبب جروحاً عميقة. وإزالة هذه الأحزمة لا يشكل أية صعوبة: في حين تكمن الصعوبة في خلع الملابس الداخلية، فإزالتها تستوجب مهارة كبيرة.

عند إزالة الرجل اليسرى من السروال يجب تمرير السروال كله بين الحلقة والرجل نفسها. ثم إعادة تمريرها بالاتجاه المعاكس تحت الحلقة، عند ذلك تتحرر الساق اليسرى تماماً، ثم يجب تمرير رجل السروال اليسرى تحت حلقة الساق اليمنى وإعادة تمريرها إلى الوراء مع رجل السروال اليمنى، والعملية نفسها تتكرّر عند ارتداء ثوب نظيف. كان أول من علمنا ذلك السجين كورينييف في توبولسك، وهو زعيم سابق لعصابة من قطاع الطرق، محكوم بخمس سنوات من السجن مربوطاً بالأغلال. كان السجناء معتادين على هذا التمرين وكانوا ينهونه بسرعة. أعطيت بيتروف بضعة كوبيكات لشراء الصابون والليفة. كان السجناء يحصلون على قطعة من الصابون ولكنها كانت بحجم قطعة نقدية من فئة الكوبيكين، ولم تكن أكبر سمكاً من قطع الجبن التي يقدمونها كمقبلات في سهرات الطبقة الوسطى. كان الصابون يباع في قاعة الانتظار نفسها، مع نبيذ العسل «سبيتين» وأرغفة السميطة «كالاتش» والماء الساخن، لأن كل سجين كان يحصل على سطل واحد من الماء فقط، حسب الاتفاق بين مالك الحمام وإدارة السجن، والسجناء الذين يريدون الاغتسال جيداً، يستطيعون الحصول على سطل آخر من الماء الساخن مقابل كوبيكين، يسلمه لهم المالك من نافذة أحدثت في الحائط لهذا الغرض.

ما إن خلعت ملابسي حتى أمسك بيتروف بيدي موضحاً لي أنني لن أستطيع المشي بسهولة وسط أغلالي. «جرّهما إلى الأعلى، فوق الساقين، قال لي وهو يسندني من تحت إبطيّ، كمرافق لولي العهد تماماً، خذ حذرك هنا، يجب تجاوز عتبة الباب». خجلت من عنايته بي، وأكّدت له أنني أستطيع المشي وحدي، ولكنه لم يرد تصديقي.

كان اهتمامه بي كاهتمامه بطفل صغير أخرق يحتاج مساعدة الجميع. لم يكن بيتروف خادماً. وإذا ما أهنته كان يعرف كيف يتعامل معي، ولم أعده بشيء مقابل خدماته، ولم يطلب مني شيئاً مقابلها، فما الذي كان يدعوه إلى العناية بي هكذا؟

عندما فتحنا باب قاعة البخار ودخلنا، خيِّل إليّ أننا دخلنا إلى الجحيم. تصوروا معي قاعة يبلغ طولها اثنتي عشرة قدماً وكذلك عرضها، تكوم فيها مائة رجل مرة واحدة، أو على الأقل ثمانون رجلاً، لأننا كنا مائتي رجل، مقسمين إلى فئتين. كان البخار يعمينا، وكان سواد الدخان، والأوساخ وضيق المكان إلى درجة أننا لم نكن نعرف أين نضع أقدامنا. أصبت بالذعر وأردتُ الخروج: ولكن بيتروف طمأنني فوراً. وبعد جهد جهيد، استطعنا التسلق حتى مقاعدنا الحجرية بعد أن تخطينا رؤوس السجناء الذين كنا نرجو منهم الانحناء قليلاً للسماح لنا بالمرور، ولكن كلّ المصاطب كانت مشغولة، وأنبأني بيتروف أنه يجب عليّ أن أشتري مكاناً، وسرعان ما دخل في مفاوضات مع سجين يجلس قرب النافذة، وقد وافق هذا الأخير على أن يتنازل لي عن مكانه مقابل كوبيك واحد، بعد أن أخذ النقود من بيتروف الذي كان يشدّ عليها في يده بعد أن أعدها من قبل من باب الاحتياط. ثم تسلَّل أسفل مقعدي إلى مكان مظلم وقذر: حيث تراكمت حوالي نصف بوصة من الأوساخ والقذارة. حتى الأماكن التي توجد أسفل المصاطب كانت مزدحمة بالسجناء. أما الأرضية فلم يكن فيها موقع كفّ اليد غير مشغول بالمساجين. كانوا يصبون الماء من دلائهم. وكان الواقفون يغتسلون وهم يحملون أوانيهم بأيديهم، وكان الماء القذر ينزل من أجسادهم على الرؤوس الحليقة للمساجين

الجالسين. فوق المصاطب والدرجات المؤدية إليها ازدحم سجناء آخرون يستحمّون وهم مكوّمون، ولكنهم قليلون، أما أكثرهم فلم يكونوا يحبون الاغتسال بالماء والصابون وإنما كانوا يفضلون التعرّض للبخار أطول مدة ممكنة، ثم يغتسلون بالماء البارد، هكذا كانوا يستحمون. وعلى الأرض، تعلو خمسون ليفة وتهبط في آنٍ واحد، كان الكل يتبادل الجَلْدَ وهم منتشون إلى درجة السكر. والبخار يتزايد في كل لحظة حتى يصبح الإحساس بالحرارة إحساساً بالاحتراق، كالاحتراق بالقار الساخن جداً. كانت الصرخات والضحكات المكتومة تختلط بصوت مائة سلسلة تصطدم بالأرض. وإذا أراد بعض السجناء الانتقال من مكان إلى آخر تشابكت أغلالهم بأغلال أخرى، ويصطدمون برؤوس المساجين الذين يجلسون أسفل منهم، يسقطون، يشتمون وهم يجرون غيرهم ممن تعلقوا بهم إلى السقوط. كان الكل في حالة من الثمالة، من الإثارة المجنونة؛ كانت الصرخات والصيحات تتقاطع. وعند النافذة التي تسلم منها دلاء الماء الساخن، كان السجناء يتكومون حتى يكاد بعضهم يسحق بعضاً. كان الماء الساخن يتساقط فوق رؤوس الذين يجلسون أرضاً قبل أن يصل إلى المرسل إليه. كنا نشعر بالحرية، غير أنه بين الفينة والأخرى، وخلف نافذة الغرفة أو خلف الباب الموارب، كنا نرى وجه الجندي ذي الشاربين، الذي يقف حاملاً سلاحه، حرصاً على عدم حدوث أية فوضى. كانت رؤوس السجناء الحليقة وأجسادهم التي كان يضفي عليها البخار لوناً دموياً، تبدو أشدّ بشاعة. فعلى ظهورهم المحمرة بفعل البخار، ظهرت واضحة تلك الندوب التي تركتها ضربات السياط والعصي القديمة حتى لكأن هذه الجلود قد مزقت منذ وقت قريب.

يا لها من ندوب غريبة! إن جلدي ليقشعر كلما نظرت إليها.
وازداد البخار، فأصبحت قاعة الحمام مغطاة بسحابة كثيفة، محرقة، يضطرب فيها الكلّ ويصرخ ويضحك. ومن هذه السحابة تخرج جلود ممزقة، ورؤوس محلوقة، وأياد وسيقان ملتوية، ولإكمال اللوحة، كان إشعيا فوميتش يصرخ بملء حنجرته فرحاً، فوق أعلى مصطبة بالحمام. كان يتعرض للبخار وقتاً طويلاً كان يمكن أن يجعل أي شخص مكانه يسقط مغمى عليه، ولكن ليس إشعيا فوميتش، فما من درجة حرارة كانت تكفيه. كان يستأجر رجلاً يدلكه ويفركه بكوبيك، ولكن بعد لحظات، يتوقف هذا الأخير إعياء، يرمي الليفة ويتوجه إلى الاغتسال بالماء البارد. ولكن إشعيا فوميتش لم يكن يفقد شجاعته، بل كان يستأجر ثانياً وثالثاً. في مثل هذه المناسبات، لم يكن إشعيا فوميتش يبالي بالمال ويستأجر حتى خمسة رجال لفرك جسمه واحداً بعد آخر - «كم يحب الاستحمام! إشعيا فوميتش الشجاع!» هكذا كان السجناء يصرخون من أسفل.

وكان اليهودي يشعر بأنه قد تجاوز جميع الآخرين، وأنه «دحرهم»، لقد انتصر، وبصوته الخشن والمضحك كان يغني نشيده: ليا، ليا، ليا، ليا، الذي كان يغطي به على الضوضاء المحيطة. فكرت أننا لو حشرنا جميعاً في الجحيم، لذكَّرتنا هذه لا محالة بهذا المكان الذي كنا فيه. ولم أستطع مقاومة الرغبة في إخبار بيتروف بذلك، فنظر حوله ولم يجبني بشيء.

أردت استئجار مكان بجانبي لبيتروف، ولكنه جلس عند قدمي وأخبرني أنه مرتاح تماماً. وأثناء ذلك اشترى لنا باكلوشين الماء الساخن الذي كان يحمله إلينا كلما احتجنا إليه. عبَّر لي بيتروف عن

رغبته في أنه سيغسلني من القدمين إلى الرأس حتى أصبح «نظيفاً كل النظافة» وحثَّني على التعرُّض للبخار، ولكني لم أستطع تقرير ذلك. ثم فرك جسمي كاملاً بالصابون، وبعد أن انتهى قال لي: «والآن سوف أغسل قدميك الصغيرتين». أردتُ أن أجيبه بأنني أستطيع الاغتسال وحدي ولكنني لم أعارضه واستسلمت لإرادته. لم يكن في اسم التصغير «قدميك الصغيرتين» الذي أطلقه على قدمي أي خنوع. فبيتروف لا يستطيع تسمية قدمي باسمهما، لأن الآخرين، الرجال الحقيقيين لديهم سيقان، أما أنا فليس لي إلا قدمان صغيرتان.

بعد أن أعاد غسلي مرة ثانية، ساقني إلى قاعة الانتظار وهو يسندني وينبهني عند كل خطوة كما لو كنت من خزف. ساعدني على ارتداء ثيابي، وبعد أن انتهى من تدليلي، اندفع إلى الحمام لكي يغتسل هو أيضاً.

عند وصولنا إلى الثكنة، قدَّمت له كأس شاي فلم يرفضه، بل شربه وشكرني. ففكرت أن أبذل ثمن كأس خمر على شرفه، وجدته يُباع في الثكنة نفسها، ففرح بيتروف بذلك كثيراً، وجرع خمره، وأطلق غمغمة رضاً، وأبلغني أنني أعدت له الحياة. ثم سرعان ما توجه إلى المطبخ كما لو أنهم لن يستطيعوا تقرير أي أمرٍ مهم دون حضوره. حضر محاور آخر: إنه باكلوشين الذي تكلمت عنه من قبل، والذي دعوته كذلك لشرب الشاي.

لا أعرف أخلاقاً بلطف أخلاق باكلوشين. والحقيقة أنه لم يكن يغفر للآخرين شيئاً، بل إنه غالباً ما كان يتشاجر، ولم يكن يحب أن يتدخل أحد في شؤونه، وباختصار، كان يعرف كيف يدافع عن نفسه. ولكن مشاجراته لم تكن تدوم طويلاً، وأظن أن جميع السجناء كانوا

يحبونه. أينما ذهب كان موضع ترحيب. حتى في المدينة، كانوا يعتبرونه أمتع رجل في العالم. كان شاباً طويل القامة، في الثلاثين من عمره، له وجه ينمّ عن البراءة والحزم، وفي غاية الوسامة بلحيته القصيرة تلك.

كانت له موهبة في القدرة على تشويه وجهه بطريقة مضحكة وتقليد أول قادم حتى ينفجر الجميع حوله بالضحك. كان مهرجاً بطبعه، ولكن لم يكن يرهبه المشمئزون أو الذين لا يحبون الضحك. لذلك لم يكن أحد يجرؤ على اتهامه بأنه رجل «غير نافع أو بلا عقل». كان مليئاً بالحياة والحرارة. وقد تعرَّف علي منذ الأيام الأولى، وحكى لي سيرته العسكرية، كان ابن جندي، ثم أصبح جندياً في كتيبة الرواد حيث لاحظه أشخاص ذوو رتب عالية. ثم سألني فوراً عدة أسئلة عن بطرسبورغ، بل إنه كان يقرأ الكتب. وعندما جاء يشرب الشاي عندي، قام بتسلية كل الثكنة بحكايته عن كيف أساء الملازم ش... معاملة الماجور في الصباح. وأنبأني بابتهاج، وهو يجلس بجانبي، أنه من المحتمل أن يكون لدينا عرض مسرحي في السجن. كان السجناء يخططون لتقديم تمثيلية أثناء أعياد الميلاد. ولقد تمّ العثور على الممثلين الضروريين. كما كان الديكور بصدد الإعداد شيئاً فشيئاً. ووعد بضعة أشخاص من المدينة بإعارتهم ملابس نسوية للتمثيلية، بل كانوا يأملون في الحصول على بذلة ضابط مع إكسيسواراتها، بمساعدة خادم أحد الضباط. على أمل أن لا يمنع الماجور العرض كما حصل في السنة الماضية. إذ كان سيئ المزاج بسبب خسارته في القمار. ثم حصل شغب في السجن، مما جعله يوقف كل شيء في نوبة غضب. لعله لن يمنع العرض هذه السنة.

كان باكلوشين متحمساً، ومن الواضح أنه كان أحد المحرضين الرئيسين على إقامة المسرح المرتقب المستقبلي. وقد وعدت نفسي أن أحضر هذا العرض. كان الفرح الشديد الذي يبدو على باكلوشين وهو يتكلم عن هذا المشروع يؤثر فيّ أشد التأثير. وشيئاً فشيئاً بدأنا نتصارح، فأخبرني من بين أشياء أخرى، أنه لم يخدم في بطرسبورغ فقط، وإنما أرسلوه كذلك إلى مدينة ر... برتبة ضابط صف مع كتيبة حامية.

- ومن هناك أرسلوني إلى هنا، أضاف باكلوشين.

- ولماذا؟ سألته.

- لماذا؟ لن تخمن أبداً، ألكسندر بيتروفيتش، لأنني وقعت في الحب.

- هيا! لا أحد يُنفى من أجل هذا السبب. أجبته ضاحكاً.

- الحقيقة، قال باكلوشين، إنني لأجل ذلك قتلت هناك ألمانياً بطلقة مسدس. ولكن هل يستحق الأمر إرسالي إلى الأشغال الشاقة من أجل ألماني؟ إنني أشهدك على هذا.

- كيف حصل ذلك؟ احكِ لي القصة، لا بد أنها قصة مشوّقة!

- إنها قصة مضحكة، ألكسندر بيتروفيتش!

- هذا أفضل! احك!

- هل تريد ذلك؟ حسناً، أنصت...

وسمعت حكاية عن جريمة قتل، لم تكن «مضحكة»، وإنما كانت غريبة جداً...

- إليك الواقعة، قال باكلوشين، لقد أرسلوني إلى مدينة ر...،

وهي مدينة كبيرة وجميلة لم يكن فيها إلا عيب واحد هو كثرة الألمان بها. كنت لا أزال شاباً، وكنت موضع تقدير رؤسائي، كنت ألبس قبعتيَ مائلة على أذني، وكنت أقضي وقتي مستمتعاً.

وكنت أغازل الفتيات الألمانيات. ولقد أعجبتني إحداهن، واسمها لويزا، إعجاباً شديداً. وكانت تعمل هي وعمتها في تنظيف الملابس الراقية. وكانت العمّة صورة كاريكاتورية حقيقية، وكانت تملك مالاً كثيراً. في البداية، كنت أمرّ فقط تحت النوافذ، ثم ما لبثت أن ارتبطت جدياً بالفتاة. كانت لويزا تتكلم الروسية جيداً مع لكنة خفيفة؛ كانت ساحرة، لم ألتقِ مثلها أبداً. استعجلتها في البداية بشدة، ولكنها قالت لي:

- لا تطلب ذلك، يا ساشا، أريد الحفاظ على براءتي حتى أكون زوجة جديرة بك!

وكانت تداعبني فقط وهي تضحك ضحكة صافية... كانت نظيفة جداً، لم أرَ مثيلتها، أؤكد لك، ولقد طلبت مني بنفسها أن أتزوجها، وكيف لا أتزوجها؟ قل لي!

وتهيأت للذهاب بطلب الزواج إلى الكولونيل... وفجأة... لم تأتِ لويزا إلى موعدنا، مرة أولى، فثانية، ثم ثالثة... بعثت إليها برسالة، فلم تجب عليها. سألت نفسي: ماذا أفعل؟ لو كانت تخدعني، لكان بإمكانها مواصلة خداعي، ولكانت تستطيع الردّ على رسالتي، والمجيء إلى موعدنا. ولكنها لم تكن تعرف الكذب، لذلك قطعت علاقتنا بكل بساطة. فكّرت بأن ذلك كان بسبب حيلة دبرتها العمة. لم أكن أجرؤ على الذهاب عند هذه الأخيرة، رغم أنها كانت على علم بعلاقتنا، كنا نتصرف كما لو أنها تجهلها... صرت

كالمجنون، كتبت لها رسالة أخيرة قلت لها فيها: «إذا لم تأتي، سأذهب إليك عند عمتك»، فخافت وجاءت.

بدأت بالبكاء وأخبرتني بأن ألمانياً، اسمه شولتس، وهو يمتّ إليها بصلة قرابة بعيدة، ساعاتي، كما أنه كبير في السن ولكنه غني، أظهر رغبته في الزواج منها، لكي يسعدها على حدّ تعبيره، ولكي لا يبقى بدون زوجة في شيخوخته؛ كان يحبها منذ مدة طويلة، وكانت تراوده هذه الفكرة منذ سنين، ولكنه كتمها ولم يجرؤ على الكلام.

- أنت ترى، يا ساشا، قالت لي، بأن هذه سعادتي، لأنه غني، فهل تريد حرماني من سعادتي؟ نظرتُ إليها، فبكت، وقبلتني وعانقتني...

حدثت نفسي قائلاً:

- إيه! إنها على حق! ماذا ستربح بزواجها من جندي، حتى ولو كان ضابط صف؟

ثم قلت لها:

- هيا، الوداع، لويزا، فليحمك الرب! ليس لي الحق في حرمانك من سعادتك. وكيف هو؟ هل هو وسيم؟

فأجابت:

- لا! إنه متقدم في السن، ولديه أنف طويل، بل انفجرت ضاحكة. غادرتها، حسناً، هي لم تكتب لي، هكذا فكرت. وفي الغد مررتُ قرب محل شولتس (لقد ذكرت لي الشارع الذي يقطن فيه). تطلعت عبر الزجاج فرأيت ألمانيّاً يصلح ساعة. في نحو الخامسة والأربعين من عمره، أنف معقوف، عينان منتفختان، يرتدي فراكاً ذا ياقة مستقيمة، عالية جداً، بصقت احتقاراً عندما رأيته آنذاك،

كنت مستعداً لتكسير زجاج واجهة دكانه، ولكنني قلت في نفسي: ما الفائدة؟ ما عاد في الأمر حيلة، لقد انتهى كل شيء، وانتهى جيداً... وصلت إلى الثكنة مع حلول الظلام، تمدَّدت فوق سريري، وهل تصدق ذلك، ألكسندر بيتروفيتش؟ بدأت أنشج وأنتحب...

مرّ يوم ثم يومان ثم ثلاثة... لم أعد أرى لويزا. غير أني علمت من عجوز ثرثارة (كانت تغسل الملابس كذلك، وكانت حبيبتي تزورها أحياناً)، أن هذا الألماني كان يعرف قصة حبنا، وأنه لأجل ذلك قرر أن يتزوجها بأقصى سرعة ممكنة، ولولا ذلك لكان سينتظر عامين آخرين. لقد أجبر لويزا على القَسم بأن لا تراني مجدداً؛ ويظهر أنه بسببي كان يقتر عليهما ويسيئ معاملتهما معاً، العمة ولويزا، وأنه قد يغير رأيه مرة أخرى لأنه ليس مصمماً جداً. وقالت لي كذلك إنه دعاهما لشرب القهوة عنده بعد غد، يوم الأحد، وسيأتي أيضاً قريب آخر، تاجر سابق، افتقر الآن وأصبح مراقباً في متجر للخمور. ولما عرفت أنهم سيبتّون في هذا الأمر يوم الأحد، غضبت غضباً شديداً إلى درجة أنني لم أستطع أن أستعيد هدوئي. طوال هذا اليوم واليوم التالي، لم أنقطع عن التفكير، أظنّ أنه كان بإمكاني التهام هذا الألماني.

وفي صباح يوم الأحد، لم أكن قد قررت شيئاً بعد، ولكنْ فوراً بعد انتهاء القداس، خرجت راكضاً، وارتديت معطفي على عجل، واتجهت إلى ذلك الألماني. ظننتُ أنني سأجدهم جميعاً هناك. أما لماذا ذهبت إلى الألماني وما الذي أردت قوله، فذلك ما لم أكن أعرفه أنا نفسي. دسستُ مسدسي في جيبي على سبيل الاحتياط، وهو مسدس صغير لا يساوي شيئاً، له زناد على الطراز القديم، كنت

أستعمله للرماية في طفولتي، ولم يعد صالحاً لشيء. ومع ذلك حشوته بالرصاص لأنني فكرت أنهم قد يطردونني، وأن ذلك الألماني قد يشتمني، وعندئذٍ قد أخرج مسدسي لإخافتهم جميعاً.

وصلت، لا يوجد أحد عند السلم، كانوا جميعاً في الحجرة الواقعة خلف الدكان. وليس هناك من خادم، كانت الخادم الوحيدة غائبة. اجتزت الدكان، كان الباب مغلقاً، باب قديم مدعوم برتاج. كان قلبي يخفق، توقفت وأنصتُّ: كانوا يتكلمون الألمانية. ركلت الباب بقدمي فانفتح. نظرت، كانت المائدة معدة، عليها إبريق قهوة كبير يغلي فوق قنديل يشتغل بالكحول، وبسكويت. وعلى طبق آخر قنينة من البراندي وصحن أسماك مملحة، ونقانق وزجاجة نبيذ عادي. كانت لويزا وعمتها ترتديان ثياب الآحاد وتجلسان على الأريكة، وفي مقابلهما استرخى الألماني على كرسي كالخطيب، كان قد صفّف شعره بعناية، وارتدى لباساً رسمياً أسود ضيقاً ومزرّراً وياقة عالية. وفي الجانب الآخر كان هناك ألماني ثانٍ عجوز، ضخم وأشيب؛ كان صامتاً. عندما دخلت، شحب لون لويزا. وقفت العمة بسرعة ثم جلست. وغضب الألماني، وقف وتوجه نحوي قائلاً:

- ماذا تريد؟

كان يمكن أن أرتبك، لو لم يقوِّني الغضب.

- ماذا أريد؟ استقبل ضيفك واسقه من خمرك. فإنما جئت في زيارة.

فكر الألماني برهة ثم قال لي:

- اجلس! فجلست.

- ها هي الخمر؛ اشرب من فضلك!

- اسقني خمراً جيدة! كان غضبي يتصاعد.

- هذه خمر جيدة.

احتدم غضبي عندما رأيت أنه ينظر إليّ من فوق إلى تحت، وأقبح ما في الأمر أن لويزا كانت تتابع المشهد. شربتُ ثم قلت:

- لماذا تتحامل عليّ أيها الألماني؟ لنتعارف، فأنا إنما جئتك صديقاً.

- لا يمكن أن أكون صديقك، فأنت مجرد جندي بسيط.

عند ذلك ثار غضبي، فقلت:

- آه! يا دمية! يا بائع السجق! هل تعرف أنني أستطيع أن أصنع بك ما أشاء؟ هل تريد أن أحطم رأسك بهذا المسدس؟

سحبت مسدسي، وقفت ووضعت فوهته على جبين الألماني. كانت المرأتان ميتتين أكثر مما هما حيّتان، كانتا خائفتين حتى من مجرد التنفس. وكان العجوز يرتجف كورقة في حين شحب لونه شحوباً شديداً.

ذهل الألماني، ولكنه سرعان ما استعاد رباطة جأشه.

- لست خائفاً منك وأرجوك، كرجل مهذب، أن توقف فوراً هذه المزحة؛ فأنا لست خائفاً منك أبداً.

- أنت تكذب، إنك خائف! انظروا إليه! إنه لا يجرؤ على تحريك رأسه من تحت المسدس!

-لا! لن تجرؤ على فعل هذا! قال لي.

- ولماذا لا أجرؤ على ذلك؟

-لأن هذا ممنوع منعاً باتاً، ولأنك إن فعلته ستعاقب عقاباً قاسياً.

فليأخذه الشيطان هذا الألماني الغبي! لو لم يدفعني إلى قتله، لكان إلى الآن على قيد الحياة.

- هكذا أنت تظنّ أنني لن أجرؤ؟

- ل. . . ا!

-لن أجرؤ؟

- لن تجرؤ على أن . . .

- حسناً! خذ يا سجق!

أطلقت النار وها هو يتهالك على مقعده في حين صرخ الآخرون.

أرجعت مسدسي إلى جيبي، وعندما عدت إلى القلعة رميته بين أعشاب القرّاص عند الباب الكبير.

وصلت إلى الثكنة، وتمددت في مضجعي ثم قلت في نفسي: «سوف يقبضون عليّ فوراً». مرّت ساعة ثم ساعة أخرى، ولكنهم لم يوقفوني. وعند المساء، انتابني حزن شديد فخرجت، كنت أريد رؤية لويزا بأي ثمن. مررتُ أمام منزل الساعاتي. كان هناك جمع من الناس والشرطة. . . أسرعت إلى العجوز الثرثارة وقلت لها: «نادي لويزا!». لم أنتظر إلا برهة وسرعان ما جاءت لويزا وارتمت على عنقي باكية: «إنها غلطتي، فلقد أطعتُ عمتي»، وأخبرتني أن عمتها فوراً بعد الحادثة عادت إلى منزلها؛ لقد خافت إلى درجة المرض ولم تقل كلمة. لم تفضح العجوز أحداً، بل بالعكس أمرت قريبتها بالصمت لأنها كانت خائفة . قالت لي لويزا: «فليفعلوا ما يريدون، ما من أحد رآنا منذ الحادث». أبعد الساعاتي خادمته، فقد كان يخشاها كما النار، كانت ستقتلع عينيه لو علمت أنه يريد الزواج. ولم

يكن هناك أي عامل بالمنزل، فقد أبعدهم جميعاً. وتولى بنفسه إعداد القهوة والوجبة. أما قريبه فكما ظلّ صامتاً طوال حياته، أخذ قبعته دون أن يفتح فمه وانصرف أولاً.

- «بكل تأكيد، سيصمت» أضافت لويزا.

وهذا ما حدث. لمدة أسبوعين، لم يوقفني أحد، كما لم يشكّ بي أبداً. لا تصدق ذلك إن أردت، يا ألكسندر بيتروفيتش، ولكن هذين الأسبوعين كانا أسعد أيام حياتي. كنت أرى لويزا كل يوم. وكم تعلّقت بي! كانت تقول لي باكية: «لو قاموا بنفيك فسأذهب معك، سأهجر كل شيء لألحق بك» ولقد فكرت في إنهاء حياتي لكثرة ما أثارت شفقتي. ولكن قبض عليَّ بعد أسبوعين، فقد اتفق العجوز والعمة على الوشاية بي.

- ولكن، قاطعته، باكلوشين، انتظر! لأجل هذا الأمر لن يستطيعوا أن يحكموا عليك إلا بعشر سنين أو باثنتي عشرة سنة من الأشغال الشاقة وهي أقصى عقوبة، وفي القسم المدني، فما الذي جاء بك إلى القسم الخاص؟

- تلك قضية أخرى، قال باكلوشين. عندما ساقوني أمام المجلس الحربي، بدأ النائب العام وهو برتبة نقيب، يشتمني أمام المحكمة ونعتني بأقذع النعوت، لم أتحمل فصرخت: «لماذا تشتمني؟ ألا ترى أيها الوغد أنك تشاهد نفسك في مرآة العدالة؟» فرفعت عليَّ قضية أخرى وأعادوا محاكمتي، ولأجل القضيتين حوكمت بأربعة آلاف جلدة وبإيداعي «القسم الخاص». ولما أخرجوني لأتلقى عقوبتي في «الشارع الأخضر» جيء بذلك النقيب: كانوا قد قاموا بتجريده من رتبته العسكرية، وأرسل إلى القوقاز كجندي عادي.

- إلى اللقاء، يا ألكسندر بيتروفيتش، لا تنسَ الحضور لمشاهدة عرضنا المسرحي.

10. عيد ميلاد المسيح

اقتربت أعياد الميلاد أخيراً.

وعشية اليوم المشهود، كان السجناء لا يكادون يذهبون إلى العمل. أولئك الذين يعملون في معامل الخياطة وآخرون ذهبوا إلى عملهم كالمعتاد، وآخرون ذهبوا بعيداً ثم سرعان ما عادوا إلى السجن فرادى أو جماعات؛ بعد الغداء، لم يعمل أحد. منذ الصباح، كان أغلب السجناء مشغولين بأمورهم الخاصة وليس بأمور الإدارة: فبعضهم كان يدبر لإدخال الخمر إلى السجن، أو لطلب المزيد منها، في حين كان الآخرون يطلبون الإذن لرؤية أصدقائهم أو زوجاتهم، أو يجمعون المبالغ الصغيرة التي استحقوها مقابل أعمال قاموا بها مسبقاً. وكان باكلوشين والسجناء الذين يشاركون في العرض التمثيلي يحاولون إقناع بعض معارفهم، وأغلبهم من خدم الضباط، بإعارتهم الملابس التي يحتاجون إليها.

كان بعضهم يذهب ويأتي بادي الانشغال، فقط لأن آخرين كانوا مسرعين ومشغولين، لم يكن لديهم أية نقود لتسلُّمها، ومع ذلك كان يبدو عليهم كما لو أنهم كانوا ينتظرون تقاضي مبلغ ما. باختصار، كان جميع الناس يتوقعون تغييراً ما، ينتظرون حدوث أمر استثنائي. وعند المساء، عاد معطوبو الحرب، المكلفون بشراء ما يحتاج إليه السجناء، حاملين كل أنواع الأطعمة والمؤن: لحوماً، وخنازير

رضيعة وإوزاً. وكان الكثير من السجناء، حتى أفقرهم وأشدهم تقتيراً، ممّن ظلوا يكدّسون كوبيكاتهم طوال السنة، يظنون أن من واجبهم أن ينفقوها في هذا اليوم وأن يحتفلوا بعشية العيد بطريقة لائقة.

كان الغد بالنسبة إلى السجناء عيداً حقيقياً، لديهم كل الحق فيه، عيداً معترفاً به من طرف القانون. ولا يمكن إرسال السجناء إلى العمل في هذا اليوم: فليس هناك إلا ثلاثة أيام مشابهة في السنة كلها.

وأخيراً، مَن يعرف كم من الذكريات تستيقظ في نفوس هؤلاء المنبوذين عند اقتراب مناسبة عظيمة كهذه؟ منذ الطفولة، يحفظ أبناء الشعب ذكريات هذه الأعياد الكبرى. إنهم يتذكرون وبكثير من القلق والجزع تلك الأيام التي كانوا يرتاحون فيها من الأعمال المضنية في حضن أسرهم. إنّ احترام السجناء لهذا اليوم كان واجباً جليلاً.

كان عدد العربيدين قليلاً، كان الكل جاداً ومشغولاً، رغم أن أغلبهم لم يكن لديه ما يفعله. حتى المستهترون منهم كانت تبدو عليهم الرزانة... فكأنما الضحك أصبح ممنوعاً. وخيّم على السجن تزمُّت لا يتسامح، وإذا ما عنّ لأحدهم أن يزعج الراحة العامة، ولو بدون إرادة منه، هبّ السجناء جميعاً غاضبين لإرجاعه إلى مكانه، صارخين، شاتمين، كما لو أنه قلَّل من احترام العيد نفسه. حالة السجناء هذه كانت لافتة للنظر ومؤثرة. فبالإضافة إلى تقديسهم الفطري لهذا اليوم المشهود، كانوا يشعرون أنهم باحترامهم لهذا العيد، يتصلون بباقي العالم، وأنهم ليسوا منبوذين، ضائعين ومطرودين من المجتمع، بما أنهم يحتفلون بالعيد داخل السجن كما

يحتفل به خارجه. كانوا يحسّون بهذا كله، رأيت هذا وفهمته بنفسي.

وقد قام أكيم أكيميتش باستعدادات كبيرة للعيد: لم يكن لديه ذكريات عائلية، فلقد ولد يتيماً في منزل غريب، ودخل الخدمة منذ كان عمره خمسة عشر عاماً؛ ولم يشعر أبداً بأفراح كبيرة، فلقد عاش دائماً بانتظام وعلى وتيرة واحدة، في خوف دائم من مخالفة الواجبات التي فرضت عليه. ولم يكن بالمتدين كثيراً، لأن خضوعه الدائم للشكليات قد خنق فيه جميع مواهبه الإنسانية، وكل عواطفه وميوله، سواء كانت طيبة أم خبيثة.

ولهذا كان يستعدّ للاحتفال بعيد الميلاد دون هرج أو مرج أو قلق، بوجه خاص، فلم تكن تحزنه أيّة ذكرى أليمة وعديمة الجدوى، كان يفعل كل شيء بدقة كافية لإتمام واجباته، وللاحتفال بمناسبة مفروضة، على أكمل وجه. ثم إنه لم يكن يحب التفكير كثيراً. ولم تخطر له أهميته على البال أبداً، في حين أنه كان ينفذ القواعد التي فرضت عليه بدقة متناهية.

إذا ما طلب منه في اليوم التالي فعل عكس ما فعله في اليوم السابق، كان سيطيع بالخضوع نفسه وبالدقة نفسها التي أظهرها من قبل. مرة في حياته، مرة واحدة، أراد أن يتصرف وفقاً لدوافعه، فكانت النتيجة إرساله إلى الأشغال الشاقة. لم ينسَ هذا الدرس. ورغم أنه لم يكتب له أن يدرك ما هو ذنبه، إلا أنه كسب من مغامرته تلك قاعدة أخلاقية مفيدة، أن لا يفكر أبداً، تحت أي ظرف، لأن عقله لم يكن أبداً في مستوى المسألة التي تحتاج إلى الإدلاء برأي. كان مخلصاً إخلاصاً أعمى للمراسم، حتى أنه كان ينظر باحترام إلى الخنزير الرضيع الذي حشاه بالبرغل وشواه بنفسه (كان ملمّاً ببعض

المعارف في مجال الطبخ)، تماماً كما لو أنه لم يكن خنزيراً رضيعاً عادياً نستطيع شراءه وشواءه متى أردنا ذلك، ولكنه خنزير مميز، ولد خصيصاً بعيد الميلاد. لعله كان معتاداً منذ طفولته الغضة، على رؤية خنزير رضيع على مائدة العيد، فاستنتج من ذلك أنّ الخنزير الرضيع ضروري للاحتفال بالعيد كما يجب؛ وأنا متيقّن من أنه لو لم يأكل من هذا اللحم، لسوء الحظ، فسيندم طوال حياته لأنه لم يقم بواجبه. حتى يوم الميلاد، ظلّ أكيم أكيميتش يرتدي سترته القديمة وسرواله العتيق واللذين رغم رتقهما وإصلاحهما الدقيق، كانا باديي البلى. عرفت آنذاك أنه يحتفظ في صندوقه ببذلته الجديدة التي تسلمها منذ أربعة أشهر، وأنه لم يلمسها حتى يلبسها يوم عيد الميلاد.

وهذا ما فعله، فقد أخرج بالأمس ملابسه الجديدة من الصندوق، ففضّها، وفحصها، ونظّفها، ونفخ فوقها لإزالة الغبار، وبعد أن أتمّ ذلك، جرَّبها. كانت البذلة مناسبة له تماماً، فكل أجزائها ملائمة، والسترة تزرَّر حتى العنق، والياقة مستقيمة وصلبة كأنها من الورق المقوى، تسند الذقن عالياً؛ وتفصيل الملابس يشبه من بعيد تفصيل اللباس العسكري، لذلك ابتسم أكيم أكيميتش بِرِضاً وهو يلفّ ويدور مختالاً أمام مرآته الصغيرة جداً، التي زينها منذ أمدٍ بعيد بإطار مذهّب. وحده، زرّ من أزرار السترة بدا كما لو أنه ليس في مكانه المناسب: لاحظه أكيم أكيميتش وقرَّر أن يبدل مكانه؛ وعندما انتهى، جرَّب السترة من جديد، كانت لا عيب فيها. عند ذلك أعاد طيّ البذلة كما كانت في السابق، وأرجعها مرتاح البال إلى الصندوق حتى الغد.

كان رأسه حليقاً كفاية، ولكنه بعد فحص دقيق، في مرآته

الصغيرة، تأكَّد من أنه لم يكن أملس تماماً، فلقد عاود شعره النمو دون أن يدرك، لذلك توجه فوراً إلى «الماجور» لكي يحلق شعر رأسه، وفق النظام. في الواقع، لم يكن أحد ليفكر في النظر إليه غداً، ولكنه كان يقوم بذلك إرضاء لضميره، حتى يقوم بكل واجباته في هذا اليوم. إنّ هذا التقديس لأصغر زر، وأبسط ضفيرة كتفية، وأقلّ عروة، كان مطبوعاً في ذهنه على أنه واجب ملحٌّ، وفي قلبه كصورة للجمال الكامل الذي يستطيع ويجب أن يصل إليه كل إنسان جدير بالاحترام.

ويصفته من «قدماء» السجناء في الثكنة، فلقد حرص على جلب التبن لنفرش به الأرضية. والأمر نفسه كان يتمّ في الثكنات الأخرى. لا أعرف لماذا كانوا دائماً يفرشون التبن على الأرض يوم الميلاد. بعدما أنهى أكيم أكيميتش عمله، تلا صلواته ثم تمدَّد في مضجعه ونام نوم الطفولة الهادئ كي يستيقظ باكراً يوم غد. وذلك ما فعله باقي السجناء ، كما أن كل السجناء ذهبوا إلى النوم قبل الوقت المعتاد، كما أهملوا أعمالهم المعتادة في هذه الليلة؛ أما «ميدان» - القمار فلا أحد جرؤ حتى على ذكر الأمر. الكل كان ينتظر الصباح التالي.

وجاء أخيراً هذا الصباح! باكراً، حتى قبل طلوع النهار، قرع الطبل، وضابط الصف الذي دخل لإحصاء السجناء، تمنى لهم عيداً سعيداً، فأجابوه بصوت لطيف وودود بأن تمنوا له مثل ذلك. وأسرع أكيم أكيميتش وآخرون كثيرون ممّن كانت لديهم وزّاتهم وخنازيرهم الرضيعة إلى المطبخ، بعد أن تلوا صلواتهم على عَجَلٍ، لكي يعرفوا مكان ذبائحهم وكيف كانت تشوى. ومن ثكنتنا ومن خلال نوافذها الصغيرة التي غطى الثلج والجليد نصفها، كنا نرى في الظلام النيران

المتوهّجة في المطبخين حيث أشعلت مواقدهما الستة. وفي الساحة حيث ما زال الظلام مخيماً، كان السجناء الذين ألقوا معاطفهم على أكتافهم أو ارتدوا ثيابهم كاملة، يتزاحمون أمام المطبخ. في حين كان بعض منهم - عدد قليل - قد استطاع زيارة الخمارين. هؤلاء كانوا الأقل صبراً. الكلّ كان يتصرف باحترام وهدوء، أفضل بكثير من المعتاد. لم نكن نسمع المشاجرات والشتائم المعتادة. كل واحد كان يعلم أن هذا اليوم يوم مشهود وعيد كبير، بل لقد ذهب البعض من السجناء إلى الثكنات الأخرى ليتمنوا عيداً سعيداً لمعارفهم، فكأنما هناك نوع من الصداقة قد ربط بينهم في هذا اليوم.

لاحظت عرضاً أن السجناء لا تكاد تربط بينهم علاقات في السجن، لا عامة ولا خاصة؛ فمن النادر أن ترى سجيناً قد ارتبط بآخر، كما في عالم الأحرار. كانوا عموماً قساة وخشنين في علاقاتهم ببعضهم إلا في الحالات الاستثنائية النادرة.

كان هذا أسلوباً معتمداً دائماً. خرجت أنا أيضاً من الثكنة، وكان الضوء قد بدأ يظهر وشحبت النجوم، وتصاعد ضباب خفيف متجمد من الأرض، وارتفعت دوامات من دخان المدافئ وهي تلف وتدور. وقد تمنى لي العديد من السجناء الذين قابلتهم عيداً سعيداً بكثير من اللطف، فشكرتهم متمنياً لهم مثل ذلك، وكان من بينهم مَن لم يكلمني من قبل.

وعند المطبخ، انضمّ إليّ سجين من الثكنة العسكرية، وقد ألقى فراءه على كتفه. لقد أبصرني من وسط الساحة وصاح بي: «ألكسندر بيتروفيتش! ألكسندر بيتروفيتش!» وأسرع راكضاً من جانب المطبخ، فوقفت أنتظره. كان شاباً ذا وجه دائري، وعينين وديعتين، قليل

الكلام مع كل الناس؛ لم يكلمني منذ دخولي السجن، ولم يعرني إلى حدّ الآن انتباهاً، ولا أعرف حتى ما هو اسمه. هرع نحوي لاهث الأنفاس، وانتصب أمامي ناظراً إليّ وهو يبتسم بغباء في حين علا وجهه تعبير سعيد.

- ماذا تريد؟ سألته بقليل من دهشة. بقي أمامي مبتسماً، ناظراً إليّ بملء عينيه، لكن دون أن يبدأ الحديث.

- ولكن، كيف؟ . . . إنه العيد. . . غمغم. وفهم من تلقاء نفسه أنه لم يبقَ لديه ما يقوله لي، فغادرني مسرعاً إلى المطبخ.

وأذكر أننا لم نلتقِ بعد ذلك تقريباً أبداً، كما لم نتبادل أطراف الحديث حتى خروجي من السجن.

تزاحم السجناء المشغولون حول المواقد المتأجِّجة، كان كل واحد منهم يراقب رزقه. وكان الطهاة يحضِّرون الطعام العادي المقدّم للسجناء، لأن الغداء يُتناول اليوم قبل الوقت المعتاد. لم يأكل أحد شيئاً بعد رغم أنهم كانوا يرغبون بذلك. ولكنهم مراعاة للياقة أمام الآخرين، انتظروا الكاهن فالصيام لا ينتهي إلا بوصوله.

ولم يكَد يطلع النهار حتى سمع صوت العريف ينادي من خلف مدخل السجن: «الطهاة! الطهاة!»، وظلَّت هذه النداءات تتكرر مستمرة خلال ساعتين. كان الطهاة مطالبين باستلام الصدقات التي جُلبت من كل أنحاء المدينة بكميات كبيرة: أرغفة السميطة، حلويات بالقشدة والجبن، ومقليات، وفطائر محلاة، وأنواع أخرى من الحلويات بالزبدة. لا أظنّ أن ثمة بائعة أو ربة بيت في المدينة كلها لم ترسل شيئاً إلى السجناء «التعساء».

من بين هذه الصدقات، كانت هناك صدقات ثمينة كالخبز

المصنوع من الدقيق الفاخر بأعداد كبيرة، كما كانت هناك أيضاً صدقات رخيصة جداً، رغيف خبز أبيض بكوبيكين، أو رغيفان من خبز أسود دُهنا بقليل من القشدة الحامضة: كانت هذه هدية الفقير للفقير، حيث أنفق الأول كوبيكه الأخير. ولقد تلقى السجناء هذه الهدايا بامتنان متساوٍ، دون تمييز بينها لقيمتها أو لمصدرها. وكان السجناء الذين يتسلمون الهبات، يرفعون قبعاتهم، ويحيون أصحابها شاكرين صنيعهم، ومتمنين لهم عيداً سعيداً، ثم يحملون الصدقة إلى المطبخ.

حتى إذا تجمّعت كمية كبيرة من الخبز، نودي قدماء المساجين من كل ثكنة، ليتولوا توزيع كل شيء أنصبة متساوية بين جميع الأقسام. لم يكن هذا التوزيع يثير أية نزاعات أو إهانات، وكان يتم بأمانة وإنصاف. كان أكيم أكيميتش يقوم، بمساعدة سجين آخر، بتوزيع الحصة التي آلت إلينا بين سجناء ثكنتنا، مناولاً كل سجين نصيبه بيده. كان كل واحد راضياً، فما من اعتراض يسمع، وما من حسد يظهر؛ وما من أحد يخطر على باله أن يخدع الآخرين. بعدما أنهى أكيم أكيميتش أعماله في المطبخ، شرع في العناية بزينته بدقّة، فارتدى ملابسه بكثير من الأبهة، مزرّراً كل سترته، دون استثناء أي زر منها: وما إن انتهى من ارتداء ثيابه الجديدة، حتى طفق يصلي وذلك لمدة طويلة. كان كثير من السجناء يؤدون واجباتهم الدينية، ولكن أكثرهم كانوا من المسنين، في حين لا يكاد الشبان يصلون: وفي أحسن الأحوال كانوا لا يزيدون على رسم إشارة الصليب عند استيقاظهم من النوم، وحتى هذا كانوا لا يفعلونه إلا أيام الأعياد. اقترب مني أكيم أكيميتش، بعد أن أكمل صلاته، ليقدم لي التهاني المعهودة والأماني المألوفة، فدعوته لشرب الشاي وردّ لي المجاملة

بأن أهداني بعضاً من لحم خنزيره الرضيع. وبعد هنيهة هرع بيتروف ليُعرب لي عن تحياته وتهانيه، أظنّ أنه كان قد شرب. ورغم أنه كان منقطع الأنفاس من الجري، إلا أنه لم يقل لي شيئاً يذكر؛ بقي واقفاً أمامي بضع لحظات ثم عاد إلى المطبخ. في هذه اللحظة، كانوا يستعدون في الثكنة العسكرية لاستقبال الكاهن. لم تكن هذه الثكنة مبنية كالثكنات الأخرى، كانت الأسرَّة فيها مصطفة على طول الجدار وليس في وسط القاعة كما في الثكنات الأخرى، ولذلك كانت الثكنة الوحيدة التي لا يوجد زحام في وسطها، لقد بنيت على الأرجح بهذه الطريقة لكي يجمع السجناء داخلها وقت الحاجة. نصبت مائدة صغيرة في وسط القاعة، ووضعت عليها أيقونة أشعل أمامها قنديل صغير، ووصل الكاهن أخيراً، يحمل الصليب والماء المقدس. فصلى ورتَّل أمام الأيقونة، ثم التفت جهة السجناء الذين أقبلوا كلهم، الواحد تلو الآخر، ليقبِّلوا الصليب. وطاف الكاهن بكل الثكنات التي رشها بالماء المقدس؛ ولما وصل إلى المطبخ، امتدح خبز السجن الذي وصلت شهرته إلى أطراف المدينة؛ فأبدى السجناء فوراً رغبتهم في إرسال رغيفين طازجين، لا يزالان ساخنين، كلّف أحد معطوبي الحرب بإيصالهما إليه حالاً.

رافق السجناء الصليب كما استقبلوه باحترام، وبعد ذلك فوراً حضر الماجور والكومندان، كان القائد محبوباً، بل كان محترماً. دار على كل الثكنات برفقة الماجور وتمنى عيداً سعيداً للسجناء، ثم دخل إلى المطبخ وتذوق حساء الكرنب الحامض، الذي كان لذيذاً في هذا اليوم: كان لدى كل سجين الحقّ في رطل من اللحم تقريباً، وفوق ذلك تمّ تحضير عصيدة دُخن، لم يُبخل عليها بالزبدة. أوصل

الماجور قائد السجن إلى الباب، ثم أصدر أمره إلى السجناء بتناول طعام الغداء. كان هؤلاء يحاولون الهروب من عينيه. فقد كانوا لا يحبون نظرته الشريرة، المحققة دائماً من وراء نظارتيه، والمتنقلة يميناً وشمالاً، كأنها تبحث عن فوضى تقمعها، أو مذنب تعاقبه.

تغذى السجناء. وكان الخنزير الرضيع لأكيم أكيميتش مشوياً بطريقة رائعة. لم أستطع أن أفهم كيف أمكن أن يكون كل هذا العدد الكبير من السجناء سكارى، بعد خروج الماجور بخمس دقائق، بينما كانوا جميعاً في حضوره هادئين.

كانت الوجوه الحمراء والمشرقة كثيرة، وسرعان ما ظهرت آلات البالالايكا. وجاء البولندي القصير يتبع سجيناً عربيداً عازفاً على الكمان كان قد استأجره طوال النهار لينقر له ألحاناً راقصة مرحة. وأخذت الأحاديث تزداد ضجيجاً وصخباً. ورغم ذلك انتهى الغداء دون فوضى كبيرة. أتخم الجميع. وانصرف العديد من المسنين الوقورين إلى النوم، وكذلك فعل أكيم أكيميتش الذي افترض على الأرجح أنه يجب أن ينام حتماً بعد الغداء أيام الأعياد.

وصعد مؤمن ستارودوب، بعد أن غفا قليلاً، فوق المدفأة ثم فتح كتابه، وصلى النهار كله، بل حتى وقت متأخر من الليل دون أن يتوقف لحظة واحدة. كان مشهد هذا «الخزي» مؤلماً له كما قال لي. وذهب الشراكسة جميعاً ليجلسوا على العتبة وهم ينظرون بفضول وبقليل من الاشمئزاز إلى كل هؤلاء السكارى. التقيت بنورّا: يامان! يامان! قال لي (بالتترية: سيئ) في كثير من الغضب الصادق وهو يهزّ رأسه، أوه! يامان! سوف يغضب الله! وأشعل إشعيا فوميتش شمعة في ركنه بكثير من الكبرياء والعناد، وأخذ يعمل كي يظهر جيداً أن

هذا اليوم ليس عيداً في نظره. وانتظمت حلقات «ميدان» - للعب الورق هنا وهناك. كان السجناء لا يخشون الجنود من معطوبي الحرب ورغم ذلك وضعوا حراساً في حالة ما إذا داهمهم ضابط الصف على حين غرة، ولكن هذا الأخير كان يحاول جاهداً أن لا يرى شيئاً. في حين لم يقُم ضابط الحراسة إلا بثلاث جولات: فكان السجناء السكارى يختبئون بسرعة، وتختفي أوراق اللعب في رمشة عين؛ أظن أنه في قرارة نفسه كان يتعمد أن لا يلاحظ المخالفات البسيطة. السكر ليس إثماً في هذا اليوم. وشيئاً فشيئاً أصبح الكلّ مرحاً، وبدأت المشاجرات. ولكن العدد الأكبر كان هادئاً، والواقع أن رؤية السكارى وحدها كانت تثير الضحك. كان هؤلاء يشربون دون اعتدال. كانت بهجة النصر بادية على غازين. كان يتجول راضياً قرب سريره الذي أخفى تحته خمرته، والتي كانت من قبل مخبأة تحت الثلج خلف الثكنات في مكان سري؛ كان يضحك بمكر وهو يرى المستهلكين يصلون إليه جماعات. كان متمالكاً نفسه ولم يشرب شيئاً على الإطلاق، لأنه كان ينوي أن يعربد آخر أيام العيد، بعد أن يفرغ جيوب السجناء.

انطلقت الأغاني من الثكنات. وأصبحت الثمالة عارمة، في حين شارفت الأغاني على البكاء. كان السجناء يتجولون جماعات وهم يداعبون أوتار آلات البالالايكا متباهين، ملقين معاطفهم على أكتافهم في غير اكتراث، بل لقد تكونت فرقة من ثمانية أشخاص إلى عشرة في القسم الخاص. وكانوا يغنون بصوت عالٍ يصاحبهم عزف آلات القيثارة والبالالايكا. كانت الأغاني الشعبية نادرة. ولا أتذكر إلا واحدة، كانوا يغنونها بطريقة رائعة:

بالأمس، أنا الشابة
كنت في المأدبة . . .

سمعت تنويعاً لها غير معروف بالنسبة إليّ من قبل - لأول مرة - في السجن. حيث أضيفت بضعة أبيات إلى نهاية الأغنية:

في بيتي، أنا الشابة
كل شيء مرتب.
غسلت الملاعق،
سكبت حساء الملفوف،
نظفت أعمدة الباب،
طبخت فطائر محشوة.

كانت الأغاني التي يرددها السجناء خاصة هي تلك المسماة بـ«أغاني السجناء». واحدة منها، «لقد وصل. . .»، كانت مضحكة، تحكي عن رجل كان يلهو ويعيش حياته كسيِّد نبيل، وأرسل إلى السجن. وبعد أن كان يتناول فاخر الطعام والشراب، أصبح الآن:

أعطوني الكرنب بالماء
وأكلته، حتى صرصر في أذني.

الأغنية التالية، مشهورة جداً، كانت على الموضة:

من قبل، كنت أعيش
صبياً، كنت أتسلى
وكان لدي رأسمال. . .

رأسمالي، وأنا صبي، فقدته
وانتهى بي الأمر إلى العيش في الأسر

وإلخ. إلا أنه لم يكن يقال عندنا رأسمال «capital» وإنما «copital» الذي كان يشتقّ من الفعل (الروسي) «copit» الذي يعني «كدس». وكانت هناك أيضاً بعض الأغاني الحزينة، واحدة منها، مشهورة كما أظن، كانت أغنية سجناء بحق:

الضوء السماوي يشع،
وصوت الطبل يقرع ساعة الصحو
فتح أقدم السجناء الباب،
وجاء الحاجب ينادينا.

لن يرونا من خلف الأسوار
ولا كيف نعيش هنا.
الله، ربنا الخالق، معنا
لن نهلك هاهنا... إلخ

أغنية أخرى كانت أكثر حزناً، ولكن لحنها كان رائعاً، في حين كانت كلماتها تافهة ومليئة بالأخطاء. أتذكّر منها بضعة أبيات:

لن ترى عيناي البلد
الذي ولدت به؛
أن أشقى بآلام لا أستحقها
هكذا حكم عليّ طوال حياتي.

الغراب سيبكي على السطح
وسترجع صداه الغابة.
قلبي يملأه الحزن
لن أكون هناك.

كانوا يغنونها كثيراً، ولكن ليس جماعة وإنما فرادى. هكذا عندما ينهي السجين عمله، يخرج من الثكنة، ويجلس على درج المدخل، ويستغرق في التفكير، مسنداً ذقنه إلى يده، ثم يغنيها بصوت عالٍ، ماطاً كلامه. كنا ننصت إليه وكان شيء ما ينكسر في قلوبنا. كان لدينا أصوات جميلة بين السجناء.

كان قد هبط الغسق، وعاد الملل والحزن والكآبة للظهور من خلال السكر والعربدة.

فالسجين، الذي كان قبل ساعة يمسك خاصرتيه من فرط الضحك، يبكي الآن في ركن ما وقد غلبه السكر، وآخرون وصلوا إلى حدّ التشابك بالأيدي مراراً، أو يتجولون مترنحين بين الثكنات، شاحبين، باحثين عن شجار. أما الذين يكون سكرهم حزيناً، فيبحثون عن أصدقائهم ليخفِّفوا من حزنهم وألم إدمانهم بالبكاء.

كل هذا العالم البائس يريد أن يبتهج، وأن يقضي العيد الكبير في سعادة، ولكن يا للسماء العادلة! كم كان هذا اليوم مؤلماً للسجناء جميعاً! لقد قضوا هذا اليوم منتظرين نعيماً مبهماً لم يتحقق. هرول بيتروف تجاهي مرتين: كان رابط الجأش لأنه لم يشرب إلا قليلاً، ولكنه حتى اللحظة الأخيرة كان ينتظر شيئاً ما، سيحصل بالتأكيد، شيئاً مذهلاً، ساراً ومسلياً. ورغم أنه لم يقُل شيئاً، إلا أنه يمكن

تخمين ذلك من نظرته. كان يركض من ثكنة إلى أخرى دون تعب. . . ولم يحدث شيء، لا شيء عدا الثمالة الشاملة، وشتائم السكارى الغبية والطيش الذي أصاب جميع هذه الرؤوس الملتهبة.

كان سيروتكين يتجول أيضاً، مرتدياً قميصاً أحمر جديداً، متنقلاً من ثكنة إلى أخرى، فتى وسيماً كالعادة، نظيفاً جداً؛ كان هو أيضاً، بهدوء وبسذاجة، ينتظر شيئاً ما.

وشيئاً فشيئاً أصبح المشهد لا يحتمل، مثيراً للاشمئزاز، وباعثاً على الغثيان؛ ورغم وجود أمور تبعث على الضحك إلا أنني كنت حزيناً دون سبب يذكر. كنت أشعر بشفقة عميقة تجاه هؤلاء الرجال، وكنت أشعر بالاختناق وأنا بينهم. هنا سجينان يتشاجران لمعرفة مَن منهما سيدفع ثمن شراب الآخر. كانا يتجادلان منذ مدة طويلة؛ وكادا أن يتشابكا بالأيدي. أحدهما خاصة كان يضمر العداوة للآخر منذ وقت بعيد. كان يشكو وهو يتمتم، راغباً في أن يثبت لرفيقه أنه قد ظلمه حين باع السنة الماضية معطفاً وأخفى عنه المال. ثم هناك شيء آخر. . . كان المشتكي شاباً، مفتول العضلات، هادئاً، وما هو بالغبي، ولكنه عندما يثمل، يريد أن يكون لديه أصدقاء للتخفيف عن ألمه في أحضانهم. كان يشتم خصمه، معدّداً مآخذه عليه، وهو ينوي في قرارة نفسه أن يصالحه بعد ذلك. أما الآخر فكان رجلاً ضخماً، قصيراً، متين البنية، ذا وجه مدور، ماكراً كالثعلب، وقد يكون شرب أكثر من رفيقه، ولكنه لم يسكر إلا قليلاً. كان هذا السجين ذا عزيمة قوية كما كان يُعرف بغناه؛ من المحتمل أنه لم تكن لديه مصلحة في إغضاب صديقه، لذلك قاده إلى الخمار؛ كان الصديق الثرثار يؤكد أن رفيقه هذا يدين له بالمال، وأن عليه أن يدعوه للشرب «إذا كان رجلاً شريفاً».

كان الخمار، دون أن يخفي احترامه للزبون وبعض الاحتقار للصديق الثرثار الذي يشرب على حساب الآخرين، ويستمتع بمال غيره، قد أخذ كأساً وملأها خمراً.

- لا، يا ستيوبكا، أنت من يجب عليه أن يدفع، لأنك تدين لي بالمال.

- إيه! لا أريد أن أتعب لساني بالكلام معك، أجاب ستيوبكا.

- لا، ستيوبكا، أنت تكذب، أكّد الأول وهو يتناول الكأس التي مدها له الخمار، أنت تدين لي بالمال؛ يبدو أنه ليس لديك ضمير، حتى عيناك ليستا لك، لقد استعرتهما كما استعرت كل شيء. أيها الوغد، اذهب! ستيوبكا! باختصار أنت وغد!

- ما بالك تتباكى؟ انظر، لقد أرقت خمرك! اشرب، ما دام هناك من يدفع ثمن شرابك! صاح الخمار بالصديق الثرثار، ليس لدي الوقت للانتظار حتى الغد.

- سأشرب، لا تخف، لم تصرخ بي؟ أفضل تمنياتي بمناسبة العيد، ستيبان دوروفيئيتش! قال هذا الأخير منحنياً بأدب وكأسه في يده، ناحية ستيوبكا، الذي كان ينعته منذ دقيقة من قبل بالوغد.

- أتمنى لك الصحة وأن تعيش مائة عام دون حساب السنوات التي عشتها حتى الآن! شرب كأسه مغمغماً بارتياح وجفَّف فمه، ما أكثر ما شربت من خمر قبل الآن! قال بجدية ورزانة، وهو يوجه كلامه إلى الكل دون أن يخص شخصاً معيناً بكلامه، ولكن انتهى وقتي. اشكرني، ستيبان دوروفيئيتش!

- على أي شيء أشكرك؟

- آه! لا تريد شكري، إذن سوف أحكي للكل ماذا فعلت بي؛ زِدْ على ذلك أنك وغد كبير، سوف أقول لك. . .

- جيد، هذا ما سأقوله لك، أيها السكير ذو الوجه القبيح!

قاطعه ستيوبكا الذي نفد صبره أخيراً، اسمع وانتبه، لنقسم العالم نصفين، خذ نصفه وأنا النصف الآخر، ودعني وشأني.

- هكذا لن تردّ إليّ مالي.

- أي مال تريد أيضاً، أيها السكير؟!

- عندما. . . ترده لي في العالم الآخر، لن آخذه منك. مالنا، إنه عرق جبيننا، وتصلب أيدينا. سوف تندم على هذا في العالم الآخر، سوف تشوى لأجل هذه الكوبيكات الخمسة.

- اذهب إلى الشيطان!

- لماذا تهمزني؟ لست بحصان.

- اذهب! هيا اذهب!

- وغد حقير!

- سجين قذر!

وانهمرت الشتائم أغزر مما كانت عليه قبل أن يدفع ستيوبكا عن صاحبه ثمن الشراب.

وهذان صديقان قد جلسا على سريرين منفصلين من أسرَّة السجن، أحدهما طويل، قوي، بدين كجزار: كان وجهه أحمر، وكان على وشك البكاء لأنه كان متأثراً جداً. وكان الآخر، مغروراً، رشيقاً، ضامراً، ذا أنف كبير يبدو كأنه مصاب بزكام دائم وله عينان صغيرتان زرقاوان مطرقتان دائماً إلى الأرض. إنه رجل مرهف ومهذب، كان في السابق سكرتيراً، وكان يعامل صديقه ببعض

الازدراء، الشيء الذي لم يكن يعجب رفيقه. كانا قد شربا معاً طوال اليوم.

- لقد تجاسر عليّ! صاح البدين، وهو يهز رأس رفيقه بشدة بيده اليسرى. «تجاسر عليه» يعني ضربه. هذا السجين، ضابط صف سابق، كان يغار في قرارة نفسه من نحافة جاره؛ لذلك كانا يتصنّعان الرقة والأناقة في أحاديثهما.

- قلت لك إنك المخطئ... قال السكرتير بصوت صارم، وهو مطرقٌ بعناد إلى الأرض، دون أن ينظر إلى محدثه.

- لقد ضربني، ألا تسمع! أكمل الآخر وهو يهزّ صديقه العزيز بمزيد من القوة. أنت الرجل الوحيد الذي تبقّى لي في هذه الدنيا، ألا تسمع! لذلك أقول لك إنه تجاسر عليّ.

- وسوف أكرر لك أن تبرؤك من الخطأ بعذر واهن كهذا لن يزيدك إلا خزياً، يا صديقي العزيز! ردّ السكرتير بصوت ضعيف ومهذب، فاعترف، يا صديقي العزيز، بأنّ هذا السكر إنما ناتج من قلة ثباتك.

ترنح الصديق البدين متراجعاً، ونظر بغباء بعينيه الثملتين إلى السكرتير المطمئن، وفجأة هوى بكامل قوته بقبضته الضخمة على وجهه النحيل. هكذا انتهت صداقة هذا اليوم. واختفى الصديق العزيز تحت الأسرة، فاقداً الوعي...

دخل أحد معارفي إلى ثكنتنا، كان سجيناً من القسم الخاص، كان شديد المرح والابتهاج، شاباً ليس بالغبي، شديد البساطة، ساخراً بغير سوء نية: إنه بالضبط ذلك الرجل الذي كان يبحث عن

فلاح غني عند وصولي إلى السجن، والذي أعلن أن لديه كرامة وانتهى بأن شرب معي الشاي. كان في الأربعين من عمره، له شفة ضخمة وأنف كبير وسمين به بثور. كان يحمل آلة البالالايكا، ويشد أوتارها في إهمال؛ وكان يتبعه كظله سجين قصير ذو رأس ضخم كنت أعرفه قليلاً، وعلى كل حال لم يكن أحد يعيره انتباهاً، هذا الأخير كان غريباً، كثير الارتياب، دائم الكآبة والجدية؛ كان يعمل في ورشة الخياطة ويسعى جاهداً إلى العيش وحيداً، دون الارتباط بأحد، ولكنه الآن بعد أن ثمل، ارتبط بفارلاموف كظله، وأخذ يتبعه، بادي التأثر، وهو يومئ بيديه، ضارباً بقبضته الجدران والأسرة، ويكاد يبكي. وكان فارلاموف لا يعيره انتباهاً كأنه ليس موجوداً. وأطرف ما في الأمر، أن هذين الرجلين لم يكن بينهما أي وجه تشابه، فلا مشاغلهما ولا طباعهما كانت مشتركة. كانا ينتميان إلى قسمين مختلفين، ويقيمان بثكنتين منفصلتين. وكان السجين القصير ينادى باسم: بولكين.

ابتسم فارلاموف عندما رآني جالساً بمكاني قرب المدفأة. توقف على بعد خطوات مني، فكر برهة، ترنح ثم توجه ناحيتي بخطى متفاوتة، وهو يتخلع في مشيته بجسارة، داعب أوتار آلته ثم أخذ يغني وهو يضرب الأرض ضربات خفيفة بجزمته السوقاء:

حبيبتي
مكتنزة الوجه وبيضاء
تغني كعصفورة؛
في فستانها الحريري

المزركش

ما أجملها!

أخرجت هذه الأغنية بولكين عن طوره، فأخذ يلوح بذراعيه، ويصرخ مخاطباً الجميع:

- إنه يكذب، أيها الإخوة، إنه يكذب. ليس هناك ظلٌّ حقيقة في كل ما يقوله.

- احترامي للشيخ ألكسندر بيتروفيتش! قال فارلاموف وهو ينظر إليّ في ضحكة لعوب، بل أظن أنه أراد أن يقبلني. كان ثملاً. أما تعبير «احترامي للشيخ فلان»، فكان يستعمله عامة الناس في أنحاء سيبيريا كلها، حتى عند مخاطبة رجل في العشرين. فكلمة «الشيخ» تعبير عن الاحترام، أو التبجيل، أو المجاملة، وتُقال للشريف، والجدير بالاحترام.

- حسناً، فارلاموف، كيف حالك؟

- بين بين! السعيد بالعيد حقاً، هو السكران منذ الصباح الباكر. معذرة! قال فارلاموف وهو يجرّ رجليه.

- إنه يكذب، إنه يكذب من جديد! قال بولكين وهو يضرب الأسرة بيأس. من المؤكد أن فارلاموف قد تعهد بأن لا يلتفت لهذا الأخير، وكان هذا بالتحديد أكثر ما في الأمر إضحاكاً، لأن بولكين لم يبتعد عن فارلاموف قيد أنملة منذ الصباح، دون سبب يذكر، فقط لأن هذا الأخير كان «يكذب» فيما يبدو له. كان يتبعه كظلّه، ويعارضه في كل كلمة يقولها، وهو يشدّ على يديه، ويضرب بقبضتيه الجدران والأسرَّة الخشبية حتى تدميا، ويتألم، يتألم ألماً واضحاً لاقتناعه بأن

فارلاموف كان يكذب. لو كان لديه شعر في رأسه لاقتلعه من شدّة ألمه وحزنه العميق. كما لو أنّه تعهَّد بأن يتحمل مسؤولية أفعال فارلاموف، وأن مساوئ هذا الأخير تعذب ضميره أشد العذاب. والمضحك أن السجين ظلّ يتجاهل تمثيلية بولكين.

- إنه يكذب! إنه يكذب! إنه يكذب!!! لا شيء حقيقي! . . . صرخ بولكين.

- وما شأنك؟ أجاب السجناء ضاحكين.

- أقول لك، ألكسندر بيتروفيتش، كنت في شبابي فتى وسيماً، وكانت الفتيات يحببنني كثيراً، كثيراً. . . قال فارلاموف فجأة.

- إنه يكذب! ها هو يكذب ثانية! قاطعه بولكين متأوِّهاً، فانفجر السجناء ضاحكين.

- وأنا كنت أختال أمامهن؛ كان لدي قميص أحمر، وسروال عريض من القطيفة، وكنت أنام متى أشاء كذلك الكونت «بوتيلكين» - دو لا بوتاي - «ذو القنينة»، سكران، مثل سويدي، يعني، باختصار، كنت أفعل كل ما يحلو لي.

- إنه يكذب! قال بولكين بإصرار.

- كنت قد ورثت عن أبي بيتاً حجرياً، من طابقين. حسناً، في ظرف سنتين، كنت قد هدمت الطابقين، ولم يبقَ لديّ إلا باب كبير بدون أعمدة ولا ركائز. ماذا تريد؟ المال، مثل الحمام، يحطّ ثم يطير.

- إنه يكذب! أعلن بولكين بإصرار أكبر.

- ثم، عندما وصلت، إلى هنا، وبعد بضعة أيام، أرسلت رسالة باكية إلى أقربائي لكي يرسلوا إليّ المال. ولأنني حسب ما قيل كنت

أتصرف ضد إرادة أهلي، كنت لا أحترم أحداً. ها قد مضت سبع سنوات على إرسال الرسالة!

- وما من ردّ؟ سألته مبتسماً.

- ما من ردّ! قال ضاحكاً هو أيضاً وهو يقرب أنفه أكثر من وجهي، لدي هنا عشيقة، ألكسندر بيتروفيتش!

- هنا؟ لديك عشيقة؟

- قال أونوفرييف، قبل وقت ليس بالبعيد: «عشيقتي مصابة بالجدري، وقبيحة كما تريد، ولكنها تملك الكثير من الفساتين، في حين أن عشيقتك جميلة، ولكنها متسولة، تحمل خرجاً».

- أهذا صحيح؟

- طبعاً! إنها متسولة! قال وهو ينفجر ضاحكاً بدون صوت، كما ضحك الجميع، فقد كان كل السجناء يعرفون أنه على علاقة بمتسولة يعطيها عشرة كوبيكات على الأكثر، كل ستة أشهر.

- حسناً! ماذا تريد مني؟ سألته لأنني أردتُ التخلص منه.

سكت، ثم نظر إليّ، وقال لي بصوت حنون:

- ألن تمنحني لهذا السبب ما أشرب به نصف لتر؟ لم أشرب إلا الشاي طوال اليوم، أضاف بصوت عذب وهو يأخذ المال الذي أعطيته إياه، وهذا الشاي يزعجني حتى يكاد يصيبني بالربو؛ إن بطني لمليئة تقرقر... مثل قنينة من الماء!

ما إن تناول النقود التي مددتها له حتى تجاوز يأس بولكين كل الحدود، كان يتواثب.ويحرك يديه كمن به مسّ قائلاً:

- أيها الناس الطيبون! صرخ في الثكنة المدهوشة، ألا ترون؟ إنه يكذب! كل ما يقوله، كله، كله كذب.

- فيمَ يعنيك هذا؟ صاح فيه السجناء الذين تفاجأوا من غضبه، إنك غريب!

- لن أسمح له بالكذب، أكمل بولكين وهو يدير عينيه ويضرب الألواح بقبضته بكل ما أوتي من قوة، لا أريد أن يكذب!

ضحك الجميع. وحياني فارلاموف بعد أن أخذ النقود، ثم سارع، مكشّراً، إلى الخمار. وعند ذلك فقط لاحظ بولكين.

- هيا! قال له وهو ينتظره على عتبة الثكنة، كما لو أنه لا غنى عنه لتنفيذ مشروع ما.

- هيا يا كرة في رأس العصا! أضاف فارلاموف باحتقار وهو يدفع بولكين أمامه؛ ثم بدأ يعذّب أوتار آلته الموسيقية، البالالايكا.

ما جدوى أن أصف هذا الجنون! لقد انتهى ذلك النهار الخانق أخيراً. ونام السجناء على أسرَّتهم نوماً ثقيلاً. كانوا يتكلمون ويهذون في نومهم أكثر مما كانوا يفعلون في الليالي الأخرى. وهنا وهناك جماعات منهم ما زالت في «ميدان» تلعب بالورق. كان العيد، الذي انتظروه طويلاً وبفارغ الصبر، قد انقضى. وغداً، ومن جديد سيُستأنف العمل اليومي، وستُواصل الأعمال الشاقة...

11. التمثيل

أقيم العرض التمثيلي الأول لمسرحنا في مساء اليوم الثالث من أيام العيد.

كانت هناك متاعب تنظيمية كثيرة، إلا أن الممثلين أخذوا على عاتقهم تذليل كل الصعاب، لذلك لم يكن السجناء الآخرون يعرفون

أين وصل العرض المسرحي المقبل، ولا ماذا كان يجري. لم نكن نعرف حتى ماذا كانوا سيمثّلون بالضبط. - كان الممثلون، خلال هذه الأيام الثلاثة، أثناء الذهاب إلى العمل، يبذلون جهدهم لجمع أكبر عدد ممكن من الملابس. كان باكلوشين، كلما التقيت به، يطقطق أصابعه من الرضا، ولكنه لم يكن يخبرني بشيء. أظنّ أن الماجور كان رائق المزاج. كنا نجهل تماماً هل كان على علم بأمر العرض، وهل سمح به، أو قرَّر أن يصمت ويغضّ الطرف عن نزوات السجناء، بعد أن تأكَّد أن كل شيء سيمرّ على أحسن ما يرام. أظنّ أنه سمع بالعرض المسرحي، ولكنه لم يشأ أن يتدخل في الأمر، لأنه أدرك أن كل شيء قد يسوء إذا ما منع الحفل، وقد يلجأ السجناء إلى العصيان أو السكر، لذلك كان من الأفضل أن ينشغلوا بشيء ما. ولئن نسبت طريقة التفكير هذه إلى الماجور، فلأنها الطريقة الطبيعية والمنطقية. ويمكن حتى القول إن السجناء لو لم يكن لديهم هذا العرض المسرحي خلال أيام العيد، أو شيء من هذا القبيل، لكان على الإدارة أن تنظم لهم تسلية ما.

ولكن بما أن ماجورنا كان يتميز بأفكار مضادة لأفكار بقية الجنس البشري، فإنني أتحمل مسؤولية كبيرة إذ أؤكد أنه كان على علم بمشروعنا وأنه سمح به. إن رجلاً مثله لا بد له دائماً من أن يسحق أحداً، أن يخنق شخصاً، أن ينتزع شيئاً، أن يحرم إنساناً من حقّ، باختصار، أن يفرض النظام في كل مكان. وبذلك كان معروفاً في المدينة كلها. وكان لا يهمه أن تثير إهاناته هذه تمردات. فلهذه الجرائم كانت هناك عقوبات (ثمة أشخاص يفكرون مثل ماجورنا) ومع هؤلاء السجناء الأنذال لا يجب أن تستعمل إلا القسوة التي لا

ترحم، وأن يطبق القانون بلا هوادة، وهذا كل شيء. هؤلاء العجزة المنفذون للقانون لا يدركون بتاتاً أن تطبيق القانون دون فهم روحه، يؤدي مباشرة إلى الفوضى. - (القانون ينص على هذا، ماذا تريدون أكثر من ذلك؟) بل يدهشون دهشاً صادقاً، حين يطلب منهم، علاوة على تطبيق القانون، أن يتحلوا بشيء من حسن التقدير وسلامة التفكير. الشرط الأخير خاصة كان يبدو لهم غير ضروري، كان بالنسبة إليهم ترفاً يثير غضبهم وغيظهم وتعصبهم.

ومهما كان من أمر، فإن ضابط الصف لم يعارض تنظيم الحفل، وهذا ما كان يحتاجه السجناء. وأستطيع القول بكل صدق إنه إذا لم تحدث في السجن، خلال أيام العيد، أيّة فوضى تُذكر، ولا مشاجرات دامية، ولا سرقة، فيجب أن يعزى ذلك إلى الإذن الذي حصل عليه السجناء لإقامة حفلهم الفني. وقد رأيت بأمّ عيني كيف كانوا يخفون زملاءهم الذين بالغوا في الشرب كثيراً، وكيف كانوا يمنعون أي عراك، دفاعاً عن عرضهم المسرحي.

لقد أخذ ضابط الصف من السجناء وعداً بأن يتصرفوا جيداً وأن يمرّ كل شيء بهدوء، فوافق هؤلاء بكل سرور، ووفوا بوعدهم خير وفاء: هذه الثقة في وعودهم كانت ترضي غرورهم، زدْ على ذلك أن هذا العرض لم يكن سيكلف الإدارة شيئاً، لا شيء على الإطلاق؛ فلا مصاريف يجب أن تُنفق، ولم يحدّد مكان مسبقاً لإقامة المسرح، لأن المسرح كان يركَّب ويفكّ في أقل من ربع ساعة. كان العرض سيدوم ساعة ونصف وفي حالة ما إذا جاء الأمر بإيقافه على حين غرة، كانت الديكورات ستختفي في رمشة عين، وكانت الملابس مخبأة في صناديق السجناء.

قبل كل شيء، سأتحدث عن كيفية إنشاء مسرحنا، وكيف كانت الملابس، وعن برنامج العرض، أي عن المسرحيات التي كانت ستمثَّل.

في الحقيقة، لم يكن هناك برنامج مكتوب، لم يكتب أي برنامج إلا للحفلة الثانية والثالثة، وهو البرنامج الذي كتبه باكلوشين للسادة الضباط وباقي نبلاء الزوار الذين تنازلوا وشرَّفوا العرض بحضورهم، وهم ضابط الحراسة الذي جاء مرة واحدة، وضابط الحراسة المناوب، وأخيراً ضابط من سلاح الهندسة، ولم يوضع هذا البرنامج إلا تشريفاً لهؤلاء الزوار النبلاء.

كان من المفترض أن شهرة مسرحنا ستطبق الآفاق داخل القلعة وفي المدينة. ذلك أنه لم يكن في مدينة ن... كلها أي مسرح؛ ما عدا بعض عروض الهواة ولا شيء غير ذلك. كان السجناء يُسَرّون، لأقل نجاح يلاقونه، كالأطفال. كانوا يتباهون في قرارة أنفسهم قائلين ومتسائلين: «من يدري، قد يعلم الرؤساء، وقد يأتون للمشاهدة، عند ذلك سيعرفون قيمة السجناء، لأنه ليس عرضاً بسيطاً، يقدمه جنود، مع دمى ومراكب طافية ودببة مدربة وتيوس. ولكن، هنا ممثلون، ممثلون حقيقيون، يقدمون كوميديات سادة، في المدينة كلها، ليس هناك مسرح مماثل!

يقال إن الجنرال أبروسيموف أقام عرضاً تمثيلياً في منزله، وستُقام حفلة أخرى هناك، حسناً! قد يتفوقون علينا بملابسهم الفاخرة، هذا ممكن! أما الحوار، فذلك ما سنراه!

قد يسمع الحاكم نفسه بعرضنا، ومن يدري؟ قد يأتي، فليس لديهم مسرح في المدينة!...»

والخلاصة، أن مخيلة السجناء، وخاصة بعد النجاح الأول، ذهبت إلى حدّ تصور أنه ستوزع عليهم مكافآت أو ستُرفع عنهم من الأشغال الشاقة ساعات، ثم ما يلبثون أن يضحكوا من تخيلاتهم. باختصار كانوا أطفالاً، أطفالاً حقيقيين رغم بلوغهم سن الأربعين.

كنت أعرف الخطوط العريضة لموضوع التمثيلية المقترحة، رغم أنه لم يكن هناك أي برنامج للعرض. كان عنوان التمثيلية الأولى: الغريمان فيلاتكا وميروشكا.

كان باكلوشين يتباهى أمامي، قبل الحفل بأسبوع على الأقل، بأن دور فيلاتكا الذي اضطلع به سيؤديه بطريقة لم يُرَ مثلها من قبل، ولا حتى على مسارح سانت بطرسبورغ. ظلّ مختالاً يتبجّح ويتوقح داخل الثكنات، رغم أن محيّاه لم يخلُ من أمارات الطيبة؛ وإذا اتفق أن ألقى بعض الحوارات من دوره «على الطريقة المسرحية»، كان الكل ينفجر ضاحكاً، سواء كان ما قدمه مضحكاً أم لا، وكانوا يضحكون لأنه نسي نفسه تماماً.

يجب الاعتراف بأن السجناء كانوا يعرفون كيف يضبطون أنفسهم ويحافظون على وقارهم؛ ولم يكن متحمساً لأقاويل باكلوشين ومتحدثاً عن المسرح القادم إلا أكثر الناس شباباً، والأقل حذقاً، ممَّن لا يحسنون التصرف، أو أكبرهم شأناً من أولئك السجناء الذين كانوا متأكدين من سلطتهم ولا يخافون من التعبير بوضوح عن أحاسيسهم كيفما كانت، ولو من أشدّ الأشياء سذاجة (أي، الأشد فحشاً، حسب قاموس السجن). وأما الآخرون فكانوا ينصتون إلى الضجة والنقاشات صامتين دون لوم أو اعتراض، ولكنهم كانوا يبذلون جهدهم للتصرف باستخفاف ودون اكتراث بما يُقال عن

المسرح. لم يبدِ جميع السجناء اهتمامهم بما سيشاهدونه، أو بما كان سيفعله رفاقنا إلا في آخر لحظة، أي في يوم التمثيل نفسه. كانوا يتساءلون عن رأي الماجور. وهل سينجح العرض كما نجح العرض الذي قدِّم قبل سنتين؟ . . . إلخ.

أكّد لي باكلوشين أنّ جميع الممثلين تمّ اختيارهم على نحو رائع، وأنّ كل واحد منهم «في مكانه المناسب»، بل ستكون للمسرح ستارة، وأن دور خطيبة فيلاتكا سيمثِّله سيروتكين، سترى كم هو وسيم في ثياب امرأة، قال لي ذلك، غامزاً بعينيه ومصفقاً بلسانه سقف فمه، وأن السيدة النبيلة المحسنة سيكون لها فستان بحواش وأهداب، وبّيليرينة، ومظلة، أما السيد النبيل المحسن فسيدخل ببذلة ضابط مع شارات على الكتفين وفي يده عصاً صغيرة.

وبعد ذلك كانت ستعرض مسرحية ثانية عنوانها «كيدريل الأكول». وقد حيَّرني هذا العنوان كثيراً، ولكنني رغم كثرة الأسئلة التي ألقيتها، لم أستطع معرفة شيء قبل العرض. عرفت فقط أن هذه المسرحية لم تكن مطبوعة؛ كانت نسخة مكتوبة بخطّ اليد، أخذت من ضابط صفّ متقاعد من الضواحي، كان قد شارك بالتأكيد في تمثيلها سابقاً على مسرح عسكري ما.

لدينا في الواقع، في المدن والأقاليم البعيدة، مسرحيات عديدة من هذا النوع وهي، كما أظن، مجهولة تماماً، ولم تطبع يوماً، وإنما ظهرت من تلقاء نفسها في الوقت المناسب لتغذّي المسرح الشعبي في بعض المناطق الروسية.

قلت «المسرح الشعبي» ومن الجيد أن يشتغل الباحثون في الأدب الشعبي بإنجاز دراسات دقيقة حول هذا المسرح، الموجود

فعلاً، والذي قد لا يكون تافهاً جداً كما يمكن أن يظنّ بعض الناس. لا أستطيع أن أصدِّق أن كل ما رأيته في سجننا كان من إبداع السجناء. فما رأيته لا بد له من تقاليد سابقة، وأساليب متَّبعة، ومعارف متوارثة جيلاً بعد جيل. يجب البحث عنها لدى الجنود، وعمال المصانع، في المدن الصناعية، وحتى لدى برجوازيي بعض المدن الصغيرة الفقيرة والمجهولة. هذه التقاليد حوفظ عليها في بعض القرى، ومراكز الأقاليم، لدى خدم بعض كبار الملاكين العقاريين، بل أظن أنه إن تعددت نسخ الكثير من المسرحيات القديمة، فالفضل يرجع بالذات إلى هؤلاء الخدم أنفسهم. فقد كان لدى قدماء الملاكين والسادة في موسكو مسارحهم الخاصة يمثل فيها أقنانهم. ومن هنا جاء مسرحنا الشعبي ذو الطابع الأصيل الذي لا جدال فيه.

أما «كيدريل الأكول»، فرغم فضولي الشديد، لم أستطع أن أعرف عنها شيئاً، ما عدا أن الشياطين يظهرون ويحملون كيدريل إلى الجحيم. ولكن ماذا يعني اسم كيدريل هذا؟ ولماذا سمِّي كيدريل، ولم يسمّ كيريل؟ هل الحدث المسرحي روسي أم أجنبي؟ لم أجد أجوبة عن هذه الأسئلة. وقد أعلنوا أن المسرحية ستنتهي «بمشهد إيمائي مع الموسيقى». كل هذا يبشر بشيء طريف. كان عدد الممثلين خمسة عشر، وكانوا كلهم يفيضون نشاطاً وتصميماً. وكانوا يتحركون كثيراً، ويُكثرون من التمارين التي كانوا يقومون بها أحياناً خلف الثكنات، يختفون، ويتكتمون. باختصار، كانوا يريدون مفاجأتنا بشيء خارق وغير منتظر.

في أيام العمل، كانت الثكنات تغلق باكراً جداً، مع هبوط الليل، ولكن كان هناك استثناء لأعياد الميلاد، حيث لم تكن توضع

الأقفال إلا مع انسحاب الليل (في الساعة التاسعة). مُنح هذا الامتياز خاصة من أجل الحفلة التمثيلية.

أثناء فترة الأعياد كلها، وكل مساء، كان يرسل وفد من السجناء لاستعطاف ضابط الحراسة بالكثير من الخنوع لكي «يسمح بإقامة الحفلة التمثيلية ولا يغلق السجن»، مضيفين أن حفلة قد أقيمت بالأمس، ورغم ذلك لم تحصل أية فوضى. فكر ضابط الحراسة على النحو الآتي: لم تحصل أية فوضى، أو أية مخالفة للنظام يوم العرض، وما داموا قد قطعوا عهداً على أنفسهم أن سهرة اليوم ستمرّ على المنوال نفسه، فسيكونون هم أنفسهم شرطة أكثر صرامة وشدة. علاوة على ذلك، كان يعرف جيداً أنه إن منع الحفلة، فإن هؤلاء الرجال (من يعرف ما سيفعله سجناء!) قد يقومون بحماقات تسبب الحرج لضباط الحراسة.

والسبب الأخير الذي دفعه إلى الموافقة: هو أن الحراسة مملة جداً؛ فإذا سمح بالمسرحية الهزلية، فسيتسلى بعرض لا يقدِّمه الجنود، وإنما السجناء، وهم أناس غريبو الأطوار؛ وسيكون ذلك أكثر إثارة للاهتمام، ولديه كل الحق في الحضور.

فإذا ما وصل الضابط المناوب وطلب ضابط الحراسة، قيل له إن هذا الأخير ذهب ليعدّ السجناء ويغلق الثكنات؛ وهو جواب صحيح وتسويغ سهل، لهذا سمح حراسنا بإقامة العرض أثناء فترة الأعياد كلها؛ كانت الثكنات لا تغلق مساء إلا وقت النوم. وكان السجناء يعرفون مسبقاً أن الحراس لن يعارضوا مشروعهم؛ كانوا مطمئنين من هذه الناحية.

عند الساعة السادسة جاء بيتروف يبحث عني، فتوجهنا إلى قاعة

العرض. كان كل سجناء ثكنتنا تقريباً هناك، باستثناء المؤمن القديم شيخ تشيرنيكوف والبولنديين. لم يقرر هؤلاء حضور العرض إلا في آخر يوم من أيام التمثيل، الرابع من كانون الثاني/ يناير، حتى اقتنعوا بأن كل شيء كان مقبولاً، مرحاً وهادئاً. كان ازدراء البولنديين يثير حنق سجنائنا، لذلك استقبلوهم يوم الرابع من كانون الثاني/ يناير بأدب شديد؛ وأجلسوهم في أحسن الأماكن. أما الشراكسة وإشعيا فوميتش فكانت المسرحية الهزلية بالنسبة إليهم متعة حقيقية. وكان إشعيا فوميتش يدفع ثلاثة كوبيكات في كل مرة: وفي اليوم الأخير، وضع عشرة كوبيكات في الطبق؛ وقد ارتسمت السعادة على وجهه. كان الممثلون قد قرروا أنّ كل مُشاهد سيعطي ما يشاء. وكان الريع سيغطي النفقات وما تبقّى سيُعطى للممثلين. أكَّد لي بيتروف أنني سأجلس في أحد أحسن الأماكن، مهما كان المسرح مليئاً، أولاً لأنني أغنى من الآخرين، وقد أدفع أكثر، وثانياً لأنني أعرف عن ذلك أفضل مما يعرف الآخرون. وقد تحققت نبوءته. قبل كل شيء، سأصف القاعة وبناء المسرح.

كان طول ثكنة القسم العسكري، التي كان من المفروض أن تصبح صالة للعرض، يبلغ خمس عشرة قدماً. ومن ساحة السجن، يتمّ الدخول عبر درج إلى ردهة ثم إلى الثكنة نفسها. كان بناء هذه الثكنة الطويلة فريداً من نوعه، كما سبق وذكرت: كانت الأسرة مصطفة قرب الجدار، تاركة مساحة فارغة في وسط القاعة. وكان النصف الأول من الثكنة مخصصاً للمشاهدين، في حين أن النصف الثاني، الذي كان متصلاً بمبنى آخر، خصص للمسرح. ما أثار دهشتي منذ دخولي، هو الستارة، التي كانت تقسم الثكنة إلى نصفين،

على مدى عشرة أقدام. كانت عجيبة من العجائب تثير الدهشة بحق؛ رسمت عليها بألوان زيتية أشجار ومظلات وبرك ونجوم. وتشكلت من أثواب جديدة وقديمة قدَّمها السجناء: قمصاناً، وشرائط ممّا يستعمله الفلاحون كجوارب، كل هذا كان مخيطاً بطريقة ما جعلت منه لحافاً كبيراً؛ وحيث نقص القماش استبدل بالورق الذي تسوَّله السجناء ورقة ورقة في مختلف الإدارات والدواوين.

وقد قام رسامونا (ومن بينهم بريوللوف أي أ. ف) بتزيين الستارة كلها، وكانت النتيجة لافتة للنظر. أسعد هذا المنظر الفخم السجناء، حتى الأكثر اكتئاباً وتطلباً بينهم؛ مع ذلك بدا هؤلاء، بعد بداية العرض، كالأطفال فعلاً، لا أكثر ولا أقلّ من المندفعين والمتحمسين. الكل كان سعيداً، مع إحساس بالزهو. كانت الإضاءة تتكون من بضعة شموع قطعت إلى قطع صغيرة. وقد تمّ إحضار مقعدين خشبيين طويلين من المطبخ وضعا أمام الستارة، كما تمَّت استعارة ثلاثة مقاعد أو أربعة من غرفة ضباط الصف، وضعت هناك لكي يجلس عليها الضباط الكبار إذا ما حضروا العرض. أما المقاعد الخشبية الطويلة فقد خصصت لضباط الصف، وأمناء الهندسة، ومديري الأشغال، وكل المشرفين المباشرين للسجناء، الذين ليس لديهم رتبة ضابط، والذين قد يأتون لإلقاء نظرة على المسرح. والواقع أن الزوار لم ينقطعوا عن المجيء؛ وكان عددهم يزيد أو ينقص تبعاً للأيام، ولكن في ليلة العرض الأخيرة، لم يبق مكان خالياً فوق المقاعد. في الخلف احتشد السجناء، واقفين حاسري الرأس احتراماً للزوار، مرتدين سترات أو معاطف قصيرة، رغم الحرارة الخانقة في القاعة. وكما توقَّعنا، كان المكان أضيق من أن يتسع لكل

السجناء؛ الذين تكدسوا بعضهم فوق بعض، وخاصة في الصفوف الأخيرة، وقد احتلوا حتى الأسرة والكواليس، بل هناك هواة كانوا يختفون باستمرار خلف المسرح، في الثكنة الأخرى، ليشاهدوا العرض من أقصى الكواليس. ساقونا، أنا وبيتروف، إلى الأمام قريباً جداً من المقاعد الخشبية حيث تمكن الرؤية أفضل بكثير من آخر القاعة. كنت بالنسبة إليهم حكماً جيداً، خبيراً شاهد العديد من المسارح: لاحظ السجناء أن باكلوشين تشاور معي كثيراً وأبدى الاحترام لنصائحي، فاستنتجوا أنهم يجب أن يكرموني ويخصّوني بأحد أفضل الأماكن. هؤلاء الرجال مغرورون، طائشون، ذلك هو ظاهرهم. كانوا يسخرون مني في العمل، لأنني كنت عاملاً فاشلاً. كان لدى ألمازوف الحق في احتقارنا، نحن النبلاء، وفي الزهو بمهارته في حرق الرخام؛ هذه السخرية والإهانات كان سببها أصلنا، لأننا ننتمي بحكم مولدنا إلى طبقة سادته القدماء الذين لا يمكن أن يحمل لهم ذكرى طيبة. ولكن هنا، في المسرح، هؤلاء الرجال أنفسهم خصوني بمكان، لأنهم اقتنعوا أنني أدرى منهم بهذا المجال. حتى أولئك الذين كانوا لا يحملون لي الودّ في قلوبهم كانوا يرغبون في سماع مديحي لمسرحهم فتراجعوا أمامي دون أي خنوع. أحكم الآن على الأمر تبعاً لانطباعي عنه آنذاك. فهمت أن القرار العادل ليس فيه أي تذلل منهم، بل بالعكس كان فيه الشعور بكرامتهم.

إن الصفة التي تميز شعبنا أكثر إنما هي إدراكه للعدل وظمأه إليه. ما من زهوٍ كاذب، ولا كبرياء سخيفة تجعله يسعى إلى احتلال الصف الأول دون أن يكون له حق فيه، ليس في الشعب مثل هذا العيب. أزيلوا قشرته الخشنة؛ وادرسوه دون أحكام مسبقة، بعناية

وعن قرب، سترون فيه مزايا لم تخطر لكم يوماً على بالٍ. ليس لدى حكمائنا إلا أشياء قليلة يعلمونها لشعبنا؛ بل أستطيع القول إنهم هم مَن عليهم أن يتعلموا من مدرسة الشعب.

قال لي بيتروف بسذاجة، عندما كان يرافقني إلى العرض، إنهم سيجلسونني بمكان في المقدمة لأنني سأدفع أكثر. لم يكن للأماكن سعر محدد؛ كان كل متفرج يعطي ما يريد وما يستطيع إعطاءه. وكان الكل تقريباً يضع قطعة نقدية في الطبق عند جمع التبرعات.

حتى لو أجلسوني في المقدمة على أمل أن أدفع أكثر من الآخرين، أليس في هذا إحساس عميق بالكرامة الشخصية؟

«أنت أغنى مني، اذهب إلى الصف الأمامي؛ كلنا سواسية هنا، هذا صحيح، ولكنك تدفع أكثر، ولذلك فمشاهد مثلك يسعد الممثلين؛ فلك أن تحتل المكان الأول، لأننا لسنا هنا لأجل نقودنا، ولكن يجب أن نصنف أنفسنا بأنفسنا!» ما أنبلها من كبرياء في طريقة التصرُّف هذه! لم يعد المال هو كل شيء، وإنما احترام الذات في تحليل أخير. لم نكن نهتم كثيراً بالمال. ولا أتذكر أن أحداً منا قد أذلّ نفسه يوماً للحصول عليه، حتى لو استعرضت كل السجناء. كانوا يستجدونني، ولكن من باب المكر والاحتيال، وليس من أجل الربح نفسه؛ كان ذلك سمة من سمات المزاج الجيد، والبساطة الساذجة. لا أدري إن كنت قد عبرت بوضوح عمّا أردت قوله. لقد نسيت مسرحي، سأعود إليه.

قبل رفع الستارة، كانت القاعة تشكل مشهداً غريباً مليئاً بالحركة. أولاً الحشد المتزاحم والمتدافع في كل جهة، ولكنه ينتظر بفارغ الصبر

بداية التمثيل، مبتهج الأسارير. في الصفوف الأخيرة، تجمهرت كتلة مضطربة من السجناء: جلب كثير منهم أخشاباً أسندوها إلى الحائط وتسلقوا فوقها؛ وقضوا ساعتين كاملتين في هذه الوضعية المتعبة، متكئين بكلتا يديهم على أكتاف رفاقهم، راضين كل الرضا عن أنفسهم وعن أماكنهم. وآخرون ارتكزوا على أرجلهم فوق آخر درجة من درجات المدفأة، ومكثوا طوال وقت العرض، مستندين إلى أولئك الذين كانوا أمامهم، بالداخل، قرب الجدران. وإلى الجانب، كان هناك حشد كثيف متكدس على الأسرَّة، لأنها كانت أحسن الأماكن.

وهؤلاء خمسة سجناء، وهم الأفضل حظاً، صعدوا إلى المدفأة وتمدَّدوا فوقها، ومن هناك أخذوا ينظرون إلى أسفل: هؤلاء كانوا يسبحون في السعادة البالغة. وعلى الطرف الآخر، ازدحم المتأخرون الذين لم يجدوا أماكن جيدة. كان الكل يتصرّف بأدب ودون ضجة. أراد كل واحد أن يظهر بأحسن صورة أمام السادة الذين جاءوا لزيارتنا. كان الانتظار في أبسط معانيه يرتسم على هذه الوجوه الحمراء التي تتقاطر عرقاً بفعل الحرارة الخانقة. ما أغرب انعكاس الفرح الطفولي، وبريق المتعة اللطيفة والخالصة، على هذه الوجوه المليئة بالندوب، وعلى هذه الجباه والخدود المتغضنة، المعتمة والكئيبة سابقاً، والتي كانت تلمع أحياناً بنار رهيبة! لقد كانوا جميعاً حاسري الرؤوس، ولأني كنت جالساً في الجهة اليمنى، فقد بدا لي أن رؤوسهم كانت محلوقة تماماً.

فجأة، سمعنا جلبة وأصواتاً على الخشبة . . . كانت الستارة ستُرفع. بدأت الأوركسترا تعزف. . . وهذه الأوركسترا تستحق

الإشارة إليها. كان فيها ثمانية عازفين اصطفوا بجانب الأسرة، كان هناك كمانان (أحدهما كان ملكاً لسجين، والآخر استعير من خارج القلعة: في حين كان الفنانون العازفون منا)، وثلاث آلات بالالايكا صنعها السجناء أنفسهم، وقيثارتان ودفّ حلّ محلّ الكونترباس (كمان كبير). كانت آلات الكمان لا تفعل شيئاً إلا الأنين والصرير، والقيثارتان لا قيمة لهما، أما آلات البالالايكا فقد كانت رائعة. كانت خفّة أصابع العازفين يمكن أن تشرِّف أمهر السحرة. وكانوا لا يعزفون إلا ألحاناً راقصة: وفي المقاطع الأكثر إطراباً، كانوا يضربون فجأة بأصابعهم على لويحة آلاتهم: كل شيء كان أصيلاً، شخصياً، النغم، الذوق، التنفيذ، الأداء. وكان أحد عازفي القيثارة يملك ناصية آلته. ذلك هو الشاب الذي قتل أباه، وأما ضارب الدفّ فقد كان يؤدي روائع موسيقية تماماً، كان يدير الدفّ حول أصبعه أو يجرّ إبهامه على الجلد، فنسمع عندئذٍ ضربات متكررة، واضحة، رتيبة، تتكسر فجأة ثم تتدفق في نغمات صغيرة متعددة صماء، هامسة ووثابة. وانضم أخيراً عازفاً هارمونيكاً إلى هذه الأوركسترا. في حقيقة الأمر، لم تكن لدي أية فكرة عن الفائدة التي تُجنى من هذه الآلات الشعبية، الخشنة جداً: لقد دهشت، الإيقاع، العزف، بل التعبير خاصة، وحتى تصور اللحن، كان ذلك كله يؤدّى على أكمل وجه. وأدركت حينئذٍ تمام الإدراك، ولأول مرة، أي جموح كلّي واندفاع لا محدود في ألحاننا الشعبية الراقصة وأغانينا المتداولة.

ورفعت الستارة أخيراً. وتحرك الجميع، وانتصب الذين في مؤخر القاعة على أطراف أصابع أقدامهم. وسقط أحد ما من فوق الحطبة التي كان يعتليها. وفغر الجميع أفواههم وحملقوا بأعينهم:

وساد صمت مطبق في القاعة كلها. . . وبدأ العرض التمثيلي.

كنت جالساً غير بعيد عن علْيِيّ، الذي كان موجوداً وسط جماعة من إخوانه والشراكسة الآخرين. كانوا مولعين بالمسرح، ويحضرونه كل مساء. ولاحظت أن جميع المسلمين، التتار. . . إلخ، كانوا يحبون التمثيل بكل أنواعه. وبالقرب منهم تألق إشعيا فوميتش؛ منذ ارتفاع الستارة كان كله آذاناً مصغية وعيوناً شاخصة: وكان وجهه يحمل انتظاراً نهماً لمعجزات ومتع ومسرّات. وكنت سآسف له إذا ما باء انتظاره بخيبة الأمل. وكان وجه عليّ الساحر يتوهج بفرحة طفولية، نقية، جعلتني أفرح بدوري لمجرد مشاهدتها. كنت ألتفت نحوه لرؤية وجهه لا إرادياً كلما ردّت ضحكة جماعية على عبارة مسلية، لم يكن يلاحظني فقد كان لديه شيء آخر يفعله عوض التفكير فيَّ!

وبقربي، من جهة اليسار، كان هناك سجين مسنّ، دائم العبوس والسخط والزمجرة. هو كذلك كان قد لاحظ علْيِيّ، ورأيت أكثر من مرة كيف كان يسترق إليه النظر مبتسماً نصف ابتسامة للطف الشركسي الشاب! وكان هذا السجين يدعوه دائماً «علْيِيّ سيميونيتش» ولا أعرف لماذا.

بدأ العرض بـ«فيلاتكا وميروشكا». كان فيلاتكا (باكلوشين) رائعاً جداً. وأدى دوره بإتقان تام. من الواضح أنه كان يزن كل عبارة، وكل حركة. كان يعرف كيف يعطي لأبسط كلمة، وأيسر حركة معنى يصف بدقة معالم الشخصية التي يؤديها. أضف إلى هذه الدراسة الدقيقة فرحاً حقيقياً لا يقاوم، وبساطة، وأداء عفوياً.

لو أنكم رأيتم باكلوشين، كنتم ستتفقون على أنه ممثل حقيقي، ممثل موهوب. لقد شاهدت أكثر من مرة «فيلاتكا» على مسارح

بطرسبورغ وموسكو، ولكنني أؤكد أنه لم يكن هناك فنان من فناني العاصمتين على مستوى باكلوشين في أداء هذا الدور. كانوا فلاحين من بلدان شتى، وليسوا موجيكا (فلاحين) روسيين حقيقيين؛ وكانت رغبتهم في تقديم أدوار فلاحين واضحة جداً.

وفضلاً عن ذلك كان التنافس يثير حماس باكلوشين. لأنه كان معروفاً أن السجين بوتسييْكين كان سيؤدي دور كيدريل في المسرحية الثانية؛ لم أعرف لماذا كانوا يعتقدون بأن هذا الأخير موهوب أكثر من باكلوشين، الذي كان يعاني من هذا التفضيل كالطفل. كم من مرة جاء إليّ في هذه الأيام الأخيرة، كي يبوح لي بمشاعره! وقبل العرض بساعتين، كان يرتجف من الحمى. وعندما كان الجميع ينفجرون ضاحكين ويصرخون: برافو! باكلوشين! إنك لجريء! كان وجهه يتوهّج من فرط السعادة، ويلمع إلهام حقيقي في عينيه. وكان مشهد القبلات مع ميروشكا، حيث يصيح فيه فيلاتكا مسبقاً: «امسحي فمك» ويمسح هو نفسه فمه، في قمة الفكاهة فانفجر الجميع ضاحكين. وكان أكثر ما يثير اهتمامي هم المتفرجون، الكل كان قد انتبه واستسلم لابتهاجه. كانت صرخات التشجيع تدوي مرتفعة تدريجياً. دفع سجين رفيقه بمرفقه ونقل له انطباعاته بسرعة، دون أن يبالي بمعرفة من كان إلى جانبه. وإذا بدأ مشهد مضحك جديد، يلتفت آخر وهو يلوح بذراعيه كأنما يدعو رفاقه للضحك، ثم يستدير فوراً نحو الخشبة، في حين كان السجين الثالث يصفق لسانه بسقف فمه ولا يستطيع البقاء هادئاً؛ ولمّا كان المكان ضيقاً لكي يغير من وضعيته، فقد كان يخبط الأرض بإحدى قدميه.

عند نهاية المسرحية، كان السرور الجماعي قد بلغ أوجه، ولست

أبالغ في شيء. تصوروا معي: السجن، الأغلال، الأسر، سنوات العزلة الطويلة، والأعمال الشاقة، الحياة الرتيبة التي تتساقط قطرة قطرة إنْ صحّ التعبير، أيام الخريف القاتمة: وفجأة يسمح لهؤلاء السجناء المحبوسين المكبوتين، بالمرح، بالتنفس بحرية لمدة ساعة، بنسيان كوابيسهم، بتنظيم عرض تمثيلي، وأي عرض! عرض يثير غبطة وإعجاب المدينة كلها. «أترون هؤلاء السجناء!». كان كل شيء يثير اهتمامهم، الملابس مثلاً: كان يبدو لهم شيئاً غريباً أن يروا فانكا، نيتسفيتاييف أو باكلوشين، في لباس غير الذي كانوا يرتدونه منذ سنين طويلة. «إنه سجين، سجين حقيقي ترنّ أغلاله عندما يمشي، وها هو ذا يدخل المسرح مرتدياً سترة طويلة، وقبعة مستديرة ومعطفاً كالمدني، وصنع لنفسه شعراً وشوارب مستعارة. أخرج منديلاً أحمر من جيبه ونفضه كسيد، سيد حقيقي، ممّا ألهب حماس المتفرجين».

دخل النبيل المحسن مرتدياً زياً عسكرياً، رثاً حقاً، ولكنه ذو شارات على الكتفين، ومعتمراً قبعة ذات عقدة تزيينية، فكان لذلك تأثير يفوق الوصف. كان هناك سجينان هاويين لهذه البزة الرسمية، وما لا يصدق أنهما تشاجرا كطفلين حتى كادا أن يقتتلا لمعرفة من سيمثِّل هذا الدور، ذلك أنهما معاً أرادا أن يظهرا في بذلة الضابط مع الشارات! وفرق بينهما الممثلون الآخرون: وحددت أغلبية الأصوات من سيقوم بالدور وهو نيتسفيتاييف، ليس لأنه لائق وجميل أكثر من صاحبه، ولا لأنه أشبه بالسيد النبيل، ولكن لأنه ببساطة أقنعهم جميعاً بأن لديه عصاً من خيزران سيديرها ويقرع بها الأرض كسيد حقيقي، وكأنيق من الدرجة الأولى، وذلك ما لم يكن يستطيعه فانكا الذي لا أمل فيه لأنه لم يرَ يوماً نبلاء حقيقيين. وفعلاً، ما كاد نيتسفيتاييف

يدخل إلى المسرح مع زوجته حتى أخذ يرسم دوائر منفلتة وسريعة على الأرض، بعصا الخيزران الدقيقة، التي لا أحد يدري أين عثر عليها، ولعله كان يرى في ذلك قمة النبالة الرفيعة والأناقة الراقية والمنزلة العالية.

ولا شك أنه افتتن، في طفولته، حينما كان قناً حافي القدمين، بمهارة سيد أنيق في إدارة عصاه. وقد بقي هذا الانطباع ثابتاً في ذاكرته لدرجة أنه بعد ثلاثين سنة، تذكره ليفتن به رفاقه في السجن، ويبهرهم بدوره. كان نيتسفيتاييف مستغرقاً في عمله هذا حتى أنه لم يكن يرى شيئاً ولا أحداً، بل كان يردّ دون أن يرفع عينيه، ولا يهتم إلا بطرف عصاه والدوائر التي كان يرسمها.

كانت النبيلة المحسنة لافتة للنظر أيضاً، فقد بدت على المسرح في فستان عتيق من الموسلين البالي، لا يختلف كثيراً عن الأسمال. كانت عارية العنق والذراعين، ملطخة الوجه بالأصبغة والمساحيق، وعلى رأسها قبعة صغيرة من قماش قطني مربوطة بخيوط تحت ذقنها، وفي يدها مظلة وفي اليد الأخرى مروحة ورقية ملونة ما فتئت تهزها أمام وجهها.

وقد استقبل الجمهور هذه السيدة النبيلة بضحكة مجنونة، فلم تستطع أن تتمالك نفسها وانفجرت ضاحكة أكثر من مرة، هذا الدور كان يؤديه السجين إيفانوف. أما سيروتكين، الذي كان يرتدي ثياب فتاة، فقد كان وسيماً جداً. وقد ألقيت المقاطع الشعرية بطريقة جيدة. باختصار، انتهت المسرحية وسط رضا الجميع وبدون أدنى انتقاد: كيف يمكن انتقادهم؟

عزفت الافتتاحية مرة أخرى: «سيني، مايي سيني» - غرفتي

الصغيرة يا غرفتي الصغيرة، وارتفعت الستارة من جديد. كانوا سيقدمون الآن «كيدريل الأكول». كيدريل هي دون جوان نوعاً ما؛ يمكن القيام بهذا التشبيه؛ لأن الشياطين يحملون السيد والخادم إلى الجحيم في نهاية المسرحية. عرض من المخطوطة فصل كامل، ولكن كان من الواضح أنه لم يكن إلا جزءاً من نص المسرحية الأصلي، فقد كانت بداية المسرحية ونهايتها مفقودتين لذلك لم يكن لها ذيل ولا رأس.

كانت أحداث القصة تدور في نزل، في مكان ما بروسيا. أدخل صاحب النزل سيداً يرتدي معطفاً وقبعة مستديرة ومشوهة إلى غرفة، وتبع هذا الأخير خادمه الذي كان يحمل حقيبة ودجاجة ملفوفة في ورق أزرق. كان يرتدي سترة قصيرة وقبعة خادم. هذا الخادم هو الأكول. وكان السجين بوتسيپْكين - غريم باكلوشين - هو مَن يؤدي الدور. في حين كان السجين إيفانوف يقوم بدور السيد. وهو نفسه الذي أدى دور السيدة النبيلة في المسرحية الأولى. نبَّه صاحب النزل (نيتسفيتاييف) السيد النبيل إلى أنّ هذه الغرفة مسكونة بالشياطين، وانصرف. كان السيد حزيناً ومشغول البال، غمغم بصوت مرتفع قائلاً إنه كان يعرف ذلك منذ وقت طويل وأمر كيدريل بفتح اللفائف، وتحضير العشاء. كان كيدريل أكولاً وجباناً: فعندما سمع بأمر الشياطين، شحب لونه وارتعش مثل الورقة، كان يريد الفرار، ولكنه يخشى سيده، ناهيك عن أنه جائع. إنه شهواني، وغبي ولكنه محتال على طريقته الخاصة، ورعديد. كان دائم الخداع لسيده رغم أنه كان يخشاه كالنار. كان خادماً فريداً من نوعه، يحمل السمات الأساسية لشخصية لوبوريللو، ولكن قليلة الوضوح ومبهمة.

أدى بوتسييْكين هذا الدور ببراعة حقيقية، كانت موهبته لا جدال فيها، بل تفوق في رأيي موهبة باكلوشين نفسه. عندما التقيت باكلوشين في اليوم التالي، أخفيت عنه انطباعي، لأنه كان سيؤلمه بشدة.

أما السجين الذي لعب دور السيد، فلم يكن سيئاً جداً: كل ما كان يقوله لم يكن له معنى على الإطلاق، ولا يشبه شيئاً، ولكن إلقاءه كان نقياً ودقيقاً، والحركات كانت مناسبة. عندما كان كيدريل منشغلاً بالحقيبة، كان سيده يذرع الغرفة طولاً وعرضاً، وأعلن أنه ابتداء من هذا اليوم سيوقف تجواله حول العالم. كان كيدريل ينصت، ويكشر، مسلياً المتفرجين بتعليقاته التي كان يلقيها على حدة. لم يكن يشفق على سيده بتاتاً، ولكنه سمع بالشياطين: ويريد أن يعرف كيف هم، وها هو يسأل السيد. أخبره هذا الأخير، بأنه كان قد طلب مساعدة من الجحيم عندما تعرض لخطر الموت، وقد ساعده الشياطين وأنقذوه، ولكن فترة حريته قد انقضت؛ وإذا جاء الشياطين هذا المساء، فما ذلك إلا للمطالبة بروحه كما تم الاتفاق على ذلك.

ارتجف كيدريل من الخوف في حين لم يفقد سيده شجاعته وأمره بتحضير العشاء. عندما سمع كيدريل بأمر الأكل ردّت إليه روحه، ففتح لفافة الدجاج، وأخرج قنينة خمر شرب منها أولاً فانفجر الجمهور ضاحكاً، ولكن الباب يصرّ، وترجّ الريح المصراعين، فيرتجف كيدريل وبسرعة فائقة، وبدون شعور تقريباً، يخفي في فمه قطعة كبيرة من لحم الدجاج لم يستطع ابتلاعها. ضحك الجميع من جديد.

«هل حضرت العشاء؟» صاح فيه سيده الذي كان ما زال يجول في أرجاء الغرفة جيئة وذهاباً.

- على الفور، سيدي، سوف أعدّه لك، قال كيدريل الذي جلس وأخذ يلتهم العشاء. كان من الواضح أن الجمهور قد افتتن بمكر هذا الخادم الذي استطاع أن يخدع سيداً بهذه المهارة. يجب الاعتراف بأن بوتسيبْكين كان يستحق الإعجاب. لقد نطق الكلمات بمهارة: «على الفور، سيدي، سوف أعدّه لك»، جلس إلى المائدة، وأخذ يزدرد الطعام بشراهة، ومع كل لقمة كان يرتجف خوفاً من أن يكتشف سيده أمره؛ وفي كل مرة كان يلتفت هذا الأخير، كان كيدريل يختبئ تحت المائدة ممسكاً بالدجاجة في يده. وبعد أن أشبع جوعه، كان عليه أن يفكر في سيده.

- «كيدريل، ألم تنته بعد؟» صاح هذا الأخير.

- «العشاء حاضر!» أجاب كيدريل بشجاعة، ولكنه ما لبث أن اكتشف أنه لم يتبقَّ في الطبق من الدجاجة سوى فخذ واحدة. لم يلاحظ السيد، الذي ما زال مكتئباً ومشغول البال، شيئاً وجلس، بينما وقف كيدريل خلفه وعلى ذراعه منشفة.

كل كلمة، كل حركة، كل تكشيرة من الخادم الذي كان يلتفت جهة الجمهور للسخرية من سيده، كانت تثير ضحكة جماعية من جمهور المساجين. وما إن بدأ السيد الشاب الأكل حتى دخل الشياطين: هنا لم نعد نفهم شيئاً، لأن هؤلاء الشياطين لم يكونوا يشبهون شيئاً إنسانياً أو أرضياً؛ انفتح الباب الجانبي، وظهر شبح يرتدي لباساً أبيض؛ ومكان رأسه كان يحمل فانوساً به شمعة، تبعه شبح آخر، حاملاً فانوساً مكان رأسه ومنجلاً في يده. لماذا كان الشبحان يرتديان ثياباً بيضاء، ويحملان منجلاً وفوانيس؟ ذلك ما لم يستطع أن يشرحه لي أحد؛ والواقع أنّ لا أحد كان يهتم بذلك. من

المؤكَّد أن ذلك ما كان يجب أن يحصل. واجه السيد الأشباح بشجاعة وصاح بهم أنه مستعد فليأخذوه، ولكن كيدريل، جبان كالأرنب، اختبأ تحت المائدة، ورغم خوفه لم ينسَ أن يأخذ معه القنينة.

اختفى الشياطين، فخرج كيدريل من مخبئه، وبدأ السيد في تناول دجاجته؛ فدخل ثلاثة شياطين إلى الغرفة وأمسكوا بتلابيبه ليقودوه إلى الجحيم. «كيدريل، أنقذني!» صاح بخادمه، ولكن كيدريل كانت لديه مشاغل أخرى، أخذ هذه المرة القنينة والصحن وحتى الخبز وهو يدخل إلى مخبئه. وها هو ذا وحده، كان الشياطين قد ابتعدوا وكذلك سيده. خرج من تحت المائدة، ونظر إلى كل الاتجاهات، و. . . أضاءت وجهه ابتسامة. ثم غمز بعينه كمحتال حقيقي، وجلس مكان سيده، وهمس بنصف صوت للجمهور:

- حسناً، أنا الآن سيدي. . . بدون سيد. . .

ضحك الجميع لرؤيته بدون سيد؛ وأضاف، دائماً بنصف صوت، معترفاً، ولكن وهو يغمز بعينه مرحاً:

- لقد أخذه الشياطين! . . .

تجاوز حماس المشاهدين الحدود! فقد كانت هذه العبارة تحمل من المكر والسخرية ومعاني الظفر ما يستحيل معه على المرء أن لا يصفق. ولكن سعادة كيدريل لم تدُم طويلاً، فما إن تناول قنينة الخمر وسكب جرعة كبيرة في كأس حملها إلى شفتيه، حتى عاد الشياطين وتسللوا خلفه ثم قبضوا عليه، فصرخ كيدريل كمن به مسّ، ولكنه لم يجرؤ على الالتفات. أراد الدفاع عن نفسه، ولكنه لم يستطع: كانت يداه مشغولتين بالقنينة والكأس التي لم يكن يريد أن يفارقها؛ جاحظ العينين، فاغر الفم من الرعب، مكث ينظر إلى الجمهور دقيقة وعلى

وجهه تعبير جبان ومضحك يستحق أن يخلد في لوحة. وأخيراً، تمَّ حمله، كان يحرك ذراعيه وساقيه وهو ممسك بالقنينة، ويصرخ، يصرخ. كانت الصرخات ما زالت تسمع من خلف الكواليس حين نزلت الستارة. ضحك الجميع مسحورين.

عزفت الأوركسترا موسيقى رقصة الكامارينسكايا الشهيرة، بدأ العزف هادئاً ورقيقاً جداً، ولكن شيئاً فشيئاً نما اللحن واشتدّ، وتسارع الإيقاع، ورنت ضربات قوية على لوح البالالايكا. إنها الكامارينسكايا بكل عنفوانها! كان يجب أن يسمع غلينكا عزفها بسجننا. بدأ العرض الإيمائي مع الموسيقى، وكانت الكامارينسكايا تعزف أثناء العرض. كانت الأحداث تدور داخل كوخ؛ كان الطحان جالساً وزوجته، كان هو يخيط وهي تغزل الكتان. وكان سيروتكين يقوم بدور المرأة ، ونيتسفيتاييف بدور الطحان.

كان يجب أن يتولى الخيال مهمة إكمال ما ينقص الواقع، ففي خلفية المسرح وعوض جدار كنا نرى بساطاً أو غطاء؛ وفي الجانب الأيمن، كانت هناك حواجز، في حين كانت أسرة السجن تبدو من الجانب الأيسر، لأن الخشبة لم تكن مغلقة من هناك. ولكن المتفرجين لم يكونوا شديدي التطلب وكانوا يكملون ما نقص اعتماداً على مخيلتهم؛ كان ذلك سهلاً بالنسبة إليهم فكلهم كانوا من كبار الحالمين. فما إن تقول لهم: هذه حديقة، حسناً، إنها حديقة! غرفة، كوخ، هذا جيد، فلا حاجة للكثير من المظاهر.

كان سيروتكين ساحراً في الملابس النسائية. أنهى الطحان عمله، أخذ قبعته وسوطه ثم اقترب من زوجته وأفهمها بالإشارات وهو يلوح بسوطه، أنها إذا استقبلت شخصاً ما أثناء غيابه، فسيكون

له شأن معها، أنصتت المرأة لكلامه وحركت رأسها إيجاباً. كانت بالتأكيد قد عرفت السوط من قبل، فذلك ما يبدو على هذه الوقحة!

خرج الزوج. وما إن دار على عقبيه حتى مدَّت زوجته قبضتها مهددة. طرق الباب ففتحته، ودخل الجار، إنه أيضاً طحان، كان فلاحاً ملتحياً يرتدي قفطاناً. وكان يحمل هدية، منديلاً أحمر. ضحكت المرأة الشابة، ولكن ما إن همَّ بتقبيلها حتى سُمِعَ قرع آخر على الباب. أين الاختباء؟ أخفته تحت المائدة، وتناولت مغزلها من جديد. حضر معجب آخر، إنه سكرتير، كان يرتدي بذلة ضابط صف.

حتى الآن، كان العرض الإيمائي يسير بشكل جيد، كانت الحركات دقيقة لا مأخذ عليها، مما قد يفاجئ المشاهد عند رؤية هؤلاء الممثلين المرتجلين وهم يؤدون أدوارهم بطريقة صحيحة، ويجعله لا إرادياً يفكر:

كم من مواهب تضيع في سجون روسيا ومنافيها دون أن يُستفاد منها!

من المؤكد أن السجين الذي أدى دور السكرتير كان قد حضر عرضاً مسرحياً في قرية ما أو عرض هواة، كان يعتبر أن كل ممثلينا، بدون استثناء، لا يفقهون شيئاً عن التمثيل، ولا يمشون كما يتوجب عليهم. دخل إلى المسرح كالأبطال القدماء الكلاسيكيين من المسرح القديم، وها هو يخطو خطوة كبيرة؛ حتى قبل أن يرفع الرجل الأخرى، أرجع رأسه وجسده إلى الخلف، وأجال بصره في نظرة مختالة، ثم تقدم بأبهة في خطوة أخرى. إذا كانت مشية مثل هذه مضحكة عند الأبطال الكلاسيكيين، فقد كانت مضحكة أكثر في مسرحية كوميدية يؤديها سكرتير، ولكن الجمهور وجدها طبيعية وقبل

هذه المشية المختالة المظفرة للشخصية كعمل ضروري، دون انتقادها.

وبعد دخول السكرتير بلحظة، قرع الباب مرة أخرى: ففقدت ربة البيت صوابها، أين تخبِّئ المعجب الثاني؟ في الصندوق الذي كان مفتوحاً لحسن الحظ، فاختفى فيه السكرتير. وأعادت المرأة إنزال الغطاء. القادم الجديد كان عاشقاً كالآخرين، ولكنه عاشق فريد من نوعه. كان برهمياً في مسوحه، استقبله الجمهور بضحكة صاخبة.

لم يكن هذا البرهمي إلا السجين كوشكين الذي أدى هذا الدور ببراعة، فقد كانت فيه كل مواصفات هذه الشخصية: عبَّر عن حبه لزوجة الطحان بالإشارات، رفع ذراعيه إلى السماء ثم أعادهما إلى صدره...

قرع الباب من جديد، كان قرعاً عنيفاً هذه المرة؛ ليس هناك من شكّ، إنه سيد المنزل.

فقدت زوجة الطحان صوابها من شدة خوفها، في حين كان البرهمي يجري في كل الاتجاهات مرتاعاً، متوسلاً كي يتمّ إخفاؤه، ساعدته المرأة كي يتسلل خلف الخزانة.

طفقت تغزل وتغزل ناسية فتح الباب؛ واصلت الغزل متجاهلة طرقات زوجها المتزايدة. لوت الخيط الوهمي الذي لم يكن في يدها، وقامت بإشارة لف المغزل، الذي كان قد سقط أرضاً. لقد برع سيروتكين في تمثيل هذا الرعب. حطَّم الطحان الباب بركلة واقترب من زوجته، وفي يده سوطه. لقد لاحظ كل شيء، لأنه كان يتجسَّس على زوارها؛ أشار لزوجته أن لديها ثلاثة معجبين مختبئين بالمنزل. ثم طفق يبحث عنهم. وجد أولاً الجار، الذي قام بطرده من الغرفة

وهو يكيل له الضربات من قبضتيه. أراد السكرتير المرتعب الفرار، فرفع غطاء الصندوق برأسه، وهكذا فضح نفسه، فأخذ الطحان يجلده بسوطه مما جعل السكرتير ينسى مشيته الكلاسيكية. بقي البرهمي الذي بحث عنه الزوج طويلاً؛ وجده في ركنه خلف الخزانة، فحياه بأدب ثم جرّه من لحيته حتى منتصف الخشبة، أراد البرهمي الدفاع عن نفسه فصرخ: «تباً لك! أيها اللعين!» (وهي الكلمات الوحيدة التي قيلت طوال العرض الإيمائي)، ولكن الزوج لم يستمع إليه، وأخذ منه حقه. في حين أدركت الزوجة أن دورها قد حان، فرمَت المغزل ودولاب الغزل وهربت من الغرفة، وقلبت كل ما في طريقها رأساً على عقب فانفجر السجناء ضاحكين. أمسك علْيِيّ بيدي دون أن ينظر إليّ، وصاح: «انظر! انظر! البرهمي!»، لم يستطع أن يقف من فرط الضحك.

نزلت الستارة، وبدأ مشهد آخر.

ولكنني لا أستطيع أن أصف المشاهد كلها. فقد قدم أيضاً مشهدان أو ثلاثة مشاهد أخرى. كانت كلها مشاهد مضحكة جداً. لم يؤلفها السجناء وإنما أدخلوا عليها بعض التعديلات. كان كل ممثل يرتجل ويشحن دوره بالجديد ويؤديه كل ليلة بطريقة مختلفة. وكان العرض الإيمائي الأخير خيالياً، وانتهى برقصة باليه يدفن ميت خلالها. قام البرهمي بتلاوة عدة صلوات لم تؤثر البتة في جثمان الميت. وأخيراً سمع لحن «الشمس الغاربة...»، فبعث الميت، ورقص الجميع من فرحتهم. في حين رقص البرهمي مع الميت وعلى طريقته كبرهمي. وانتهى العرض بهذا المشهد. تفرق السجناء مرحين، مسرورين، وهم يمتدحون الممثلين، ويشكرون ضابط الصف. لم

تسمع أدنى مشاجرة، فقد كانوا جميعاً راضين، بل سعداء، وناموا نوماً هادئاً لا يمتّ بصلة إلى نومهم المعتاد. ليس هذا وليد مخيلتي، ولكنها الحقيقة، الحقيقة الخالصة. فقد سمح لهؤلاء المساكين بالعيش بضع لحظات كما يحبون، وأن يتسلوا كبشر، وأن يتحرروا لمدة ساعة من ظروفهم كسجناء، والإنسان تتغير روحه ولو خلال بضع دقائق...

اشتد الظلام. ارتعدت واستيقظت مصادفة: كان المتعبد العجوز ما زال فوق المدفأة يصلي، سوف يصلي حتى مطلع الفجر. وكان علْيِيّ ينام بقربي هادئاً. تذكرت أنه عندما نام كان ما زال يضحك ويتحدث عن المسرح مع إخوته. ولا إرادياً نظرت إلى وجهه الوديع. وشيئاً فشيئاً تذكرت كل شيء، من هذا اليوم الأخير، أعياد الميلاد، وهذا الشهر كله... رفعت رأسي مرتعباً ونظرت إلى رفاقي الذين كانوا نائمين على ضوء مرتعش لشمعة قدمتها إدارة السجن. نظرت إلى وجوههم التعيسة، وإلى سررهم البائسة، إلى هذا العري وهذه الفاقة، نظرت إليهم، كنت أريد إقناع نفسي بأن هذا ليس كابوساً، وإنما هو الواقع، نعم الواقع: سمعت أنيناً. ثنى أحدٌ ما ذراعه بثقل فسمع صوت أغلاله. في حين اضطرب آخر في حلمه وأخذ يتكلم، وكان الجدّ العجوز أثناء ذلك يصلي من أجل «المسيحيين الأرثوذوكس»: كنت أسمع صلاته المنتظمة، العذبة، البطيئة «أيها الرب يا يسوع المسيح ارحمنا!...»

- لن أعيش هنا إلى الأبد، ولكن لبضع سنين فقط! قلت هذا لنفسي وأنا أسند رأسي فوق وسادتي من جديد.

القسم الثاني

1. المستشفى

بعد أعياد الميلاد بوقت قصير، أصبتُ بمرض، فاضطُررت لزيارة المستشفى العسكري، الذي كان يقع في مكان منعزل، على مسافة نصف فرسخ تقريباً من قلعتنا. كان عبارة عن مبنى من طابق واحد، طويل جداً، ومطليٍّ باللون الأصفر. كل صيف، كان ينفق مقداراً كبيراً من المغرة لإعادة طلائه. وفي فنائه الواسع كانت توجد عدة ملحقات، مثل مساكن الأطباء ومبانٍ أخرى ضرورية، بينما لا تحتوي البناية الرئيسة إلا على القاعات المخصَّصة للمرضى. كان عددها وفيراً، ولكن بما أنه لم يكن هناك سوى اثنتين مخصّصتين للسجناء، فإنهما كانتا دائماً شبه مكتظتين، ولا سيما في الصيف، بحيث لم يكن نادراً أن نضطرّ إلى مزاحمة الأسرة بعضها ببعض. كانت هاتان القاعتان غاصتين «بالأشقياء» من كلِّ نوع، أولهم سجناء قلعتنا، ثم هناك موقوفون عسكريون، محبوسون في مراكز الحراسة، كان قد حُكم عليهم، وآخرون كانت تجري محاكمتهم، أو معتقلون عابرون. وإليهما يرسل أيضاً مرضى من المُحالين إلى الفرقة التأديبية، وهي منشأة كئيبة تضم جنوداً ساء سلوكهم فجيء بهم إليها لإصلاحهم

فيها، ولكنهم يخرجون منها، بعد عام أو عامين، وقد تحولوا إلى أبشع أنواع الأوغاد على وجه البسيطة.

كان السجناء الذين يشعرون بمرض يخبرون منذ الصباح ضابط الصف، الذي يسجِّلهم في دفتر يسلِّمه لهم، ثم يرسلون إلى المستشفى، تحت حراسة جندي: وعند وصولهم، يقوم طبيب بفحصهم ليرخِّص لهم بالبقاء في المستشفى إن كانوا فعلاً مرضى. هكذا إذن تمّ تسجيلي في الدفتر، وحوالي الساعة الواحدة، حينما ذهب رفاقي إلى أشغال ما بعد الظهيرة، توجَّهت أنا إلى المستشفى. كان كل سجين يأخذ معه ما وسعه من مال وخبز (لأنه لا يتوقع الحصول على طعام المستشفى خلال ذلك اليوم) ويحمل معه أيضاً غليوناً صغيراً وكيساً فيه تبغ وقدّاحة وصوانة. وكل هذه الأشياء كانت تُخفى في الجزمة. حين اجتزتُ سياج المستشفى شعرت بغير قليل من الفضول إزاء هذا الوجه الجديد المجهول من حياة السجن.

كان نهاراً قائظاً غائماً وحزيناً. وهو يوم من تلك الأيام التي تكتسي فيها منازل كالمستشفى بمظهر خاص مبتذل مقرف وكريه. دخلت أنا والحارس إلى قاعة الانتظار، حيث يوجد مغطسان نحاسيان. هناك وجدنا سجينين ينتظران معاينة الطبيب ومعهما الحارسان. ظهر ممرض وألقى علينا نظرة فاترة تحمل بعض الشفقة ثم مضى بطريقة لا تقلُّ فتوراً ليشعر طبيب الخدمة بحضورنا. بعد فترة قصيرة جاء الطبيب. فحصنا وهو يعاملنا بكثير من اللطف وسلَّمنا أوراقاً عليها أسماؤنا. كان على الطبيب المعتاد للقاعتين المخصَّصتين للسجناء أن يقوم بتشخيص أمراضنا، ويحدِّد الأدوية اللازمة، والحمية المطلوبة... إلخ. لقد سمعت من قبل، أن السجناء كانوا يمدحون

أطباءهم كثيراً. «إنهم آباء حقيقيون» هكذا قيل لي عنهم عند دخولي المستشفى.

جردونا من ملابسنا وألبسونا ثياباً أخرى. أخذوا ملابسنا الداخلية التي كنا نرتديها عند وصولنا وأعطونا أخرى خاصة بالمستشفى، وأضافوا إليها جوارب طويلة وخفين وقلنسوة مصنوعة من القطن، ومبذلاً من جوخ بنّي سميك جداً. لم يكن المبذل مبطَّناً بقماش وإنما بشيء يشبه اللصقات المستخدمة لتضميد الجراح. وكان هذا المبذل متسِّخاً بشكل فظيع، ولكني سرعان ما أدركت فائدته. ثم اقتادونا بعد ذلك نحو قاعتي السجناء، اللتين كانتا في آخر دهليز طويل، عالٍ جداً ونظيف جداً. كانت النظافة الخارجية تريح العين. فكل ما تقع عليه الأنظار هنالك كان يلمع، على الأقل هذا ما ظهر لي بعد القذارة التي تعوّدت على رؤيتها في السجن.

دخل المتّهمان إلى القاعة الواقعة على يسار الدهليز، بينما اتجهت أنا إلى القاعة الواقعة على اليمين. كان ثمة حارس يتجول أمام الباب الموصد بالمزلاج وهو يحمل بندقية فوق كتفه. وغير بعيد عنه يقف الحارس البديل. أمر العريف (وهو من حرس المستشفى)، بأن يسمحوا لي بالعبور. فوجدت نفسي بغتة وسط غرفة طويلة ضيقة. وعلى امتداد جدرانها، اصطفّت أسرَّة بلغ عددها اثنين وعشرين سريراً. بينها ثلاثة أو أربعة خالية. كانت عبارة عن أسرَّة خشبية مطلية باللون الأخضر، وكان عليها - مثل أسرة المستشفيات، المعروفة في كل أرجاء روسيا - أن تكون مسكونة بالبق. استلقيت في ركن، غير بعيد عن النوافذ.

لقد ذكرت سابقاً أن بعض سجناء قلعتنا كانوا هناك، وكان

بعضهم يعرفني، أو رآني على الأقل. ولكن المرضى الذين تجري محاكمتهم، وأولئك الذين ينتمون إلى الفرقة التأديبية كان عددهم أكبر بكثير.

لم يكن ثمة سوى عدد قليل من السجناء المصابين بأمراض خطيرة، وطرحى الفراش. كان معظمهم ناقها أو متوعكاً قليلاً. وكان رفاقي الجدد ممدَّدين فوق مضاجعهم أو يتحركون طولاً وعرضاً بين صفّي الأسرة، وكانت المسافة تسمح لهم بهذه الروحات والغدوات. كان جوّ القاعة خانقاً، مشبعاً بتلك الرائحة الخاصة بالمستشفيات: إنه جوّ ملوث بشتى الروائح المتصاعدة، وهي كلها كريهة، فضلاً عن رائحة الأدوية، رغم أنّ المدفأة مشتعلة طوال النهار تقريباً.

كان فراشي مغطى بثوب مخطَّط، رفعته، فوجدت تحته لحافاً من جوخ، مبطناً بقماش، وشراشف خشنة، هي أقرب إلى القذارة منها إلى النظافة. وإلى جانب السرير، طاولة صغيرة عليها جرة وإناء معدني، وضعت فوقه فوطة صغيرة جداً عُهد بها إليّ. وللطاولة أيضاً رفّ كان المرضى الذين يشربون الشاي يضعون عليه إبريقهم، وكوزاً خشبياً لشراب «الكفاس»... إلخ، غير أن هؤلاء الأثرياء كانوا نادرين جداً. وكانت الغلايين وأكياس التبغ - إذ كان السجناء جميعاً يدخنون حتى المسلولون - مخبأة في حشايا الأفرشة. لم يكن الأطباء والرؤساء يقومون بأي تفتيش تقريباً، وإذا فاجأ أحدهم مريضاً والغليون في فمه، كان يتظاهر بأنه لم يرَ شيئاً. وعلى كلٍّ حال كان المرضى حذرين جداً، ويدخنون دائماً تقريباً خلف المدفأة. ولم يكونوا يبيحون لأنفسهم التدخين في الفراش إلا ليلاً، إذ لا أحد كان يُجري تفتيشاً في الليل، ما عدا ضابط الحراسة أحياناً.

لم يسبق لي حتى ذلك اليوم، أن دخلت إلى أي مستشفى كمريض، لذلك بدا لي كل ما كان يحيط بي جديداً تماماً. لاحظت أن دخولي أثار فضول بعض السجناء. فقد سمعوا عني. وكانوا جميعاً ينظرون إليَّ بلا تحفظ، مع شيء من الشعور بالتفوق، كما ينظر إلى التلاميذ الجدد في المدارس، أو إلى المطالبين أمام مداخل الدوائر الحكومية. كان على يميني يتمدَّد سجين، كان من قبل سكرتيراً، وهو ابن غير شرعي لضابط متقاعد، وقد اعتُقل بتهمة تزييف النقود. ودخل المستشفى منذ حوالي سنة. لم يكن مريضاً بتاتاً، ولكنه أكَّد للأطباء أنه مصاب بانتفاخ الشرايين. وقد بلغ من إقناعه لهم أنه أعفي من الأشغال الشاقة والعقوبات البدنية التي حكم عليه بها، وسوف يرسل بعد ذلك بسنة إلى مدينة ت - ك حيث ألحق بمستشفى هناك. كان فتى قوي البنية، في الثامنة والعشرين من عمره، قصيراً وسميناً، ونصاباً موهوباً، وخبيراً تقريباً بالشؤون القانونية. وهو ذكي جداً، يتصرف بارتياح تام، غير أنه مزهوّ شديد الإعجاب بنفسه إلى درجة مرضية. كان مقتنعاً تمام الاقتناع بأنه لا يوجد في العالم رجل أشرف منه ولا أنصف منه. ولم يعترف بذنبه إطلاقاً، وقد لازمته هذه الثقة بالنفس طوال حياته. كان هذا الشخص أول من خاطبني وسألني بفضول، وأحاطني علماً بعادات المستشفى، وبطبيعة الحال، أخبرني قبل أي شيء آخر أنه ابن نقيب. كان حريصاً أشدّ الحرص على أن أعدَّه من طبقة الأشراف، أو على الأقل من «طبقة النبلاء». فترة بعد ذلك، جاءني مريض من الفرقة التأديبية، وأخذ يؤكِّد لي أنه يعرف العديد من النبلاء، من قدماء المنفيين. ولكي يقنعني بما يدَّعي، أخذ يذكرهم بأسمائهم وأسماء آبائهم وأجدادهم. كان يكفيني

النظر إلى وجه هذا الجندي الأشيب كي أدرك أنه كان يكذب عليَّ بشكل فظيع.

كان اسمه تشيكونوف، وقد كان يتملقني لأنه ظنّ أن معي مالاً، وما كاد يرى علبة الشاي والسكر حتى جاء يعرض عليَّ خدماته كي يسخِّن لي الماء ويأتيني بغلاية. كان السيد م. . .تسكي قد وعدني بإرسال غلايتي في الغد مع أحد السجناء العاملين بالمستشفى، إلا أن تشيكونوف تدبَّر الأمر كي يوفر لي كل ما كنت أحتاج إليه. فحصل على قدر معدنية وقام بغلي الماء فيها للشاي. باختصار، أظهر حماساً غير عادي سرعان ما أثار عليه بعض التهكم اللاذع من طرف أحد المرضى. كان هذا المريض مصاباً بداء السلّ، يرقد على سرير مقابل لسريري. كان اسمه أوستيانتسيف. وهو بالضبط ذلك الجندي المحكوم عليه بالجلد، ولخوفه من السياط تجرع قنينة فودكا بعد أن نقع فيها التبغ، فأصيب من ذلك بداء السل: وقد سبق لي أن تحدّثت عنه. كان إلى ذلك الحين، صامتاً، يتمدَّد على فراشه وهو يتنفس بصعوبة ويتفرس فيّ بكل عناية. وظل متابعاً بنظراته تشيكونوف الذي استفزّه بما قدَّمه لي من خدمة، وقد جعلت الرزانة المبالغ فيها غيظه أمراً مثيراً للضحك. وأخيراً لم يعد يتمالك نفسه، فقال بصوت متقطع، يخنقه الضعف، لأن الواقعة جرت قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة بوقت قصير:

- إيبه، انظروا إلى هذا القنّ الذي وجد سيده!

التفت تشيكونوف مستاء إلى أوستيانتسيف وسأله وهو ينظر إليه باحتقار:

- من هو هذا القنّ؟

فأجابه أوستيانتسيف بكل ثقة كما لو كان من حقّه أن يوبِّخ تشيكونوف وكأن ذلك فرض إجباري بالنسبة إليه:

- أنت هو القنّ!

- أنا... قنّ؟

- نعم، أنت قنّ حقيقي! اسمعوا أيها السادة الفضلاء، إنه لا يريد أن يصدقني. وها هو يستغرب!

- وأنت؟ فيمَ يعنيك هذا؟ أنت ترى جيداً أن هؤلاء القوم لا يعرفون كيف يستعملون أياديهم. إنهم غير متعوّدين على الحياة بلا خدم، فلماذا لا أخدمه؟ أيها المهرج الأشعث الفنطيسة.

- من هو الأشعث الفنطيسة؟

- أنت!

- أنا أشعث الفنطيسة؟

- نعم أنت أشعث الفنطيسة!

- وهل شكلك أجمل... أنت؟ إن كانت لي فنطيسة شعثاء، فأنت وجهك يشبه بيضة الغراب.

- فنطيسة شعثاء! قاتلك الله! يجدر بك أن تبقى منبطحاً حتى تنفق. لماذا تحشر أنفك في ما لا يعنيك؟

- لماذا؟ كلا، إنني أفضل أن أنحني احتراماً لجزمة عالية، وليس لخفٍّ من خيش. والدي لم يسجد قط لأي أحد، ولم يأمرني بالسجود لأي كان. أنا... أنا...

أراد المسلول أن يتابع كلامه، غير أنّ نوبة حادة من السعال هزته لعدة دقائق، حتى بصق الدم. كان العرق البارد يقطر من جبينه الغائر، بسبب الإنهاك الشديد. ولولا أن السعال عاقه عن الاسترسال في

الحديث لما توقف عن السبّ والقذف. بدا ذلك واضحاً من نظراته، ولكنه لعجزه عن الكلام، لم يستطع إلا أن يلوح بيده، حتى إن تشيكونوف تجاهله تماماً.

شعرت جيداً أنّ حقد هذا المسلول كان يستهدفني أنا أكثر ممّا كان موجَّهاً إلى تشيكونوف. لا أحد طاف بخلده لحظة أن يغضب من هذا الشخص أو أن يحتقره بسبب ما يقدِّمه لي من خدمات أو بسبب كوبيكات قليلة كان يحاول أن يبتزّها مني. كل مريض كان يفهم بوضوح أنه يقوم بما يفعله معي من أجل الحصول على بعض المال. إن الناس البسطاء ليسوا مصابين هنا بمثل هذه الحساسية وهم يعرفون تماماً واقع الحال.

أنا لم أعجب أوستيانتسيف، مثلما لم يرُقه الشاي الذي أمتلكه. ما يستفزّه، رغم كل شيء، هو أني سيد على الرغم من السلاسل التي تكبِّلني، وأني لا أستطيع الاستغناء عن خادم يساعدني، ومع ذلك لم أرغب ولم أبحث عمّن يخدمني. كنت أحرص في الواقع على إنجاز كل شيء بنفسي حتى لا أبدو للآخرين كرجل منعّم، ناعم اليدين، يلعب دور السيد العظيم. والحق أني وضعتُ حتى كرامتي في الميزان. وعلى كل حال - لا أفهم مطلقاً، كيف كان يحدث ذلك - كنت دوماً محاطاً بالمجاملين والمتملِّقين الذين كانوا يتعلَّقون بي من تلقاء أنفسهم لكي ينتهي الأمر بوقوعي تحت سيطرتهم التامة: فإذا هم السادة وأنا خادمهم، إلى درجة أني كرهاً أو طوعاً كنت أبدو في نظر الكلّ سيداً لا يستطيع الاستغناء عن خدمات الآخرين، وحريصاً على التظاهر بالعظمة. كان ذلك يثير حنقي، فقد كان أوستيانتسيف مسلولاً ومن ثم فهو سريع الغضب، وكل الآخرين يتجاهلونني مع مسحة من

الازدراء. كلهم كانوا مشغولين بحدث أتذكره الآن: حيث علمت وأنا أصغي لحواراتهم من حولي، أن سجيناً سيؤتى به إلى المستشفى في ذلك المساء نفسه بعد أن ينفّذ فيه حكم بالجلد. كان السجناء ينتظرون وصول هذا الشخص الجديد بكثير من الفضول. وفضلاً عن ذلك كان يُقال إن عقوبته خفيفة: لا تتجاوز خمسمائة جلدة.

نظرت حولي. كان معظم المرضى الحقيقيين - بحسب ما استطعت تبينه يومئذٍ - مصابين بداء الحفر (اسقربوط) وأمراض العيون، وهي أمراض اشتهرت بها هذه البقاع: كانوا هم أغلبية المرضى. وكان آخرون يعانون من الحمى والسل، وبعض الشكاوى الأخرى. لم يكن ثمة أي نوع من العزل بين مختلف أنواع الأمراض داخل قاعة السجناء، فقد كانت كلها مجتمعة في الغرفة نفسها. قلت «المرضى الحقيقيين» لأن بعض المحكومين بالأشغال الشاقة جاؤوا «هكذا» لكي «يرتاحوا» فقبِلهم الأطباء من باب الشفقة فحسب، ولا سيما عندما تكون ثمة أسرَّة شاغرة. إن الحياة في المعتقلات والسجون قاسية جداً مقارنة مع حياة المستشفيات، بحيث إن العديد من السجناء كانوا يفضِّلون أن يظلوا مضطجعين رغم الهواء الخانق الذي كانوا يتنفسونه، ورغم منعهم الصريح من مغادرة القاعة. حتى صار هناك هواة لهذا النوع من العيش، وهم ينتمون جميعاً تقريباً إلى الفرقة التأديبية.

بدأت أتفحص بفضول رفاقي الجدد. واحد منهم حيَّرني على وجه الخصوص. كان مسلولاً يُحتضر. كان سريره يبعد قليلاً عن سرير أوستيانتسيف. يقع تقريباً مقابل سريري. كان يُدعى ميخائيلوف، كنت رأيته قبل أسبوعين في السجن، ومنذ ذلك الحين كان مرضه

خطيراً. كان عليه أن يعالج نفسه من زمن بعيد ولكنه ظلّ يعاند مرضه بلا فائدة، فلم يلجأ إلى المستشفى إلا عند حلول أعياد الميلاد، لكي يقضي نحبه بعد ثلاثة أسابيع بسلٍّ طيار. كان يبدو كأنّ هذا الرجل قد احترق كشمعة. ما حيرني أكثر، هو وجهه الذي تغيَّر بشكل مرعب - لأنه لفت انتباهي بمجرد وصولي إلى السجن - فكاد أن يخطف بصري. وإلى جواره كان يتمدَّد جندي من الفرقة التأديبية، وهو شيخ سيئ السحنة ذو مظهر مقزز. إلا أنني لا أريد أن أعدد كل المرضى... ولم أذكر الآن هذا الشيخ إلا لأنه أثَّر فيّ، كما أنه كان أول من أطلعني دفعة واحدة على بعض خصوصيات قاعة السجناء. كان مصاباً بزكام حاد، جعله يعطس في كل لحظة وطوال الأسبوع ثم حتى أثناء نومه، خمس مرات أو ست مرات متتالية، كأنها رشقات بندقية، وهو يردد في كل مرة «يا إلهي! أي قصاص هذا!». كان جالساً على سريره، يحشو أنفه بالتبغ، الذي يسحبه من علبة ورقية، ويفعل ذلك بشراهة، من أجل أن يعطس بمزيد من القوة والانتظام. كان يعطس في منديل قطني رُسمت عليه مربعات، كان ملكاً له، وقد شحب لونه من كثرة غسله. كان أنفه الدقيق يتغضن حينئذٍ بشكل خاص وتظهر عليه أخاديد كثيرة وتجاعيد صغيرة، ويكشف عن أسنان مثلمة مسودة ونخرة وعن لثة حمراء مبللة باللعاب. وبعد أن عطس فكّ ثنية المنديل وألقى نظرة على مقدار المخاط الذي خرج من أنفه. ثم مسح المنديل فوق مبذله البني، فالتصق المخاط كله بهذا المبذل، بينما أصبح المنديل بليلاً قليلاً. كان يفعل ذلك طوال الأسبوع بكامله.

لم يكن هذا الحفظ البطيء والضنين لمنديل خاص على حساب

مبذل المستشفى، ليوقظ أي اعتراض لدى السجناء، رغم أن بعضهم قد يضطر فيما بعد إلى ارتداء المبذل نفسه. يشقّ على المرء أن يصدِّق كم العامة عندنا قليلو النفور من هذه الأمور. أزعجني هذا كثيراً، فأخذت أفحص لا إرادياً وبفضول واشمئزاز ذلك المبذل الذي كنت أرتديه قبل قليل. شعرت به يهيج حاسة الشم عندي برائحة قوية كريهة جداً: ولما أدفأته حرارة جسمي، أخذت تنتشر منه روائح الضمادات والعقاقير، كان بالوسع التكهن أنه لم يبارح قط أكتاف المرضى منذ زمن سحيق. ربما غُسلت بِطانته الداخلية يوماً، ولكنني لا أستطيع تأكيد ذلك، إذ أنه في كل الحالات، لا شكّ قد شبع عندما لبسته من سوائل لا حصر لها من الأدوية ومشتقاتها. كان السجناء المحكوم عليهم بالجلد يدخلون المستشفى بعد أن تنفذ في حقهم العقوبة، والدماء تقطر من ظهورهم، وإذ كانوا يعالجون بأدوية وسوائل فإنّ المباذل التي يرتدونها مباشرة فوق القمصان تستقبل كل تلك الإفرازات وتحتفظ بها. خلال كل الفترة التي قضيتها في الأشغال الشاقة، طوال عدة سنين، كنت ألبس المبذل بريبة ورهبة كلما تردَّدت على المستشفى (حدث هذا مراراً). وكانت هذه الريبة والرهبة ترجع أيضاً إلى القمل الذي كان يرتع في هذا المبذل حتى صار سميناً بوجه خاص... كان السجناء يسحقونه مسرورين، وعندما كانوا يفقسونه بين ظفري الإبهامين، الضخمين الأرعنين، كان الشعور بالارتياح يعلو محيّا صائد القمل. ولم يكن السجناء عندنا يحبون البق أيضاً، إذ كانوا أحياناً ينشغلون جميعاً بمطاردته وإبادته خلال ليالي الشتاء الطويلة والكئيبة. ولكن، رغم الرائحة الكريهة، كانت القاعة تبدو نظيفة كفاية، من الظاهر، على الأقل، ولا ينبغي النظر إليها عن

كثب. وكان المرضى يعدون ذلك أمراً طبيعياً لا مفر منه. ولم يكن النظام نفسه يحثّ على النظافة. ولكنني سأتكلم عن هذا فيما بعد. . .

عندما صبَّ لي تشيكونوف كأساً من الشاي (يجدر القول، بين قوسين، إن الماء المجلوب للقاعة، والمخصَّص ليوم كامل، سرعان ما كان يتلوث بفعل الهواء العفن)، انفتح الباب وأدخل منه الجندي الذي كان قد تلقى على التوّ عقوبة الجلد مصحوباً بحراسة مشدَّدة. كنت أرى لأول مرة رجلاً جُلد منذ قليل. وبعد ذلك، جيء إلينا بمجلودين آخرين، وحتى حين تكون عقوبتهم شديدة: وفي كل مرة كان هذا المنظر يسلي المرضى. كان هؤلاء التعساء يستقبلون بوقار متزايد وبكثير من التقدير. وكان هذا الاستقبال يتوقف دائماً تقريباً على خطورة الجريمة التي اقترفها المجلود، ومن ثمّ على عدد الجلدات التي تلقاها. إنّ السجناء الذين جلدوا بفظاظة واشتهروا بكونهم من عتاة المجرمين، كانوا يحظون باحترام واهتمام أكبر من ذلك الذي يحظى به جندي بسيط هارب من الجندية، أو شخص منهوك، كحال الرجل الذي جيء به قبل حين. ومع ذلك، لم يكن السجناء، في هذه الحالة أو تلك، يعبِّرون عن تعاطف خاص، ولم يتفوهوا بملاحظات مستفزة: كانوا يكتفون بمعالجة المسكين في صمت، ومساعدته على الشفاء، خاصة إذا كان عاجزاً عن معالجة نفسه بنفسه. وكان الممرضون أنفسهم، يعرفون أنهم يضعون المجلودين بين أيادٍ حاذقة مدرَّبة. كان العلاج المتَّبع عادة يقتصر في أكثر الأحيان على وضع قميص أو إزار مبلَّل بالماء البارد فوق ظهر المجلود، وكان ينبغي أيضاً أن تُستخرج من الجروح، بمهارة، شظايا العصي المتكسِّرة على ظهره. وكانت هذه العملية الأخيرة تؤلم

المصابين إيلاماً شديداً. وكم كانت تدهشني رباطة الجأش الخارقة التي كانوا يتحملون بها آلامهم. فقد رأيت كثيراً من هؤلاء المجلودين، وبينهم مَن جُلدوا بفظاظة، وأستطيع الجزم أنني لا أذكر أن أحداً منهم صدرت عنه آهة واحدة. بعد كل محنة مثل هذه، كان الوجه وحده يتغير شكله ويشحب لونه، وتلمع عيناه، وتزيغ نظرته وترتعش شفتاه، بحيث إن المصاب كان أحياناً يعضّ على شفته بقوة حتى تُدمى.

كان الجندي الذي أدخل علينا قبل قليل، فتى في الثالثة والعشرين من عمره، قوي البنية، وسيم القسمات ذا قامة فارعة وبشرة برونزية: كان نصف جسده الأعلى مكشوفاً حتى الحزام وقد أصيب بشكل بالغ. وجسمه يرتعد من الحمى تحت الإزار المبلل الذي يستر ظهره. ظلَّ طوال ساعة ونصف تقريباً يتمشى في طول القاعة وعرضها. نظرت إلى وجهه فبدا لي أنه لم يكن يفكِّر في شيء. ومن عينيه طفر انطباع غريب، متوحش ومنفلت، تكاد نظراته لا تتوقف إلا بصعوبة عند شيء محدد. خيِّل لي أنه ركزها لحظة فوق الشاي الساخن، حيث كان يصعد من الفنجان المملوء بخار. كان المسكين يرتعش وتصطك أسنانه ببعضها. عرضت عليه أن يشرب الفنجان. التفت نحوي بلا مرونة ولا جمال ودون أن ينبس ببنت شفة وتناوله كي يفرغه في جوفه دفعة واحدة وهو واقف دون أن يضع فيه أي سكر. حاول أن لا ينظر إليّ. ولمّا فرغ من احتساء الشاي ردّ الفنجان إلى مكانه صامتاً دون أن يكلِّف نفسه حتى أن يحرك لي رأسه. واستأنف تجواله في القاعة طولاً وعرضاً. كان ألمه الشديد يمنعه من التفكير في توجيه الكلام لي أو شكري. أما السجناء، فقد تعمَّدوا ألا

يثقلوا عليه بأي سؤال بعد أن وضعوا الضمادات على ظهره. تجاهلوه تماماً لأنهم يظنون أن من الأفضل تركه في حاله بدلاً من إزعاجه بأسئلتهم أو «شفقتهم» عليه. وبدا الجندي مرتاحاً بهذا القرار.

حلّ الليل خلال ذلك، فأُشعل المصباح. كان لبعض المرضى شمعدانات خاصة، لكنهم قلة. جاء الطبيب وقام بجولته المسائية، وبعد ذلك أحصى ضابط الصف المرضى وأغلق القاعة، التي نقلوا إليها قبل كل شيء دلواً لقضاء الحاجة أثناء الليل. علمت باستغراب، أنّ هذا السطل سوف يبقى داخل غرفة التمريض طوال الليل مع أن المرحاض الأصلي كان يقع على بعد خطوتين خارج الباب. ولكن كانت تلك هي العادة المتبعة. في النهار، لا يُسمح للسجناء بالخروج إلا دقيقة واحدة على أكثر تقدير ولا مجال للتفكير في مثل ذلك أثناء الليل. لم يكن المستشفى، بالنسبة إلى المحكومين بالأشغال الشاقة، يشبه مستشفى عادياً. فالمحكوم عليه رغم مرضه، مكرهٌ على تنفيذ عقوبته... ولا أدري مَن الذي سنّ عُرفاً كهذا.. ما أعرفه جيداً أن هذا الإجراء لا فائدة تُرجى منه البتة، وأنّ التمسك المتحذلق والسخيف بالشكليات لم يظهر بشكل أوضح إلا في هذه الحالة. وهذا الإجراء لم يتخذه الأطباء، لأن السجناء، وعليَّ أن أكرر هذا مراراً، لم يكونوا يملّون من امتداح أطبائهم، بل إنهم كانوا يعتبرونهم بمثابة آباء، ويكنون لهم عظيم الاحترام، وكان هؤلاء الأطباء بدورهم لا يتلفظون سوى بكلمات طيبة وبجُمل مهذّبة عند مخاطبتهم لهؤلاء المنبوذين، الذين كانوا يقدرونها تقديراً كبيراً خصوصاً وأنهم كانوا يشعرون بكل ما فيها من صدق.

نعم، كانت هذه الكلمات الطيبة صادقة حقاً. إذ لا أحد كان

يمكنه أن يؤاخذ الأطباء لو كانوا أفظاظاً غِلاظاً: فقد كانوا طيبين مع السجناء بروح إنسانية خالصة. كانوا يدركون تمام الإدراك أن المريض المحكوم عليه، يملك الحق نفسه في استنشاق هواء نقي مثل أي مريض آخر، ولو كان هذا الآخر شخصية عظيمة. كان يحقّ للمرضى الآخرين في بقية القاعات عندما يبلغون مرحلة النقاهة أن يتجولوا بكامل الحرية في الممرات، وأن يقوموا بتمارين رياضية، وأن يتنفسوا هواء أقل عفونة من هواء غرفة التمريض التي نقيم بها. فهو هواء فاسد نتيجة انغلاق القاعة المشبعة على الدوام بروائح الغازات الضارة.

لا يمكن أن يتصور المرء شيئاً أسوأ من الهواء الكريه الرائحة المنتشرة في قاعتنا، متى وضع ذلك السطل المخصص لقضاء الحاجة في الليل، وكلما تقدَّم الليل كان الهواء يصبح خانقاً، نتيجة اشتداد الحرارة، وكثرة الحاجة للتبول والتغوط لدى المصابين بأمراض معينة. ولئن قلت إن السجين يظلّ ينال عقوبته حتى أثناء مرضه، فإنني لا أعني بذلك أنّ قانوناً مثل هذا لا يَنظر إلا إلى العقوبة وحدها. سيكون ذلك افتراء مني لا أساس له من الصحة. لا ينبغي أن يعاقب مريض. وبالتالي لا بد أن نعتقد أن ثمة ضرورة صارمة تفرض على الإدارة اتخاذ إجراء شديد القسوة. ولكن ما هي هذه الضرورة؟ إن الشيء المثير في الأمر بالذات هو أن أحداً لا يستطيع أن يعلِّل هذا الإجراء، مثل كثير من الإجراءات الأخرى غير المفهومة، والعصيَّة على التعليل والإدراك أيضاً. وكيف يمكن بالفعل تفسير قسوة شديدة لا فائدة فيها؟ هل يتصوّر أن لا يتمارض السجناء إلا لتضليل الأطباء والتسلل ليلاً خارج المستشفى ومحاولة الفرار؟ هذا الافتراض لا

يصمد للاختبار. من أين يمكن للمرضى أن يهربوا وبأيّة ثياب يهربون؟ في النهار لا يسمح لهم بالخروج من القاعة إلا واحداً واحداً، وكان يمكن أن يعمل بهذا حتى في الليل. وقريباً جداً من الباب، على بعد خطوتين من المراحيض بالضبط، يقف خفير مسلح. ومن حقّ هذا الخفير أن يرافق المريض وأن لا يدَعه يغيب عن عينيه. وفي المراحيض توجد نافذة مزدوجة الإطار مزودة بقضبان حديدية. وتحت النافذة نفسها، في الفناء، وتحت نوافذ قاعة السجناء، يمشي ويجيء خفير آخر. وللفرار من النافذة لا بد من تكسير الإطار المزدوج والقضبان. ومن يستطيع ذلك؟ ولنفترض أن مريضاً قتل الخفير بلا ضجة ولا شبهة، ولنسلِّم بهذه الاستحالة، ألا يلزمه أن يحطم إطار النافذة المزدوج والقضبان؟ ولنلاحظ أنّ حراس القاعات ينامون على مقربة منها، وأن أمام قاعة السجناء الأخرى، على بعد عشر خطوات، خفيراً مسلحاً، مع بديله، ممّا يعني أن هناك كثيراً من المراقبين. وإلى أين تُراه يهرب إبان الشتاء، بجوربين وخفين، ومبذل وطاقية من قطن؟ وإذا كان خطر الفرار طفيفاً أو منعدماً بالأحرى، فلماذا إزعاج المرضى، الذين هم أحوج إلى الهواء النقي من الأصحاء؟ لماذا؟ لم أستطع أن أفهم هذا أبداً.

ولكن ما دمت أطرح هذا السؤال: «لماذا؟» فإنني لا أستطيع أن أمنع نفسي من أن أقول كلمة عن مسألة أخرى لم أعثر لها بعد على حلّ. أريد أن أتحدث عن السلاسل التي لا يستطيع سجين أن يتخلص منها مهما يكن مرضه خطيراً. فالمصابون بداء السل أنفسهم قضوا نحبهم تحت بصري وأرجلهم مثقلة بالحديد. تعوَّد الجميع على مثل هذا المشهد وتقبَّلوه كأمر طبيعي لا محيد عنه. أعتقد أنه لم

يخطر ببال أحد، بمن فيهم الأطباء، أن يطالب بضرورة نزع السلاسل عن أرجل السجناء المصابين بأمراض خطيرة، أو على الأقل بالنسبة إلى المسلولين، المشرفين على الموت. وفي الحقيقة، ليست القيود بحدِّ ذاتها ثقيلة جداً. فهي على العموم يتراوح وزنها ما بين ثمانية أرطال واثني عشر رطلاً وهو وزن محتمل بالنسبة إلى رجل سليم الجسم. ولكن بلغني أنه بعد عدد من السنين، فإن أرجل السجناء المسلسلة تجفّ وتذبل. لا أدري إن كان ذلك حقيقة، لكنني أميل لتصديقها: إنّ أي ثقل، مهما يكن خفيفاً، ولو لم يتجاوز عشرة أرطال، إذا ثبِّت في الساق بصفة دائمة، فإنه لا بد أن يزيد من ثقل العضو بشكل غير عادي، وبعد مدة من الزمن، لا بد أن يترك أثراً ضاراً على نمو هذا العضو. ولنسلِّم مع ذلك أن السلاسل ليست شيئاً مهماً بالنسبة إلى سجين يتمتع بصحة جيدة، ولكن هل سيكون الوضع كذلك بالنسبة إلى شخص مريض؟ ولنسلم أيضاً أنها لا تثقل كثيراً على مريض عادي، ولكن، أكرِّر القول، إن أقل قشة تصبح حملاً ثقيلاً على المصابين بأمراض خطيرة، والمسلولين الذين تجفّ وتذبل أيديهم وأرجلهم من تلقاء نفسها. فلو سعت الإدارة الطبية للتخفيف عن المصدورين وحدهم، لكان ذلك معروفاً ذا شأن كبير، أؤكد لكم هذا. قد يقال لي إن المحكومين بالأشغال الشاقة، هم عادة من عتاة الأشرار غير جديرين بالشفقة، ولكن هل من الضروري تشديد العقاب لمن أصابته الإرادة الإلهية بالمرض؟ لا يمكن للمرء أن يصدق أن الغاية من ذلك التشديد ليست إلا معاقبة السجين. فالمسلولون معفيّون بالمحكمة من العقوبات الجسدية. يتعلق الأمر إذن بإجراء مهم خفيّ، واحتياط صحي، ولكن ما هو؟ ذلك ما يستحيل فهمه. إننا لا نظن،

ولا يمكن أن نتصور حقاً أن المسلول قد يلجأ للفرار. أي بشري هذا الذي تخطر بباله فكرة كهذه، ولا سيما إذا كان المرض قد وصل إلى درجة خطيرة؟ من المستحيل تضليل الأطباء وتمرير شخص سليم على أنه مسلول، فهذه علة يسهل التعرف عليها من أول وهلة، وفضلاً عن ذلك - ولنقل هذا بالمناسبة - هل يمكن للسلاسل أن تمنع السجين من الفرار؟ كلا مطلقاً... فالسلاسل خزي وعار وعبء جسدي وروحي - أو هكذا تعتبر على الأقل - ولكنها لا يمكن أن تعوق أحداً عن الفرار. إن السجين الأشد غباء، والأقل ذكاء، يستطيع أن يقطعها بمنشار أو أن يكسر حلقاتها بحجر دون عناء. وهكذا تصبح السلاسل احتياطاً عديم الجدوى، وإذا كان يكبل بها السجناء عقاباً لهم على جرائمهم، ألا يجب إعفاء إنسان يُحتضر من هذا العقاب؟

وأنا أكتب هذه السطور، تحضر في ذاكرتي صورة رجل مسلول يُحتَضَر، هو نفسه ميخائيلوف هذا الذي يرقد أمام سريري تقريباً، غير بعيد عن أوستيانتسيف، والذي مات فيما أظنّ بعد وصولي إلى المستشفى بأربعة أيام. حين تكلمت عن المصدورين منذ قليل، ربما كنت دون إرادة مني أستعيد الإحساسات والأفكار التي خطرت على بالي بسبب موته. كنت لا أعرف ميخائيلوف هذا إلا قليلاً، كان لا يزال شاباً، في الخامسة والعشرين من عمره على أكثر تقدير، طويل القامة، نحيل الجسم، جميل الوجه جداً. كان ينتمي إلى «القسم الخاصّ» ويتميز بصَمْته الغريب، ولكنه وديع وحزين: كأنه «ذوى» في السجن على حدّ تعبير السجناء، الذين ترك بينهم ذكرى طيبة. أذكر أنه كانت له عينان جميلتان جداً. ولا أدري لماذا أتذكر كل هذا بوضوح. لقد لفظ أنفاسه الأخيرة في الساعة الثالثة بعد الظهر، ذات

يوم شديد الضياء والبرودة، والشمس ترسل أشعتها الساطعة والمواربة من خلال زجاج النوافذ الضارب إلى الخضرة، والمتجلد من قاعتنا: كان سيل من الضياء يغمر هذا البائس، الذي فقد وعيه وظلّ يُحتضر عدة ساعات. منذ الصباح أصبحت عيناه كابيتين ولم يعُد يتعرّف على الذين يقتربون منه. كان السجناء يودّون أن يخفِّفوا عنه لأنهم كانوا يرون أنه كان يتألم كثيراً، كان تنفسه شاقاً، لاهثاً، ومبحوحاً، وصدره يعلو بشدة، كأنه ينقصه الهواء. طرح عنه أولاً غطاءه ثم ثيابه ورماها بعيداً، وأخذ يمزِّق قميصه، كأنه حملٌ ثقيل لا يُطاق. نزعوا عنه القميص. ما أشدّ الرعب الذي يشعر به المرء حين يرى هذا الجسم مفرط الطول، وتلك اليدين والساقين عظماً بلا لحم، والبطن ضامراً، والصدر منتفخاً، بارزة أضلاعه كهيكل عظمي. ولم يبقَ على هذا الهيكل العظمي غير صليب خشبي مع تميمة، وسلاسل كان من الممكن أن تنسلّ منها ساقاه النحيلتان بسهولة. قبل وفاته بربع ساعة، ران السكون على قاعتنا، أصبح السجناء يتكلمون همساً، ويمشون بخطى صامتة. ومن حين إلى آخر كانوا يتبادلون كلمات نادرة حول مواضيع أخرى، ويختلسون النظر إلى المحتضَر. كان هذا الأخير لا يزال يحشرج بمشقّة أكثر فأكثر. وأخيراً، تلمَّس بيده المرتعشة، غير الواثقة، صليبه على صدره، وحاول انتزاعه هو أيضاً يثقله، ويخنقه. ونزعوا عن صدره الصليب. وقضى نحبه بعد ذلك بعشر دقائق. وعندئذٍ قرع أحد السجناء الباب من أجل إبلاغ الحرس بوفاته. فدخل حارس وألقى على المتوفى نظرة بلهاء، وخرج لاستدعاء الممرّض. كان هذا الممرض شاباً طيب القلب، مهتماً بمظهره ربما أكثر قليلاً، ولطيفاً جداً مع ذلك: لم يلبث أن حضر بخطى سريعة، أحدثت ضجة

في القاعة الصامتة، واقترب من المتوفى وأخذ يجسّ نبضه، وبدا طلق المُحيا، وكأنه استعدّ لهذا سلفاً، ثم حرك يده بإشارة مبهمة وخرج. وسرعان ما أخبر مركز الحرس بوفاة السجين، لأنه مجرم مهم (كان ينتمي إلى القسم الخاص) لذلك كان تقرير الوفاة قانوناً يقتضي بعض الإجراءات. وبينما كنّا ننتظر، قال سجين بصوت خافت إنّ من المستحسن إغماض عيني الميت. وحين سمع سجين آخر هذه النصيحة، اقترب من ميخائيلوف صامتاً وأغمض له عينيه. ولما رأى على الوسادة الصليب الذي انتُزِع من عنق ميخائيلوف، تناوله، ونظر إليه، ثم أعاده إلى عنقه، ورسم له إشارة الصليب. وفي هذه الأثناء كان قد تجمّد وجه الميت، ويلمع عليه شعاع من ضياء، وينير صفين من الأسنان البيضاء والفتية، التي كانت تتلألأ بين الشفتين النحيلتين الملتصقتين باللثتين من الفم المفتوح قليلاً. وأخيراً وصل ضابط الصف المناوب، لابساً سلاحه، معتمراً خوذته، ومصطحباً جنديين. اقترب من ميخائيلوف متباطئ الخطى وهو ينظر مضطرباً بطرف عينه نحو السجناء الصامتين، الذين كانوا يتطلعون إليه بنظرات قاتمة. ولمّا صار على بُعد خطوة من الميت، وقف فجأة، كالمسمّر في مكانه، خائفاً تماماً. إنّ هذا الجسد العاري، واليابس، والمثقل بالسلاسل، قد أثّر فيه، وإذا به يحلّ زناقه وينزع خوذته (لم يكن مضطراً إلى فعل هذا قطعاً) ويرسم إشارة الصليب. كان رجلاً قاسي الوجه، أشيب الشعر، له رأس جندي خدم في الجيش كثيراً. أذكر، في هذه اللحظة بالذات، كان يقف إلى جانبه تشيكونوف، وهو أيضاً شيخ أشيب الشعر، ظلَّ ينظر طوال الوقت إلى ضابط الصف، ويتابع كل حركاته بانتباه غريب. التقت نظراتهما، فرأيت شفة تشيكونوف السفلى

ترتعش. عضّ عليها، وصرَّ بأسنانه، وقال لضابط الصف، بسرعة، وكأنما من غير قصد، وهو يومئ برأسه إلى الميت:

- هو أيضاً، كانت له أم!

وتنحى جانباً بعد ذلك.

أذكر أن هذه الكلمات نفذت إلى أعماق قلبي... لماذا قالها وكيف خطرت بباله هذه الفكرة؟ ولكن ها هو الجثمان قد رفع مع الفراش، فخشخش القش، وانجرّت السلاسل على الأرض وهي ترنّ في الصمت. فرفعت ووضعت في مكانها وأخرج جثمان ميخائيلوف من القاعة. وفجأة أخذ الجميع يتكلمون في وقت واحد، وبصوت عالٍ. ومن الممر كان يتناهى إلينا صوت ضابط الصف، الذي يصيح آمراً أحدهم بإحضار الحدّاد، كان يجب فكّ القيود عن الميت!

ولكني خرجت عن الموضوع...

2. المستشفى
(تابع)

كان الأطباء يزورون القاعات في الصباح، حوالي الساعة الحادية عشرة كانوا يظهرون جميعاً، مشكِّلين موكباً يتقدمه رئيس الأطباء: قبل وصولهم بساعة ونصف، يكون الطبيب المعتاد لقاعتنا قد قام بجولته، إنه شاب، دائم اللطف والمرح، كان جميع السجناء يحبونه كثيراً، وكان يتقن فنه، ولا يجد فيه السجناء إلا عيباً واحداً، هو أنه «مفرط اللطف». حقاً، كان قليل التواصل، حتى ليبدو خجولاً أمامنا، يحمرّ وجهه أحياناً، ويغيِّر مقدار الطعام متى طالب المرضى

بذلك، وأظنّ أنه كان يوافق على أن يصف لهم الأدوية التي يرغبون فيها: وهو إنسان ممتاز، فوق ذلك! كثير من الأطباء في روسيا يتمتعون بحب واحترام الشعب، وهم جديرون بهذا الحب وهذا الاحترام، كما أتيح لي أن ألاحظ ذلك. أنا أعرف أن كلامي سيبدو مفارقاً، خاصة إذا أخذنا فيه بعين الاعتبار الارتياب الذي يشعر به هذا الشعب نفسه من الطبيب والأدوية الأجنبية.

وهو بالفعل، يفضل، حتى وإن كان يعاني من مرض خطير، أن يتّجه، أثناء عدة سنين متتالية، إلى ساحرة، أو أن يستعمل علاجات معروفة ومتداولة (لا ينبغي الاستهانة بها، على كل حال)، على أن يستشير طبيباً أو أن يذهب إلى المستشفى. إنّ علينا، والحق يُقال، أن نعزو هذا الحكم المسبق خاصة إلى سبب عميق، لا علاقة له بالطب، وهو شكّ الشعب في كل ما يتَّصف بطابع حكومي، رسمي: ولا ينبغي أن ننسى كذلك أن الشعب يخاف ويحتاط من المستشفيات بسبب الحكايات الغريبة غالباً عن الأهوال العجيبة التي يُروى أنها تجري في المستشفيات. (ولهذه الحكايات أساس من صحة مع ذلك) غير أنّ ما ينفّره أكثر هو العادات الألمانية الشائعة في المستشفيات، وتصوّره أن أجانب يعالجونه أثناء مرضه، وصرامة الحمية، وأخيراً الحكايات التي تروى له عن القساوة المستمرة للممرضين والأطباء، وتقطيع وتشريح الجثث... إلخ. ثم إن أفراد الطبقة الدنيا من الشعب يقولون لأنفسهم إن أناساً من طبقة السادة هم الذين سيعالجونهم (لأن الأطباء بالنسبة إليهم، من طبقة السادة في نهاية المطاف). ومتى عرفوا هؤلاء الأطباء (هناك استثناءات دون شك، ولكنها نادرة) تبدّدت جميع المخاوف: يجب أن ينسب هذا النجاح إلى أطبائنا،

وإلى الشباب منهم بصفة خاصة، لأن معظمهم يعرف كيف يكسب احترام وحب الشعب. إنني أتكلم، على الأقل، عمّا رأيت وخبرت مرات عديدة، في أماكن شتى، ولا أعتقد أن الأمور تجري على نحو مختلف في أماكن أخرى.

في بعض الجهات النائية يتناول الأطباء الرشوة، يستغلون مستشفياتهم، ويهملون مرضاهم، وكثيراً ما ينسون حتى فنهم نسياناً تاماً. يحدث ذلك، لكنني أتحدث عن الأغلبية، التي تدفعها هذه الروح، وهذه الغاية الكريمة، إلى أن تحيي الآن فنّ الطب. أمّا المارقون، وذئاب الحظيرة، مهما حاولوا عبثاً أن يعتذروا ويلقوا بالذنب على «البيئة» التي تحيط بهم، وأفسدتهم، فإنهم لا يعذرون ولا يُغفر لهم ذنبهم، ولا سيما إذا فقدوا كل روح إنسانية. وهذه الروح الإنسانية بالضبط، وهذا اللطف، والعطف الأخوي على المريض، ذلك هو أنجع دواء له في بعض الأحيان. لقد آن لنا أن نكفّ عن الشكوى ببلادة من البيئة التي أفسدتنا. ولا تخلو هذه الشكوى من صدق، ولكن المحتال المكّار الذي يعرف كيف يتملص من الأمر لا يفوته أن يتهم البيئة التي يوجد فيها تسويغاً لنقائصه، ولا سيما إذا كان يجيد الكتابة أو الكلام بفصاحة وطلاقة. وها أنا ابتعدت من جديد عن موضوعي: كنت أودّ أن أقتصر على القول إن عامة الناس يحذرون وينفرون من الطب الحكومي أكثر من الأطباء أنفسهم. وعندما يرونهم في العمل، يتخلون عن كثير من آرائهم المسبقة.

إن إدارة مستشفياتنا حتى الآن لا تتوافق مع روح شعبنا في كثير من الأشياء، بل إنها حتى الآن منافية لعاداته، وليس بإمكانها أن تنال

ثقته واحترامه. ذلك ما يبدو لي على الأقل من بعض انطباعاتي الخاصة.

كان طبيبنا يقف عادة أمام سرير كل مريض، ويسأله بكثير من الجدّ والانتباه، ثم يصف له الأدوية، والحمية. وكان يلاحظ أحياناً أنّ مريضه في صحة جيدة، ولكن هذا السجين إنما جاء ليرتاح من الأشغال الشاقة، ولينام على فراش في غرفة مدفّأة، بدلاً من النوم على ألواح خشبية عارية في ثكنة رطبة، حيث تتكدّس كتلة من السجناء الشاحبين والمنهكين. (في روسيا، الأشقياء المعتقلون في الحبس الاحتياطي يكادون يكونون دائماً شاحبين ومنهكين، ممّا يدلّ على أنّ العناية المادية والمعنوية بهم تظلّ هزيلة أكثر من العناية بأولئك الذين صدرت عليهم أحكام القضاء). لذلك كان طبيبنا يسجِّل على بطاقة المتمارض أنه مصاب بـ "febris catharalis" ويسمح له أحياناً بالبقاء أسبوعاً في المستشفى. كان السجناء جميعاً يسخرون من "febris catharalis" هذه، لأنهم يعرفون حقّ المعرفة أنّ هذه الصيغة المقبولة تعني تواطؤاً ضمنياً بين الطبيب والمريض على أنه مرض كاذب، وأنه «مغصٌ طارئ» كما كان يسميه السجناء، الذين كانوا يترجمون به "febris catharalis"، بل كثيراً ما كان المتمارض يستغلّ سماحة الطبيب ليبقى في المستشفى إلى أن يُطرد منه عنوة. وفي ذلك الوقت يحتاج المرء إلى إلقاء نظرة على طبيبنا: كأنه كان وجلاً، كأنه كان يخجل أن يقول للمريض صراحة، إنه شفي وعليه أن يطلب بطاقة الخروج، رغم أنّ من حقه الكامل لا أكثر ولا أقل أن يخرجه دون كلام، ولا ملاطفة، مسجِّلاً على ورقته الكئيبة: "sanat est". في البداية كان يلمّح له، ثم كما لو كان يستعطف: «أما آن لك، كما

يُقال؟» إنك تقريباً شفيت، وفي القاعة ضيق - وهلم جراً، إلى أن يشعر المريض بوخز الضمير، فيطلب في الأخير الخروج. ولكن كبير الأطباء، رغم أنه كثير المحبة والإخلاص للناس (وكان المرضى يحبونه كثيراً أيضاً) كان صارماً وحازماً أكثر بكثير من طبيبنا المعتاد، وفي بعض الحالات، كان يُبدي صرامة قاسية، كان يحترمه عليها السجناء. كان يأتي إلى قاعتنا دائماً برفقة كلّ أطباء المستشفى، بعد أن يكون طبيبنا قد أنهى جولته، وقام بتشخيص كلّ حالة على حدة، وكان يطيل الوقوف بصفة خاصة أمام المصابين بأمراض خطيرة، ويعرف كيف يقول لهم كلمة طيبة، مشجِّعة، كثيراً ما كانت صادقة وتترك في نفوسهم دائماً أجمل الأثر. لم يكن يطرد السجناء الذين كانوا يصلون إلى المستشفى بـ«مغص طارئ»، ولكن لو أن أحدهم أصرَّ على البقاء في المستشفى، كان يسجِّل في بطاقته أنه قادر على الخروج: «ماذا إذن، أيها الأخ، لقد رقدت واسترحت بما فيه الكفاية، فانصرف الآن، حان الوقت». أما الذين كانوا يصرون على البقاء، فهم السجناء الذين أرهقتهم الأشغال الشاقة، ولا سيما في الصيف أثناء الحرّ الشديد، أو أولئك الذين ينتظرون تنفيذ الحكم عليهم بالجلد.

أذكر أن الأطباء اضطروا إلى استخدام قسوة خاصة، بل إلى استعمال حتى الفظاظة، كي يُخرجوا واحداً من هؤلاء. كان قد جاء لعلاج مرض في عينيه اللتين كانتا محمرتين احمراراً شديداً: كان يشكو من أنه يحسّ بألم يخزه في جفنيه. وقد عولج بطرق شتى، باستعمال لصقات، وعلقات، وقطرات، وحقنت عيناه بسوائل، وما إلى ذلك، ولكن الداء لم يجد معه دواء، ولم تطهر عيناه من

الاحمرار. وشيئاً فشيئاً أدرك الأطباء أن المريض تمارض: فالالتهاب لم يتفاقم ولم يتماثل للشفاء: وبالتالي فإن الحالة مشكوك فيها.

كان السجناء جميعاً يعرفون منذ مدة طويلة أنه يتظاهر بالمرض، وأنه يخادع الأطباء، رغم أنه لم يُرِد أن يعترف بذلك. كان شاباً قوي البنية، وحتى جميل المنظر، ولكنه كان يبعث في نفوسنا جميعاً شعوراً بعدم الارتياح: فهو كتوم، مرتاب، متجهم، وينظر دائماً من تحت، ولا يكلم أحداً، ويظلّ مبتعداً عنّا كأنه كان يشكّ فينا. أذكر أن كثيراً منا كانوا يخشون أن يقوم بشيء سيئ: حين كان جندياً، قام بسرقة كبيرة، فاعتُقل وحكم عليه بألف ضربة بالعصا، ثم بالنقل إلى فرقة تأديبية. ذكرت سابقاً أنّ السجناء كانوا أحياناً يقررون القيام بأعمال رهيبة، لتأجيل لحظة العقوبة، فيغمد أحدهم سكيناً في بطن رئيس أو رفيق، عشية اليوم المشؤوم، لكي تُعاد محاكمته، فيتأخر تنفيذ عقوبته شهراً أو شهرين: وتتحقق لهم الغاية المنشودة. لا يهمهم أن تزيد عقوبتهم مرتين أو ثلاثاً في نهاية هذه الشهور الثلاثة، كانت رغبتهم أن يؤجلوا مؤقتاً تلك اللحظة الرهيبة، مهما كلفهم الأمر، ما دامت الشجاعة تعوزهم لمواجهتها.

كان منّا آخرون يتهامسون فيما بينهم، لكي يحترسوا منه: فقد يقتل أحداً ذبحاً في الليل. غير أن الأمر لم يتعدَّ الكلام، لم يتخذ أحد منهم أية حيطة، حتى أولئك الذين كانوا ينامون إلى جانبه. ولكنهم لاحظوا أنه كان في الليل يحكّ عينيه بجير الجدار وبشيء آخر أيضاً، حتى تبدو عيناه أشدّ احمراراً في الصباح. وأخيراً هدَّده كبير الأطباء باستعمال طريقة الفتيلة. كان الأطباء، حين يستعصي مرض من أمراض العيون على جميع الوسائل الطبية، يلجؤون إلى وسيلة

فعالة ومؤلمة: باستعمال طريقة الفتيلة على المريض، تماماً كما تستعمل في علاج الخيل. ولكن المسكين أصرّ على أنْ لا يشفى. كان إما عنيد الطبع أو شديد الجبن، لأن طريقة الفتيلة مهما تكن مؤلمة، لا تقارن بالسياط. كان المريض يمسَك من قفاه، من جلد عنقه باليد، ويجر ما أمكن، ويحدث فيه جرح عريض وطويل، وتوضع في هذا الجرح فتيلة من قطن، عريضة، تقريباً في حجم أصبع، وبعد ذلك، في كل يوم، وفي ساعة معينة، تُجَر هذه الفتيلة في الجرح، إلى أمام وإلى وراء، كأنما ليشق الجلد من جديد، حتى يظلّ الجرح متقيحاً، ولا يلتئم. تحمَّل المسكين هذا التعذيب، الذي سبب له كثيراً من الآلام الفظيعة، خلال عدة أيام، وقرر أخيراً أن يطلب الخروج. وفي أقل من يوم شفيت عيناه شفاء تاماً، ولما التأم جرح عنقه، أرسل إلى مركز الحراسة، الذي عاد إليه مرة أخرى ليتلقى ألف ضربة بالعصا في الغداة.

كم هي شاقة طبعاً تلك اللحظة التي تسبق تنفيذ العقوبة، شاقة حتى إني ربما كنت مخطئاً حين وصفت بالجبن ذلك الخوف الذي يشعر به السجناء. لا بد أن يكون هذا الخوف رهيباً، حتى يقرّر السجناء المجازفة بزيادة العقوبة مرتين أو ثلاثاً، لا لشيء إلا ليؤجلوها. ولكنني تحدّثت عن سجناء كانوا يطلبون مغادرة المستشفى من تلقاء أنفسهم، قبل أن تلتئم جراح الضربات الأولى التي نالوها، لتلقي باقي الضربات، والتخلُّص من الحبس الاحتياطي نهائياً، لأن الحياة في مقر الحراسة لا شك كانت تبدو لهم جميعاً أسوأ بكثير من أية أشغال شاقة. ولكن، عدا اختلاف الطباع، فإن الاعتياد على الجلد والعقوبة يلعب الدور الكبير في ثبات وشجاعة بعض السجناء.

أولئك الذين جُلدوا كثيراً دبغت ظهورهم وصلبت نفوسهم، فأصبحوا ينظرون إلى العقوبة بمثابة انزعاج عابر، ولم يعودوا يخافون شيئاً. أحد سجناء القسم الخاص، كالميكي متنصر، يسمى ألكسندر أو ألكسندرا، كما كان السجناء ينادونه ضاحكين (وهو فتى غريب الأطوار، مكّار، جسور، وطيب القلب في آنٍ معاً) حكى لي كيف تحمّل أربعة آلاف جلدة. كان لا يتحدث عن هذه العقوبة إلا ضاحكاً ومازحاً، ولكنه أقسم لي جاداً كل الجدّ أنه لو لم ينشأ في قبيلته على ضربات السوط منذ نعومة أظفاره، - وكانت الندوب التي تغطي ظهره ولم تمحَ بعد شاهدة على صدق ما يقول - لما استطاع أبداً أن يتحمّل تلك الأربعة آلاف جلدة. كان يبارك هذه التربية تحت ضربات السوط. قال لي ذات مساء بينما كنا جالسين معاً على سريري أمام النار: «كنت أُضرَب لأدنى سبب، يا ألكسندر بيتروفيتش! وضربت دون أدنى سبب، خلال خمسة عشر عاماً متوالية، منذ بدأتُ أعي، عدة مرات في اليوم: كان يضربني مَن شاء، فاعتدتُ على السوط تماماً». لا أعرف، ولا أذكر الآن كيف صادف أن أصبح جندياً (في الواقع، كان يكذب ربما، لأنه كان دائم الفرار والتشرد). ولكنني أذكر القصة التي رواها لنا يوماً عن الرعب الذي انتابه حين حكم عليه بأربعة آلاف جلدة لأنه قتل رئيسه: «كنت أظن طبعاً أنني سأعاقب بقسوة، وكنت أقول لنفسي: مهما أكن متعوداً على السوط، فإنني ربما متّ تحت السياط، إنها أربعة آلاف جلدة - ليست بمزحة! ثم إن جميع رؤسائي كانوا ساخطين عليّ أيضاً! كنت أعلم، بلا شك، كنت أعلم، أنني سأدفع الثمن، بل ولن أخرج حيّاً من تحت السياط. فحاولت أولاً أن أتنصَّر، قائلاً لنفسي: ربما يغفرون لي، ولو أنّ

رفاقي نبهوني إلى أن ذلك لن يجدي شيئاً، لن يرحموني، إلا أنني كنت أقول لنفسي، مهما يكن، فلأحاول، قد يغفرون لي، من يدري؟ لا بد أن يرأفوا بمسيحي أكثر من غيره. عمّدوني إذن، وعند التعميد المقدس سموني ألكسندر، ومع ذلك، العصا بقيت هي العصا، ولم يغفروا لي ولو ضربة واحدة. حتى أني غضبت من ذلك غضبة شديدة. ثم قلت لنفسي: انتظروا إذن، سأنصب عليكم جميعاً. وهل تصدق، يا ألكسندر بيتروفيتش؟ لقد خدعتهم حقاً! كنت أجيد التظاهر بالموت، لا أقصد أن أبدو ميتاً تماماً، بل بمظهر من يكاد يلفظ أنفاسه الأخيرة. قادوني، وجلدوني الألف جلدة الأولى: اكتويت، صرخت، وباشروا الألف جلدة الثانية، وإذن، قلت لنفسي، حان أجلي، أفقدوني رشدي، كانت ساقاي كالمنكسرتين، طق! وسقطت على الأرض: وأصبحت عيناي كعيني ميت، وازرق وجهي، وانقطع نفسي، وطفح فمي زبداً. وحضر الطبيب، وقال إنني سأموت حالاً. وحملت إلى المستشفى، وصحوت فوراً. ثم ساقوني لأجلد بعد ذلك مرتين. كم كانوا حانقين! كم كانوا مستائين مني! ولكنني خدعتهم مع ذلك في هاتين المرتين أيضاً: ضربوني الضربات الألف الثالثة، فصعقت، ولما ضربوني الألف الأخيرة، كانت كل ضربة كخنجر يخترق القلب، كل ضربة كانت تساوي ثلاثاً، ما أكثر ما ضربوني! كم كانوا ساخطين عليّ! يا لتلك الألف جلدة الأخيرة القذرة (كأنها!) كانت تساوي الثلاثة آلاف جلدة الأولى مجتمعة، ولو لم أتظاهر بالموت، عندما لم يبقَ لي إلا مائتا ضربة، لكانوا أجهزوا عليّ نهائياً، ولكنني دافعت عن نفسي، فخدعتهم مرة أخرى، وتظاهرت بالموت: وصدقوا من جديد، أنني ألفظ أنفاسي الأخيرة، وكيف كان يمكنهم

أن لا يصدقوا ذلك؟ والطبيب نفسه ظنّ أنني هالك لا محالة، ولكن، أثناء المائتي ضربة الباقية، ولو أنهم صبّوها عليّ بكلّ ما أوتوا من قوة، كأنها ألفان، لم أعد أبالي بضرباتهم، ولم يستطيعوا القضاء عليّ، ولماذا؟ لأنني منذ صباي ترعرعت تحت السياط. لهذا السبب ما زلت حياً حتى الآن. آه! كم ضربت في حياتي!» هكذا ردَّد قائلاً ومتأملاً في نهاية قصته، كأنه كان يحاول جاهداً أن يتذكّر ويُعيد حساب الضربات التي تلقاها. وأضاف قائلاً بعد لحظة صمت: «لكن كلا، إن يعدوها، لن يحصوها، لا تكفي لحسابها أرقام». قال ذلك ونظر إليّ وانفجر ضاحكاً، ضحكة تنمّ عن طيبة قلب لا حدَّ لها حتى أني لم أملك إلا أن أجيبه عليها بابتسامة. «أتدري، يا ألكسندر بيتروفيتش، حين أحلم في الليل، فلا بد أن أحلم دائماً بأنني أضرب، ولا أحلام لي غير ذلك». كان حقاً يتكلم في نومه ليلاً، ويصيح بأعلى صوته، حتى يوقظ السجناء، الذين يهزونه قائلين له: «ما هذا الصراخ يا شيطان!» إن هذا الرجل القوي البنية، القصير القامة، الكثير الحركة، المرح الطبع، البالغ من العمر خمسة وأربعين عاماً، كان يعيش متفاهماً مع الجميع، رغم أنّ يده كانت تمتد إلى كل ما ليس له وكثيراً ما ضُرب من أجل ذلك، لكن مَن كان لا يسرق بين هؤلاء السجناء، ومن لم يضرب بسبب تلك السرقات؟

لا بد أن أضيف إلى هذه الملاحظات أنني كنت دوماً مذهولاً من طيبة القلب الخارقة وغيبة الحقد لدى هؤلاء التعساء حين كانوا يحكون عن عقوباتهم وعن الرؤساء المكلفين بتنفيذها فيهم. إن كل مَن كان يصغي إلى تلك الحكايات، التي كثيراً ما كان قلبي يخفق عند سماعها خفقاناً شديداً، لا يحسّ فيها ظلاً من كره ولا أثراً من حقد،

بل إنهم كانوا حين يحكونها يضحكون من أعماق قلوبهم كالأطفال.
ولم تكن هذه حالة م. . .تسكي، على سبيل المثال، عندما حدثني عن عقوبته، إذ تلقى، لأنه ليس من طبقة النبلاء، خمسمائة جلدة. لم يكلمني عنها يوماً، ولمّا سألته هل صحيح أنه جُلد، ردّ عليّ بالإيجاب، بكلمة واحدة، وبدا أنه يعاني من ألم نفسي، واحمر وجهه، وبعد لحظة، عندما رفع عينيه، رأيت فيهما شعلة حقد ساطعة، وكانت عيناه ترتعشان غيظاً. وأحسستُ أنه لن ينسى هذه الصفحة من ماضيه، ولن يستطيع أن ينساها أبداً. ولكن الروسيين جميعاً تقريباً (لا أضمن، أن لا يكون بينهم استثناءات) كانوا ينظرون إلى ذلك نظرة مختلفة تماماً. كنت أقول لنفسي أحياناً: من المستحيل أن يعتبروا أنفسهم آثمين وجديرين بالعقاب، ولا سيما عندما لا يكون جرمهم في حقّ رفاقهم وإنما في حقّ رؤسائهم. وكان أكثرهم لا يعترفون بأنهم أجرموا إطلاقاً. وقد ذكرت سابقاً أنني لم ألاحظ فيهم أي ندم، حتى حين كانت جريمتهم مرتكبة في حقّ أناس من طبقتهم. أمّا الجرائم التي اقترفوها في حقّ رؤسائهم، فلا أتكلم عنها. لقد بدا لي أحياناً أن لهم في هذه الحالة الأخيرة وجهة نظر، تقريباً، خاصة بهم، عملية، أو بالأحرى واقعية، إذ يعتبرونها أمراً واقعاً، قضاء وقدراً، بلا تفكير ودون شعور، ولا جناح عليهم فيها، وكأن ذلك عندهم كان نوعاً من الإيمان. إنّ السجين، مثلاً، يميل إلى الشعور بنفسه دائماً على حقّ في الجرائم التي ارتكبها ضد رؤسائه، وليست بالنسبة إليه موضع سؤال ولا مشكلة، ولكنه مع ذلك يعترف عملياً بأن رؤساءه لا يشاطرونه آراءه وأن عليه أن يتلقى عقاباً، وعندئذٍ فقط يصبح بريء الذمة.

إن الصراع بين الإدارة والسجين صراع عنيف. وممّا يسوغ جرم السجين في نظره، أنه لا يشك مطلقاً في أنّ حكم الوَسط الذي ولد وعاش فيه لا يدينه. إنه واثق من أن الطبقة الدنيا من الشعب لن تحكم عليه بالضياع النهائي، إلا إذا كان الجرم الذي اقترفه في حق أناس من هذا الوسط، من طبقته، ومن إخوته، ومن عامة الشعب. إنه مستريح الضمير، مطمئن البال، ولن يفقد ثقته بنفسه، وهذا هو الأمر الأساسي. وهو يحسّ أنه واقفٌ فوق أرض صلبة، لذلك لا يحقد على السياط التي تهوي على ظهره، وإنما يعدّها فقط أمراً لا مفرّ منه. إنه يعزي نفسه مفكراً في أنه ليس أول من نال السياط ولا آخر من يتلقاها، وأن هذا الصراع السلبي، الأصم، والعنيد، سيستمر طويلاً. هل الجندي يكره التركي الذي يحاربه؟ إطلاقاً، ومع ذلك فإن هذا التركي يقتله ضرباً بالسيف أو طعناً بالحربة أو رمياً بنار البندقية.

لا ينبغي الظنّ أن جميع تلك الحكايات كانت تُروى ببرود ودون اهتمام. فحين كان السجناء يتحدثون، مثلاً، عن الملازم جيريبياتنيكوف كانوا يتحدثون عنه دائماً بغيظ مكظوم. لقد عرفت هذا الملازم جيريبياتنيكوف، خلال رقدتي الأولى في المستشفى - من طريق حكايات السجناء، طبعاً - ورأيته بعدئذٍ مرة، بقضّه وقضيضه، حين كان يقود الحرس عندنا في السجن. كان في الثلاثين من عمره، طويل القامة، شديد البدانة، قوي البنية، بوجنتين حمراوين، متدليتين شحماً، وأسنان بيضاء، وضحكة مدوية متقطعة شبيهة بضحكة نوزدريوف (أحد أبطال «النفوس الميتة» لغوغول). إنّ من يراه يدرك أنه أقل إنسان على وجه الأرض قدرة على التفكير. كان يعشق أن يسوط، وأن يجلد، حين يكلّف بتنفيذ العقوبة. وأسارع إلى القول إن

الضباط الآخرين كانوا يعتبرون الملازم جيريبياتنيكوف وحشاً، وإن السجناء كان لهم فيه هذا الرأي نفسه. كان في زمن قديم، غير بعيد جداً، (لا تزال ذكراه حية، ولكن يصعب تصديقها) - (بيت من قصيدة «ذو العقل يشقى» للشاعر غريبوييديف) - ثمة جلادون يؤدون وظيفتهم بهمة وحماسة. ولكن معظم المنفذين لعقوبة الجلد كانوا يقومون بعملهم ببساطة، وبدون ولعٍ خاص.

ولكن هذا الملازم كان استثناء، بمثابة ذوّاقة جهبذ في تنفيذ عمله بدقة. كان مغرماً بفنه، يعشقه لذاته، ويتلذَّذ به، ومثل نبيل باهت من عهد روما الإمبراطورية، كان يستنبط مختلف الملذات البارعة، والمباهج المخالفة للطبيعة من أجل أن يدغدغ ويهز قليلاً مشاعر نفسه الغارقة في الشحم. - وها هو سجين يُقاد لتنفَّذ فيه عقوبة الجلد، وجيريبياتنيكوف هو الضابط المشرف على تنفيذ العقوبة، كان منظر الصف الطويل من الجنود المسلحين بسياط ضخمة وحده كافياً لإلهامه، وها هو ذا متهلِّل الوجه يراقب الجنود ويهيب بكل واحد منهم أن يؤدي واجبه بكل دقة، وإلا... كان الجنود يعرفون سلفاً ماذا تعني «وإلا» هذه... جيء بالسجين إلى الجلد، وإذا لم يعرف بعد جيريبياتنيكوف، وإذا لم يطَّلع بعد على السرّ، فإن الملازم دبَّر له الحيلة التالية (وما هي إلا إحدى ابتكارات جيريبياتنيكوف الحاذق في هذا النوع من البدع). كل سجين، يُعرى ظهره، ويربطه ضباط الصف بعقب البندقية، ليجعلوه يعبُر بعد ذلك «الشارع الأخضر» كله، يتوسل بصوت ضارع ودامع إلى الضابط المشرف كي يأمر بأن يجعل الضرب أقل قوة، وأن لا يضاعف العقاب بقسوة زائدة، فيصيح البائس قائلاً: «يا صاحب النبالة، ارحمني، كن أباً رؤوفاً، دعني أدعُ لك الله طوال

حياتي، لا تهلكني، أشفق عليّ. . .» ولم يكن جيريبياتنيكوف ينتظر إلا هذا، وعندئذٍ أرجأ البدء بالتنفيذ، وشرع في الحديث التالي مع السجين، بلهجة عاطفية واثقة:

قال له:

- ولكن، يا عزيزي، ماذا عليّ أن أفعل؟ لست أنا الذي أعاقبك، بل يعاقبك القانون!

- يا صاحب النبالة! تستطيع أن تفعل ما تشاء، رحماك!

- أتظنّ أنني حقاً لا أشفق عليك؟ أتعتقد أنه يلذّ لي أن أراك تُجلد؟ ولكنني إنسان مع ذلك. أنا إنسان، نعم أم لا؟

- هذا أكيد، يا صاحب النبالة! إننا نعرف جيداً أن الضباط آباؤنا، ونحن أبناؤهم. فكُن لي أباً حقيقياً!

هكذا كان يصرخ السجين، الذي استشفّ إمكانية الإفلات من العقاب، فقال له الملازم:

- انظر، يا صديقي، احكم بنفسك! إن لك دماغاً لتفكر، أعلم أنّ روح الإنسانية تحتّم عليّ أن أكون رحيماً ورؤوفاً، بك، أنت الخاطئ.

- صاحب النبالة لا يقول إلا الحقيقة.

- نعم، يجب عليّ أن أرحمك وأن أشفق عليك، مهما تكن مذنباً، ولكن لستُ أنا الذي يعاقبك، بل القانون! فكر قليلاً أنا أخدم الله والوطن، وبالتالي أرتكب إثماً عظيماً، إنْ أنا خفَّفت العقوبة التي حدّدها القانون، فكِّر في هذا إذن!

- صاحب النبالة!

- طيب، ما العمل؟ لا بأس! في هذه المرة! أعرف أنني أقترف

إثماً، ولكن ليكن ما تشاء... سوف أرأف بك، فأعاقبك عقاباً خفيفاً. ولكن، ألا أسيئ إليك حتى بهذا؟ سأشفق عليك وأخفِّف عقابك، وستظن أنني سأرأف بك في المرة القادمة أيضاً، فترتكب حماقات جديدة، هه؟ ولكن ضميري...

– يا صاحب النبالة! معاذ الله... أقسم أمام عرش رب السماء، إنني...

– طيب، طيب! وتقسم لي أن تسلك سلوكاً جيداً؟

– ليمُتني الله حالاً، وفي العالم الآخر...

– لا تحلف هكذا، ذلك إثم. سأصدِّقك إن عاهدتني...

– صاحب النبالة!

– وإذن! اسمع! سأرأف بك بسبب دموع اليتيم التي تذرفها، أنت يتيم، أليس كذلك؟

– يتيم من الأب والأم، يا صاحب النبالة! أنا وحيد في العالم...

– وإذن، بسبب دموع اليتيم التي تذرفها، أشفق عليك، ولكن، حذار، هذه آخر مرة... خذوه، هكذا أضاف الملازم قائلاً بصوت بلغ من الرقة والحنان أنّ السجين لم يعرف كيف يشكر الله على أنه أرسل له مثل هذا الضابط المهذب الطيب للغاية.

ويسير الموكب الرهيب، ويقرع الطبل، ويرفع طلائع الجنود سياطهم... ويصيح عندئذٍ جيريبياتنيكوف بملء حنجرته: «اضربوه! ألهبوه! اضربوا! اجلدوا ظهره! قشروه! اسلخوا جلده! زيدوه، زيدوه، اضربوا بمزيد من القوة هذا اليتيم، أعطوا هذا اللئيم! مزيداً من القوة، أوسعوه ضرباً، حطموه!» ويهوي الجنود بضرباتهم، بكل ما أوتوا من

قوة، واحداً بعد آخر، على ظهر هذا الشقي، الذي تقدَح عيناه شرراً، وهو يصيح، بينما جيريبياتنيكوف يجري وراءه، أمام الصف، ممسكاً بخاصرتيه من شدة الضحك، إنه يقهقه، ويبتهج إلى أبعد حدّ، ولا يستطيع أن يبقى مستقيماً، حتى ليدعو للرثاء هذا الإنسان العزيز. إنه سعيد، يجد هذا مضحكاً، ومن حين إلى آخر تسمع ضحكته الرهيبة مجلجلة ومختلّة، ويردِّد صيحته: «اضربوا! اجلدوه! قشروا لي هذا اللص قاطع الطريق! حطموا لي هذا اليتيم!...»

وكان جريبياتنيكوف قد ابتدع أنواعاً أخرى من هذا القبيل. جيء بسجين لتنفيذ العقوبة فيه، فيتوسَّل إلى الملازم أن يشفق عليه. هذه المرة، لم يتظاهر بالصلاح، وبدون تصنّع ورياء، يصارح المحكوم عليه قائلاً له:

- اسمع، يا عزيزي، سأعاقبك كما يجب، لأنك تستحق العقاب. ولكنني أستطيع أن أنعم عليك بشيء: لن أربطك بعقب البندقية. ستسير وحدك، حسب الطريقة الجديدة، ما عليك إلا أن تركض بكل ما أوتيت من قوة أمام صف الجنود! صحيح أنّ كل سوط سيضربك، ولكنك ستنتهي من العقوبة بسرعة، أليس كذلك؟ وإذن، ما رأيك؟ هل تريد أن تجرب هذه الطريقة؟

إن السجين، الذي أصغى إليه بكثير من الشكّ والحذر، يقول لنفسه: «من يدري؟ قد تكون هذه الطريقة خيراً من الأخرى، فإذا ركضت بكل ما أوتيت من قوة، سيدوم هذا مدة أقصر خمس مرات، وقد لا تصيبني كل ضربات السياط». ثم يقول السجين للملازم:

- حسناً، يا صاحب النبالة، أوافق.

- وأنا أيضاً، أوافق.

هكذا قال له الملازم ثم صاح في الجنود:

- هيا أنتم، لا تشخصوا بأبصاركم كالبلهاء.

إن الملازم يعلم سلفاً أنّ ظهر التعيس لن يفلت من سوط واحد، وكان كلّ جندي إذا لم يصب سوطه ظهر التعيس يعلم بالتجربة ما ينتظره من الملازم. ويحاول السجين أن يركض في «الشارع الأخضر» إلا أنه لا يتجاوز خمسة عشر صفاً، لأن السياط تنهمر على ظهره المسكين، غزيرة كحبات البرَد، وسريعة كالبرق، ويسقط الشقي على الأرض مطلقاً صيحة ويبقى دون حَراك، كأنه سمّر في مكانه، أو رمي برصاصة. وبعدئذٍ قال للملازم وهو ينهض بمشقة، شاحباً مذعوراً:

- لا، يا صاحب النبالة، أفضّل أن أجلد وفقاً للنظام.

أما جيريبياتنيكوف، الذي يعرف مقدماً نهاية هذا المقلب، فقد كان ممسكاً بخاصرتيه ومنفجراً ضحكاً. ولكنني لم أستطع أن أصفَ كل الملاهي التي ابتكرها هذا الملازم ولا أن أروي جميع ما كان يحكى عنه.

كان السجناء في قاعتنا يتحدثون أيضاً عن ملازم يسمى سميكالوف، شغل منصب قائد الموقع قبل وصول ماجورنا الحالي. كانوا يتحدثون عن جيريبياتنيكوف بغير اكتراث، ودون بغض، ولكن من غير أن يمجدوا أيضاً أعماله البطولية العالية، لم يمتدحوه، وبكلمة، كانوا يحتقرونه: أما سميكالوف، فقد كان السجن كله مجمِعاً على إطرائه، والتحمُّس له. لم يكن هذا الملازم هاوياً عاشقاً للسياط، ولا شيء فيه من طبع جيريبياتنيكوف، ولكنه لم يكن مع ذلك يستخفّ بالسياط، فكيف كان السجناء إذن يذكرون تنفيذ العقوبات، بارتياح عذب؟ - لأنه عرف كيف يفوز برضا السجناء. لماذا ذلك؟

كيف استطاع أن ينال مثل تلك الشعبية؟ كان رفاقنا السجناء، كسائر الشعب الروسي، مستعدين لنسيان آلامهم، إذا قيلت لهم كلمة طيبة (إنني أتحدث عن الواقعة نفسها، دون تحليلها ولا درسها) لذلك ليس من الصعب الفوز بمحبة هذا الشعب، ولا الحصول على الشعبية. لقد استطاع سميكالوف أن يحظى بشعبية «خاصة» - لذلك كان السجناء لا يأتون على ذكر تنفيذ العقوبات فيهم إلا ويشعرون نحوه بكثير من الرقة والحنان. «كان عطوفاً كأب» - هكذا كانوا يقولون عنه أحياناً، وهم يتنهّدون، حين يقارنون بين رئيسهم القديم والماجور الحالي - «يا له من قلب طيب!» كان رجلاً بسيطاً، وربما كان حتى طيباً على طريقته الخاصة. ومع ذلك، هناك رؤساء ليسوا طيبين فحسب، ولكن رحماء أيضاً، ولا أحد يحبّهم على الإطلاق، بل يسخر منهم الجميع، بينما كان سميكالوف يحسن التصرف، حتى أن كل السجناء كانوا يعدونه الرجل المناسب لهم، إنه مزية خاصة، وصفة فطرية، لا يحسّ بها أصحابها في كثير من الأحيان. شيء غريب: هناك أناس أبعد ما يكونون عن الطيبة، ويتمتعون مع ذلك بموهبة الحصول على شعبية واسعة. إنهم لا يحتقرون الشعب، الذي يترأسونه، وأظنّ أنّ هنا يكمن السبب في هذه الشعبية. لا يرى الناس فيهم سادة كباراً، وليسوا طبقة مغلقة، ولكن فيهم إذا صحّ القول رائحة الشعب، ولهم هذه الرائحة بالفطرة، ويشمّها الشعب منهم بسرعة. وكم هو مستعد لفعل كل شيء من أجل هؤلاء الناس! وعن طيب خاطر، قد يضحّي برجل في غاية اللطف والعطف ويفضل عليه الرئيس القاسي جداً إذا شمّ في هذا الأخير رائحة الشعب. أما إذا كان هذا الرجل، الذي شمّ فيه هذه الرائحة الخاصة، فوق ذلك، طيب القلب، على طريقته،

طبعاً، فإنه حينئذٍ يصبح في نظرهم إنساناً لا يقدَّر بثمن. إن الملازم سميكالوف، كما قلت، كان يعاقب أحياناً بقسوة، غير أنه كان يعاقب بطريقة تجعل السجناء لا يشعرون نحوه بأيّ حقد، بالعكس، كانوا يتذكرون «حكايات» سياطه وهم يضحكون. ومع ذلك، لم تكن هذه الحكايات كثيرة، لأنه لم يكن واسع الخيال الفني. لم يبتكر غير مزحة واحدة، ليس إلا واحدة، ظلّ يتسلى بها في سجننا قرابة عام كامل، كانت عزيزة لديه، ربما لأنها وحيدة، ولا تخلو من فكاهة. كان يحضر تنفيذ العقوبة بنفسه، فيمازح السجين ويهازله، ويسائله عن أشياء غريبة، كأن يسأله مثلاً عن شؤونه الشخصية في السجن، وكان يفعل ذلك دون نية مدبرة ولا فكرة مبطنة، وإنما لأنه ببساطة «كان يرغب في أن يكون على علم بشؤون السجين». كان يؤتى له بكرسي، وبالسياط التي ستُستخدم في معاقبة المذنب، فيجلس على الكرسي، ويشعل غليونه الطويل. كان السجين يتوسل إليه... فيقول له الملازم: «إيه! لا، يا رفيق! هيا، تمدَّد! ماذا بك؟...» فيتنهد السجين ويتمدَّد على الأرض. ثم يسأله الملازم: «طيب، يا عزيزي، هل تُحسن قراءة الصلوات؟» فيقول السجين: «كيف لا يا صاحب النبالة، أنا مسيحي، تعلمت الصلوات منذ طفولتي!» فيقول له الملازم: «هيا اقرأ إذن!» يعرف السجين سلفاً ما سيقرأ وكيف ستنتهي القراءة، لأن هذه المزحة تكرَّرت أكثر من ثلاثين مرة. سميكالوف، نفسه، يعرف أيضاً أن السجين لا تنطلي عليه الحيلة، وكذلك الجنود الذين يشرعون سياطهم فوق ظهر الضحية الشقية. ويشرع السجين في تلاوة الصلاة: ويظلّ الجنود المسلحون بالسياط ثابتين، ويكفّ سميكالوف نفسه عن التدخين ويرفع يده وينتظر الكلمة المتوقعة.

ويتلو السجين الصلاة ويصل أخيراً إلى عبارة: «ليأتِ ملكوتك». كان ذلك كل ما يحتاج إليه الملازم. «قف!» يصيح الملازم، الذي أصبح وجهه شديد الاحمرار، وفجأة، يحرك يدّه بإشارة ملهمة، ويقول للجندي المشرع سوطه: «وأنت، اذهب به إلى الملكوت!».

وها هو ذا ينفجر ضاحكاً. والجنود الواقفون حوله يبتسمون، والجالد يبتسم، والمجلود نفسه، أستغفر الله! يبتسم أيضاً، رغم أن السوط، حين صاح القائد قائلاً: «اذهب به إلى الملكوت» أخذ يئزّ في الهواء ويحزّ كموسى ظهره المذنب. إن سميكالوف سعيد جداً، لأنه هو الذي ابتدع هذه المزحة الطريفة، هو الذي وقع على هذا الطباق الموفق: «ليأت ملكوتك» و«اذهب به إلى الملكوت». وينصرف الملازم راضياً، والمجلود أيضاً، ينصرف راضياً جداً عن نفسه وعن الملازم، وبعد نصف ساعة يقصّ على رفاقه في السجن مزحة سميكالوف للمرة الإحدى والثلاثين. وأخيراً يقول: «باختصار، إنه طيب القلب حقاً! يحب المزاح كثيراً!» وما أكثر ما كان يسمع في السجن الثناء الرقيق على الملازم الطيب القلب، إلى حدّ الإحساس في هذا الإطراء حتى بنوع من «المانيلوفية» - (إشارة إلى شخصية «النفوس الميتة» لغوغول، وهو مانيلوف، المعروف بتفاؤله بماء الورد).

وحكى سجين وقد تألق وجهه بذكرى هذا الإنسان الطيب القلب فقال:

- في بعض الأحيان، أثناء الذهاب إلى العمل، كنا نراه في نافذته مرتدياً مبذله يحتسي الشاي ويدخن الغليون. رفعت قبعتي احتراماً له فسألني: إلى أين أنت ذاهب، يا أكسيونوف؟ فقلت له:

- إلى العمل، يا ميخائيل فاسيليتش، ولكن عليّ أن أذهب أولاً إلى الورشة. فكان يصغي إليّ ضاحكا بكل سعادة، ما أطيب قلبه! نعم، إنه طيب القلب حقاً.

وأضاف أحد السامعين قائلاً:

- لا يحتفظون مدة طويلة، بأمثال هؤلاء!

3. المستشفى
(تتمة)

تكلمت هنا عن العقوبات(*) وعن الذين كانوا ينفذونها لأنني أخذت فكرة أولى واضحة عن هذه الأمور أثناء إقامتي بالمستشفى. فحتى آنذاك لم أكن أعرف عنها شيئاً إلا من طريق السماع. في قاعتنا، كان يؤتى بجميع جنود الأفواج الذين حكَم عليهم بالجلد، وكذلك بكل سجناء الأقسام العسكرية المقيمة بمدينتنا وبالدائرة التابعة لها.

أثناء الأيام الأولى كنت أنظر إلى ما يجري حولي بنهم كبير، حتى أن هذه العادات الغريبة وهؤلاء السجناء المجلودين أو الذين سيُجلدون قد تركوا في نفسي شعوراً رهيباً. كنت متأثراً، مذعوراً، وكنت إذا ما سمعت الأحاديث أو الحكايات التي يتبادلها السجناء الآخرون حول هذا الموضوع، أسائل نفسي وأحاول البحث لها عن

(*) ما أذكره هنا عن العقوبات الجسدية كان موجوداً في وقتي، وقد سمعت أن كل شيء تغير الآن، أو في طريقه إلى التغير.

أجوبة. كنت قطعاً أريد أن أعرف كلّ درجات الأحكام وتطبيقاتها، وطبقاتها جميعاً، وأن أعرف رأي السجناء أنفسهم: حاولت أن أتصور الحالة النفسية للمجلودين. وقد ذكرت سابقاً أنه من النادر جداً أن نجد سجيناً رابط الجأش قبل اللحظة الحاسمة، حتى ولو كان قد جُلد عدة مرات. كان السجين يشعر بفزع فظيع، ولكنه فزع بدني محض، لا يعيه السجين ويدمّر حالته المعنوية. لقد استطعت خلال سنوات إقامتي بالسجن، أن أدرس، على مهل، سجناء كانوا يطالبون بالخروج من المستشفى حيث قضوا بعض الوقت لعلاج ظهورهم المتضررة بعد أن تلقوا نصف عقوبتهم؛ وذلك لتلقي النصف المتبقي من عقوبتهم في اليوم التالي. هذه المقاطعة للعقوبة كانت بأمر الطبيب الذي كان يحضر التنفيذ، فإذا كان عدد الضربات أكبر من أن ينزل بالسجين دفعة واحدة، قسِّم هذا العدد إلى اثنين أو ثلاثة، تبعاً لرأي الطبيب أثناء تنفيذ العقوبة نفسها؛ كان يحدِّد ما إذا كان السجين يستطيع تلقي عقوبته كاملة، أو أن حياته ستكون في خطر.

خمسمائة، ألف وحتى ألف وخمسمائة جلدة كانت تعطى مرة واحدة، أما إذا كانت ألفي جلدة أو ثلاثة آلاف جلدة فإنّ الحكم كان يقسَّم إلى مرتين أو ثلاث.

أولئك الذين كانت ظهورهم قد شفيت والذين كان يجب عليهم تلقي باقي عقوبتهم، كانوا حزينين، مكتئبين، متجهمين عشية ويوم خروجهم. كان يخيم عليهم الذهول، وشرود الذهن، وكانوا لا يبدؤون أي حديث، بل يبقون صامتين طوال الوقت تقريباً: والغريب في الأمر أن السجناء كانوا يتجنّبون توجيه الحديث للذين سوف يتلقون عقوبتهم، ولا يشيرون بتاتاً إلى هذه العقوبة. لا مواساة ولا

كلمات زائدة، بل كانوا لا يعيرونهم أي اهتمام وكان ذلك أفضل بالتأكيد بالنسبة إلى المحكوم عليه بالجلد.

ولكن كانت هناك بعض الاستثناءات، فالسجين أورلوف مثلاً، والذي ذكرته سابقاً، كان منزعجاً من أنّ ظهره لا يشفى بسرعة وذلك لأنه كان يستعجل الخروج لتلقي باقي عقوبته والالتحاق بالسجناء لكي يهرب أثناء الطريق. كان ذا طبيعة جامحة وطبعٍ حام، دائم الانشغال فقط بالوصول إلى الهدف الذي حدده لنفسه: وكان شديد المكر! وكان بادي الفرح عند وصوله، شديد الاهتياج، ورغم أنه كان يحاول إخفاء مشاعره، إلا أنه كان يخشى أن يموت تحت ضربات السياط، حتى قبل أن ينهي النصف الأول من عقوبته. كان قد سمع بالإجراءات التي اتّخذت ضده من طرف الإدارة بينما كان في المحكمة؛ ولذلك كان مستعداً للموت، ولكنه ما إن تلقى الجلدات الأولى حتى استردّ شجاعته. لم أكن قد رأيت من قبل جِراحاً مثل جراحه عند وصوله إلى المستشفى، ولكنه كان سعيداً فقد كان يأمل الآن في البقاء على قيد الحياة، كانت الإشاعات التي وصلته كاذبة ما داموا قد أجّلوا تنفيذ باقي العقوبة؛ بعد حبسه الاحتياطي الطويل، أخذ يحلم بالسفر، وهروبه المقبل، بالحرية، بالحقول وبالغابة. . . وبعد خروجه من المستشفى بيومين، عاد إليه ليموت على الفراش نفسه الذي شغله أثناء إقامته السابقة؛ لأنه لم يستطِع تحمُّل النصف الثاني من عقوبته. ولكنني تكلمت عن هذا الرجل من قبل.

كل السجناء وبدون استثناء، وحتى الأكثر جبناً بينهم، أولئك الذين كان يعذِّبهم انتظار عقوبتهم ليلاً ونهاراً، كانوا يتحمّلون ألمهم بشجاعة. وكان من النادر جداً أن أسمع أنيناً أثناء الليلة التي تلي

تنفيذ العقوبة؛ فالشعب عموماً يعرف كيف يتحمَّل الألم.

سألت رفاقي كثيراً عن هذا الألم بغية تحديده ومعرفة أي ألمٍ أستطيع أن أقارنه به. لم يكن ما يدفعني فضول تافه، أكرِّر هذا. كنت مضطرباً وخائفاً. ولكن، رغم كثرة أسئلتي، لم يستطِع أحد أن يعطيني جواباً مُرضِياً. قيل لي عموماً إنه ألم محرق كالنار، ذلك كان ردهم جميعاً. بادئ الأمر، حاولت أن أسأل م- تسكي:

- «إنه محرق كالنار، كالجحيم، كأنّ ظهرك قد وضع على فرن ساخن».

كانوا يعبِّرون بهذا الكلام عن كل شيء. وذات يوم لاحظت ملاحظة غريبة لن أستطيع ضمان صحتها، رغم أن رأي السجناء أنفسهم يؤكد صحة ملاحظتي هذه، وذلك أن الجَلد بالسوط هو أفظع أنواع العقوبات لدينا. يبدو ذلك أول الأمر سخيفاً، بل مستحيلاً، ومع ذلك فخمسمائة جلدة، أو أربعمائة جلدة كانت كافية لقتل رجل.

وإذا تجاوز العدد خمسمائة جلدة، يصبح الموت شبه محقَّق. وحتى أقوى الرجال لن يستطيع تحمل ألف جلدة بالسوط، في حين أنه يستطيع تحمل خمسمائة ضربة بالعصا دون أن تزعجه كثيراً ودون أن يجازف بحياته. وفي استطاعة رجل ذي بنية عادية أن يتحمل ألف ضربة بالعصا دون أي خطر يُذكر؛ كما أن ألفي ضربة بالعصا لن تقتل رجلاً متوسط القوة وسليم البنية. ولقد كان السجناء يؤكدون أن الجلد بالسياط أسوأ بكثير من العصي، كانوا يقولون: «السياط تحرق وتعذّب أكثر»، إنها تعذب أكثر من العصي وذلك واضح، لأنها تهيج الجهاز العصبي وتؤثر عليه كثيراً حتى درجة الإثارة.

لا أدري إن كان ما زال هناك بعض السادة، الذين كانوا يوجدون

منذ زمن ليس بالبعيد، والذين كانوا يتلذّذون بجلد ضحاياهم، ممّا يذكّرنا بالماركيز دو ساد والماركيزة دو برانفيليي. أظن أن هذه اللذة ناتجة من ضعف نفسي، وأن هؤلاء السادة كانوا يتلذذون ويتألمون في وقت واحد.

هناك أناس مثل النمور، متعطشون للدم، الذي يحبّون أن يلعقوه. أولئك الذين امتلكوا هذه السلطة اللامحدودة على لحم ودم وروح أشباههم، إخوانهم في شريعة المسيح، أولئك الذين شعروا بهذه السلطة وكانت لديهم القدرة على إهانة كائن آخر أكبر إهانة، كائن خلق على صورة الرب، هؤلاء عاجزون عن كبح أحاسيسهم الجامحة.

إنّ الاستبداد عادَةٌ، قادرة على أن تنمو وتتطور وأن تغدو مع الوقت مرضاً. وأؤكّد أن أفضل إنسان في العالم يمكن بحكم العادة أن يقسو وأن يتبلّد حتى ينحطّ إلى مستوى حيوان مفترس.

إنّ الدم والسلطة يسكران: إنهما يساعدان على نمو العنف والفجور، وإذا بالعقل والشعور يجدان في أكثر الظواهر شذوذاً ملذات عظيمة.

إن الإنسان والمواطن يموتان إلى الأبد داخل نفس المستبد، وعند ذلك تصبح العودة إلى الكرامة الإنسانية والندامة والتوبة والانبعاث الأخلاقي، شبه مستحيلة.

زِدْ على ذلك أنّ فسقاً مماثلاً يمكن أن تسري عدواه في المجتمع بأسره: ومثل هذه السلطة مغرية، والمجتمع الذي ينظر إلى هذه الأشياء بعين اللامبالاة، هو مجتمع سرت فيه هذه العدوى حتى النخاع.

قصارى القول، إنّ الحق الذي يعطى لشخص كي يعاقب جسدياً إنساناً آخر، إنما هو أحد جراح مجتمعنا، وأقوى وسيلة لقتل روح المواطنة، وهو حقّ يحمل بذرة الانحطاط الوشيك، الذي لا مفر منه.

إن المجتمع يحتقر الجلاد المحترف، وليس الجلاد - السيد. حاول البعض منذ عهد قريب أن يدَّعي عكس ذلك، لكن بطريقة مجردة، نظرية. والذين عبّروا عن هذا المفهوم لم يكن قد اتّسع لهم الوقت بعد ليخنقوا فيهم غريزة السيطرة.

إنّ كل صاحب مصنع وكل مقاول لا بد أن يشعر بنوع من الانشراح الشديد، وهو يفكِّر أنّ العامل الذي يشتغل تحت إمرته يعتمد عليه كلياً وكذلك عائلته بأجمعها. أنا على يقين من أنّ أي جيل لن يستطيع أن يستأصل ما فيه من عيوب وراثية بهذه السرعة؛ ولن يستطيع الإنسان أن يتخلص ممّا يجري في دمه، ما رضعه مع حليب أمه. هذه الثورات لا تتمّ بهذه السرعة. لا يكفي أن يعترف المرء بخطئه، بخطيئته الأولى، هذا قليل، قليل جداً، وإنما ينبغي اقتلاع الخطيئة أيضاً، واجتثاث جذورها، وهذا لا يتم بسرعة.

تكلمت عن الجلاد. إن غرائز الجلاد توجد بذرتها في كل فرد من أبناء مجتمعنا المعاصر؛ ولكن الغرائز الحيوانية للإنسان لا تنمو على نمط واحد. وإذا خنقت هذه الغرائز الحيوانية كل الملكات الأخرى يصبح الإنسان وحشاً بشعاً.

هناك نوعان من الجلادين: جلادون عن رغبة وإرادة وجلادون بحكم الواجب، وبحكم الوظيفة. والجلاد عن رغبة أسوأ بكثير ومن كل النواحي من الجلاد المأجور الذي يثير مع ذلك اشمئزاز الشعب،

وخوفاً شديداً، عفوياً، يكاد أن يكون خرافياً. من أين يأتي هذا الرعب شبه الخرافي من هذا الأخير، في حين يقابل الأوائل باللامبالاة والتسامح؟ أعرف أمثلة غريبة لأناس شرفاء، طيبين، محترمين في مجتمعهم؛ يرون أنه من الضروري أن يصرخ المحكوم عليه بعقوبة الجلد، وأن يتوسل ويطلب الرحمة. هذا أمر مقبول بالنسبة إليهم، ولا بد منه؛ وإذا رفض الضحية أن يصرخ، يعتبر منفذ العقوبة - الذي قد أراه شخصاً طيباً في ظروف أخرى - أن ذلك إهانة شخصية له. قد كان لا يريد في البدء إلا عقوبة خفيفة، ولكنه عندما لم يسمع التوسلات المعتادة: «يا صاحب النبالة! أشفِقْ عليّ وكن لي أباً! دعني أدْعُ لك الله طوال حياتي... إلخ»، استشاط غضباً وأمر بخمسين جلدة إضافية، آملاً بذلك أن يسمع الصرخات والتوسلات، وقد تحقق له ما أراد: «مستحيل بغير ذلك، إنه شديد الوقاحة!» قال لي وهو بادي الجدية.

أما الجلاد المحترف فهو سجين منفيٌّ تم تعيينه لهذه الوظيفة، يتدرب على يد جلاد سابق، وبعد أن يتقن المهنة يبقى دائماً في السجن حيث يقيم على حدة في غرفة لا يتقاسمها مع أحد، وأحياناً قد يخصَّص له مسكن خاص، ولكنه يبقى دائماً تحت الحراسة. والإنسان ليس بآلة، رغم أنه يجلد بحكم الواجب، كان أحياناً يستشيط غضباً، ويضرب بمتعة مؤكّدة، رغم أنه لا يشعر بأي كره تجاه ضحيته.

كانت الرغبة في إظهار مهارته، وإبراز درايته، بفن الجلد، أمام زملائه وجمهوره، تشحذ همته. كان يعمل من أجل الفن. إنه يعرف أنه منبوذ، وأنه يثير حوله رعباً مستطيراً، ومن المستحيل أن لا يؤثر فيه هذا ويثير نزعاته الحيوانية. إن الأطفال أنفسهم يعرفون أن هذا

الرجل ليس له أب ولا أم. والغريب في الأمر أن كل الجلادين الذين عرفتهم كانوا أناساً متحضّرين، أذكياء، ذوي كبرياء مفرطة، وهذه الكبرياء تتعاظم داخلهم إثر الاحتقار الذي يقابلون به أينما اتجهوا، ويقويها شعورهم بالخوف الذي يثيرونه لدى ضحاياهم أو بإحساسهم بسلطتهم على هؤلاء الأشقياء. ولعلّ الإخراج المسرحي الذي يظهرون به أمام الجمهور فوق منصة الإعدام يساهم في زيادة غرورهم. ولقد أتيحت لي الفرصة خلال فترة قصيرة للقاء جلاد وملاحظته من قرب، كان رجلاً معتدل القامة، أربعينيّاً، مفتول العضلات، جافاً، ذا وجه بادي اللطف والذكاء وشعر مجعّد. كانت هيأته رزينة مسالمة، وكان مظهره الخارجي لائقاً، وكان يجيب عن الأسئلة التي تطرح عليه بعقلانية وبوضوح مع شيء من التنازل. كان ضباط الحراسة يخاطبونه بشيء من الاحترام، وكان يدرك ذلك تماماً، ولذلك كان يضاعف من أدبه وخشونته ومن وقاره أمام رؤسائه، وكلما ازدادوا تودّداً، ازداد هو جفاء وتباعداً دون أن يتخلى عن أدبه المرهف، وأنا على يقين من أنه في هذه اللحظات كان يحسّ بنفسه أرقى من مخاطبه، كان ذلك يظهر جلياً على محياه. كان يرسل أحياناً، تحت الحراسة، خلال فصل الصيف عندما يشتدّ الحر، لقتل كلاب المدينة بعصا طويلة مسنونة. كانت هذه الكلاب الضالة تتكاثر بسرعة مفرطة وتصبح خطيرة أثناء موسم الحر، وكان الجلاد مكلفاً بإبادتها بأمر من السلطات. هذه المهمة الوضيعة لم تشعره قط بالمهانة، فقد كان يجول في شوارع المدينة مع جندي الحراسة المتعب والمكدود، مرعباً بنظرة واحدة كلّ مَن يصادف في الطريق من النساء والأطفال وناظراً إلى المارّة باستعلاء.

على كلّ حال، كان الجلادون يعيشون في بحبوحة: فهم يملكون المال، ويتغذون جيداً ويشربون خمراً. كما أنهم يحصلون على الرشاوى التي كان السجناء المدنيون يدسّونها في أيديهم قبل تنفيذ العقوبة. وعندما يتعلق الأمر بالسجناء الأغنياء، كان الجلادون يحدِّدون بأنفسهم مبلغ الرشوة حسب إمكانات السجين، قد يطلبون حتى الثلاثين روبلاً، وأحياناً أكثر. والجلاد ليس لديه الحق في الرأفة بالضحية، وإلا عرض ظهره هو للجلد، ولكنه كان يتعهد بألا يضرب بقسوة لقاء رشوة مناسبة، وغالباً ما كانت طلباته تُستجاب، لأنه في حالة الرفض كان يضرب بوحشية حقيقية، فقد كان ذلك في متناوله. وقد يطلب أحياناً مبلغاً كبيراً من سجين معدم، عند ذلك كان كلّ أقارب هذا الأخير يتحركون، فيساومون ويتسولون ويستعطفون، والويل لهم إذا لم يتمكنوا من إرضائه في هذه الحالة، ويلعب الخوف الخرافي الذي يثيره الجلادون دوراً كبيراً في مساعدتهم. وقد سمعت عن وحشيتهم. وأكَّد لي السجناء أنّ الجلاد بإمكانه أن يقتل ضحيته بضربة واحدة. هل ذلك عن تجربة؟ ربما! من يدري؟ إنّ في لهجة حديثهم الكثير من اليقين ممّا يؤكد أنّ الأمر حقيقي، وقد أكَّد لي الجلاد نفسه أن بإمكانه القيام بذلك. كما قيل لي إنه يمكن أن يضرب بملء ذراعه ظهر المجرم دون أن يحسّ هذا الأخير بالألم، ودون أن يترك أي أثر. وحتى في حالة تلقيه رشوة لتخفيف العقوبة، فإن الضربة الأولى التي ينزلها بالمعاقب تكون بكل قواه، بشدة، هكذا جرت العادة: ثم يعطي الضربات الأخرى بقسوة أقل، وخصوصاً إذا ما تمّ إرضاؤه بمبلغ كبير. لا أدري لماذا كانوا يتصرفون على هذا النحو. من أجل أن يهيئوا الضحية فجأة للضربات التالية مع الظنّ بأنه بعد

الضربة الأولى القاسية ستبدو الضربات التالية أقلّ إيلاماً وعنفاً؟ أم يرغبون في إخافة السجين لكي يدرك مدى بطشهم؟ أم يريدون إظهار قوتهم ويستمدّون الفخر من ذلك؟ مهما كان من أمر فإن الجلاد يشعر ببعض الإثارة قبل بدء تنفيذ أيّة عقوبة، إنه يُدرك مدى قوته وسطوته وهو في هذه اللحظة ممثل أمام جمهور معجب به ومرتعب منه، ولذلك يصرخ في ضحيته بغير قليل من الرضا: «تماسك! سأشويك!» كلمات معتادة ومفجِعة تسبق الضربة الأولى. ومن الصعب جداً على المرء أن يتصوّر إلى أي مدى يمكن لكائن بشري أن يخرج عن طبيعته الإنسانية.

خلال الأوقات الأولى من إقامتي بالمستشفى، كنت أصغي بانتباه إلى الحكايات التي كان يرويها السجناء، ويقطعون بها رتابة الأيام الطويلة التي كانوا يقضونها مضطجعين على أسرَّتهم، وكانت تمضي متشابهة على وتيرة واحدة. في الصباح، كنا نتسلى بالجولة التي يقوم بها الأطباء، ومباشرة بعدئذٍ بمجيء وجبتنا التـي كانت، وهذا أمر مفروغ منه، تلعب دوراً رئيساً في وجودنا. كانت الحميات الغذائية تختلف باختلاف المرضى. فقد كان بعضهم لا يتلقون إلا حساء هزيلاً بما لا أدري من الزروع، في حين كان غيرهم يتناولون عصيدة الحنطة السوداء، وآخرون البرغل الذي كان له كثير من الهواة.

في المستشفى، يصبح السجناء ذواقين نهمين، خصوصاً إذا مكثوا طويلاً. وكان بعضهم يحصل على قطعة من لحم مسلوق أو من «الثور» على حدِّ تعبير رفاقي. وكانت أحسن الأطباق قصراً على المصابين بداء الحفَر (الإسقربوط)، إذ يعطون لحماً مشوياً مع البصل والفجل مصحوباً أحياناً بكأس من النبيذ.

وكان توزيع الخبز يختلف أيضاً باختلاف المرض، أحياناً يكون أسود، وأحياناً أخرى أسمر، ولكنه كان دائماً ناضجاً جيداً. وكانت الدقّة المراعاة في توزيع الوجبات تُضحِك المرضى. وإذا لم تكن لبعض المرضى شهية للطعام، فقد كانت لدى بعضهم الآخر شهية مضاعفة.

وكان بعض المرضى يستبدلون أنصبتهم ممّا يجعل الحمية المخصصة للواحد تمرُّ باستمرار للآخر. وأولئك الذين يخضعون للحمية ولا يتلقون إلا نصيباً قليلاً من الطعام كانوا يشترون اللحم من المصابين بداء الحفر (مرض الإسقربوط) كما يحصلون على شراب (كفاس)، وبيرة المستشفى من المرضى الذين كانت تعطى لهم. وبعضهم الآخر كانوا يأكلون ضعف أنصبتهم، كانت الوجبات تقايض مقابل المال، وكانت حصة لحم الثور تسعّر بقيمة عالية، حتى الخمسة كوبيكات للحصة، وإذا لم يكن لدى أحد في قاعتنا شيء يريد بيعه، كان يرسل المراقب للاستعلام في القاعة الأخرى، وإذا لم يجد شيئاً هناك، كان يمر إلى قاعة الجنود، عند «الأحرار» كما كانت تسمى عندنا. كان هناك دائماً أشخاص يُسعدهم بيع حصصهم مقابل الحصول على بعض المال، والاكتفاء بالخبز الجاف.

كان الفقر شاملاً، بالتأكيد، ولكن أولئك الذين كان لديهم القليل من المال كانوا يستطيعون أن يشتروا من السوق «كالاتش» سميطة، أو حلويات أخرى؛ وكان حرّاسنا يقومون بهذه المهمات بدون أي مقابل.

وكانت اللحظة الأكثر إيلاماً أثناء النهار هي اللحظة التي تلي تناول وجبة الطعام: كان بعض المرضى يحاولون النوم لعدم وجود ما

يفعلونه، والآخرون يثرثرون، أو يتشاجرون، ويقصّون حكايات بصوت عالٍ. وإذا لم يصل أي مريض جديد، يصبح الملل أكثر إحباطاً.

وكان وصول أي مريض جديد يشكِّل دائماً مصدر تسلية وخاصة إذا لم يكن يعرفه أحد: كانوا يفحصونه محاولين معرفة من هو، ومن أين أتى وما الذي جاء به إلى السجن. وكان الأكثر إثارة للاهتمام هم الذين يأتون من فوج السجناء العابرين، فقد كان لديهم ما يحكونه، ولكن ليس عن أمورهم الخاصة بطبيعة الحال، ولا يسألون عن ذلك. يسألون فقط: «من أين أتيتم؟ بصحبة من؟ من أي طريق مررتم؟ وإلى أين تذهبون؟»... إلخ. كان بعضهم، وهم يستمعون إلى السجناء الجدد، يتذكرون فجأة أحداثاً وقعت لهم أثناء الطريق: فيتحمّسون، ويبدؤون الحديث عن أفواج السجناء، والرؤساء والمراقبين وجنود الحراسة. وكان السجناء الذين تلقوا عقوبة الجلد بالسياط يَصِلون بعد العصر، وكما قلت من قبل، فقد كانوا دائماً يثيرون... انتباهاً كبيراً.

ولكن خلال الأيام التي لا يحدث فيها أي شيء، يصبح الملل لا يحتمل.

كان التعب يدبّ إلى النفوس من رؤية الوجوه ذاتها، وينتهي الأمر بافتعال الشجارات. ولهذا كنا نستقبل بحفاوة المجانين الذين كانوا يرسلون إلينا وهم سجناء ماكرون يتظاهرون بالجنون لكي يفلتوا من عقوبة الجلد، وكان أغلبهم ينكشفون بسرعة، أو يقررون تغيير طريقتهم وبعد يومين أو ثلاثة أيام من التصرفات الغريبة، يستعيدون تعقّلهم وهدوءهم، ثم يطلبون تنفيذ عقوبتهم ولا يلومهم السجناء ولا الأطباء كما لا يهينونهم بتذكيرهم بثورتهم الغبية هذه. ويتمّ تسجيلهم

في صمت، وفي صمت نتابعهم بأعيننا وبعد يومين أو ثلاثة أيام، يعاودون الظهور بعد أن تلقّوا عقوبتهم. على أية حال، كان هذا النوع من الحالات نادراً وبالمقابل، كان وضع المجانين الفعليين تحت المراقبة في قاعتنا كارثة حقيقية. في بداية الأمر كنا نستقبل وبحماس تقريباً المساجين الصرحاء، المرحين، اليقظين، أولئك الذين يغنون ويصرخون ويبكون.

كان المرضى يقولون: «على الأقل سنتسلى!» وهم يشاهدون تشنجات القادم الجديد.

ولكن منظر هؤلاء التعساء كان يؤلمني كثيراً: فأنا لم أستطع يوماً أن أنظر إلى المجانين برباطة جأش.

وسرعان ما تصبح تكشيرة المجنون المتواصلة وهيأته المضطربة متعِبَة للسجناء بعد أن كانت تضحكهم وبعد يومين يكون الجميع قد نفدَ صبرهم. وقد مكث أحد هؤلاء التعساء لدينا ثلاثة أسابيع، لدرجة أننا لم نعد نعرف أين نختبئ، وأثناء هذه الفترة، وكما لو كان ذلك عن قصد، أرسلوا إلينا مجنوناً آخر، وقد أثار هذا الأخير في نفسي شعوراً خاصاً جداً. كان ذلك أثناء السنة الثالثة من مدة سجني.

خلال عامي الأول، أو بالتحديد، خلال أشهر حبسي الأولى، أثناء فصل الربيع، كنت أذهب إلى العمل مساعداً مع مجموعة من السجناء صنّاع الأفران. كان ذلك على بعد فرسخين، في مصنع للآجر، حيث كان يجب إصلاح الفرن استعداداً لأعمال الصيف.

في ذلك الصباح، عرّفني م. . .سكي وب. على مراقبنا، ضابط الصف أوستروجسكي. كان بولندياً، ستينياً، طويل القامة، نحيل الجسم، حسن الهيأة، وشديد المهابة. كان يعمل جندياً في سيبيريا

منذ مدة طويلة. ورغم أنه ينتمي إلى الطبقة الدنيا - وكان من متمرّدي 1830 - فقد كان م. .سكي وب. يحبانه ويحترمانه. كان يرى دائماً عاكفاً على قراءة الكتاب المقدّس، حادثته فحاورني بطريقة شائقة، فيها الكثير من اللطافة والحصافة، المثيرة للاهتمام، متطلّعاً إليّ بطيبة واضحة. لم أره مرة أخرى لمدة سنتين، ولكنني عرفت أنه رهن التحقيق، عندما أحضروه فجأة إلى قاعتنا: كان قد فقد عقله. دخل وهو يصرخ ويضحك ثم أخذ يرقص في حركات فاحشة، سوقية أثارت سرور السجناء. أما بالنسبة إليّ فقد كان الأمر محزناً.

بعد ثلاثة أيام لم نعُد نعرف ما نفعل، كان يتشاجر، ويتعارك ويصرخ، ويغني نهاراً وليلاً: كانت حماقاته المقزِّزة تثير فينا الغثيان.

أضِفْ إلى ذلك أنه لم يكن يخشى أحداً. وقد تمّ إلباسه قميص المجانين، ولكن وضعنا ازداد سوءاً، لأنه واصل مشاجراته ومعاركه مع الجميع. وبعد ثلاثة أسابيع، توسَّل الجميع إلى رئيس الأطباء لكي ينقل هذا الكنز الرائع عند جيراننا. ومن هناك، بعد ثلاثة أيام، تمَّت إعادته إلينا.

كان لدينا، آنذاك، مجنونان، دائما الشجار، ومثيران للاضطراب، ولأنهما كانا يرسلان من قاعة إلى أخرى، فلم نكن نفعل شيئاً إلا تبديل مجنون بآخر. كانا متساويين، ولقد تنفس الجميع الصعداء عندما تمَّ التخلص منهما.

أتذكر مجنوناً آخر، جيء به في أحد أيام الصيف وهو سجين، في الخامسة والأربعين من عمره، قوي البنية، طافح الوجه بآثار الجدري، ذو عينين صغيرتين محمرتين ومنتفختين، وكئيب المنظر. جلس بالقرب مني. كان هادئاً، ولم يحاول أن يكلّمني وكان يبدو

عليه التفكير. وما إن حلّ الظلام حتى توجّه إليّ فجأة، مباشرة، ودون تمهيد، كما لو أنه يريد الإفضاء بسرٍّ خطير. أخبرني أنه ينبغي أن يتلقى ألف ضربة بالعصا، ولكن ذلك لن يكون، لأن ابنة... القائد ج تحميه. نظرتُ إليه بقلق وأجبته بأنّ ابنة القائد لن تستطيع فعل أي شيء في مثل هذه الحالة. لم أكن قد عرفت الحقيقة بعد، كان قد أرسل إلى المستشفى كمريض عادي. سألته عمّا يؤلمه، فأجابني أنه في صحة جيدة وأن ابنة القائد تعشقه. فقبل أسبوعين، كانت تمرّ أمام مقرّ الحراسة، حيث كان هو ينظر عبر الكوة، فوقعت في حبه. ومنذ ذلك اليوم، وتحت مختلف الأعذار، عادت إلى مقر الحراسة ثلاث مرات: المرة الأولى، جاءت بصحبة والدها لرؤية أخيها الذي كان ضابط الحرس في الثكنة، المرة الثانية، جاءت مع أمها تحمل الصدقات من أجل السجناء، وهمست له، وهي تمرّ بالقرب منه، أنها تحبه وسوف تطلق سراحه. وأغرب ما في الأمر الدقة التي كان يعرض بها تفاصيل هذه الحكاية التي ولدت ونمَت في مخيلته المريضة. كان يؤمن بأنه سيحصل على العفو، ويؤكد بثقة لا تتزعزع شغف هذه الآنسة به، كنا نشعر بالانقباض ونحن نسمع هذا الأربعيني الكئيب الوجه، يختلق قصة الحب الغريبة هذه: كان هذا يظهر مدى الأثر الذي يتركه الخوف من العقاب في النفس الضعيفة. ربما شاهد فعلاً أحداً ما من كوّته، ولكن جنونه الكامن الناتج من الخوف المتزايد وجد منفذه هنا وشكله.

هذا الجندي التعس، الذي لم يفكر يوماً في الفتيات الجميلات، يخترع فجأة هذه القصة ويتشبث بها كالقشة. أبلغت السجناء الآخرين بالأمر، ولكن عندما أرادوا الاستفسار منه، ظلَّ صامتاً.

وفي اليوم التالي، استجوبه الطبيب لمدة طويلة، ولأنه كان يدّعي أنه لا يشكو من أي مرض ولأن الفحص لم يظهر أي شيء، تمّ الإذن له بالخروج. وعند انصراف الأطباء، بعد أن فات الأوان على إخبارهم بحقيقة الأمر، عرفنا أنه قد كتب على ورقة خروجه: "sanatus est" ثم ما الذي كان يمكننا فعله، فنحن لم نكن نعرف شيئاً محدداً؟ المسؤولية في ذلك تقع على عاتق الإدارة التي لم تحدِّد السبب الذي جعلها ترسل هذا الرجل إلى المستشفى. لقد كان ذلك تقصيراً لا يُغتفر. ثم إنّ أولئك الذين أبلغوا عن مرضه كانوا يشكّون في الأمر ممّا جعلهم يضعون هذا التعيس تحت المراقبة. وعلى كلّ حال، فقد تمّ جلده بعد يومين. والظاهر أن هذه العقوبة قد أذهلته: فعندما تمّ اصطحابه إلى الصف، أخذ يصرخ طالباً النجاة، ولم يرسل في هذه المرة إلى قاعتنا، التي كانت تفتقر إلى الأسرَّة، إنما وضعوه في القاعة الأخرى.

وقد استعلمت عنه وعرَفت أنه لم ينطق بكلمة واحدة لمدة ثمانية أيام بسبب خجله وحزنه... ثم، عندما شفي ظهره، تمَّ إرساله إلى حيث لا أدري. ولم أسمع عنه بعد ذلك شيئاً.

أما فيما يخص العلاج والأدوية، حسب رأيي، فقد كان السجناء الذين ليس مرضهم خطيراً لا يتَّبعون تعليمات الطبيب ولا يتناولون الأدوية، في حين كان شديدو المرض يحبون التداوي ويبتلعون أخلطتهم ومساحيقهم، مع إعطاء الأفضلية للأدوية ذات الاستعمال الخارجي. كانوا يتحمّلون المحاجم، والعلق، واللبيخات، والفصد، بكثير من السرور وبغير قليل من الشعور باللذة أيضاً، لإيمان الشعب وثقته العمياء بكل ذلك.

وممّا آثار اهتمامي أنّ بعض الناس الذين يتحملون بصبر جميل آلام الضرب بالعصي والجلد بالسياط، كانوا يتلوون ويتأوّهون أمام محجم فقط. هل أصبحوا مرهفين مترفين أم هم يمثلون فحسب؟ يجب القول إن محاجمنا كانت ذات شكل خاص. ففي عهدٍ لم يعُد يتذكره أحد، كانت الآلة القديمة التي تشق الجلد فوراً قد عطّلها أحد الممرضين، أو ربما تعطلت لوحدها، لذلك كان يجب اللجوء إلى المبضع. بواسطة الآلة، كان الأمر يحتاج إلى اثني عشر شقّاً لا تؤلم كثيراً: اثني عشر شفرة تفرم الجلد في آن واحد دون أن تترك لك الوقت للإحساس بالألم. ولكن الأمر يختلف مع المبضع الذي يقطع ببطء ويؤلم كثيراً؛ فإذا احتاجت عشرة محاجم إلى مائة وعشرين شقاً متتالياً، فلا بد أن يكون الأمر مؤلماً. لقد جربت ذلك بنفسي، كان مزعجاً، ولكن ليس إلى درجة الانتحاب.

من المضحك فعلاً رؤية رجال أشدّاء ينوحون ويتلوون هكذا. يمكن تشبيههم بأولئك الرجال المتزنين في أعمالهم المهمة، ولكنهم عند العودة إلى منازلهم يصبحون متقلبي المزاج، يتذمرون، ويتشبثون بآرائهم لأتفه شيء. ويرفضون تناول ما يقدّم لهم من طعام، ويغضبون، وينتقدون: كل شيء يمشي بالمقلوب، كل شيء يزعجهم، ويهينهم، ويعذبهم، وبكلمة واحدة: بطرتهم النعمة، كما تقول العامة.

كان هذا النوع من الطباع منتشراً في قاعتنا وفي السجن بسبب التعايش الإجباري، كانوا أحياناً يستهزئون بأحد هؤلاء الناعمين، أو يغرقونه تحت وابل من الشتائم بكل بساطة: كان عند ذلك يسكت، كأنه لم يكن ينتظر إلا ذلك كي يسكت.

أوستيانتسيف خاصة كان يكره التكشير ولا يترك فرصة تمرّ دون أن يهاجم ذوي الجلود الطرية هؤلاء، زد على ذلك، أنه لا ينسى أبداً أن يثير انتباه الآخرين إلى التزام النظام. كان ذلك عنده ناتجاً من المرض ومن الغباء، فقد ينظر إليك محدقاً فيك بإمعان ويلقي عليك درساً بصوت هادئ واثق. كان يتصرف كالمأمور. وكان السجناء يعلِّقون على ذلك ضاحكين:

- لا بد أن يحشُر أنفه في كل مكان.

ولكنهم كانوا يتغاضون عنه، ويتجنّبون التشاجر معه، ويكتفون بممازحته بين الحين والآخر.

- يا له من ثرثار! يمكن أن تملأ بثرثرته ثلاث عربات.

- لا ينبغي للمرء أن يضيع لعابه سدى مع هذا الغبي. ضربة واحدة بالمبضع تجعله يصرخ، ولكن هيا، بعد الحرّ يأتي البرد، فليصبر قليلاً!

- وما شأنكم أنتم في آخر الأمر؟

وفجأة قطع الحديث أحد السجناء قائلاً:

- لا، يا أطفالي، المحاجم ليست شيئاً، لقد جربتها. إن أسوأ تعذيب أن يجرّوا أذنك مدة طويلة.

انفجر الكلّ ضاحكين.

- وهل جرّوا أذنيك كثيراً حتى طالتا إلى هذا الحدّ؟

- بالتأكيد!

- ولهذا ترتفعان إلى مثل هذا العلو؟

هذا السجين، واسمه شابكين، كانت له فعلاً أذنان طويلتان

ناتئتان. كان متشرداً شاباً، نبيهاً، وهادئاً؛ كان يتكلم دائماً بجدية رصينة مع حسّ دعابة خفي، ممّا كان يضيف الكثير من الفكاهة إلى حكاياته.

- ولكن، يا أحمق، كيف أستطيع أن أعرف أنه قد تمّ جرّ أذنيك؟ تدخَّل أوستيانتسيف مرة أخرى وهو يلتفت ناحية شابكين، رغم أن هذا الأخير كان قد وجّه كلامه للجميع؛ ولكن شابكين لم يُعِره انتباهاً.

- ومن الذي جرّ أذنيك؟ سأله أحدهم.

- من جرّ أذني؟ «إيسبرافنيك» - رئيس شرطة، يا عزيزي! كان ذلك أثناء تشردي، أيها الرفاق! كنا آنذاك في ك.... نحن الاثنين، أنا ومتشرد آخر، كان اسمه ييفيم (لم يكن له اسم عائلي). أثناء الطريق، سطونا على شيء، عند فلاح، في قرية تولمينا، نعم، هناك قرية تسمى هكذا: تولمينا. وصلنا إذاً، نظرنا حولنا لعلّنا نستطيع السطو على شيء ثم نسرع في العَدْو لا نلوي على شيء: فوسط الحقول، المرء حرّ كالهواء، ولكنه ليس كذلك في المدينة، هذا أمر معروف! دخلنا أولاً إلى حانة، نظرنا حولنا، فأقبل علينا شخص يرتدي لباساً ألمانياً مثقوب الكمين عند الكوعين، كان يبدو عليه الفقر الشديد.

- اسمحوا لي بالسؤال، هل عندكما أوراق(*)؟

- لا، ليس عندنا أوراق.

(*) عندكما أوراق: بطاقة هوية.

- آه! حسناً! أنا أيضاً ليس عندي أوراق. ولدي أيضاً رفيقان آخران في خدمة الجنرال وقواق(*). حسناً، لقد مرحنا قليلاً ولم يتبقَّ لدينا نقود، فهل تتفضلان بشراء قنينة خمر لنا؟

- بكل سرور. قلت له، ثم شربنا معاً، وأخبرنا عن سرقة سيقوم بها في منزل على أطراف المدينة، حيث يعيش رجل غني وحيث توجد عدة أشياء، ثم قررنا أن نذهب إلى هناك أثناء الليل. ولكن ما إن وصلنا نحن الخمسة حتى ألقي القبض علينا، وتمّ اقتيادنا إلى المركز، ثم إلى «إيسبرافنيك» - رئيس الشرطة:

- سأحقق معهم بنفسي، قال «إيسبرافنيك» - رئيس الشرطة ثم أقبل يحمل غليونه، وجيء له بفنجان شاي.

كان رجلاً ضخماً تبدو عليه علامات الصحة وقد أرخى شعر فوديه. جلس، هناك أمامنا، ثم جيء بثلاثة متشردين آخرين. غريب أمر هؤلاء المتشردين، يا أصدقائي، ليس لهم ذاكرة، فحتى لو انهلت ضرباً على رؤوسهم، لن يتذكروا شيئاً، فدائماً ما يكونون قد نسوا كل شيء. التفت نحوي «إيسبرافنيك» - رئيس الشرطة، وصاح كما من داخل برميل فارغ قائلاً فجأة:

- من أنت؟

ولكنني أجبته كما يجيب جميع المتشردين الآخرين:

- لا أدري، يا صاحب النبالة، لقد نسيت...

- انتظر، قال لي، أيها القوي، سنتحدث فيما بعد. أعرف

(*) في خدمة الجنرال كوكوشكين - وقواق -: يعني أنهما في الغابة، حيث يغني طائر الوقواق، يقصد بذلك أنهما متشردان أيضاً.

وجهك، قال لي، ثم حدّق في عينيّ. أما أنا، فلم أكن قد رأيته من قبل. ثم استدار نحو آخر:

- لنرَ قليلاً، ومَن أنت؟

- اذهب من هنا، يا صاحب النبالة!

- هذا هو اسمك، اذهب من هنا؟

- نعم، إنه اسمي، يا صاحب النبالة!

- حسناً، فليكن، اذهب من هنا! وأنت؟ سأل الثالث.

- أنا، أنا معه، يا صاحب النبالة!

- نعم، ولكن ما هو اسمك؟

- إنهم ينادونني هكذا: أنا معه، يا صاحب النبالة!

- ومن سمّاك بهذا الاسم، أيها النذل!

- أشخاص طيبون جداً، يا صاحب النبالة! هناك عدة أشخاص طيبون على هذه الأرض، يا صاحب النبالة، أليس كذلك؟

- ولكن مَن هم هؤلاء الأشخاص الطيبون؟

- ليس لدي ذاكرة قوية، يا صاحب النبالة، سامحني رجاء.

- إذن، فقد نسيت كل شيء؟

- تماماً، يا صاحب النبالة!

- ولكن ألم يكن لديك أب وأم؟ . . . لا بد أن تتذكرهما؟

- أظنّ ذلك، يا صاحب النبالة، ولكنني لا أتذكر الكثير، لقد نسيت كل ذلك، يا صاحب النبالة!

- حسناً! وأين عشت حتى الآن؟

- في الغابة، يا صاحب النبالة!

- دائماً في الغابة؟

- نعم، دائماً في الغابة.

- طيب وأثناء فصل الشتاء؟

- فصل الشتاء؟ لم أرَه، يا صاحب النبالة.

- جيد! وأنت. ما اسمك؟

- الفأس، يا صاحب النبالة!

- وأنت؟

- اشحذ دون تثاؤب، يا صاحب النبالة.

- وأنت؟

- اخرج من هناك، يا صاحب النبالة.

- إذن، فكلكم لا تتذكرون شيئاً؟

- لا نتذكر شيئاً، يا صاحب النبالة!

كان رئيس الشرطة يقف هناك ضاحكاً، ولا يستطيع الآخرون منع أنفسهم من الضحك أيضاً. ولكن أحياناً، ينقلب الأمر، فينهالون عليك ضرباً حتى يحطّموا أسنانك، ويشوّهوا وجهك، ألا ما أضخمهم وأشدهم هؤلاء الرجال!

قال رئيس الشرطة:

- ضعوا الجميع في الحجز، سأهتم بهم فيما بعد.

ثم التفت نحوي:

- أمّا أنت، فابقَ هنا، اجلس!

نظرت فرأيت هناك طاولة عليها ورق وريشة كتابة. تساءلت: «ترى ما الذي يدبِّره؟»

قال لي مرة أخرى:

- اجلس هناك، إلى الطاولة، خذ الريشة واكتب!

ثم أمسك بأذني وأخذ يجرّها، نظرتُ إليه كما ينظر الشيطان إلى الكاهن، وقلت له:

- لا أعرف، يا صاحب النبالة!

قال:

- اكتب!

قلت:

- الرحمة يا صاحب النبالة!

قال:

- اكتب ما تستطيع كتابته، هيا اكتب!

كل ذلك وهو يجرّ أذني ويلويها. نعم، يا أصدقائي، أقسم لكم، كنت أفضِّل ثلاثمائة جلدة، لقد رأيت النجوم في عزّ الظهر، في حين كان هو يردِّد:

«اكتب، اكتب!...»

- هل كان مجنوناً؟

- في الواقع، لا، لم يكن مجنوناً على الإطلاق! ولكن قبل ذلك بفترة، في ت... سرق كاتب محكمة مال الخزينة وهرب. وكانت أذناه هو أيضاً لافتتين للنظر، وانتشر الخبر في كل مكان. وكنت مشابهاً لأوصاف المجرم، لذلك كان يعذبني بقوله: «اكتب!» فقد كان يريد أن يعرف هل كنت أجيد الكتابة وكيف كنت أكتب..

- كان ذلك ذكاء منه! وهل آذاك؟

- كثيراً!

انطلقت ضحكة أخرى.

- وهل كتبت؟

- جعلت الريشة تتحرك فوق الورق، وبعد لأيٍ وجهد، أطلق سراحي، بعد أن أشبعني صفعاً ثم أرسلني إلى السجن.

- وهل تعرف الكتابة فعلاً؟

- كنت أعرفها منذ مدة طويلة، ولكن منذ أن بدأ استعمال الريشات المعدنية فقدت مهارتي...

هذه هي الحكايات أو الثرثرة التي كنا نقتل بها الوقت.

يا إلهي، يا له من ملل قاتل! كانت الأيام تمرّ طويلة، خانقة، رتيبة.

لو كانت لدينا كتب على الأقل!

وغالباً، في البداية، كنت أذهب إلى المستشفى، أحياناً عن مرض، وأحياناً أخرى للراحة، من أجل أن أخرج من السجن حيث كانت الحياة صعبة الاحتمال: الخبث والكره والحقد، والوجوه القاسية، المتوعِّدة، وهذا الإزعاج الدائم، وتلك المشاجرات المستمرة التي تستهدفنا نحن النبلاء! وفي المستشفى، على الأقل، كنا جميعاً على قدم المساواة، وكنا نعيش كرفقة.

كان حلول الظلام على ضوء الشموع هو اللحظة الأكثر قتامة طوال اليوم.

كنّا نخلد إلى النوم باكراً. وكان السراج الليلي يشعّ عن بُعدٍ قرب الباب، كنقطة مضيئة، وأمّا عن كثب فقد كانت الظلمة شاملة، بينما كان الهواء يصبح باعثاً على الغثيان.

هذا مريض ارتدى ملابس نومه وجلس فوق سريره طوال ساعة ونصف وقد جافاه النوم، كان محني الرأس، غارقاً في أفكاره. نظرت إليه طوال ساعة، ولملء الوقت، حاولت تخمين ما يفكر فيه، وبدأت أحلم، أعيش الماضي من جديد. ويرتسم مشهد الذكريات الكبير والواضح. وأتذكر بعض التفاصيل التي كنت قد نسيتها في مواقف أخرى أو لم أحسّ بها كفاية. ثم تخيَّلت المستقبل. ما الذي سيحصل لي بعد السجن؟ أين سأذهب بعد ذلك؟ هل أستطيع العودة إلى مسقط رأسي؟

فكرت، فكرت كثيراً حتى سرتْ رعشة الأمل في روحي... مرة أخرى، بدأت العدّ: واحد، اثنان، ثلاثة،... إلخ، لكي أنام. أحياناً كنت أعدّ حتى الثلاثة آلاف دون أن أستطيع النوم. تحرّك أحد المرضى، وأطلق أوستيانتسيف سعاله النخامي المصدور، ثم أنّ بضعف وهو يغمغم: «إلهي، لقد أذنبت!»، آه! كم هو فظيع أن تسمع هذا الصوت الواهن المنكسر وسط السكون الشامل! في الركن، هناك، لم ينَمْ أحد بعد، كان مريضان يتحدثان وهما ممدّدان على سريريهما. وأخذ أحدهما يحكي عن ماضيه، كان يتحدث عن أشياء بعيدة، قد مضت، عن تشرده، عن أبنائه، عن زوجته، عن حياته الماضية المنظمة. وكان حديثه الهامس يدلّ على أنّ ما يتحدّث عنه لن يعود أبداً، وأنه هو نفسه عضو مبتور، مرمي. وكان الآخر لا يفعل شيئاً إلا إطراق السمع. كنت لا تسمع إلا همساً رتيباً، منتظماً كخرير الماء المنبجس.من الأرض.

وأذكر أنني، في ليلة شتاء طويلة، استمعت إلى حكاية بدت لي كالكوابيس المريعة الناجمة عن الحمى، والهذيان...

4. زوج أكولكا
(حكاية)

كان ذلك في ساعة متأخرة من الليل، في منتصف الليل تقريباً. كنت نائماً منذ بعض الوقت، فاستيقظت مذعوراً. كان النور الكامد والضعيف الذي ينشره السراج البعيد لا يكاد يضيء القاعة... جميع المرضى تقريباً كانوا نائمين، حتى أوستيانتسيف: كنت أسمع في هدأة الليل، تنفُّسه الصعب، ونخامته المتدحرجة في حلقه مع كل شهيق. تناهى من المدخل وقْع الخطى الثقيلة والبعيدة لدورية الحراسة التي كانت تقترب. ويقرع عقب بندقية الأرضية الخشبية دون رنين. ويشرع باب القاعة، ويحصي العريف المرضى وهو يخطو بحذر. وما هي إلا دقيقة حتى أغلق الباب، بعد أن نصب عليه خفير آخر، وابتعدت الدورية، وران السكون من جديد. وعندئذٍ فقط لاحظت من مسافة غير بعيدة عني سجينين لم يناما ويبدو أنهما كانا يتهامسان بشيء. يحدث أحياناً لمريضين يرقد أحدهما إلى جانب الآخر، دون أن يتبادلا كلمة واحدة خلال أسابيع، وشهور كاملة، أن يشرعا في الحديث فجأة وسط الليل، فيعرض أحدهما ماضيه أمام الآخر.

ربما كانا يتحدثان منذ مدة طويلة. لم أسمع البداية، ولم أستطع أن أدرك كل شيء من الوهلة الأولى، ولكنني اعتدت هذا الهمس شيئاً فشيئاً وما لبثت أن فهمت كل شيء. لم تكن بي رغبة في النوم، فماذا عساي أن أفعل، غير أن أصيخ السمع؟ كان أحدهما يحكي بحرارة، نصف راقد على سريره، رافعاً رأسه، ممدوداً نحو رفيقه. كان واضحاً أنه مغتاظٌ ومهتاج: كان يرغب في الكلام. أمّا المصغي

إليه فكان جالساً فوق سريره قاتم الوجه وبغير اهتمام، باسطاً ساقيه فوق الفراش، يتمتمُ من حين إلى آخر بضع كلمات ردّاً على رفيقه، على سبيل اللباقة ليس إلا، ويحشو أنفه في كل لحظة بالتبغ الذي كان يخرجه من منشقة شبيهة بالقرن: كان هو الجندي تشيريفين، المنتمي إلى سريَّة التأديب، وهو امرؤ متحذلق عبوس، فاتر، مماحك، غبي وأناني، وأمّا محدثه المسمى شيشكوف، الذي كان في نحو الثلاثين من عمره، فهو سجين مدني، لم أنتبه إليه حتى ذلك الحين، ولم أشعر نحوه بأي اهتمام طوال المدة التي قضيتها في السجن، لتفاهته وسفاهته. كان في بعض الأحيان يبقى صامتاً خلال أسابيع، بادي الفظاظة والغلاظة، ثم إذا به يتدخل فجأة في أمر ما، محتدماً ترّهات وسخافات، وينتقل من ثكنة إلى أخرى، ناشراً وشايات وشائعات، كانت فيما يبدو تُخرجه عن طوره. وحالما كانوا يضربونه يعود إلى صمته من جديد. كم كان جباناً، وضعيفاً، يعامَل باحتقار. كان رجلاً قصير القامة، نحيل الجسم، وذا عينين شاردتين أو حالمتين ببلاهة.

حين يحكي شيئاً، كان يهيج، ويحرك ذراعيه، ويتوقف فجأة أو ينتقل إلى موضوع آخر، ويضيع في تفاصيل جديدة، ثم ينسى أخيراً الموضوع الذي كان يتكلم فيه. كثيراً ما كان شيشكوف يتشاجر، عندما كان يشتم خصمه، كان يتكلم بلهجة عاطفية ويكاد أن يبكي تقريباً... وكان يجيد العزف على البالالايكا، التي يحبها كثيراً، بل كان يرقص في أيام الأعياد، وبشكل جيد، إذا دعاه إلى الرقص آخرون... (ما أسرع ما كان يمكن أن يجبره غيره على فعل ما يشاء... ليس لأنه كان مطيعاً، بل لأنه كان يحبّ أن يكون له رفاق وأن يرضيهم).

بقيت إذن مدة طويلة لا أستطيع أن أفهم ما كان يحكي شيشكوف. كان يبدو لي أنه كان يترك دوماً موضوعه ليتكلم عن شيء آخر. ربما كان قد لاحظ قلّة اهتمام تشيريفين بحكايته، ولكنني أظنّ أنه كان يريد أن يتجاهل هذه اللامبالاة كي لا يستاء منها. تابع كلامه قائلاً:

- . . . عندما كان يمضي إلى السوق، كان جميع الناس يحيونه، ويبجِّلونه. . . إنه شديد الثراء، أليس كذلك!

- تقول إنه كانت له تجارة؟

- نعم، تجارة! إنّ طبقتنا التجارية فقيرة للغاية: إنها الفاقة عينها. النساء يذهبن إلى النهر، فيأتين بالماء من مكان بعيد جداً، ليسقين به حدائقهن، ويرهقن أنفسهن وأجسادهن، ومع ذلك، حين يأتي الخريف، لا يجدن حتى ما يصنعن به حساء بالكرنب. إنه الخراب الكامل! ولكن ذلك الرجل كان يملك قطعة كبيرة من الأرض يحرثها عمّاله الثلاثة، ثم كانت له منحلة يبيع عسلها، وكان يتاجر بالماشية، والخلاصة أنّ الناس عندنا كانوا يحترمونه كثيراً. كان طاعناً في السن، أشيب الشعر تماماً، وكانت السنوات السبعون من عمره ثقيلة على عظامه الهرمة. حين يأتي إلى السوق مرتدياً فروته المصنوعة من جلد الثعلب، كان يحييه جميع الناس قائلين:

- نهارك سعيد، يا أنكوديم تروفيميتش! فيجيب - «يومك سعيد، يا صديقي!». «كيف حالك، أنكوديم تروفيميتش؟» لم يكن يحتقر أحداً. «عمراً مديداً، يا أنكوديم تروفيميتش!» فيسأل: - «كيف أحوالك؟» - «طيبة، طالما السخام أبيض. وكيف أحوالك أنت، يا أنكوديم تروفيميتش؟» - فيقول: «إننا نعيش، بخطايانا، ونسخم حتى

السماء» - «عمراً مديداً، يا أنكوديم تروفيميتش». لم يكن يحتقر أحداً. وعندما يتكلم كانت كل كلمة من كلماته تساوي روبلاً. كان قارئاً سطحياً سكولائياً، متعلماً، يقرأ دائماً ما هو لاهوتي. كان يُجلس امرأته العجوز أمامه ويقول لها: «اسمعي، يا امرأة، افهمي ما أقول لك». ثم يأخذ يشرح لها. لم تكن ماريا ستيبانوفنا عجوزاً، إن شئت، فهي زوجته الثانية، تزوّجها لينجب منها، لأن زوجته الأولى لم تلد. كان له ابنان لا يزالان صغيرين، لأن الثاني فاسيا كان قد ولد حين شارف أبوه على الستين، وكانت ابنته أكولكا في الثامنة عشرة من عمرها، وهي كبرى أولاده.

- زوجتك، أليس كذلك؟

- انتظر قليلاً، بدأ فيلكا موروزوف يضجّ من جديد. قال لأنكوديم «لنتحاسب، أعِدْ إليّ روبلاتي الأربعمائة، هل أنا أجير، عندك؟ لا أحب أن أتّجر معك ولا أريد أن أتزوج ابنتك أكولكا. أريد أن أقصف. الآن وقد مات والداي، سأشرب خمراً بمالي كله، وبعد ذلك سوف أؤجر نفسي، يعني أنخرط جندياً في الجيش، وخلال عشر سنين سأعود إلى هنا برتبة فيلد - ماريشال». وردّ إليه أنكوديم ماله، ردّ إليه كل ما كان له عنده، لأنه تاجر في ما مضى مع والد فيلكا برأس مال مشترك. ردّ إليه ماله وقال له: «أنت يا بني رجل ضائع!» فأجابه الفتى قائلاً: «طيب، سواء كنت ضائعاً أم لا، يا أشيب اللحية، أنت أبخل رجل عرفته في حياتي، عندك، نتعلم احتساء الحليب بالمخرز. أنت، يقول له، تريد أن تصبح ثرياً بأربعة غروش، إنك تجمع كل قذارة، لو كانت تصلح عصيدة. أنا، كما يقول له، أريد أن أبصق على هذا. إنك تدّخر وتكدّس، يعلم الشيطان لماذا.

أما أنا، يقول له، فإنني ذو عزيمة قوية. وعلى كلّ حال، لن أتزوج ابنتك أكولكا، وأنا، يقول له، بدون ذلك قد نمت معها...»

- كيف! أتجرؤ على أن تلطّخ بالعار أباً شريفاً وفتاة شريفة؟ متى نمت معها؟ يا شحم أفعى، يا دم كلب! هكذا قال له أنكوديم وهو يرتعد غضباً. إن فيلكا هو الذي حكى ذلك فيما بعد.

وأضاف فيلكا قائلاً للعجوز:

- وليس فقط لن أتزوج ابنتك، ولكنني سأعمل على أن لا يتزوجها الآن أحد، وحتى ميكيتا غريغورئيتش لن يتزوجها الآن لأنها ملطّخة الشرف. لقد عاشرتها منذ الخريف الأخير. وأنا الآن لا آخذها ولو أعطيتني مائة سرطان. هيا جرّبني، هات الآن مائة روبل، لن أقبل...

وبعد ذلك، أخذ هذا الفتى يسرف في القصف. وجعل الأرض تهتز أنيناً، والمدينة تئزّ رنيناً. وحصل على رفاق، لأنه ذو مال كثير، وظلّ ثلاثة أشهر يقصف، بلا انقطاع، حتى أتى على آخر كوبيك. كان يقول: «حين أنهي هذا المال، سأبيع الدار، سأبيع كل شيء، ثم أتجند أو أتشرد!» كان يسكر من الصبح إلى المساء، ويتنزه في عربة ذات جوادين وأجراس صغيرة. وكم كانت تحبه الفتيات! وكان يجيد العزف على الصنج (توربا)...

- وإذن، صحيح أنه باشر أكولكا تلك؟

- مهلاً، انتظر. كنت حينئذٍ قد دفنت أبي، وكانت أمي تصنع كعك الأبازير، كنّا نعمل لحساب أنكوديم، وبذلك كنا نسدّ الرمق، ولكن عيشتنا كانت شاقة، كان لنا حقل خلف الغابة، نزرعه قمحاً، ولكن حين مات أبي، قضي على كل شيء، لأنني أنا أيضاً يا أخي

كنت قد انصرفت إلىِ القصف. وكنت أبتزّ من أمي مالاً بضربها ضرباً شديداً. . .

- لا يليق أن تضربها. هذه خطيئة كبرى.

- كنت أحياناً سكران، يا أخي، من الصباح إلى الليل. كان لنا بيت، لا بأس به، ولو أنه عفن، فهو ملك لنا، ولتطارد الأرنب إن شئت في ذلك المسكن الخشبي الريفي. كنا نتضور جوعاً، ونلوك الخرق أسابيع كاملة. وكانت أمي توسعني شتماً، وكان ذلك عندي سيان! ولكنني يا أخي لم أبتعد في ذلك الوقت عن فيلكا موروزوف قيد أنملة، كنت أبقى معه من الصباح إلى الليل. كان يقول لي: «اعزف لي على القيثارة، وارقص، وسأظلّ أنا متمدداً، وسأرمي لك مالاً بما أنني أغنى رجل في العالم!» وما من شيء لم يفعله! إلا المال المسروق فلم يتناوله. كان يقول: «أنا لست لصاً، أنا رجل شريف!» وقال لنا مرة: «هيا لنطلِ باب أكولكا بالقطران، لأنني لا أريد أن تتزوج ميكيتا غريغورئيتش. إنني أحرص الآن على هذا أكثر من أي وقت مضى». كان الشيخ يريد منذ مدة طويلة أن يزوِّج ابنته بميكيتا غريغورئيتش: وهو رجل مسنّ، ماتت عنه امرأته، كان يعمل تاجراً أيضاً، ويضع على عينيه نظارتين. لمّا سمع ما أشيع عن سوء سلوك أكولكا قال للشيخ:

- «سيكون عاراً كبيراً عليّ، يا أنكوديم تروفيميتش، ثم إنني لا أريد أن أتزوج، الآن تجاوزت سنّ الزواج».

لطَّخنا إذن باب أكولينا بالقطران. وضربوها في البيت بسبب ذلك، حتى كادوا أن يقتلوها. كانت أمها، ماريا ستيبانوفنا، تصيح قائلة: «سأموت عاراً!» بينما كان الشيخ يقول: «لو كنّا في عهد

البطاركة الشرفاء، لكان من حقّي أن أمزقها فوق محرقة. ولكن كل شيء أصبح الآن عفناً وظلاماً على هذه الأرض». كان الجيران يسمعون أحياناً عويل أكولكا من أول الشارع إلى آخره. كانت تُجلد من الصباح إلى المساء. وكان فيلكا يصيح في السوق قائلاً للناس جميعاً: «رائعة، هذه البنت أكولكا، كم تصلح منادمة على الشراب، يا نقية الخطو، يا بيضاء الثياب، قولي من تحبين!» قذفتهم بهذا على وجوههم، سوف يذكرونني هناك. في ذلك الوقت، صادفت مرة أكولكا ذاهبة لتملأ سطليها ماء، فصحت فيها قائلاً لها: «صباح الخير، أكولينا كوديموفنا! يا لرشاقتك، قولي لي، مع من تعيشين، ومن أين تأتين بالمال، لتمشي بهذا الاختيال؟!» لم أقُل لها غير ذلك، فتطلّعت إليّ بعينيها الواسعتين، كانت قد ازدادت نحافة حتى أصبحت كالعود. عندما كانت تنظر إليّ، ظنَّت أمها أنها تمازحني، فنادتها من عتبة بيتها قائلة لها:

- «ما هذا الحديث معه، يا عديمة الحياء!»

وضُربت في ذلك اليوم أيضاً. كانت تُضرب أحياناً ساعة كاملة.

وكانت أمها تقول:

- «إنني أجلدها، لأنها لم تعُد ابنتي».

سأله تشيريفين:

- كانت إذن فاجرة؟

- اسمع إذن ما أحكي لك، يا عم! لم نزِدْ على أن كنّا نسكر، فيلكا وأنا، وذات يوم، بينما كنت راقداً، جاءت أمي وقالت لي:

- «لماذا تظلّ راقداً؟ أيها النذل، أيها اللص!»

شتمتني في بادئ الأمر ثم قالت لي:

- «تزوج أكولكا. سوف يسرّهم أن يزوِّجوها بك الآن، وسوف يدفعون لك مهراً ثلاثمائة روبل».

فأجبتها بقولي:

- «ولكن الناس جميعاً يعلمون الآن أنها ملطخة الشرف».

- «غبي! سيزول كل ذلك حالما يوضع على رأسها إكليل الزواج، ثم إن ذلك سيجعل حياتك معها أفضل، فسوف تظلّ طوال حياتها ترتعد منك خوفاً. وسوف نعيش بمالهم في بحبوحة، وقد كلّمت ماريا ستيبانوفنا في أمر هذا الزواج واتفقنا».

قلت لها:

- «هاتي عشرين روبلاً حالاً، وأتزوجها».

لا تصدّق إن شئت، ولكن الحقيقة أنني ظللتُ سكران حتى يوم زواجي. وما انفك فيلكا يهددني ويقول لي:

- «سأكسر أضلاعك، أيها الحقير خطيب أكولكا، وسأضاجع كل ليلة زوجتك، إن شئت».

فقلت له:

- «أنت تكذب، أيها الكلب!»

لقد أخزاني أمام جميع الناس في الشارع. فهرعت إلى البيت! لم أعد أرغب في الزواج، إذا لم أعطَ خمسين روبلاً على الفور.

قال تشيريفين:

- «وهل زوجوك بها؟»

- «زوجوني بها؟ ولم لا؟ إننا أناس لم يدنس شرفنا. لقد أصاب الحريق أبي بالإفلاس، قبل وفاته بقليل، بل كان أبي أغنى من أنكوديم تروفيميتش». قال لي الشيخ أنكوديم:

-«إن شخصاً لا قميص له مثلك، عليه أن يكون سعيداً جداً بأن يتزوج ابنتي!»

وأجبته:

- «وبابك ألمْ يلطّخ بالقطران؟»

- «ما هذا الذي تقوله؟ برهِن لي على أنّ شرفها دنِّس... هيا، ها هو الباب، فاذهب إن شئت ولكن ردَّ إليّ المال الذي أعطيتك إياه!»

قررنا عندئذٍ أنا وفيلكا موروزوف، أن نُرسل ميتري بيكوف إلى الأب أنكوديم ليقول له إنني سألطخ سمعته أمام جميع الناس. ولم أصحُ من السكر إلا يوم زفافي. ولم أفق إلا في الكنيسة. وحين أرجعونا من الكنيسة أجلسونا، وقال عمّها، ميتروفان ستيبانيتش:

- «لقد تمّ الأمر وانتهى رغم أنه غير شريف».

كان الشيخ أنكوديم الذي ثمل أيضاً جالساً يبكي والدموع تسيل على لحيته البيضاء. وهذا ما فعلته، أيها الرفيق: وضعت سوطاً في جيبي، قبل الذهاب إلى الكنيسة، وقرّرت أن أستعمله بكل سرور لجلد أكولكا حتى يعلم الناس بأيّ خداع مقيت زوِّجت وأن يعرفوا هل أنا غبي حقاً...

قال تشيريفين:

- «أحسنت، وأردت أيضاً أن تجعلها تدرك ما كان ينتظرها...»

- «مهلاً، يا عم! جرت العادة عندنا، بعد حفل الزفاف مباشرة، أن يُساق الزوجان إلى غرفة مستقلة، بينما يبقى الآخرون يشربون منتظرين عودتهما. تركونا وحدنا في الغرفة: كانت أكولكا شاحبة الوجه، وليس على وجنتيها قطرة دم، وفي غاية الذعر. وكان شعرها

ناعم الملمس، شفافاً مثل نسيج كتان، وكانت عيناها واسعتين جداً. كانت تظلّ صامتة دائماً تقريباً، لا تكاد تتكلم، حتى ليظنّ المرء أنها خرساء، غريبة، هذه البنت أكولكا! ولك أن تتصور الموقف: كان سوطي معدّاً، علىٰ السرير. وبعد! أتدري ماذا اكتشفت؟ لقد اكتشفت أنها بريئة، تمام البراءة، ولا أملك أن آخذ عليها شيئاً، لقد كانت عذراء».

- غير ممكن.

- حقيقة! كانت عذراء كأية فتاة شريفة، لبيت شريف. فلماذا، يا أخي، تحمَّلت كل ذلك العذاب؟ لماذا شهَّر بها افتراء فيلكا موروزوف؟

- حقاً، لماذا؟

- وعندئذٍ نزلت عن السرير وجثوتُ على ركبتي أمامها ضامّاً يدي إحداهما إلى الأخرى، وقلت لها:

- أكولينا كوديموفنا! سامحيني لأني كنت في غاية الغباء فصدَّقت كلّ تلك الشائعات. سامحيني، ما أنا إلا وغد!

كانت جالسة على السرير تنظر إليّ، وضعت يديها على كتفي، وأخذت تضحك، ومع ذلك كانت الدموع تسيل على خديها، كانت تنتحب وتضحك في آنٍ واحد... ثم خرجتُ وقلت لجميع الناس في العرس:

- الويل لفيلكا موروزوف، لو التقيتُ به لانتقل فوراً إلى العالم الآخر.

لم يعرف الأبوان ماذا يقولان من شدّة الفرح، كادت أم أكولكا أن ترتمي على قدمي ابنتها، وكانت تنتحب. وقال الشيخ لابنته:

- لو علمنا وعرفنا كل ذلك يا ابنتنا الحبيبة! لما أعطيناك لزوج مثل هذا.

ليتك رأيت ملابسنا في أول أحد، بعد زواجنا، حين خرجنا من الكنيسة، كنت أنا، مرتدياً قفطاناً من جوخ فاخر، وسروالاً من القطيفة، ومعتمراً قبعة من فراء، وكانت هي، ترتدي معطفاً جديداً من فراء الأرنب، وعلى رأسها وشاح من حرير، كنا زوجين متكافئين. كان الناس جميعاً ينظرون إلينا بإعجاب. كنت لا بأس بي، وكذلك أكولينوشكا، لا ينبغي للمرء أن يمدح نفسه، ولا أن يبخسه حقه، وعلى كل حال، ليس هناك الكثير، من أناس مثلنا...

- وإذن كل شيء مرّ على ما يرام!

- طيب، اسمع! غداة زواجنا، هربت بعيداً عن ضيوفي، رغم سكري، وأخذت أركض في الشارع صائحاً:

- أين ذلك الوغد فيلكا موروزوف! فليأتِ إليّ هذا النذل!

كنت أعول بهذا في السوق. يجب أن أقول إنني كنت شديد السكر، وقبضوا عليّ مع ذلك قرب منزل عائلة فلاسوف، واحتاجوا إلى ثلاثة رجال ليرجعوني عنوة إلى البيت. صارت القصة على لسان الناس جميعاً في المدينة كلها. ومتى التقت الفتيات في السوق كانت إحداهن تقول لأخرى:

- وإذن، هل علمت بالخبر؟ أكولكا كانت عذراء.

وبعد ذلك بوقت قصير، صادفت فيلكا موروزوف، فقال لي جهاراً على رؤوس الأشهاد، أمام غرباء:

- بعْ زوجتك، واشرب بثمنها خمراً، افعل كما فعل عندنا الجندي ياشكا، لم يتزوج إلا لهذا الغرض، حتى أنه لم يضاجع

امرأته مرة واحدة، ولكنه على الأقل حصل على مال يسكر به ثلاث سنين.

أجبته:

- أنت نذل!

فردّ عليّ:

- أنتَ غبيّ، تزوجت في حالة سكر، لم تكن بكامل عقلك. ألا تستطيع أن تدرك شيئاً من ذلك؟

ولما وصلتُ إلى البيت صرخت قائلاً:

- زوجتموني وأنا سكران.

أرادت أم أكولكا أن تزعجني فقلت لها:

- إليك عني، يا امرأة، أنت لا تفهمين إلا في شؤون المال. هاتي لي أكولكا!

وبدأت آنذاك أضربها. وظللتُ أضربها، أيها الرفيق، ساعتين كاملتين، وأنا أضربها، إلى أن تهاويت أنا نفسي على الأرض، ولم تستطع هي أن تبارح السرير ثلاثة أسابيع.

قال تشيريفين بفتور:

- طبعاً! إذا لم نضربهن، فإنهن... هل ضبطتها مع عشيقها؟

وقال شيشكوف بعد صمت، وهو يتكلم بجهد:

- لا، الحق يقال، لم يحدث هذا أبداً، ولكنني شعرتُ بالذل والهوان، لأن الناس جميعاً كانوا يتهكّمون عليّ. والسبب في كل ذلك، هو فيلكا. كان يقول لي:

- زوجتك مثل «موديل» خلقت لكي ينظر إليها الآخرون.

ذات يوم، دعانا إلى بيته، وإذا به يقول:

- انظروا إلى زوجته، ما أطيبها، ما أرقّ قلبها الحنون، وما أكرم نسبها، وما أعظم أدبها، وعطفها، ولطفها، مع جميع الناس! أنسيت يا صاحبي أننا لطخنا معاً بابها بالقطران؟

كنت في هذه اللحظة سكران، وها هو ذا يقبض على ناصيتي، ويشدّني بقوة، ويطرحني أرضاً لأول وهلة. ويقول لي:

- هيا، ارقص، يا زوج أكولكا، أنا أمسك بشعرك، وأنت، ترقص لتسليني!

- حقير! قلت له فقال لي:

- سآتي مع الأصحاب إلى بيتك وسأجلد زوجتك أكولكا أمامك، على هواي.

هل تصدق يا صاحبي؟ لقد بقيت شهراً كاملاً، لا أجرؤ على الخروج من البيت، خشية أن يجيء إلينا فتقع لامرأتي فضيحة. وما أكثر ما ضربتها لذلك!

- ما الفائدة من ضربها؟ يستطيع المرء أن يوثق يديّ المرأة، ولكن لا يمكنه أن يعقل لسانها. ولا ينبغي الإسراف في ضرب النساء. اضربها أولاً، ثم أدّبها، وداعبها بعد ذلك. لهذا خلقت المرأة.

بقي شيشكوف صامتاً لحظات ثم تابع قائلاً:

- كنت أشعر بالهوان، عدتُ إلى عاداتي القديمة، صرت أضربها من الصباح إلى المساء لأتفه سبب، لأنها لم تنهض كما كنت أحب، لأنها لم تمشِ كما يجب! وإذا لم أضربها كنت أحسّ بالضجر. كانت في بعض الأحيان تظلّ جالسة قرب النافذة تبكي

بصمت. . . فكان يحزنني أحياناً أن أراها تبكي، ولكنني كنت أضربها مع ذلك. . . وكانت أمها تشتمني بسببها أحياناً وتقول لي:

- أنت لئيم! تستحق الشنق!

وأزجرها قائلاً:

- سأقتلها، ولا يحق الآن لأحد أن يقول شيئاً، لأنكم خدعتموني وزوجتموني بها وأنا سكران.

وأراد الشيخ أنكوديم في أول الأمر أن يتدخل أيضاً، فقال لي ذات يوم:

- حذار! أنت، لست بشخص خارق لا يمكن ردّك إلى الصواب! ولكنه ما لبث أن تقهقر. أما ماريا ستيبانوفنا فقد استكانت تماماً. ذات يوم، جاءت إليّ دامعة، متضرعة:

- إن قلبي ينفطر ألماً، يا إيفان سيميونيتش، أريد أن أطلب منك شيئاً، لا أهمية له عندك، ولكنني أحرص عليه كثيراً، دعْها ترى النور، يا عزيزي.

وإذا بها تجثو على ركبتيها أمامي متوسلة:

- ترفَّق بها، سامحها! إن الناس الأشرار افتروا على ابنتنا، ولكنك تعلم حقّ العلم أنها كانت عذراء حين تزوجتها. . .

وجثت الأم مرة أخرى على ركبتيها وهي تبكي. إلا أنني ركبت رأسي فقلت لها:

- لا أريد أن أسمع شيئاً، وسأفعل بكم ما يحلو لي، لأنني خارج عن طوري، أما فيلكا موروزوف، فهو أفضل صديق لي، وأعزّ صديق لديّ. . .

قال تشيريفين:

- إذن، عدتما إلى السكر معاً من جديد؟

- معاً! لا سبيل إلى الاقتراب منه: كان يقتل نفسه من فرط الشرب. أنفق كل ما يملك على الخمر، وتطوع جندياً في الجيش، بديلاً عن الابن البكر لأحد أغنياء المدينة. جرت العادة عندنا، عندما يقبل فتى أن يتجنّد مكان آخر، يصبح سيد البيت، ويفعل فيه ما يشاء، إلى أن يُدعى للجندية. ولا يتلقى المبلغ المتفق عليه إلا يوم رحيله، وبانتظار ذلك اليوم يعيش في منزل مولاه، أحياناً ستة أشهر كاملة.

وما من فظاعة لا يرتكبها أمثال هؤلاء الفتيان. ولم يبقَ إلا أن تنقل الصور المقدسة بعيداً عن البيت. ومنذ اللحظة التي يوافق فيها على أن يتجنّد مكان ابن رب البيت، يعتبر نفسه ولي نعمة أهله وعليهم باحترامه: وإلا عدل عن التزامه. لذلك عاش فيلكا موروزوف في منزل ذلك الرجل الغنيَ عيشة ماجنة، فكان ينام مع ابنته، ويمسك بلحيته بعد العشاء، ويفعل كل ما يخطر بباله. وكان على أهل البيت أن يوقدوا له الحمام (البخاري) كل يوم، وكان يجب أيضاً أن يزيدوا إلى البخار خمراً، وكان على النساء أن يأخذنه إلى الحمام وهنّ يسندنه من تحت ذراعيه. وحين يعود إلى هذا المنزل بعد أن يعربد كان يقف في وسط الشارع صائحاً:

- لا أريد الدخول من الباب، اهدموا السياج.

ويضطر أهل الدار عندئذٍ إلى أن يحطّموا الحاجز قرب الباب، ليُتاح له الدخول فحسب. إلا أن كل ذلك انتهى أخيراً، يوم سيق فيلكا إلى الجندية، في ذلك اليوم، صحا من السكر. واحتشد الناس في الشارع كله قائلين بعضهم لبعض:

- هذا فيلكا موروزوف يُساق إلى الجندية!

وكان هو يحيي الناس من كل جهة، يمنة ويُسرة. وفي هذه الأثناء كانت أكولكا عائدة من البستان. وحالما رآها ناداها:

- قفي!

ونزل من العربة وسجد أمامها قائلاً:

- يا روحي! يا توتتي الحلوة، أحببتك سنتين، وأنا الآن أساق إلى الجندية على أنغام الموسيقى. سامحيني، أيتها الفتاة الشريفة، يا ابنة الأب الشريف، لأنني نذل حقير، أنا المذنب في كل ما ألمَّ بك من شقاء!

قال ذلك وانحنى أمامها ساجداً مرة أخرى. في أول الأمر، ارتعبت أكولكا، ولكنها بعد ذلك حيته بتحية كبيرة وبنصف انحناءة قائلة له:

- سامحني أنت أيضاً، أيها الفتى الطيب، ولكنني لست مغتاظة منك إطلاقاً!

ورجعت إلى الإسبة في أثرها وسألتها:

- ماذا قلت له؟ يا لحم الكلبة!

ولك أن تصدّقني أو لا تصدقني، فقد نظرت إليّ وقالت لي:

- نعم أحبه الآن، أكثر من أي شيء في العالم!

- عجباً!...

في ذلك اليوم، لم أنبس ببنت شفة. غير أنني قلت لها في المساء:

- أكولكا! سأقتلك الآن.

لم يغمض لي جفن طوال الليل، فرحت أشرب «الكفاس» في

مدخل الإسبة - «إيزبا»، حتى طلع النهار، ثم رجعت إلى الغرفة، وقلت لها:

- أكولكا، استعدي للذهاب إلى الحقل.

كنت أنوي الذهاب إلى الحقل من قبل، وكانت والدتي تعرف ذلك. فقالت لي:

- أنت على حق، هذا وقت الحصاد، قيل لي إن العامل مريض منذ ثلاثة أيام ولا يفعل شيئاً.

ربطت الحصان إلى «التليغة» - العربة - دون أن أقول كلمة واحدة. في آخر المدينة توجد غابة طولها خمسة عشر فرسخاً، وفي طرفها كان يقع حقلنا. لمّا قطعنا ثلاثة فراسخ تحت الأشجار، أوقفت الحصان. قلت لزوجتي:

- أكولكا، انهضي، حان أجلك.

نظرت إليّ مذعورة ذعراً شديداً ونهضت صامتة. قلت لها:

- لقد عذّبتني كفاية، هيّا صلي صلاتك الأخيرة!

أمسكتُ بها من شعرها - كانت لها ضفائر طويلة، كثيفة، لففتها حول ذراعي، قبضتُ على زوجتي بين ركبتي، أخرجت سكيني، سحبت رأسها إلى الخلف، وشققت عنقها... صرخت، تدفق الدم، عندئذٍ رميت سكيني، ضممتُ زوجتي بين ذراعي، ومددتها على الأرض، وقبلتها وأنا أعول بكل ما أوتيت من قوة. أنا أصيح وهي تصرخ، وتختلج وتتخبط والدم - دمها - ما زال يتدفق غزيراً، حتى يقفز إلى وجهي، ويلطخ يدي. وحينئذٍ خفت، فتركتها، وتركت حصاني، وأخذت أركض، ركضت حتى وصلت إلى الإسبة، ودخلت إليها من الخلف واختبأت في كوخ مهمل متهالك كان قديماً حماماً،

وتمدَّدت تحت المصطبة، وبقيت مختبئاً هناك إلى أن ادلهمّ الليل.

- وأكولكا؟

- نهضت لترجع هي أيضاً إلى الإسبة. عثر عليها فيما بعد على مسافة مائة قدم من المكان.

- لم تُجهز عليها، إذن؟

- . . . كلا!

وصمت شيشكوف لحظة. قال تشيريفين:

- صحيح، هناك وريد. . . إذا لم يقطع من الطعنة الأولى، فإن الإنسان يتخبّط، ينزف دمه ولكنه لا يموت.

- وقد ماتت مع ذلك. عثر عليها في المساء، جثة باردة. أخبر المعني بالأمر، وجرى البحث عني. وقبض عليّ أثناء الليل في ذلك الحمام القديم. . .

وأضاف شيشكوف بعد لحظة صمت:

- وها أنا ذا هنا منذ أربعة أعوام.

قال تشيريفين بلهجة وقار مصطنع وهو يخرج منشقته، وينشق منها نشقاً طويلاً ومتقطعاً:

- نعم، إذا لم نضربهن، لا نتوصّل إلى شيء طيب. ولكنك، يا بني، تصرّفت بغباء شديد. أنا أيضاً ضبطت امرأتي مع عشيق. فاقتدتها إلى الحظيرة، وتناولت لجاماً وطويته نصفين وقلت لها: لمن حلفت أن تكوني وفية؟ لمن أقسمت في الكنيسة، لمن؟ وأخذت أضربها بلجامي ضرباً شديداً مبرحاً خلال ساعة ونصف وأنا أضربها وأجلدها إلى أن هدّها الضرب فصاحت تقول لي: سأغسل قدميك وأشرب ماءهما! كان اسمها أفدوتيا.

5. فصل الصيف

حلّ شهر نيسان/ أبريل منذ حين، والأسبوع المقدّس ليس ببعيد. وبدأت أشغال الصيف. ويوماً بعد يوم تزداد الشمس دفئاً وسطوعاً، ويفوح الهواء بأريج الربيع تاركاً أثره في الجهاز العصبي. ويضطرب السجين المغلول، هو أيضاً، بقرب الأيام الجميلة، التي تبعث فيه رغبات، وتطلّعات، وحزن الحنين. أعتقد أن المرء يفتقد حريته بحرارة أشدّ في نهار مشمس، أكثر ممّا يفتقدها خلال الأيام الممطرة والكئيبة من الخريف والشتاء. وهذا أمر ملاحظ لدى جميع السجناء: إذ كلما أحسّوا بشيء من الفرح في يوم جميل مشرق، يصبحون بالمقابل أقل صبراً وأكثر اهتياجاً. كما لاحظت أن الخصومات تكثر في سجننا خلال فصل الصيف. كان الضجيج يشتدّ، والصراخ يتفاقم، والعراك يتكاثر، وأثناء ساعات العمل، كنا نفاجأ أحياناً بنظرات متأملة تائهة بكل عناد في الفضاء المائل إلى الزرقة، هناك، في مكان ما، على الضفة الأخرى من نهر إرتيش، حيث يبدأ السهل الفسيح، متباعداً بمئات الفراسخ، عن السهب الكرغيزي الحر، وقد تتناهى تنهدات طويلة صاعدة من أعماق الصدر، كأن ذلك الهواء البعيد والطلق حثّ السجناء على أن يتنفّسوا، كما لو أنه أراح نفوسهم السجينة والمسحوقة. آه! أخيراً يتأوه المحكوم عليه، وعلى حين غفلة، كأنه ينفضُ عنه هواجسه، يتناول غاضباً مجرفته أو يجمع الآجر الذي عليه أن ينقله من مكان إلى آخر. وما هي إلا لحظة حتى ينسى هذا الإحساس الهارب ويعود إلى الضحك والسباب، تبعاً لمزاجه، ويتهجّم على المهمة المفروضة عليه، بحرارة غير معتادة،

ويشتغل بكل قواه كأنه كان يريد أن يخنق بتعب العمل القلق الداخلي الذي يضنيه. إنهم أناس أشداء وفي زهرة العمر، ويملكون كامل قواهم. . . ما أثقل الأغلال خلال هذا الفصل! أنا لا أمارس العاطفية إنما أثبت صحة ملاحظتي. أثناء الصيف، تحت شمس محرقة، حين يحسّ المرء في نفسه كلها، وفي كيانه كله، بالطبيعة التي تبعث من حولك بقوة فائقة الوصف، فإنه يشعر بمزيد من المشقة لاحتمال السجن، ورقابة الحرس، وطغيان إرادة غريبة.

وفضلاً عن ذلك، ففي فصل الصيف، ومع غناء أول قبَّرة، يبدأ التشرّد في كلّ سيبيريا، وفي كل روسيا: إذ يفرّ خلق الله من السجون ويحتمون بالغابات. فبعد الحفرة الخانقة، والأحكام، والأغلال، والسياط. . ها هم يتسكعون أنى شاءوا، على غير هدى، حيث تبدو لهم الحياة أمتع وأسهل، يشربون ويأكلون ما يقعون عليه، كيفما اتفق، ويناموون الليل هانئين في الغابة أو في حقل، دون هم، ولا غمّ في السجن، كطيور الله، لا تقول ليلة سعيدة إلا لنجوم السماء وحدها، تحت مرأى الله. غير أن الحياة ليست كلها وروداً: إننا نتألم أحياناً من الجوع والتعب «في خدمة الجنرال وقواق». غالباً ما لا يجد هؤلاء المتشردون كسرة خبز يقتاتون بها لعدة أيام، وعليهم أن يتواروا عن أنظار كل الناس، ويختبئوا تحت الأرض كحيوان المرموط، وعليهم أن يسرقوا، وينهبوا وحتى أن يقتلوا في بعض الأحيان. «إن السجين المنفي كالطفل، ينقضّ على كل ما يراه» هذا ما كان يُقال عن منفيين في سيبيريا. هذا المثَل يمكن أن ينطبق في كل قوته وبدقة أكثر أيضاً على المتشردين. فهم كلهم تقريباً قطّاع طرق ولصوص، بالضرورة أكثر ممّا هُم كذلك بالفطرة. المتشرِّدون

المحنَّكون كثيرون، وهناك سجناء يتشرّدون بعد أن قضوا مدة عقوبتهم، وأصبحوا مستوطنين. كان عليهم أن يكونوا سعداء بوضعهم الجديد، وبخبزهم اليومي المؤمن. وإذن! كلا، إن ثمة شيئاً ما يثيرهم ويجذبهم. فهذه الحياة في الغابات، وإن كانت بائسة ورهيبة، ولكنها حياة حرية ومغامرة، لها عند من خبروها فتنة أخاذة وغامضة، - ويستغرب المرء أن يرى بين هؤلاء الهاربين أناساً رصينين، هادئين، كانوا يبشرون بأن يصبحوا رجالاً جادين، ومزارعين ناجحين. قد يتزوج مَن كان محكوماً عليه بالأشغال الشاقة، وقد ينجب أطفالاً، وقد يعيش خمس سنوات مستقراً في عين المكان، وإذا به فجأة يختفي ذات صباح، تاركاً زوجته وأولاده أمام اندهاش أسرته وكل سكان الدائرة. دلوني مرة في السجن على أحد هؤلاء الهاربين من بيت الزوجية. لم يكن قد ارتكب أيّة جريمة، أو على الأقل لم يكن موضع ريبة، ولكنه هرب من بيته، وتشرَّد وظلَّ متشرداً طوال حياته: كان قد وصل حتى الحدود الجنوبية للإمبراطورية، على الضفة الأخرى لنهر الدانوب، ورحل إلى سهل كيرغيز، وجال في سيبيريا الشرقية، وطاف بأرجاء القوقاز - وفي كلمة واحدة، كان في كل مكان. من يدري؟ في ظروف أخرى، كان يمكن لهذا الرجل أن يصبح ربما مثل روبنسون كروزوي، في شغفه بالترحال. عرفت عنه هذه التفاصيل من سجناء آخرين، لأنه كان لا يحبّ الكلام، ولا يفتح فاه إلا عند الضرورة القصوى. كان فلاحاً قصيراً في نحو الخمسين من عمره، وديعاً جداً، وذا وجه يظهر عليه الهدوء، وحتى الغباء. كان سكونه يشبه البَلَه. كان يهوى الجلوس في الشمس، مدندناً بين أسنانه أغنية ما ولكن بصوت خافت لا يكاد يُسمع حتى لو ابتعدت عنه خمس

خطوات. كانت قسمات وجهه متحجرة تقريباً، كان يأكل قليلاً، لا سيما الخبز الأسود، لكنه لم يكن يشتري لا الخبز الأبيض، ولا ماء الحياة، بل أظنّ أنه لم يعرف المال يوماً، ولا كان يحسِن عدّه. كان لا يبالي بأي شيء. كان في بعض الأحيان يطعم كلاب السجن بيده، وذلك أمرٌ لم يكن يفعله أحد قط. (الروسي عامة لا يحبّ أن يطعم الكلاب). كان يُقال إنه تزوج مرتين، وإن له أطفالاً في مكان ما... لماذا أرسل إلى السجن، لا أعرف عن ذلك شيئاً. كان رفاقنا يعتقدون دائماً أنه سيفرّ، ولكن إمّا أن ساعته لم تحن، وإما أنها فاتت، كان يقضي عقوبته بكل هدوء. لم تكن له أيّة صلة بالوسط الغريب الذي يعيش فيه، وكان مفرط الانكماش على ذاته حتى يربط علاقة بأحد. ولا ينبغي الوثوق بهدوئه الظاهر هذا، ولكن ماذا كان سيجني لو هرب؟

إذا قورنَت حياة التشرُّد في الغابات بحياة السجن، فهي غبطة فردوسية. إنّ مصير المتشرّد شقي، ولكنه حرّ على الأقل. لهذا فإنّ كل سجين، حيثما كان في روسيا، يغدو قلقاً مع بزوغ أولى أشعة الربيع الباسمة. ليس في نيتهم جميعاً أن يهربوا، خوفاً من العقبات والعقوبات المحتملة، ليس إلا سجين واحد من مائة فحسب يقرر الفرار، ولكن التسعة والتسعين الآخرين يكتفون بالحلم متسائلين كيف وإلى أين يستطيعون الفرار. ومع هذه الرغبة في الهروب، فإنّ فكرة واحدة لفرصة مواتية تخفِّف عنهم، لذلك كانوا يتذكرون محاولة فرار سابقة. لا أتكلم إلا عن السجناء الذين حُكم عليهم، أما الذين لم يقضوا عقوبتهم بعد فإنهم يقرِّرون الفرار بسهولة أكبر كثيراً. إن السجناء الذين حُكم عليهم، لا يهربون إلا في بداية عهدهم بالسجن.

وعندما يقضون في السجن سنتين أو ثلاث سنوات، يأخذون هذا بعين الاعتبار، ويرون أن من الأفضل لهم أن يكملوا مدة سجنهم وفقاً للقانون، وأن يصبحوا مستوطنين، على أن يتعرّضوا للضياع في حالة الفشل، والفشل محتمل دائماً. ليس هناك سوى سجين من عشرة سجناء ينجح في محاولة «تغيير مصيره». وهؤلاء دائماً تقريباً هم السجناء الذين حكم عليهم بالسجن لمدة غير محدودة. إن خمسة عشر عاماً، أو عشرين عاماً، تبدو للسجين مدّة أبدية.

وأخيراً، تعدّ العلامة التي يوسم بها السجين عقبة كبرى في عمليات الفرار. وعبارة «تغيير مصيره» اصطلاح فني. إذا ضبط السجين متلبساً بجريمة الفرار، فإنه يجيب عن الاستنطاق الذي يخضع له بكونه أراد «تغيير مصيره». إن هذا التعبير الأدبي بعض الشيء يصوّر الفعل الذي يشير إليه تصويراً كاملاً. لا أحد من الهاربين يأمل أن يصبح حراً كليّاً، لأنه يعرف أن ذلك مستحيل تقريباً، ولكنه يريد أن يرسل إلى سجن آخر، أو أن يستوطن مكاناً ثانياً في البلد، أو أن يحاكَم من جديد لجريمة يرتكبها أثناء تشرده، وبكلمة واحدة، يريد أن يرسل إلى أي مكان، شريطة أن لا يكون ذلك المكان هو هذا السجن الذي يحبس فيه وأصبح لا يحتمله. إن جميع هؤلاء الهاربين، إذا لم يجدوا خلال الصيف مأوى غير منتظر يستطيعون أن يقضوا فيه الشتاء، وإن لم يصادفوا أحداً له مصلحة في إخفائهم، وأخيراً إذا لم يحصلوا، بالجريمة أحياناً، على جواز سفر يتيح لهم أن يعيشوا آمنين في كل مكان، جميع هؤلاء الهاربين يظهرون بكثرة خلال الخريف في المدن وفي السجون، يعترفون بتشردهم ويقضون الشتاء في السجون، مؤملين أملاً خفياً أن يفروا في الصيف القادم.

لقد أحدث الربيع أثره في نفسي أنا أيضاً. ما زلت أذكر بأيّة لهفة كنت أنظر إلى الأفق من خلال شقوق السياج، كنت أبقى طويلاً، ملصقاً رأسي بأوتاد السياج، متأملاً بعناد ودون أن أشبع من تأمل العشب الذي كان يخضرّ في خندق السور، وزرقة السماء البعيدة التي تزداد كثافة شيئاً فشيئاً. وكان قلقي وحزني يتفاقمان يوماً بعد يوم، وأصبح السجن مقيتاً بالنسبة إليّ، والحقد الذي كان يشعر به السجناء نحوي خلال هذه السنوات الأولى بصفتي نبيلاً كان يسمِّم حياتي كلها. فكنت أطلب في كثير من الأحيان الذهاب إلى المستشفى دون أن أكون محتاجاً إليه، ليس إلّا لكي لا أكون في السجن، وحتى أتخلص من هذا الحقد العنيد الشديد. كان السجناء يقولون لنا: «أنتم النبلاء، أنتم مناقير من حديد، مزَّقتم لحمنا بضربات مناقيركم حين كنا لكم أقناناً». كم كنت أحسد أبناء الطبقة الدنيا الذين يصلون إلى السجن! هؤلاء، منذ الوهلة الأولى، كانوا يصبحون رفاقاً للجميع. هكذا كان الربيع، طيف الحرية، فرح الطبيعة كلها، يترجم في داخلي إلى حزن مضاعف واهتياج عصبي. وحوالي الأسبوع السادس من الصوم الكبير، كان عليَّ أن أقوم بشعائري الدينية، لأن السجناء كانوا مقسَّمين من طرف ضابط الصف إلى سبع فئات (بعدد أسابيع الصوم تماماً) وكان عليهم أن يؤدوا شعائرهم الدينية بالدور فئة بعد أخرى. كانت كل فئة تتألف من ثلاثين رجلاً تقريباً. هذا الأسبوع كان عزاء بالنسبة إليّ، كنا نذهب مرتين أو ثلاث مرات في اليوم إلى الكنيسة، التي لم تكن تبعد كثيراً عن السجن. لم أكن قد ذهبتُ إلى الكنيسة منذ زمن طويل. إن قدّاس الصوم، الذي كنت أعرفه جيداً منذ نعومة أظفاري، لأنّي سمعته في بيت والدي،

وما يصاحبه من صلوات وأدعية وانحناء، كل ذلك هزّ في نفسي ماضياً بعيداً، بعيداً جداً، وأيقظ فيها أقدم أحاسيسي، كنت سعيداً جداً، ما زلت أذكر ذلك، حين كنا نذهب في الصباح إلى بيت الله، سائرين على الأرض المتجمدة أثناء الليل. كان يرافقنا إلى الكنيسة حرس من جنود حاملين بنادقهم معبأة بالرصاص، ولم يكن الحرس يدخلون إلى الكنيسة. وبمجرد أن دخلنا، تجمعنا قريباً من الباب، في الصف الأخير، بحيث لا نكاد نسمع إلا الصوت العميق للشماس، وبين الفينة والأخرى، كنا نلمَح حلّة القداس السوداء، أو جمجمة القسّ العارية. فتذكرت عندئذٍ كيف كنت وأنا طفل أنظر إلى أبناء الطبقة الدنيا من الشعب يزدحمون عند الباب كتلة متراصة، ويتقهقرون صاغرين أمام ضابط كبير، أو سيد أكرش، أو سيدة باذخة الثياب، ولكنها ورعة جداً، ومسرعة إلى احتلال الصف الأول، ومستعدة للشجار من أجل أن تحظى بشرف الجلوس في الأماكن الأولى. كان يخيل إليّ يومئذٍ أنّ ذلك المكان، في مدخل الكنيسة، هو المكان الذي يمكن أن يصلي فيه الإنسان بورع، وخشوع، ساجداً على الأرض، وواعياً بخضوعه تماماً.

وها أنا الآن وقفت في مكان أبناء الطبقة الدنيا من الشعب، لا، ليس حتى في مكانهم، لأننا كنا مكبلين، ومجللين بالذل والهوان، وكان الناس يبتعدون عنا، ويخافون منّا، ويتصدقون علينا، وأذكر أنني كنت أجد في ذلك إحساساً مرهفا ولذة غريبة. كنت أقول لنفسي: «ليكن هكذا!». كان السجناء يصلّون بحرارة، ويحملون جميعاً كوبيكهم الهزيل ليشتروا به شمعة صغيرة أو ليتبرعوا به للكنيسة، «وأنا أيضاً إنسان»، ربما كان كل واحد يقول هذا لنفسه

وهو يقدم تبرعه: «أمام الرب الجميع سواء...» وتناولنا القربان بعد قداس الساعة السادسة. وحين كان القسّ يتلو، وهو يرفع حقّة القربان في يده، هذه الكلمات: «ارحمني كما رحمت اللص الذي خلصته...» سجد جميع السجناء تقريباً محدثين ضجيجاً بأغلالهم، وأظنّ أنهم كانوا يفهمون حرفياً هذه الكلمات ويعتبرونها خاصة بهم.

وأقبل الأسبوع المقدَّس. فوزعت علينا الإدارة بيضة عيد الفصح، وكسرة خبز من دقيق القمح.

وغمرتنا المدينة بالصدقات. وكما حدث في عيد الميلاد: زيارة القس حاملاً الصليب، زيارة الرؤساء، حساء الكرنب المطبوخ بشحم الخنزير، وكذلك السكر والتسكع العام، مع فرق وحيد هو أننا الآن أصبحنا نتنزه في الفناء ونتدفأ بأشعة الشمس. كل شيء كان يبدو أسطع وأوسع ممّا في الشتاء، ولكنه أكثر حزناً كذلك. كان النهار الصيفي الطويل الذي لا ينتهي يبدو غير مطاق بصفة خاصة أيام العيد. وأيام العمل، على الأقل، يجعلها التعب أقصر. وأشغال الصيف أشقّ كثيراً من أشغال الشتاء، إذ كان العمل صيفاً بصفة خاصة في الأشغال الشاقة التي يأمر بها المهندسون. فكان السجناء يبنون، يحفرون الأرض، ويرصّون الطوب، أو يتفرغون لترميم البنايات التابعة للدولة، خاصة بأعمال الحدادة والنجارة والدهان. وآخرون كانوا يذهبون إلى ورشة لصنع الآجر، وذلك كان في نظرنا أشق من أيّ عمل آخر. كان مصنع الآجر يقع على بعد أربعة فراسخ تقريباً من قلعتنا، وكانت ترسل إليه، طوال الصيف، وفي الساعة السادسة من كل صباح، جماعة من السجناء، عددها خمسون. كان يختار لهذا العمل الذين لا يتقنون أيّة حرفة ولا ينتسبون إلى أيّة ورشة. كانوا

يحملون معهم خبز يومهم، لأنهم بسبب المسافة البعيدة لا يستطيعون العودة للغذاء في الوقت نفسه مع الآخرين، ولا قطع ثمانية فراسخ دون فائدة، كانوا يأكلون في المساء، حين يرجعون إلى السجن. كانوا يكلّفون بمهام خاصة بالنهار كله، ولكنها مهام جسام، لا يكاد أحد يستطيع القيام بها. كان عليهم في أول الأمر أن يحفروا الأرض، ويستخرجوا الخزف وأن ينقلوه ويبللوه وأن يدوسوه ويرفسوه بأرجلهم في الحفرة، وأن يصنعوا منه أخيراً مقداراً لا يُستهان به من الآجر، مائتين، وحتى مائتين وخمسين. لم أذهب إلى مصنع الآجر إلا مرتين. كان السجناء الذين أرسلوا إلى هذا العمل يعودون منه منهكي القوى، ولا يتوقفون عن لوم الآخرين على أنهم تركوا لهم أشقّ عمل. وأظن أنهم كانوا يجدون في هذا اللوم متعة وعزاء. وكان منهم رجال يحبون هذا العمل المرهق، أولاً لأنه كان يمكّنهم من الذهاب إلى خارج المدينة، على ضفة نهر إرتيش، في فضاء فسيح مريح، وكانت رؤية الضواحي أجمل من منظر هذه المباني الحكومية البشعة. وكان بإمكانهم ثانياً أن يدخّنوا هناك بحرية كاملة، وحتى أن يظلوا راقدين نصف ساعة في رضى تام.

أما أنا، فقد كنت أذهب وأعمل في ورشة، أو أقوم بتكسير الجبس، أو أنقل الآجر المستعمل في البناء. وقد وقع هذا العمل الأخير على كاهلي شهرين متتاليين. كان عليّ أن أنقل حمولتي من الآجر من ضفة إرتيش على مسافة مائة وأربعين متراً تقريباً، ثم أعبر خندق القلعة قبل أن أصل إلى الثكنة التي كانت قيد البناء. كان هذا العمل يناسبني كثيراً، رغم أنّ الحبل الذي كنت أحمل به لبناتي كان ينشر كتفي. وما كان يروقني خاصة هو أن قواي كانت تنمو على نحو

ظاهر. كنت في أول الأمر لا أستطيع أن أحمل إلا ثماني لبنات دفعة واحدة، كل لبنة تزن حوالي اثنتي عشرة ليبرة. ثم أصبحت أستطيع حمل اثنتي عشرة آجرة وحتى خمس عشرة، فأفرحني ذلك كثيراً. لم تكن حاجتي إلى القوة الجسمية أقل من حاجتي إلى القوة النفسية لاحتمال كل متاعب تلك الحياة اللعينة.

وكنت أريد أن أحيا أيضاً، بعد خروجي من السجن!

كنت أجد متعة في حمل الآجر، ليس فقط لأن هذا العمل كان يقوي جسدي، بل لأننا كنا دائماً على ضفة نهر إرتيش. إنني أتكلم كثيراً عن هذا المكان، لأنه المكان الوحيد الذي يمكن للمرء أن يرى منه دنيا الله، والمدى البعيد النقي والمضيء، والسهوب الحرة والمقفرة، التي كان عريها يبعث في نفسي دائماً إحساساً غريباً. أمّا ورشات العمل الأخرى فكانت كلها في القلعة أو على أطرافها، ومنذ الأيام الأولى، كرهت هذه القلعة، وبناياتها خاصة. كان بيت ماجور الموقع يبدو لي مكاناً ملعوناً، مثيراً للاشمئزاز، وكنت دائماً أنظر إليه بكره خاص، كلما مررتُ أمامه، أما على الضفة، فالمرء يستطيع على الأقل أن ينسى هناك نفسه وهو يتطلع إلى هذا الفضاء الشاسع والمقفر، كما ينسى السجين نفسه وهو ينظر إلى العالم الحر من خلال كوة سجنه المسيجة بالقضبان الحديدية. كل شيء كان عزيزاً على نفسي ولطيفاً في ذلك المكان: والشمس، ساطعة في اللانهاية السماوية الزرقاء، وأغنية الكيرغيز البعيدة المتناهية من الضفة الأخرى.

ما أكثر ما كنت أطيل النظر إلى كوخ فقير مسوّد من الدخان، يسكن فيه بايغوشي ما، وما أكثر ما كنت أمعن النظر في الدخان

المزرق الذي ينتشر في الهواء، والمرأة الكرغيزية التي تُعنى بخروفيها... هذا المشهد متوحش، وفقير، ولكنه حرّ. كنت أتابع ببصري تحليق طائر ينطلق في الهواء الشفاف والصافي، يلامس الماء، ثم يختفي في زرقة السماء، وفجأة يظهر من جديد، كبيراً كنقطة صغيرة... حتى الزهرة الصغيرة المسكينة التي تذوي في شقٍّ على الشاطئ والتي أراها في مطلع الربيع، تجذب انتباهي وهي توقظ حناني... إنّ حزن هذه السنة الأولى من الأشغال الشاقة كان لا يُطاق، ويثير أعصابي.

منعني هذا القلق في أول الأمر من ملاحظة الأشياء التي كانت تحيط بي، فكنت أغمض عيني ولا أريد أن أرى شيئاً. وبين الناس الفاسدين الذين كنت أعيش معهم، لم أميِّز الرجال القادرين على أن يفكروا وأن يشعروا، رغم مظهرهم المنفر. ولم أستطع أيضاً أن أسمع أو أن أتبيّن كلمة فيها عطف ومودة وسط السخريات المسمومة التي كانت تتهاطل عليّ كالمطر، ومع ذلك فإن هذه الكلمة كانت تقال ببساطة دون غرض مبيت، وكانت تصدر من أعماق قلب رجل عانى كثيراً وتحمل أكثر مني. ولكن ما جدوى الإفاضة في هذا؟

كان الإرهاق الشديد مصدر رضى بالنسبة إليّ. لأنه كان يجعلني آمل في نوم عميق، فالنوم، في الصيف، كان عذاباً، لا يُطاق أكثر من قذارة الشتاء. غير أنّ هناك أمسيات كانت رائعة جداً والحق يقال. إن الشمس التي ظلت تغرق فناء السجن طوال النهار توارت أخيراً. وأصبح الهواء طرياً أكثر، وغدا ليل السهب بارداً نسبياً. كان السجناء بانتظار أن يحبسوا في الثكنات، يتجولون جماعات، خاصة قرب المطبخ، لأن هناك كانت تناقش المسائل ذات المصلحة العامة،

وهناك كان يعلق على الشائعات الآتية من الخارج، والسخيفة في الأغلب، ولكنها كانت دائماً تثير انتباه هؤلاء الرجال الذين فصلوا عن المجتمع، هكذا، سمع فجأة أن ماجورنا قد طرد. إن السجناء أسرع تصديقاً من الأطفال، يعرفون، هم أنفسهم، أن هذا النبأ زائف، وبعيد الاحتمال، وأن ناقل الخبر كذاب أشِر، هو كفاسوف، ومع ذلك يتعلقون بهذه الثرثرة، يناقشونها، ويبتهجون بها، ويتعزون بها، ثم لا يلبثون أن يخجلوا من كونهم أتاحوا لرجل مثل كفاسوف أن يخدعهم.

وهذا سجين يصيح قائلاً:

- ومن ذا الذي يقوى على طرده؟

وهذا سجين آخر، متحمس للنقاش، وبارع في الجدال، وجال في البلاد كثيراً، يردّ قائلاً:

- ومع ذلك فإن له رؤساء!

وهذا سجين ثالث يبدو مقطباً كئيباً، كأنه يخاطب نفسه، وهو رجل أشيب كان يتناول حساء الكرنب الحامض منزوياً في أحد الأركان، يجيب بقوله:

- إن الذئاب لا تأكل بعضها.

ويضيف رابع، غير مكترث تماماً، وهو ينقر أوتار آلته البالالايكا:

- أتظن أن هؤلاء الرؤساء سيطلبون منك النصح، لمعرفة هل يجب أن يطردوه أو أن لا يطردوه؟

ويردّ آخر بحدَّة وغضب:

- ولمَ لا؟ إذا سئلتم، فيجب عليكم أن تجيبوا بصراحة، ولكن

كلا، عندنا، نظلّ نصرخ كما نشاء، وحالما يكون علينا أن نباشر عملاً بحزم، يتراجع الجميع.

فيجيب عازف البالالايكا:

- طبعاً! من أجل هذا وجدت الأشغال الشاقة.

ويستأنف الآخر كلامه حتى دون أن يسمع ما أجيب به:

- هكذا إذن، في هذه الأيام الأخيرة، بقي قليل من الدقيق، نفايات، يعني تفاهة! أردنا أن نبيع هذه النفايات، وإذن، ماذا فعل، حين أخبر بها وحملت إليه، صادرها، بدعوى التوفير، أتفهمون؟ صحيح أم لا؟

- ولكن إلى من عساك تشكوه؟

- إلى من أشكوه؟ إلى المفتش الذي سيصل بعد حين.

- إلى أي مفتش؟

- صحيح، يا رفاق، سيصل مفتش عمّا قريب.

هكذا قال سجين شاب، قوي البنية، قرأ كتاب «دوقة لافاليير» أو كتاباً آخر من هذا القبيل، وكان في الماضي عريفاً في فوج بالجيش، إنه مهرِّج، ولكن لسعة معرفته، كان السجناء يكنون له بعض الاحترام. ودون أن يعير أي اهتمام للنقاش الذي كان يثير الجميع، اتجه مباشرة نحو «الطباخة» يطلب منه قطعة كبد. (كان طباخونا غالباً ما يبيعون طعاماً من هذا الصنف، كانوا، مثلاً، يشترون كبداً كاملاً، فيقسمونه ويبيعونه قطعاً إلى السجناء.) سأله الطباخ:

- بكوبيكين أو بأربعة؟

فأجاب السجين:

- بأربعة كوبيكات، وما على الآخرين إلا أن يحسدوني! نعم،

يا رفاق، إن جنرالاً، جنرالاً حقيقياً، سيصل من بطرسبورغ ليفتش سيبيريا كلها. صحيح. قيل ذلك في منزل الكومندان.

أحدث الخبر انفعالاً عجيباً. وظلَّ السجناء، خلال ربع ساعة، يتساءلون عن هذا الجنرال، من هو وما لقبه، وهل هو أعلى رتبة من جنرالات مدينتنا. السجناء يعشقون الكلام عن الرتب، والرؤساء، ويحبّون أن يعرفوا مَن له الغلبة، ومَن الذي يستطيع أن يحني ظهور الموظفين الآخرين، ومَن الذي يحني ظهره للآخرين، ويتشاجرون ويتشاتمون إكراماً لهؤلاء الجنرالات، ويصلون أحياناً حتى إلى التعارك بالأيدي. أيّة فائدة يمكن أن تكون لهم في ذلك؟ عندما يسمع المرء السجناء يتكلمون عن الجنرالات والرؤساء يستطيع أن يقيس مدى التطور والذكاء لدى هؤلاء الرجال كما كانوا في المجتمع، قبل أن يدخلوا إلى السجن. ويجب أن نذكر أيضاً أن الكلام عن الجنرالات والإدارة العليا كان يعد عندنا حديثاً في غاية الأهمية والأناقة.

وقال كفاسوف معلقاً، وهو رجل قصير القامة، أحمر الوجه، حادّ الطبع ومحدود الذكاء. وهو الذي أشاع أن الماجور سيستبدل بآخر:

- أرأيتم ها هم يطردون الماجور.

فقال العجوز الكئيب، بصوت متقطع، بعد أن فرغ من تناول حسائه المطبوخ بالكرنب الحامض:

- سيرشوهم.

وقال آخر:

- سيرشوهم قطعاً. فقد نهب مالاً كثيراً، هذا اللص. تصوروا

أنه كان ماجور كتيبة قبل أن يأتي إلى هنا! لقد جمع مالاً، ومنذ مدّة غير بعيدة خطب ابنة كبير الكهنة.

- ولكنه لم يتزوج: فقد طردوه، وهذا يعني أنه فقير. يا له من خطيب جميل حقاً! لا يملك إلا الثياب التي يرتديها: في العام الماضي، أثناء عيد الفصح، خسر في القمار كل ما كان لديه. إنّ فيدكا هو الذي قال لي ذلك.

وانخرط سكوراتوف في النقاش العام فقال معلقاً:

- إيه، إيه! يا رفاق، أنا أيضاً كنت متزوجاً، ولكن الزواج لا يحسن برجل فقير، يستعجل المرء الزواج، ولكن اللذة لا تطول!

وقال الفتى الذي كان عريفاً في كتيبة بالجيش:

- أتظن أننا نتسلى بالحديث عنك! أما أنت، يا كفاسوف، فإنك غبي كبير. إذا كنت تظنّ أن الماجور يمكن أن يرشو جنرالاً - مفتشاً، فأنت مخطئ خطأ فاحشاً، تتصور أن يرسل الجنرال من بطرسبورغ خصيصاً ليفتش ماجورك! أنت بعد شديد الغباء يا فتى، أنا الذي أقول لك ذلك.

وقال واحد من الحشد بلهجة شك:

- وتظن أنه لا يأخذ رشوة لأنه جنرال؟

- بطبيعة الحال! ولكن إذا أخذ رشوة، فهو يأخذها ضخمة.

- أكيد، تتصاعد حسب الرتبة.

وقال كفاسوف بلهجة وقار مصطنع:

- لا جنرال يرفض رشوة.

فقاطعه باكلوشين فجأة قائلاً له بلهجة احتقار:

- هل رشوتهم، أنت، حتى تتكلم عنهم هكذا بكل يقين؟ بل هل رأيت في حياتك كلها جنرالاً أصلاً؟

- نعم، سيدي.

- كذاب!

- الكذاب هو أنت!

- طيب، يا أولاد، ما دام قد رأى جنرالاً، فليذكر لنا أي جنرال رأى! هيا، قلْ، سريعاً، أنا أعرف الجنرالات جميعاً.

فقال كفاسوف بلهجة مترددة:

- رأيت الجنرال زيبيرت.

- زيبيرت! ليس هناك جنرال بهذا الاسم. وأكيد أنه كان ينظر إلى ظهرك، هذا الجنرال، عندما كانوا يجلدونك. وزيبيرت هذا على الأرجح ليس إلا ليوتنان-كولونيل، ولكنك من شدّة خوفك في تلك اللحظة حسبته جنرالاً.

وصاح سكوراتوف:

- لا، اصغوا إليّ، لأني رجل متزوج. فعلاً كان في موسكو جنرال بهذا الاسم، زيبيرت، كان ألمانياً، لكنه أصبح مواطناً روسياً. كان كل عام يعترف للقسّ بالخطايا التي اقترفها مع سيدات صغيرات. كان يشرب الماء كالبط. كان يشرب أربعين كأساً على الأقل من ماء نهر ماسكفا. هكذا كان يعالج نفسه من مرض لا أدري ما هو: خادمه هو الذي قال لي ذلك.

قال السجين صاحب البالالايكا:

- وإذن! ألم يكن الشبوط يسبح في بطنه؟

وتدخل سجين كان منشغلاً دائماً، اسمه مارتينوف، وهو عجوز خدم جندياً في سلاح الفرسان، قال متسائلاً:

- هلّا هدأتم إذن! كنا نتحدث بجدّ وها هم بدأوا يتفوهون بتفاهات... أي مفتش سيصل، يا رفاق؟

وقال أحد المتشككين:

- هؤلاء أناس كذابون! يعلم الله من جاؤوا بهذا النبأ! كلّ هذا الكلام هراء.

قال كولاكوف بلهجة جازمة، والذي كان قد لزم حتى ذلك الحين صمتاً مهيباً:

- لا، ليس هراء هذا الكلام!

إن كوليكوف رجل ذو أهمية، في نحو الخمسين من عمره، له وجه متناسق القسمات، وفي أسلوبه، الذي يتباهى به، شموخ وازدراء. إنه غجري، وبيطري، يجني أموالاً في المدينة من معالجة الخيول، ويبيع الخمر في سجننا: ليس غبياً، حتى ليمكن اعتباره ذكياً، مع ذاكرة زاخرة، يسقط كلماته بعناية كبيرة كأنّ كل كلمة تساوي روبلاً.

ثم تابع كلامه بلهجة هادئة:

- هذا الكلام صحيح. سمعته في الأسبوع الماضي: إنه جنرال ذو كتِفيات ضخمة، سيفتش سيبيريا كلها. سيأخذ رشاوى، بالتأكيد، ولكن مهما حدث، ليس ماجورنا ذو الثماني عيون هو الذي سيرشوه: إنه لن يجرؤ على أن يندسّ قربه، لأن هناك، كما تعلمون، يا رفاق، جنرالات وجنرالات، كما أن هناك حزماً وحزماً من الحطب. ولكنني أؤكد لكم أن ماجورنا سيبقى في مكانه. نحن دون لسان، لا يحق لنا

أن نتكلم، وأما رؤساؤنا، فليسوا هم الذين سيشون به. سيصل المفتش إلى سجننا، سيلقي نظرة ثم ينصرف فوراً، وسيقول إنّ كل شيء على ما يرام.

- نعم، ولكن يبقى أنّ الماجور خائف، وهو سكران منذ الصباح.

- وفي هذا المساء، طلب عربتين... إن فيدكا هو الذي قال ذلك.

- مهما فركت جسم الزنجي، لن يصير أبداً أبيض اللون. أهي المرة الأولى التي تراه فيها سكران؟

اضطرب السجناء وثاروا وقال بعضهم لبعضهم الآخر:

- كلا، سيكون هذا ظلماً كبيراً، إذا لم يفعل الجنرال بالماجور شيئاً.

انتشر خبر وصول المفتش في السجن. أخذ السجناء يجولون في الفناء وقد نفد صبرهم وهم يرددون النبأ الخطير. كان بعضهم صامتاً ورابط الجأش حتى يتظاهر بالوقار، وظلّ آخرون لا مبالين. وعلى عتبات الأبواب جلس بعض السجناء ليعزفوا على البالالايكا، بينما يتابع بعضهم الآخر الثرثرة. وجماعات أخرى تغني بأصوات فاترة، ولكن فناء السجن كله كان مضطرباً ومهتاجاً بوجه عام.

في نحو الساعة التاسعة تم عدّنا، وأخذنا إلى الثكنات، وأغلقت علينا الأبواب ليلاً. كان ليلاً صيفياً قصيراً، لذلك كانوا يوقظوننا في الساعة الخامسة من الصباح، إلا أن أحداً منّا لم يكن يستطيع النوم قبل الساعة الحادية عشرة من المساء، لأن الأحاديث، والحركة المستمرة، لا تنقطع حتى هذه اللحظة، وفي بعض الأحيان كانت

تنظم مباريات في لعبة الورق كما في ليالي الشتاء. كانت الحرارة خانقة، لا تُطاق. كانت النافذة المفتوحة تسمح بدخول طراوة الليل، ولكن السجناء ما فتئوا يضطربون فوق أسرتهم الخشبية، كأنهم يهذون. كانت البراغيث تفرخ سريعاً. كان عندنا منها ما يكفي في الشتاء، ولكنها مع حلول الربيع كانت تتكاثر بنسب مقلقة جداً، لم أصدّقها حتى عانيت منها بنفسي. وكلما تقدم الصيف، كانت تزداد خبثاً. يمكن الاعتياد على البراغيث، فقد لاحظت ذلك، ولكنها عذاب لا يحتمل، إلى حدّ أنه يصيب الجسم بالحمى، ويحسّ المرء أثناء نومه بأنه غير نائم، ولكنه يهذي. وأخيراً، عند الصباح، حين يتعب العدو، وتستسلم للنوم اللذيذ في طراوة الفجر، يقرع الطبل فجأة معلناً ساعة الاستيقاظ القاسية. وتسمع ضربات العصا على الطبل مكرّرة ومغايرة، فتلعنها، وتلتفّ في معطفك النصفي المبطَّن بالفرو، فتخطر ببالك دون إرادة منك هذه الفكرة بأن هذا الوضع سيظلّ هو ذاته، غداً، وبعد غد، ولعدّة سنوات متتالية، إلى أن يطلق سراحك. فمتى ستأتي، هذه الحرية؟ أين هي هذه الحرية؟ عليك أن تنهض الآن، فالسجناء يسيرون حولك، وبدأ الصخب المألوف يعلو من جديد... والسجناء يرتدون ثيابهم، ويسارعون بالذهاب إلى العمل. يمكنك، حقاً، أن تنام ساعة ظهراً!

إنّ ما قيل عن قدوم المفتش ليس إلا عين الحقيقة. كانت الشائعات تتأكد يوماً بعد يوم، وعرف أخيراً أن جنرالاً، موظفاً كبيراً، قادم من بطرسبورغ ليفتش سيبيريا كلها، وهو الآن وصل إلى توبولسك. كنا نطّلع في كل يوم على شيء جديد: كانت الشائعات تردُ من المدينة: كان يُحكى أن الجميع خائفون، وأن كل واحد كان

يقوم باستعداداته ليبدو في أحسن مظهر. كانت السلطات تنظِّم استقبالات وحفلات راقصة وأعياداً من كل نوع. وأرسلت جماعات من السجناء لتمهيد أزقة القلعة، وانتزاع تلاع الأرض، وصباغة الأسيجة والأوتاد، والقيام بأعمال التجصيص، والتبييض، ولإصلاح كل ما هو ظاهر للعيان. كان السجناء يفهمون الغاية من هذا العمل فهماً تاماً، وكانت مناقشاتهم تزداد حرارة وحماسة. ولم يكن خيالهم يعرف حدوداً، بل كانوا يتهيؤون لتقديم بعض المطالب عندما يصل الجنرال، ولكن ذلك لم يمنعهم قط من أن يتشاتموا ويتشاجروا. كان ماجورنا فوق الجمر، يزور السجن باستمرار، يصرخ، ويهاجم السجناء أكثر من المعتاد، ويرسلهم لأتفه الأسباب إلى مقرّ الحرس من أجل نيل العقاب، ويحرص بصرامة على نظافة وحسن مظهر الثكنات، وفي تلك اللحظة، وقعت قصة صغيرة، لم تهزّ مشاعر هذا الضابط، كما كان متوقعاً، بل سببت له ارتياحاً كبيراً. ذلك أن سجيناً طعن آخر بمخرز في صدره عند القلب تقريباً.

المعتدي اسمه لوموف، والضحية كان يسمى في سجننا غافريلكا: وهو أحد المتشردين المحنكين الذي تحدثت عنه من قبل، ولا أعلم إنْ كان يحمل اسماً آخر، ولم أعرف يوماً أنّ له اسماً آخر غير غافريلكا.

كان لوموف فلاحاً ثرياً من سكان ت... بمقاطعة ك... كانوا خمسة، يعيشون معاً، الأخوين لوموف وثلاثة أبناء. وهم فلاحون أغنياء، يُقال في المقاطعة كلها إنهم كانوا يملكون ما يربو على ثلاثمائة ألف روبل نقداً. كانوا يحرثون ويدبغون الجلود، ولكنهم كانوا يشتغلون خاصة بالربا، وإخفاء المتشردين والأشياء المسروقة،

وأمور كثيرة من هذا القبيل. نصف سكان المقاطعة كانوا مدينين لهم بالمال، ولم يلبثوا أن وقعوا بين براثنهم. كانوا يحسبون أنفسهم أذكياء ودهاة، ويتكلفون مظاهر الأبهة والعظمة. ذات يوم حلّ ضيفاً على الأب موظف كبير من بلدتهم، فأحبّ هذا الموظف فيه جسارته ومهارته. وتخيلوا يومئذٍ أن بإمكانهم أن يفعلوا ما يحلو لهم، واسترسلوا أكثر من ذي قبل في أعمال غير مشروعة. جميع الناس كانوا يتذمّرون منهم، ويتمّنون لو تسوخ بهم الأرض مائة قدم، ولكن وقاحتهم ما فتئت تتعاظم، حتى باتوا لا يخافون في المقاطعة لا رؤساء الشرطة ولا قضاة المحاكم. وأخيراً خانهم الحظ، فكان ضياعهم لا بسبب جرائمهم السرية، بل بسبب تهمة افترائية كاذبة. كانوا يملكون على بعد عشرة فراسخ من ضيعتهم الصغيرة مزرعة كبيرة، قلعة «زايمكا» كما يُقال في سيبيريا، كان يعيش فيها خلال فصل الخريف ستة عمال كرغيزيين، كانوا قد استعبدوهم منذ أمدٍ بعيد. ذات يوم وجد هؤلاء الكرغيزيون الستة قتلى. وكشف التحقيق الذي دام مدة طويلة عن أشياء في غاية البشاعة. واتهم آل لوموف بقتل عمالهم الستة. وهم أنفسهم حكوا قصتهم، فعرفها السجن كله: إذ اشتبه فيهم بأنهم كانوا مدينين للكرغيزيين بمال كثير، ولما كانوا بخلاء وجشعين، رغم ثروتهم الضخمة، فقد اعتقد أنهم قتلوا الكرغيزيين الستة حتى لا يؤدوا لهم ما بذمتهم من دين. وأثناء التحقيق والمحاكمة ذابت ثروتهم وتبدّدت. مات الأب. ونفي الأبناء: وحكم على أحدهم وعمه بسجن الأشغال الشاقة خمسة عشر عاماً، وكانوا أبرياء تماماً من الجريمة التي أسندت إليهم. وذات يوم، اعترف غافريلكا، هذا المحتال اللئيم، والمعروف أيضاً كمتشرد،

ولكنه كثير المرح، كثير النشاط، بأنه هو الذي اقترف تلك الجريمة. ولا أدري في الواقع هل اعترف هو نفسه بذلك، ولكن السجناء كانوا دائماً يعدّونه قاتل الكرغيزيين: كان لغافريلكا هذا، أثناء تشرده، شأن مع أسرة لوموف. (لم يزجّ به في السجن إلا لقضاء فترة قصيرة جداً بتهمة الفرار من الجندية والتشرد.) وقد ذبح الكرغيزيين، مع ثلاثة متشردين آخرين، أملاً في تحسين أحواله بنهب المزرعة.

لم يكن آل لوموف محبوبين عندنا، ولا أدري لماذا. أحدهم، وهو ابن الأخ، كان جريئاً فظّاً، وذكياً، وذا طبع أليف، ولكن عمه، الذي طعن غافريلكا بمخرز، فلاح غبي وعنيف، يتشاجر باستمرار مع السجناء، الذين كانوا يوسعونه ضرباً مبرحاً. بينما كان السجن كله يحب غافريلكا، بسبب طبعه المرح والبسيط. ولم يكن لوموف وابن أخيه يجهلان أنه مرتكب الجريمة، التي حوكموا من أجلها، ولكنهما لم يخاصماه يوماً، ولم يُعِرْهما غافريلكا أي انتباه. بدأت المشاجرة بسبب فتاة مقزّزة، تنافس عليها غافريلكا والعم لوموف، ولما تباهى غافريلكا يوماً بالتعاطف الذي أظهرته له الفتاة، جنّ جنون الفلاح غيرة، فإذا به يغرس مخرزاً في صدر غافريلكا. ورغم أن آل لوموف أفلسوا بالمحاكمة التي جرَّدتهم من كل أملاكهم، فقد كانوا في السجن يعدون أغنياء جداً، كانوا يملكون مالاً، وساموفارا، ويشربون الشاي. ولم يكن ماجورنا يجهل ذلك، ويحقد على لوموف وابن أخيه، وينكّد عيشهما. وكانا يفسران حقده عليهما برغبته في أن يقدِّما له رشوة، ولكنهما لم ينصاعا لهذا الأمر.

ولو غرز العم لوموف مخرزه أعمق قليلاً في صدر غافريلكا لكان قتله بكل تأكيد، ولكنه لم يستطع أن يحدث فيه إلا خدشاً. أخبر

الماجور بالأمر. ما زلت أراه مقبلاً وهو يلهث، ولكن بارتياح واضح على محياه. واتجه إلى غافريلكا يسأله بلهجة لطيفة وأبوية، كأنه يخاطب ابنه:

- وإذن، يا صديقي، هل تستطيع أن تذهب إلى المستشفى وحدك، أو يجب أن ننقلك إليه؟ كلا، أعتقد أنّ من الأفضل أن يسرج لك حصان، فليسرج حالاً! صاح مخاطباً ضابط الصف بصوت لاهث.

فقال غافريلكا:

- لا أحسّ بشيء، يا صاحب النبالة الرفيعة، لم يصبني إلا بخدش خفيف هنا، يا صاحب النبالة الرفيعة.

- أنت لا تعلم، يا صديقي العزيز، أنت لا تعلم، سترى... لقد أصابك في مكان خطر. كل شيء يتوقف على مكان الإصابة... لقد أصابك تحت القلب مباشرة، هذا اللص!

قال الماجور ذلك ثم أضاف مخاطباً لوموف:

- انتظر، انتظر! سوف أجازيك خير جزاء! خذوه إلى مقرّ الحرس!

وقد وفى الماجور بوعده. فحوكم لوموف، ورغم أن الجرح كان طفيفاً جداً، فإنّ سبق الإصرار كان جلياً، لذلك أضيفت عدة سنين إلى مدّة سجن لوموف، وعوقب أيضاً بألف جلدة ضرباً بالعصا. وابتهج الماجور...

ووصل المفتش أخيراً.

وغداة وصوله إلى المدينة، جاء لتفتيش السجن. كان اليوم يوم عيد، ومنذ عدة أيام، كان كل شيء نظيفاً، لامعاً، ومغسولاً بدقة،

وكانت رؤوس السجناء محلوقة حديثاً، وملابسهم الناصعة البياض خالية من أية بقعة. (كما كان يفرض النظام، كانوا يرتدون في الصيف سترات وسراويل من قطن. وعلى ظهر كل واحد دائرة سوداء مخيطة إلى السترة، قطرها ثمانية سنتيمترات.) كان السجناء قد تلقوا درساً خلال ساعة كاملة، بماذا يجب عليهم أن يجيبوا، وبأيّة تعابير عليهم أن يجيبوا، إذا عنّ لهذا الموظف الكبير أن يحييهم؟ بل أجريت تجارب، حتى كاد الماجور أن يفقد صوابه. قبل وصول المفتش بساعة، كل السجناء اصطفوا في أماكنهم، جامدين كالتماثيل، جاعلين خناصرهم عند خياطة السروال. وأخيراً، حوالي الساعة الواحدة ظهراً، دخل المفتش. كان جنرالاً مهيب الهيأة، حتى أنّ جميع موظفي سيبيريا الغربية لا بد أن ترتعد أفئدتهم رعباً لرؤيته فحسب. دخل بادي الصرامة والعظمة، يتبعه عدة جنرالات وكولونيلات، كانوا يشغلون وظائف كبيرة في مدينتنا. وكان هنالك أيضاً شخص مدني طويل القامة، متناسق القسمات، يرتدي فْراكا وينتعل حذاء، كان هذا الشخص يتصرف بطريقة حرة وطليقة، وكان الجنرال يخاطبه كل لحظة بكثير من الأدب واللطف. هذا المدني جاء أيضاً من بطرسبورغ. وقد حيَّر السجناء كثيراً، بسبب الاحترام الذي يظهره له جنرال ذو شأن عظيم! عرف اسمه وعرفت وظائفه فيما بعد، ولكن قبل أن يُعرف اسمه وتُعرف وظائفه، دار الكلام عنه كثيراً. أما ماجورنا، الذي كان متأنقاً في لباسه، بياقة برتقالية اللون، لم يترك انطباعاً جيداً جداً لدى الجنرال، بسبب عينيه المحتقنتين، ومحياه المائل إلى اللون البنفسجي والمصاب بعُدّة وردية. وكان قد نزع نظارتيه احتراماً لرئيسه، وبقي على مسافة منتصباً كوتدٍ، منتظراً بانفعال شديد تلك اللحظة التي يؤمر

فيها بشيء، ليهرول إلى تنفيذ رغبة صاحب السعادة، ولكن لم يشعر أحد بالحاجة إلى خدماته. طاف الجنرال بالثكنات صامتاً، وألقى نظرة على المطبخ، حيث ذاق حساء الكرنب الحامض. وعرضوني عليه، قائلين له إنني نبيل سابق، وإنني فعلت كذا وكذا.

فقال الجنرال:

- آ. . . وكيف هو سلوكه؟

فقيل له:

- مُرضٍ إلى حدّ الآن، يا صاحب السعادة، مُرضٍ.

وأومأ الجنرال برأسه وخرج من السجن بعد دقيقتين. كان السجناء مبهورين وخائبين، وظلوا حائرين. أما أن يتظلموا من الماجور فذلك أمرٌ ما كان يجب حتى التفكير فيه. ولقد كان الماجور مطمئناً سلفاً من هذا الجانب.

6. حيوانات السجن

كان شراء غنيدكو (الحصان الكميت)، الذي كان قد تمّ قبل ذلك بوقت قصير، أكثر تسلية وأهم بكثير بالنسبة إلى السجناء من زيارة الشخصية المهمة التي تكلّمت عنها. كنا نحتاج في السجن إلى حصان لنقل الماء، ورمي الأزبال، وهلم جراً. وكان على أحد السجناء أن يهتم به، وأن يقوده، تحت الحراسة طبعاً. كانت لحصاننا مهام لا بأس بها صباحاً ومساء؛ وكان حيواناً جيداً ولكنه أصبح منهكاً لأنه عمل منذ مدة طويلة. وذات صباح، عشية عيد القديس بطرس كان غنيدكو (الكميت) يحمل برميلاً من الماء فسقط أرضاً ونفق بعد بضع

لحظات. أسف عليه السجناء كثيراً، وتحلقوا حوله لمناقشة موته والتعليق عليه. وبرهن الذين خدموا في سلاح الفرسان، والغجر، والبياطرة، وآخرون على معرفة عميقة بالخيل عامة وتنازعوا حول هذا الموضوع، ولكن كل ذلك لم يُعد حصاننا الكميت إلى الحياة، والذي ظلّ ممدداً ميتاً، منتفخ البطن، واعتبر كل سجين أنّ من واجبه أن يجسّه بأصبعه، وتمّ إبلاغ الماجور أخيراً بالحادث الذي وقع بمشيئة الله، فقرَّر الماجور شراء حصان آخر فوراً.

وفي صبيحة الغد، يوم عيد القديس بطرس، بعد القداس، حين اجتمع السجناء جميعاً، جيء بالأحصنة لبيعها. كانت مهمة اختيار الحصان موكلة إلى السجناء، فقد كان بينهم جهابذة حقيقيون، وكان من الصعب خداع مائتين وخمسين رجلاً كانت النخاسة اختصاصهم. وصل رجال من الغجر والكرغيز ونخاسة وأناس من سكان المدينة.

كان السجناء ينتظرون بفارغ الصبر ظهور كل حصان جديد، ويفرحون كالأطفال. كان ما يرضي غرورهم خاصة كونهم يستطيعون شراء حيوان كالأحرار، كما لو أنه لهم، وكما لو أن النقود من جيوبهم. جيء بثلاثة أحصنة ثم تمّ اصطحابها قبل أن يستقر الرأي على شراء الرابع. كان النخاسة ينظرون بدهشة وشيء من الوجل إلى جنود الحراسة الذين كانوا يرافقونهم. كان جديراً بمئتي رجل محلوقي الرؤوس، وموسومين بالحديد، ومكبلي الأقدام بالسلاسل، أن يوحوا بنوع من الاحترام، لا سيما وأنهم في منزلهم، في عشّ السجناء الخاص بهم، والذي لم يدخله أحد يوماً.

كان مَعين السجناء لا ينضب من الحيل التي تمكنهم من معرفة قيمة الحصان الذي جيء به إليهم؛ كانوا يفحصونه، ويجسونه باهتمام

وجدية كما لو أن ازدهار السجن رهن بشراء هذا الحيوان، بل إن الشراكسة منهم قفزوا فوق صهوته، وكانت عيونهم ملتمعة، وكانوا يتمتِمون تمتمة سريعة بلهجتهم غير المفهومة، كاشفين عن أسنانهم البيضاء ومحركين مناخيرهم الواسعة من أنوفهم السمراء والمعقوفة، وكان هناك روس يتابعون مناقشاتهم بانتباه شديد، حتى كادوا يلتهمونهم بعيونهم، كانوا لا يفهمون كلام رفاقهم، ولكن كان من الواضح أنهم يتمنون تخمينه من تعبير أعينهم، ومعرفة إن كان الحصان جيداً أم لا. لماذا كان يهتمّ سجين، وخاصة سجين بليد الذهن ومقهور، لم يكن يجرؤ حتى على نطق كلمة أمام رفاقه الآخرين، بشراء حصان أو آخر، كما لو أنه اشتراه لنفسه، كما لو كان يعنيه شراء هذا الحصان أو ذاك؟

كانت الأسبقية والكلمة الأولى، بالإضافة إلى الشراكسة، تُعطى للغجر والنخاسة السابقين. وكان هناك نوع من المبارزة بين سجينين، الغجري كوليكوف، نخاس سابق ولصّ أحصنة وبيطري بالفطرة، فلاح سيبيري ماكر، كان قد أرسل منذ مدة قصيرة إلى الأشغال الشاقة، ونجح في انتزاع زبائن كوليكوف في المدينة. يجب القول إن بياطرة السجن والذين لم تكن لديهم شهادات، كانوا مطلوبين كثيراً، وليس فقط سكان المدينة والتجار، بل كبار موظفي المدينة كانوا يقصدونهم إذا ما مرضت خيولهم، ويفضلونهم على البياطرة المرخَّص لهم بالعمل. وحتى مجيء يولكين، الفلاح السيبيري، كان لدى كوليكوف الكثير من الزبائن الذين كان يتلقى منهم النقود اعترافاً منهم بجميله، ولم يكن ينافسه أحد في ذلك. كان يتصرف كغجري حقيقي، يخدع ويغش، لأنه لم يكن متمكِّناً من مهنته كما كان يدّعي. وقد

جعلت منه مداخيله ارستقراطياً نوعاً ما وسط نزلاء سجننا: فكان السجناء ينصتون له ويطيعونه، ولكنه كان يتكلم قليلاً، ولا يبدي رأيه إلا في المناسبات الكبرى. كان متبجحاً، ولكن كانت لديه طاقة كبيرة: كان متقدماً في السن، وسيماً جداً وذكياً جداً خاصة. وكان يكلمنا، نحن النبلاء، بالكثير من الأدب واللطف مع احتفاظه بكرامته كاملة. وأنا متأكد أنه لو ألبس ثياباً لائقة واصطُحب إلى أحد نوادي العاصمة بصفته كونتاً، لاستطاع أن يمثِّل مكانته الاجتماعية خير تمثيل، وأن يلعب «فيست» - هويست "whist"، ويتكلم بطريقة فاتنة كرجل ذي شأن عظيم، يعرف متى يصمت: وطوال السهرة لن يخمن أحد أن هذا الكونت ليس إلا متشرداً. إنني أتكلم جادّاً: كان مدهشاً ذكاءً ودهاءً وتأقلماً سريعاً. وإلى ذلك كان مهندماً متأنقاً ولبقاً كغندور. ومن الجائز أنه كان قد رأى كثيراً، أما ماضيه فلم نكن نعرف عنه شيئاً. كان من سجناء القسم الخاص. ولكن ما إن جاء يولكين، وهو فلاح بسيط، كان في نحو الخمسين من عمره، وينتمي إلى قدماء المؤمنين ولكنه ماكر كأذكى موجيك (فلاح)، حتى أفل وبوضوح مجد كوليكوف البيطري. فبعد أقل من شهرين، انتزع منه السيبيري كل زبائنه تقريباً، لأنه كان يعالج خلال مدة قصيرة جداً أحصنة كان كوليكوف قد أعلن أن أمرها ميؤوس منه، في حين ترك البياطرة المرخص لهم أمر علاجها نهائياً. كان هذا الفلاح قد حكم عليه بالأشغال الشاقة لأنه كان يزيِّف النقود. ترى ما الذي جعله يمتهن حرفة مماثلة؟ حكى لنا ساخراً كيف أنهم احتاجوا إلى ثلاث قطع نقدية ذهبية حقيقية لصناعة قطعة مزيفة واحدة.

استاء كوليكوف من نجاح الفلاح، في حين كان نجمه يتهاوى

بسرعة. هو الذي كانت لديه حتى الآن خليلة في الضاحية، والذي كان يرتدي معطفاً مغضناً «باديوفكا» وخاتماً فضياً، وقرطاً، وحذاء عالياً مبطناً، أصبح الآن مضطراً إلى العمل خماراً؛ لهذا كان الجميع يتوقعون مشاجرة كبيرة بينهما أثناء شراء الحصان الجديد، ممّا أثار فضولهم. وكان لكلٍّ من الرجلين أنصاره، وكان المتحمِّسون منهم يضطربون، بل أخذوا يتبادلون الشتائم. كانت بسمة ساخرة تعلو وجه يولكين الماكر، ولكن الأمور جرت على غير المتوقع: لم يكن كوليكوف يريد الشجار، فلقد تصرف ببراعة جنَّبته ذلك. سلم أول الأمر بكل شيء وأنصت لانتقادات غريمه باحترام، ولكنه قبض على كلمة زلَّ بها لسان الآخر، ملاحظاً بتواضع وحزم أنه قد أخطأ. وقبل أن يتراجع يولكين ويغير رأيه، أفهمه غريمه أنه قد ارتكب غلطة. وباختصار، هزم يولكين هزيمة لم تكن في الحسبان، مما أرضى حزب كوليكوف.

- حسناً! يا أولاد، ليس هناك ما يقال بعد، ليس لكم عليه أي مأخذ، فهو يعرف ماذا يفعل؛ ها! ها! قال بعضهم.

- يولكين أعلم منه! أجاب الآخرون ولكن بلهجة مسالمة. فكلا الفريقين كان على استعداد لتقديم تنازلات.

- عدا أنه يعرف أكثر منه، فإن يده أخف. . . فكوليكوف، فيما يتعلق بالماشية، لا يخشى أحداً.

- وكذلك يولكين.

- وكوليكوف ليس له مثيل.

وأخيراً اختير الحصان الجديد الذي تمّ شراؤه. كان حصاناً جيداً، فتياً وقوياً وكان منظره رائعاً. حيوان لا يعيبه شيء من أيّة

ناحية. وبدأت المساومة، كان المالك يطلب ثلاثين روبلاً في حين لم يرغب السجناء في إعطائه إلا خمسة وعشرين روبلاً. واستمرت المساومة طويلاً واشتدت، بزيادة أو بنقص من طرف أو من الآخر، وأخيراً أخذ السجناء يضحكون.

- هل ستدفع المال من محفظتك الخاصة؟ لماذا المساومة؟ قال البعض.

- هل تريد الاقتصاد من أجل الخزينة؟ صرخ الآخرون.

- ولكن، في كل الأحوال يا رفاق، إنه مال العموم.

- العموم! من الواضح أن لا أحد يزرع الأغبياء، ولكنهم ينبتون لوحدهم!

وأخيراً استقرّ السعر على ثمانية وعشرين روبلاً؛ وقدّم التقرير للماجور الذي وافق على عملية الشراء. وتمّ حمل الخبز والملح فوراً. وسيق النزيل الجديد إلى السجن في موكب حماسي. أظنّ أنه لم يبقَ سجين لم يداعب عنقه أو يربت على خطمه. وفي يوم شرائه، حمل الماء، وأخذ السجناء ينظرون إليه بفضول وهو يجرّ برميله. كان سقّاؤنا، السجين رومان ينظر إلى حصانه الجديد بكثير من الرضا والغبطة. هذا الفلاح السابق، الذي بلغ الخمسين من عمره تقريباً، كان جادّاً ومتجهماً كأغلب الحوذيين الروس، كأنما العلاقة بالأحصنة تضفي الوقار والجدية على الطباع. كان رومان هادئاً، لطيفاً مع الجميع، قليل الكلام، وكان يستنشق التبغ الذي كان يحتفظ به في منشقة. كان مسؤولاً عن أحصنة السجن منذ زمن بعيد، وكان الحصان الجديد الذي اشتري توّاً هو ثالث حصان يهتم به منذ قدومه إلى السجن.

كانت مهمة الحوذي من حقّ رومان، ولم يخطر على بال أي شخص أن ينازعه فيها. وعندما نفق الحصان الكميت لم يفكر أحد في اتهام رومان بالتهور، ولا حتى الماجور نفسه: فقد كان ذلك قضاء وقدراً، بكل بساطة، أما رومان فقد كان حوذياً جيداً.

سرعان ما أصبح الحصان الكميت المفضَّل لدى جميع مَن في السجن، فرغم تبلّد إحساس السجناء، كانوا غالباً ما يأتون لمداعبته.

أحياناً، عندما كان رومان، بعد عودته من النهر، يغلق الباب الكبير الذي كان يفتحه له ضابط الصف، كان غنيدكو يبقى واقفاً بلا حراك، منتظراً سائقه، ناظراً إليه جانباً.

- «اذهب وحدك!» كان رومان يصيح به، وكان غنيدكو يمضي بكل هدوء إلى المطبخ حيث يتوقف، بانتظار أن يأتي الطباخون والخدم لنقل الماء في دلائهم، وكانوا يصيحون به:

- يا لغنيدكو القوي! لقد أوصل البرميل وحده! وهو فوق ذلك مطيع، وبهجة للعين!

- هذا صحيح! إنه مجرد حيوان، ولكنه يفهم ما يقال له.

- يا لغنيدكو من حصان جسور!

عند ذلك كان الحصان يهز رأسه وينتفض كما لو أنه قد سمع المديح واستحسنه. وحمل إليه أحد ما خبزاً وملحاً، وعندما انتهى من الأكل، هزّ رأسه من جديد كأنما أراد القول:

- أنا أعرفك، أنا أعرفك! أنا حصان جيد، وأنت رجل طيب!

كنت أنا أيضاً أحبّ تدليل غنيدكو بإطعامه خبزاً، وكنت أستمتع بالنظر إلى خطمه الجميل، وبالإحساس بشفتيه الساخنتين والرخوتين على راحة يدي، وهما تتلقفان ما قدمته بشراهة.

كان السجناء يحبون الحيوانات، ولو سمح لهم بذلك، لملأوا الثكنات بالعصافير والحيوانات الأليفة. وأي شغل أكثر تلطيفاً وتهدئة لطباع المساجين المتوحشة؟ ولكن لم يكن ذلك مباحاً، فلا القانون ولا المكان يسمحان بذلك.

ورغم ذلك، وخلال إقامتي هناك، استقرت عدة حيوانات بالسجن. فبالإضافة إلى غنيدكو، كان لدينا كلاب وإوز وتيس اسمه فاسكا، ونسرٌ لم يبقَ إلا مدة قصيرة.

كان كلبنا كما قلت سابقاً، شاريك، حيواناً جيداً وذكياً، وكان صديقي، ولكن لأن الناس يعتبرون الكلب حيواناً نجساً لا يجب إعطاؤه أيّة أهمية، فلا أحد كان ينظر إلى شاريك. كان يعيش بالسجن، ينام في الفناء، ويأكل فضلات المطبخ، ولا يثير أي اهتمام أو تعاطف لدى السجناء الذين كان يعرفهم جميعاً ويعتبر كل واحد منهم سيده.

وعند عودة السجناء من العمل، وانطلاق صرخة: «يا عريف!»، كان يسارع إلى الباب الكبير، لاستقبال الجماعة فرحاً وهو يحرك ذيله، وينظر إلى كل واحد من القادمين في عينيه، كأنه ينتظر منه مداعبة ما؛ ولكن لعدة سنوات ظلت جهوده دون جدوى؛ فلا أحد، باستثنائي أنا، كان يداعبه ولذلك كان يفضِّلني على الجميع.

لم أعُد أذكر كيف حصلنا على كلب آخر، بيلكا. أما الثالث كولتيابكا، فقد حملته بنفسي إلى السجن صغيراً جداً.

كان بيلكا مخلوقاً غريباً، فقد داسته عربة نقل «تيليغا» فطوت عموده الفقري إلى الداخل، وكان يخيل لمن رآه وهو يجري من بعيد

أنه كلبان توأمان ولدا ملتصقين. وكان عدا ذلك أجرب، ذا عينين دامعتين وذيل سقط عنه وبره وتدلى بين قائمتيه.

ولأن الأقدار أساءت معاملته، فلقد قرر أن يبقى هادئاً دائماً، لذلك لم يكن ينبح ضد أي أحد كأنما كان يخاف أن يتأذى من جديد. كان يبقى دائماً خلف الثكنات، وإذا ما اقترب منه أحد ما، كان ينقلب فوراً على ظهره، كأنه يقول:

- «افعل بي ما تشاء، فأنا لا أفكر مطلقا في مقاومتك». وكان كل سجين، عندما يرى «شقلبته» تلك، يقوم بركله كأنه يقوم بواجب ما، وهو يقول: «أوف! يا للحيوان القذر!»

ولكن بيلكا لم يكن يجرؤ حتى على الأنين، وإذا ما تألم كثيراً كان يُطلق صيحة صماء مختنقة. كان كذلك ينقلب على ظهره أمام شاريك أو أي كلب آخر، عندما كان يأتي إلى المطبخ للبحث عن الطعام. كان ينبطح أرضاً عندما يهاجمه كلب شرس نابحاً. ولأن الكلاب تحبّ المذلّة والخضوع من أقرانها، فسرعان ما كان الحيوان المهتاج يهدأ ويقف مفكراً أمام الذليل المتوسِّل الممدَّد أمامه، ثم يقوم بشمّ سائر أجزاء جسمه في فضول. تُرى فيمَ كان يفكر بيلكا آنذاك وهو يرتعد خوفاً؟ «هل سيعضني هذا الوغد؟» أغلب الظن أن ذلك ما خطر بباله.

وبعد أن ينتهي من شمه، كان كلب الحراسة الفظّ يتركه لأنه لم يجد فيه شيئاً مثيراً للاهتمام. وكان بيلكا يقفز فوراً على قائمتيه ليتبع مجموعة من أقرانه كانت تلاحق جوتشكا - كلبة ما.

كان بيلكا يعرف تماماً أنّ هذه الكلبة اللعوب لن تتنازل وترضى به، فلديها كبرياؤها، ولكن ملاحقته لها وهو يعرج كانت تعزيه عن

مصائبه. أمّا الأمانة فلم يكن يعرف عنها إلا القليل؛ وإذ فقد كل أمل في المستقبل، فقد كان كلّ طموحه أن يملأ بطنه، وكان يفعل ذلك حتى يشبع تماماً. وقد حاولت مرة أن أداعبه، فتفاجأ إلى درجة أنه سقط أرضاً وانبطح على قوائمه الأربع ثم أخذ يرتعش من فرط اللذة وهو ينبح. ولأنني كنت أشفق عليه، فقد كنت أداعبه غالباً، ولذلك كان ما إن يراني من بعيد حتى يأخذ في النباح بصوت شاك، باك. ولقد نفق في حفرة خلف السجن بعد أن مزقته كلاب أخرى.

أما كولتيابكا فقد كان له طبع آخر. لا أدري لماذا جئت به من أحد المواقع حيث ولد، وكنت أستمتع بإطعامه ورؤيته وهو يكبر، وسرعان ما تولى شاريك حمايته، وأصبح ينام معه، وعندما كبر الكلب الصغير، كان يضعف أمامه ويسمح له بعضّ أذنيه، وشدّ وبره، وكان يلعب معه كما تلعب الكلاب الكبيرة مع الجراء الصغيرة. والغريب أن كولتيابكا كان لا ينمو علواً وإنما طولاً وعرضاً فقط. وكان وبره كثيفاً بلون وبر الفئران، وكانت إحدى أذنيه متهدِّلة في حين ظلّت الأخرى قائمة. وكان مفعماً بالحماس والابتهاج ككل الجراء الصغيرة التي تنبح مسرورة عند رؤية سيدها، وتقفز لتلعق وجهه، إنه لا يخفي باقي عواطفه. وكأنه يقول: «حسبي أن تلاحظ فرحتي، أما الأعراف فلتذهب إلى الجحيم».

أينما كنت، عند ندائي: «كولتيابكا!»، كان يخرج فجأة من ركن ما، كما من تحت الأرض، ويسرع نحوي في حماسته الصاخبة، وهو يتدحرج كالكرة ويتشقلب. كنت أحب هذا الشيطان الصغير كثيراً: وكان يبدو أن القدر لم يخبئ له إلا الفرح والسرور في هذا العالم، إلى أن لاحظه يوماً ما السجين نيئوسترويف الذي كان يصنع الأحذية

النسائية بعد أن يحضر جلودها. شيء ما لفت نظره إلى كولتيابكا حتماً، فقد ناداه وأخذ يجسّ وبره ويقلبه على الأرض في تودد، وكان الكلب الذي لم يراوده شك في شيء، ينبح في سرور، ولكنه ما لبث أن اختفى في اليوم التالي. بحثت عنه طويلاً ولكن دون جدوى، وأخيراً وبعد أسبوعين، اتضح الأمر. كان فرو كولتيابكا قد أعجب نيئوسترووييف فعمد إلى سلخه ليصنع بجلده حذاءين مبطنين بالمخمل كانت زوجة مراقب الحسابات قد طلبت منه صنعهما لها. وقد أراني نيئوسترووييف الحذاءين حين أنهاهما، كان وبرهما الداخلي رائعاً، يا لكولتيابكا المسكين!

كان الكثير من السجناء يقومون بدباغة الجلود وغالباً ما كانوا يصطحبون معهم إلى السجن كلاباً جميلة الفراء سرعان ما تختفي. كانوا يسرقونها أو يشترونها. وأذكر أنني رأيت يوماً سجينين يتشاوران ويتحاوران خلف المطبخ. وكان أحدهما يمسك بمقود كلب أسود أصيل وجميل جداً، كان خادم نذل قد سرقه من سيده ليبيعه لإسكافينا هذين بثلاثين كوبيكاً. وكانا يستعدان لشنقه، وكانت تلك العملية سهلة جداً، يسلخان بعدها الجلد ويرميان الجثة في حفرة أعدَّت لتكون مرحاضاً في الركن الأقصى من الفناء، والتي كانت تنبعث منها روائح كريهة فظيعة أثناء أيام الصيف الشديدة الحرارة، لأنها لم تكن تنظّف إلا نادراً. أظن أن الحيوان المسكين كان يعرف ما ينتظره فقد كان ينظر إلينا قلقاً، متفحِّصاً، وكان يتجاسر بين الفينة والأخرى على تحريك ذيله الكثيف المتدلي بين قائمتيه، كأنما يريد تليين قلوبنا بهذه الثقة التي يظهرها لنا. سارعت بالابتعاد عن السجينين الذين أكملا مهمتهما بدون رادع.

أما الوزات فقد استقرت بالسجن بمحض المصادفة، لا أدري من كان يعتني بها ومن كان صاحبها، ولكنها كانت تسلية للسجناء واكتسبت شهرة في المدينة. وقد ولدت بالسجن واتخذت المطبخ مقراً لها تخرج منه جماعات عندما يذهب السجناء للعمل. فما إن يقرع الطبل ويتزاحم السجناء عند الباب الكبير، حتى تجري الوزات خلفهم وهي تصرخ خافقة أجنحتها، ثم تقفز الواحدة تلو الأخرى فوق عتبة الباب المرتفعة؛ وإذا بدأ السجناء العمل، أخذت تنقر الأرض بحثاً عن طعامها بالقرب منهم. وعندما يرجعون إلى السجن كانت تنضم إلى قافلتهم من جديد. وكان المارة يقولون:

«ها هم السجناء يمرون مع وزاتهم»، «كيف علّمتموها أن تتبعكم؟» سأل أحد ما، في حين مدَّ آخر يده في جيبه قائلاً: «خذوا هذه النقود لوزاتكم!». ورغم إخلاصها كله، قام السجناء بذبح الوزات للاحتفال بالعيد بعد انتهاء صيام ما.

أما تيسنا فاسكا فلا أحد كان يستطيع أن يقرِّر ذبحه إلا إذا كان ذلك لظرف خاص. لا أدري كيف ظهر في سجننا، ولا من الذي أتى به: كان جدياً أبيض جميلاً جداً سرعان ما أحبّه الجميع، ولقد أصبح تسلية وعزاء لهم. ولأنه لا بد من عذر للاحتفاظ به داخل السجن، فلقد أكدوا أنه لا بد من وجود تيس في الإسطبل. ولكنه لم يسكن هناك وإنما سكن المطبخ، وانتهى بأن أصبح السجن كله مسكناً له. كان هذا الحيوان الرشيق لعوباً يقفز فوق الموائد ويصارع السجناء، ويركض مستجيباً إذا ما نودي، دائم المرح والتسلية.

وذات مساء كان الليزغيني باباي جالساً على عتبة الثكنة وسط جماعة من السجناء الآخرين، فعنَّ له أن يصارع فاسكا الذي كان

قرناه طويلين بعض الشيء. تناطحا لمدة طويلة ممّا كان يشكل أفضل تسلية عند السجناء، وفجأة قفز فاسكا إلى أعلى درجة من درجات العتبة، وما إن توقف باباي حتى انتصب الجدي على قائمتيه الخلفيتين، وضم حافريه إلى جسمه ثم لطم الليزغيني على قفاه بكل ما أوتي من قوة حتى تشقلب هذا الأخير على العتبة ممّا أثار سعادة الحاضرين والليزغيني نفسه. وخلاصة القول إننا كنا مولعين بجدينا فاسكا. ولمّا أدرك سن البلوغ تمّ إخضاعه، وبعد مداولات عامة وجدية جداً، إلى عملية كان بيطريو السجن يتقنونها أشد الإتقان.

- على الأقل لن تفوح منه بعد الآن رائحة التيوس، كان السجناء يقولون.

عند ذلك بدأ فاسكا يسمن بطريقة مذهلة؛ يجب القول إننا كنا نبالغ في إطعامه. وأصبح تيساً جميلاً جداً، له قرنان رائعان، وضخامة لافتة للنظر، حتى أنه كان يسقط أرضاً وهو يمشي. وكان يصحبنا إلى العمل، ممّا كان يسلي السجناء وكذلك المارة، ذلك لأن الكل كان يعرف فاسكا جدي السجن. وعندما كنا نعمل على مقربة من مجرى مائي، كان السجناء يقطعون أغصان الصفصاف وأوراق الشجر وأزهاراً يزينون بها فاسكا، كما كانوا يجدلون الأزهار والأغصان لتزيين قرنيه، ويصنعون الأكاليل لتزيين صدره. كان فاسكا عند ذلك يعود في مقدمة الموكب متأنقاً ومتزيّناً، يتبعه السجناء متباهين بجماله. وقد ذهب حبّ السجناء لتيسنا بعيداً إلى درجة أن بعضاً منهم اقترح أن يطلي قرناه بالذهب ولكنه كان مشروعاً في الهواء ولم ينفذ يوماً. سألت أكيم أكيميتش وهو أفضل مذهّب في السجن بعد إشعيا فوميتش، عما إذا كان من الممكن طلاء قرني تيس

بالذهب، ففحص قرني فاسكا جيداً، وفكر قليلاً ثم أجابني بأن ذلك ممكن ولكنه لن يدوم طويلاً كما أنه لا فائدة ترجى من ذلك، فوقفت المسألة عند هذا الحدّ.

كان يمكن لفاسكا أن يعيش سنوات طويلة أخرى بالسجن، وأن يموت في النهاية بمرض الربو، لولا أنه في يوم، عند عودته في مقدمة موكب السجناء، صادف الماجور جالساً في عربته، وكان التيس مزيناً وممشَّط الشعر.

- توقف! لمن هذا التيس؟ صاح الماجور، وعندما أجيب، ردّ قائلاً:

- كيف، تيس في السجن وبدون إذن مني! يا ضابط الصف!

تلقى ضابط الصف الأمر بذبح التيس فوراً وسلخه، وبيع جلده في السوق، وبأن يوضع ثمنه في صندوق السجن، أمّا اللحم فأمر بطهوه مع حساء الملفوف الحامض الخاص بالسجناء. أثار هذا الحادث الكثير من النقاشات، وتحسّر السجناء على التيس ولكن لا أحد كان يجرؤ على عصيان أوامر الماجور. ذبح فاسكا قرب حفرة القاذورات (حفرة المرحاض). واشترى أحد السجناء اللحم كله بروبل وخمسين كوبيكاً، وتم جلب الخبز الأبيض للجميع بهذا المبلغ، في حين أعاد السجين، الذي اشترى لحم التيس، بيعه على شكل شرائح مشوية، كان لحمه شهياً.

كان لدينا في السجن أيضاً نسر السهوب «كاراغوش» وهو من فصيلة صغيرة الحجم، جاء به سجين وهو جريح على وشك الموت. أحاط به الجميع، ولم يكن قادراً على الطيران، وكان جناحه الأيمن متدلياً، وكانت إحدى قائمتيه مخلوعة، وكان ينظر إلى الحشد

الفضولي بحنق، ويفتح منقاره المعقوف، متأهباً للدفاع عن حياته بشراسة. وبعد أن اكتفى الجميع من مشاهدته وتفرقوا، ذهب الطائر الأعرج وهو يتواثب على قائمته السليمة ويرفرف بجناحه ليختبئ في أنأى ركن من السجن، حيث التفّ حول نفسه ملتصقاً بأوتاد السياج، ولم يغادره طوال الأشهر الثلاثة التي بقيها في السجن.

في البداية، غالباً ما كان السجناء يذهبون لمشاهدته ويقذفونه بالكلب شاريك الذي كان يرتمي على النسر في غضب ولكن دون أن يجرؤ على الاقتراب منه، وكان هذا كثيراً ما يسلي السجناء، الذين يقولون:

- يا للحيوان المتوحش، لا يمكن مضايقته، أليس كذلك؟

ولكن الكلب شاريك ما لبث أن تخلص من خوفه، وأخذ يهاجمه عندما تتم إثارته، كان يمسك بجناحه المصاب فيدافع عن نفسه بمنقاره ومخالبه، وينكمش في ركنه بطريقة متكبرة متوحشة، محدقاً في الفضوليين كملك جريح. وما لبث الجميع أن ملوا من مشاهدته، فنسوا أمره تماماً، ولكن أحداً ما كان يضع بالقرب منه يومياً قطعة لحم طرية وشقفة فخارية بها ماء.

في البداية وخلال أيام عديدة، كان النسر يرفض أن يأكل شيئاً، وأخيراً قرر أن يتناول ما يقدّم له، ولكنه لم يقبل أن يتلقى شيئاً من يد أحد ما أو أمام الآخرين. نجحت عدة مرات في مراقبته عن بُعد. كان، عندما لا يرى أحداً ويظن أنه وحيد، يغامر بمغادرة ركنه ويعرج على طول السياج مسافة اثنتي عشرة خطوة تقريباً ثم يقفل راجعاً ويُعيد الكرَّة ثم يعود مرة أخرى، كما لو كانت هذه الجولة الصحية قد وصفت له. وكان ما إن يراني حتى يعود إلى ركنه بأقصى سرعة ممكنة

وهو يعرج ويثب، دافعاً رأسه إلى الخلف، فاتحاً منقاره، نافشاً ريشه كأنه يتأهب لمعركة. ورغم مداعبتي له، لم أستطع تدجينه، كان يعضّ ويتخبط ما إن ألمسه، ولم يتناول ولا مرة واحدة شريحة اللحم التي كنت أعطيها إياه. كان يحدّق إليّ بنظرته السيئة والثاقبة طوال الوقت الذي كنت أبقى بقربه. كان ينتظر الموت وحيداً وحقوداً، مواصلاً تحدّي الجميع دون أن يقبل المصالحة.

وأخيراً تذكّره السجناء، بعد شهرين كاملين من النسيان، وأظهروا تعاطفاً غير منتظر تجاهه، واتفق الجميع على إطلاق سراحه، كانوا يقولون:

- فليمُت، ولكن ليمُت حراً!

- هذا أكيد، فطائر حرّ ومستقل مثله لن يعتاد السجن أبداً، أضاف آخرون.

- إنه لا يشبهنا، قال أحد ما.

- حسناً، إنه طائر، بينما نحن بشر.

- النسر، يا رفاقي، هو ملك الغابات... بدأ سكوراتوف الكلام، ولكن أحداً لم ينصت إليه في هذه المرة.

وفي ظهيرة أحد الأيام، وبعد أن أعلن قرع الطبول استئناف العمل، أخذ السجناء النسر وربطوا منقاره لأنه أخذ يتخبط مدافعاً عن نفسه، وحملوه خارج السجن فوق السور، كان السجناء الاثنا عشر، الذين يشكلون فريق العمل، شديدي الفضول ليعرفوا إلى أين سيمضي النسر، والغريب أنهم كانوا مسرورين كأنهم هم من سيفرج عنهم.

- آه، يا للحيوان القبيح! أريد له الخير، ويكافئني بتمزيق يدي،

قال السجين الذي يمسك بالطائر، وهو ينظر بحب تقريباً إلى الحيوان الشرير.

- دعه يطر يا ميكيتكا!

- لا يناسبه الحبس، أعطِه حريته، الحرية الصغيرة الجميلة.

رُمي النسر من فوق السور إلى السهب، كان ذلك نهاية الخريف، في يوم رمادي بارد، وكان البرد يعصف فوق السهوب العارية ويئن بين الأعشاب المصفرة، اليابسة. هرب النسر، وهو يرفرف بجناحه المريض، كأنه يستعجل مغادرتنا والاحتماء من نظراتنا، تابع السجناء بانتباه رأسه البادي بين الأعشاب.

- أترونه؟ قال أحدهم ساهماً.

- إنه لا ينظر إلى الخلف! لم ينظر ولا مرة واحدة إلى الخلف! أضاف آخر.

- أظننت أنه سيعود لشكرنا؟ قال الثالث.

- هذا أكيد، إنه حرّ، لقد شعر بالحرية.

- نعم، الحرية.

- لن نراه مرة أخرى يا رفاقي.

- ماذا تفعلون واقفين هنا؟ هيا! صاح الحرس، وانصرف الجميع ببطء إلى العمل.

7. التظلم

في مطلع هذا الفصل، يشعر ناشر مذكرات الفقيد ألكسندر بيتروفتش غوريانتشيكوف أنّ من واجبه أن يُطلع القارئ على ما يلي:

في الفصل الأول من «مذكرات من البيت الميت» ذُكرت بضعُ كلمات عن ابن من أصل نبيل قتل أباه، واتُّخذ مثالاً على انعدام الإحساس لدى بعض السجناء حين يتحدثون عن الجرائم التي ارتكبوها. وقيل أيضاً إن هذا الابن لم يشأ أن يعترف بشيء أمام المحكمة، إلا أن حكايات الأشخاص الذين كانوا يعرفون جميع تفاصيل قصته تثبت إجرامه بما لا يدع مجالاً للشك. وقد حكى هؤلاء الأشخاص أنفسهم لكاتب هذه «المذكرات» أن هذا المُجرم كان فاسقاً ومثقلاً بالديون وأنه قتل أباه ليرثَه بأقصى سرعة. وفضلاً عن ذلك، كانت كل المدينة، التي خدم فيها قاتل أبيه، تروي قصته على هذا النحو ذاته، ممّا جعل ناشر هذه «المذكرات» يحصل على معلومات مستفيضة. وأخيراً ذكر كاتب «المذكرات» كذلك أن القاتل كان حتى في السجن مرح المزاج باستمرار، نزق السلوك، وأخرق التصرف، رغم أنه ذكي، وأن كاتب «المذكرات» لم يلاحظ عليه أبداً أيّة قسوة خاصة، وأضاف قائلاً: «لذلك لم أستطِع أن أصدق يوماً أن يكون مجرماً!»

ومنذ فترة قصيرة، تلقى ناشر «مذكرات من البيت الميت» من سيبيريا نبأ يفيد علماً أن هذا الشاب الذي اتُّهم بقتل أبيه كان بريئاً، وأنه عانى في سجن الأشغال الشاقة عشر سنين بغير حق، وأن براءته ثبتت رسمياً عن طريق القضاء. وأن المجرمين الحقيقيين عُرفوا واعترفوا، بينما أطلق سراح الشاب المسكين. ولا يملك الناشر أن يشكّ في صحة هذه الأنباء. . .

«ما جدوى إضافة شيء إلى هذا. ما فائدة الإفاضة في الكلام على ما في مثل هذه الواقعة من عمق مأسوي؟ ما جدوى الرثاء لهذه

الحياة المحطمة في عزّ الشباب بتهمة فظيعة؟» إن الواقعة تتحدث عن نفسها جهاراً.

«ولذلك نعتقد أن أخطاء كهذه إذا كانت ممكنة الوقوع، فإن إمكانيتها الوحيدة تضيف إلى حكايتنا سمة بارزة وجديدة، وتساعد على إكمال وتمييز مشاهد هذه «المذكرات من البيت الميت»».

ولنتابع الآن. . .

ذكرت سابقاً أنني تعوّدت على ظروفي أخيراً، غير أن «أخيراً» هذه لم تأتِ إلا بعد عناء كبير وزمن طويل. لقد احتجت تقريباً إلى سنة كاملة كي أتعود على السجن، وسأظلّ أنظر إلى هذه السنة الأولى كأفظع أيام حياتي، ولذلك انحفرت في ذاكرتي بكاملها حتى في أدقّ تفاصيلها، بل أظنّ أنني أتذكر كل ساعة منها ساعة بعد أخرى. وسبق أن ذكرت أيضاً أنّ السجناء الآخرين لم يستطيعوا أن «يتعودوا» حياتهم أكثر مني. وطوال هذه السنة الأولى ظللتُ أتساءل هل كانوا هادئين حقاً كما كان يبدو عليهم. وكانت هذه الأسئلة تشغل بالي كثيراً. إن جميع السجناء، كما قلت من قبل، كانوا يحسّون بأنفسهن غرباء في السجن، ولم يكونوا فيه يشعرون أنهم في منزلهم، ولكن على الأصح كأنهم ينزلون فندقاً، مؤقّتاً، في محطة معينة من الطريق. كان هؤلاء الرجال، المنفيون إلى الأبد، يبدو بعضهم مضطرباً، وبعضهم محبطاً، ولكن كلّ واحد منهم كان يحلم بشيء مستحيل تقريباً.

هذا القلق الدائم، الذي لا يكاد يظهر، لكنه كان يُلاحظ، والاحتدام ونفاد الصبر في آمالهم المعبَّر عنها لا إرادياً، والمتعذَّر

تحقيقها كثيراً، والشبيهة بالهذيان، كل ذلك كان يضفي على هذا المكان مظهراً خارقاً وطابعاً غير مألوف، بحيث يمكن القول إن غرابته كلها إنما تكمن ربما في هاتين السمتين. حينما يدخل المرء إلى السجن، يحسّ أن لا شيء في خارجه يشبهه. كان جميع الناس هنا يستغرقون في أحلام اليقظة، كان ذلك واضحاً للعيان، وكان هذا الإحساس مفرطاً، ومتَّقداً، وذلك بالضبط لأن هذا الاستغراق الدائم في أحلام اليقظة كان يضفي على معظم السجناء مظهراً قاتماً وكئيباً، يكاد يبدو مرضاً. كلهم تقريباً، كانوا صموتين وغضوبين، ولا يحبون الكشف عن آمالهم الخفية. لذلك كانوا يحتقرون البساطة والصراحة. وكلما كانت الأماني مستحيلة، وكلما كان السجين الكثير الأحلام يقرّ لنفسه باستحالتها، كان يخفيها في أعماق نفسه بعناية قصوى دون أن يستطيع التخلي عنها. تُرى هل كان يخجل منها؟ إن الطبع الروسي واقعي جداً وقاتم كثيراً في رؤيته للأمور، وشديد السخرية من عيوبه الخاصة!...

ربما كان عدم الرضا عن النفس هذا هو سبب التعصب في العلاقات اليومية بين السجناء وفي قساوة السخرية بعضهم من بعض. ولو أن أحداً منهم، أكثر سذاجة أو أقل صبراً من الآخرين، عبر بصوت عالٍ عمّا كان يفكر فيه كل واحد بصوت خفيض، ولو أنه استرسل في الأحلام وأضغاث الأحلام، لأوقفه رفاقه فوراً بفظاظة وغلاظة، وطاردوه، وأوسعوه تهكّماً واستهزاء. وأظنّ أن أعتى هؤلاء المزعجين كانوا بالضبط هم أولئك الذين ربما تفوقوا على رفيقهم في أضغاث أحلامهم الخرقاء وآمالهم المجنونة. سبق أن قلت إن الناس البسطاء والسذَّج كان ينظر إليهم عندنا بمثابة حمقى بلهاء، ولا

يستحقون إلا الازدراء. كان السجناء من شدّة الحدة والحساسية يكرهون كل من كان مرح المزاج، مجرداً من الأنانية. وفضلاً عن هؤلاء الثرثارين البسطاء، كان السجناء الآخرون ينقسمون إلى أخيار وأشرار، ومرحين ومقطبين. والعابسون هم الأغلبية، وإذا اتفق أن كان بينهم ثرثارون، فإنّ هؤلاء الثرثارين كانوا دائماً نمامين وشاة وحساداً، يتدخلون في جميع شؤون الآخرين، رغم أنهم يحترسون من الكشف عن أنفسهم، وأفكارهم الخفية، لأن ذلك لم يكن مقبولاً، ولا عادة جارية. أما الأخيار - وهم قلة - فإنهم كانوا هادئين مسالمين ويكتمون آمالهم بصمت، ويصدقون أوهامهم أكثر من السجناء العابسين المتجهمين. ويبدو لي أن ثمة أيضاً في سجننا مع ذلك فئة أخرى من المنفيين هي فئة اليائسين، من أمثال شيخ ستارودوب، ولكن عدد هؤلاء كان قليلاً جداً.

في الظاهر، كان هذا الشيخ هادئاً، ولكن بعض العلامات كانت تتيح لي أن أفترض أن حالته النفسية كانت رهيبة لا تُطاق، وأن له ملاذاً، وعزاء: هي صلاته وقناعته بأنه كان شهيداً. ولعلّ السجين الذي كان دائم الاستغراق في قراءة الكتاب المقدّس، وسبق لي أن تحدثت عنه، إذ جُنّ جنونه وانقضّ على الماجور بقرميدة في يده، هو أيضاً على الأرجح كان من أولئك الذين هجروا كل أمل، ولما كان من المستحيل تماماً أن يعيش الإنسان بلا آمال، فقد سعى إلى الموت بالاستشهاد طوعاً واختياراً. وهذا الرجل نفسه أكَّد أنه هجم على الماجور دون أدنى شكوى منه، ولكن لكي يتألم ليس إلا. مَن ذا الذي يعرف ما هي العملية النفسية التي تمَّت في أعماقه حينذاك؟ لا يعيش أي إنسان دون هدف ما ودون جهد يبذل من أجل الوصول إلى

هذا الهدف. ومتى غاب الهدف وزال الأمل، فإن القلق غالباً ما يجعل من الإنسان وحشا. . . كانت غايتنا جميعاً هي أنْ ننال الحرية، وأن نخرج من السجن.

إنني أحاول أن أصنف سجناءنا في فئات مختلفة: هل هذا ممكن؟ إن الواقع متنوع للغاية، بحيث يفلت من استنتاجات الفكر المجرد مهما تكن بارعة، ولا يسمح بالتصنيفات الواضحة والدقيقة.

إن الواقع ينزع دائماً إلى التجزئة، والتنوّع الذي لا حصر له. لقد كانت لكل واحد منا حياته الخاصة، الداخلية، والذاتية، بعيداً عن الحياة الرسمية، القانونية والتنظيمية.

ولكنني كما قلت، لم أستطِع النفاذ إلى أعماق هذه الحياة الداخلية في بداية سجني، لأنّ جميع المظاهر الخارجية كانت تؤلمني وتفعمني حزناً عصياً على الوصف. كان يحدث لي أحياناً أن أكره هؤلاء المعذبين الذين كانوا يتألمون كما كنت أتألم. كنت أحسدهم وألعن مصيرهم. كنت أحسدهم لأنهم رغم كل شيء كانوا وسط أقرانهم، وبين رفاقهم، قادرين على التفاهم مع بعضهم، بينما كانوا جميعاً بمن فيهم أنا يشعرون أنهم محبطون ومثبطون بهذه الرفقة تحت السوط والعصا، وبهذه الحياة الجماعية الإجبارية، ويحسون بالنفور بعضهم من بعض، ويسعون إلى الانعزال. وكانت لهذا الحسد الذي يستبدّ بي في لحظات الغضب أسبابه المشروعة، لأنّ أولئك الذين يؤكّدون أن النبيل، الرجل المثقف، لا يتألم في سجن الأشغال الشاقة أكثر ممّا يتألم فلاح بسيط، إنما هم مخطئون تماماً. وفي الأيام الأخيرة، قرأت وسمعت عن هذا الادّعاء. وهذه الفكرة صحيحة مبدئياً وإنسانية: فجميع السجناء بشر، ولكن فكرة أن «الناس

جميعاً متساوون» فكرة مجردة ومغرقة في التجريد: إذ لا ينبغي غضّ الطرف عن عدد كبير من الظروف العملية التي لا يمكن أن تفهم إلا في الحياة الواقعية نفسها. لا أريد أن أقول بذلك إن النبيل، والرجل المثقف، أرهف إحساساً وأشدّ ألماً، لأنهما أكثر تطوراً. إن النفس وتطورها من الصعب أن توضع تحت مقياس واحد، وحتى الثقافة نفسها ليست معياراً في هذه الحالة. أنا مستعدّ أن أكون أول مَن يشهد بأنني رأيت بين هؤلاء المعذبين، في بيئة أقل ثقافة، وأكثر دناءة، ملامح من نمو روحي في غاية الرقة. في سجننا كان يحدث أحياناً أن تعرف إنساناً عدة سنين، وتعتقد أنه وحش، وليس إنساناً، فتحتقره لذلك احتقاراً شديداً. وفجأة، تأتي لحظة غير متوقعة، تتكشف فيها نفسه دون إرادة منه عن غنى، عن عاطفة، عن محبة، وعن فهم واضح لألمه الذاتي ولعذاب الآخرين، فيبدو لك كأنّ غشاوة انزاحت عن عينيك، ولأول وهلة لا تستطيع حتى أن تصدق ما رأيت وما سمعت. وقد يحدث العكس أيضاً: إذ يتَّصف الرجل المثقف في بعض الأحيان بوحشية وكلبية تبعثان على الغثيان، ومهما تكن نيتك، حسنة أو سيئة، لا تستطيع أن تجد له في قلبك تسويغاً ولا عذراً.

لن أقول شيئاً عن تغيّر العادات، ونمط الحياة، ونوع الطعام... إلخ، وهو تغير يشقّ طبعاً على إنسان من الطبقة الراقية أكثر ممّا يشق على فلاح، كثيراً ما تضور جوعاً حين كان حرّاً طليقاً، بينما هو شبعان دوماً في السجن. لا، لن أجادل في ذلك. لنفترض أن كل هذا، بالنسبة إلى إنسان يمتلك ولو قليلاً من قوة الإرادة، ليس إلا هراء إذا قيس بمضايقات أخرى، ولو أنّ تغيُّر العادات في الحقيقة ليس على الإطلاق أمراً سخيفاً وآخر ما يفكّر فيه. ولكن ثمة

مضايقات يهون أمامها كل شيء، حتى لا يعود السجين ينتبه لا إلى الوسخ المحيط به ولا إلى الضغط الممارس عليه ولا إلى الطعام القذر والهزيل الذي يقدَّم إليه. إن أنعم الرجال وأكثرهم بياض يدين وبضاضة وغضاضة، بعد الاشتغال طوال النهار، بعرق الجبين، كما لم يشتغل أبداً في أوقات الفراغ، يعود إلى السجن، فيأكل من دون أن يرفّ له جفن، خبزه الأسود وشوربته المصنوعة من الكرنب والراتعة فيها الصراصير. ويمكن أن يتعوّد المرء ذلك، كما تذكُر أغنية السجناء الفكاهية عن ناعم اليدين القديم، الذي وجد نفسه في السجن:

أعطوني الكرنب بالماء،
وأكلته، حتى صرصر في أذني.

كلا، المهم أنّ كلّ وافد جديد على السجن، بعد وصوله بساعتين، يصبح على مستوى واحد مع الآخرين، فهو في بيته، وله ما لرفاقه من الحقوق، ينتسب إلى جماعة السجناء، يفهمونه ويفهمهم، يعرفونه جميعاً، ويعدّونه واحداً منهم، وليس الأمر كذلك بالنسبة إلى سجين من طبقة النبلاء. ومهما يكن هذا الأخير عادلاً، طيباً، وذكياً، فإنهم جميعاً يكرهونه ويحتقرونه طوال سنين كاملة، لن يفهموه، والأهم من ذلك - لن يثقوا به - ولن يكون لا صديقهم ولا رفيقهم، ولو استطاع أخيراً أن ينجح، مع السنين، في أنْ لا يهينوه، فإنه مع ذلك لن يصبح منهم، وسيظلّ غريباً يعترف لنفسه متألماً دائماً بأنه منبوذ بينهم وبعيد عنهم جميعاً. كان هذا الفراغ الذي يحيق به يحدث في كثير من الأحيان دون سوء نية من السجناء ودون شعور منهم بما

يفعلون. إنه ليس من جماعتهم - وهذا كل ما في الأمر. لا شيء أفظع من أن لا يعيش المرء في بيئته. إن الفلاح الذي ينقل من تاغانروغ إلى ميناء بيتروبافلوفسك سرعان ما يجد هناك فلاحاً روسياً مثله، وفي أقل من ساعتين يتفاهم معه ويرتبطان تواً ويعيشان معاً بسلام في «إيزبا» - إسْبة واحدة أو في كوخ واحد. ولا شيء من ذلك بالنسبة إلى النبلاء، فثمة هوة سحيقة لا قرار لها تفصلهم عن عامة الشعب، ولا يلاحظ هذا «كلياً» إلا حين يفقد «نبيل» حقوقه الأولى ويغدو هو نفسه فرداً من الشعب. وحتى لو عشت طوال حياتك على صلة يومية بالفلاح، ولو كنت على علاقة مباشرة به كل يوم، خلال أربعين سنة، عن طريق خدمتك، مثلاً، في وظائف إدارية، وكنت عندئذٍ لهذا الشعب إنساناً محسناً وأباً رحيماً، فإنك لن تفهمه فهماً عميقاً. وكلّ ما تعتقد أنك تعرفه لن يكون إلّا وهماً نظرياً، ولا شيء أكثر. إنّ الذين سيقرؤون كلامي هذا سيقولون بلا شك إنني أبالغ، لكنني مقتنع أن ملاحظتي صحيحة. ولست مقتنعاً بها نظرياً، لأني قرأت هذا الرأي في مكان ما، بل لأن الحياة الواقعية أتاحت لي الوقت المطلوب لتدقيق قناعاتي. وربما سيدرك الناس جميعاً مدى صحة ما أقول.

ومنذ الأيام الأولى أثبتت الأحداث صحة ملاحظاتي، وأثّرت في جسمي تأثيراً مرضيّاً. خلال الصيف الأول كنت أطوف في السجن وحيداً. سبق أن قلت إنني كنت في حالة نفسية لم تكن تتيح لي أن أحكم على السجناء ولا أن أميِّز بينهم أولئك الذين كان يمكن أن يحبوني فيما بعد، دون أن يقفوا معي على قدم المساواة. كان لي رفاق من قدماء النبلاء، ولكن رفقتهم لم تصادف هوى في نفسي.

كنت أتمنى أن لا أرى أحداً، ولكن إلى أين المفر؟ وهذا أحد الحوادث التي كشفت لي من الوهلة الأولى عن وحدتي وغرابة وضعي كله في السجن.

ذات يوم، من شهر آب/ أغسطس، في يوم شديد الحر، حوالي الساعة الواحدة بعد الظهر، في هذه اللحظة التي يقيل فيها عادة جميع السجناء قبل استئناف العمل، قاموا قومة رجل واحد واحتشدوا في فناء السجن. لم أكن أعرف شيئاً في تلك اللحظة. ولمّا كنت مستغرقاً في أفكاري، لم أنتبه إلى ما كان يجري حولي. ومع ذلك كان السجن مضطرباً منذ ثلاثة أيام. وربما بدأ هذا الاضطراب قبل ذلك بزمن طويل، كما افترضت ذلك فيما بعد، حين تذكرت شذرات من الأحاديث، ولا سيما ما كان يبدو واضحاً على وجوه السجناء من مزاج عكر واهتياج مستمر منذ زمن. كنت أعزو ذلك إلى الأشغال الشاقة في الصيف، وإلى الأيام المرهقة من جراء طول هذا الفصل، وإلى أحلام السجناء دون إرادة منهم بالغابات والحرية، وإلى قصر الليالي، التي لم يكونوا ينالون فيها قسطاً كافياً من الراحة والنوم. وربما انصهرت كل هذه العوامل في كتلة ضخمة من السخط كانت على وشك أن تنفجر، بدعوى رداءة الطعام. ظلّ السجناء منذ عدة أيام يشتكون من الطعام جهاراً ويتذمرون في الثكنات، خاصة حين يجتمعون في المطبخ للغداء أو العشاء، وقد حاولوا أن يستبدلوا طباخاً بآخر، إلّا أنهم بعد يومين طردوا الطباخ الجديد وأعادوا الطباخ القديم. والخلاصة أن السجناء جميعاً كانوا في حالة قلق شديد:

كان أحدهم يدمدم في المطبخ قائلاً:

- يرهقوننا بالعمل، ولا يطعموننا إلا بقذارات المصارين.

ويجيبه سجين آخر:

- إذا لم يعجبك هذا الطعام، فاطلب لك أكلاً نظيفاً.

ويتعجب ثالث:

- حساء الكرنب الحامض، ما أطيبه! أنا أحبه.

- وإذا لم يطعموك إلا الكروش، فهل ستجدها دائماً طيبة المذاق؟

ويقول رابع:

- حقاً، يجب أن يطعمونا قليلاً من اللحم، إننا ننهك عملاً في مصنع الآجر، وحين نعود متضورين جوعاً نحتاج إلى أن ننهك أكلاً، وهذه الكروش لا تسدّ رمقاً!

- وإذا لم يطعمونا بالكروش، أفعمونا «بالمثابرة»(*)

- ولا بد أيضاً من هذه «المثابرة». الكروش و«المثابرة». لا نضبط إلّا على هذا، على هذا بالضبط، صحيح أم لا؟

- نعم، هذا العلف رديء.

- إنه يملأ جيوبه بلا شك.

- هذا ليس شأنك؟

- شأن مَن إذن، إذا لم يكن شأني؟ إنّ بطني ملكي! ولو أجمعنا على رفع شكوى، لكانت قضية.

- شكوى؟

(*) إذا لم يطعمونا بالكروش، أفعمونا «بالمثابرة»: يعني سخرية السجناء برداءة الطعام و«المثابرة» على العمل الشاق.

- نعم.

- ألم تشبع من الضرب بسبب هذه الشكاوى. أيها الأبله!

وقال سجين آخر ظلّ ملتزماً بالصمت حتى ذلك الوقت:

- أكيد، في العجلة الندامة. وإذن؟ ماذا ستقول في ظُلامتك؟ أخبرنا بها أولاً، يا كريه السحنة!

- سأقولها طبعاً. إذا ذهب الجميع لعرض شكواهم، سأمضي معهم وسأتظلم عندئذٍ، أنا أيضاً، لأنني أكاد أقضي نحبي جوعاً. عندنا، هناك الذين يأكلون على نفقتهم الخاصة، والآخرون، ليس لهم إلا وجبة الحكومة.

- يا لهذا الغراب الحسود! عيناه ثاقبتان ومتّقدتان طمعاً في لقمة غيرهم.

- في لقمة غيرك لا تفغر فاك، وباكر صباحاً وباشر!

- فلتباشر! سنظلّ، أنا وأنت، نجادل في هذا الأمر حتى يشتعل رأسانا شيباً. وبالتالي، أنت فيما يبدو غني، أو تريد أن تجلس القرفصاء دون عمل؟

- نعم، غني، مثل إيروشكا، الذي ليس له إلا كلبه وقطه.

- نعم، حقاً، يا إخوان، ماذا ننتظر؟ كفانا مضغاً لكل سخافاتهم. إنهم يسلخون جلودنا. لم لا نمضي لعرض شكوانا؟

- ما جدوى الشكوى؟ لعلّك تعتقد أنهم سوف يمضغون اللقم ويضعونها في فمك، تعودت أن لا تأكل إلا ما يُمضغ لك. كلا، يا صاح، هذا سجن الأشغال الشاقة، إنه السبب في كل شيء!

- وبهذا جرت العادة، الشعب يموت جوعاً، والرؤساء يملؤون البطون.

- صحيح. لقد صار سميناً جداً صاحبنا ذو العيون الثماني. واشترى له حصانين أشهبين.

وقال سجين بلهجة ساخرة:

- ولا يحب أن يشرب خمراً.

- لقد غلب منذ زمن في لعبة الورق مع البيطري. لعب ساعتين دون أن يكون في جيبه أي كوبيك. فيلكا هو الذي قال لي ذلك.

- لهذا السبب يطعموننا حساء بالكرنب والأمعاء.

- أنتم جميعاً أغبياء! هل يعنينا ذلك؟

- نعم، لو تظلمنا جميعاً، سنرى كيف سيتصرف. هيا فلنقرر.

- كيف سيتصرف؟ سيلطمك على الأماكن المعشوقة(*) من وجهك، ولا شيء أكثر.

- وسيقدِّمك إلى المحاكمة أيضاً.

كان السجناء في هرج ومرج شديدين، لأن طعامنا كان رديئاً جداً. وممّا كان يزيد في حدّة السخط العام، هو القلق الشديد، والألم المستمر، والانتظار الدائم. إنّ السجين بطبعه مماحك ومتمرِّد، ولكن من النادر جداً أن يتمرّد السجناء جماعة، لأنهم لا يتفقون أبداً، وكل واحد منا كان يحسّ بذلك إحساساً قوياً، لذلك كانوا يتكلمون ويتشاتمون أكثر ممّا يتصرفون عملياً. ومع ذلك، لم يكن الاضطراب، في هذه المرة، دون نتائج. إذ تشكلت في الثكنات جماعات، ظلت تناقش، وتشتم، وتعدِّد مساوئ إدارة ماجورنا بكُرهٍ، وتسبر أغوارها وتذكر أسرارها وخفاياها. وفي كل قضية مثل هذه،

(*) على الأماكن المعشوقة من وجهك: ضربة على الأسنان.

كان يظهر قادة ومحرضون. والقادة في مثل هذه الظروف، أي ظروف التظلم، هم أشخاص بارزون جداً وممتازون، ليس في السجن فحسب، ولكن في جميع فئات العاملين، وفي كل فصائل الجيش... إلخ. إنّ هذا النموذج الخاص هو نفسه دائماً في كل مكان: إنهم أناس متأجِّجو الحماسة، متعطشون إلى العدالة، وشديدو السذاجة، ومقتنعون اقتناعاً صادقاً ونزيهاً بالقدرة المطلقة على تحقيق رغباتهم، وليسوا أغبى من الآخرين، بل إن بينهم أناساً يتمتعون بذكاء متفوق، ولكنهم أشد حماساً من أن يكونوا ماكرين وحذرين. وإذا صادفنا منهم أناساً يعرفون كيف يقودون الجماهير، ويحققون ما يريدون، فإنهم ينتمون إلى نموذج آخر من القادة الشعبيين يندر وجودهم كثيراً عندنا. ولكن الذين أتحدث عنهم الآن، وهم قادة التظلم والمحرضون عليه، يخسرون قضيتهم دائماً تقريباً، وبسبب تمرُّدهم يستقرون بعد ذلك في السجون والمعتقلات. إنهم يخسرون بسبب اندفاعهم، ولكن بفضل هذا الاندفاع نفسه يؤثرون في الجماهير: فيتبعهم الناس، برضاهم، لأن حماسهم وغيظهم الصادق والنزيه يتركان أثرهما على جميع الناس: فإذا بأكثرهم تردداً يندفعون. إنّ ثقتهم العمياء تغري حتى المتشككين المتشددين، رغم أن هذه الثقة التي تفرض نفسها عليهم غالباً ما تكون قائمة على أسس ضعيفة وصبيانية، بحيث يدهش المرء حين يرى الناس قد صدّقوها. ولكن الأساس هو أنهم أول السائرين ويسيرون دون أن يخشوا شيئاً. إنهم يندفعون إلى الأمام، كالثيران، خافضين قرونهم، دون أن يعرفوا في أكثر الأحيان ما يباشرونه من عمل، ودون حذر، ودون أن تساورهم تلك الروح اليسوعية العملية التي بفضلها يستطيع حتى إنسان دنيء

سافل في كثير من الأحيان أن يكسب قضية وأن يصل إلى هدفه، وأن يخرج من الماء دون أن يبتلّ بماء. لذلك تتهشّم جباههم من دون شك. إنهم في الحياة العادية أناس سريعو الغضب، كثيرو التذمّر، قليلو التسامح، شديدو الاحتقار، ومحدودو الأفق للغاية في كثير من الأحيان، وذلك مصدر قوتهم على كل حال. ومن المؤسف أنهم بدل الذهاب إلى الهدف مباشرة، غالباً ما يندفعون جانباً: فيهملون الأساسي ويهتمون بصغائر الأمور، وهذا ما يؤدي بهم إلى الضياع. ولكن الجمهور يفهمهم، وفي ذلك تكمُن قوتهم. ولكن، ينبغي عليّ أن أقول الآن بضع كلمات عن المقصود بكلمة «الظُّلامة»...

كان في سجننا بعض الأشخاص الذين نفوا إلى سيبيريا من أجل التظلم بالذات. وهم أكثر السجناء اهتياجاً. أذكر من بينهم على الخصوص رجلاً يُدعى مارتينوف، كان قد خدم في سلاح الفرسان، ورغم أنه شديد الاندفاع والاضطراب والارتياب، فهو إنسان صادق ونزيه. وأذكر من بينهم أيضاً فاسيلي أنتونوف، وهو رجل شديد الغضب، وقح النظرة، وساخر الابتسامة، ونبيه ويقظ فوق ذلك، وهو أيضاً رجل نزيه وصادق. ولكنني لا أستطيع أن أعددهم جميعاً لأنهم كثر. كان بيتروف مقبلاً مدبراً بين جماعة وأخرى، مصغياً إلى كل جماعة، دون أن يقول شيئاً كثيراً، ولكنه مهتاج بكل تأكيد، إذ كان أول الواثبين إلى خارج الثكنة حين بدأ الآخرون يحتشدون في الفناء.

وسرعان ما حضر ضابط الصف، الذي كان يشغل وظيفة سارجان ماجور، وهو يضطرب رعباً ولمّا اصطف السجناء طلبوا منه بأدب أن يبلِّغ الماجور أن السجن يرغب في أن يتكلم معه وأن يسأله عن عدد من الأمور. وعقب وصول ضابط الصف حضر جميع الجنود

المعطوبين فاصطفوا في الجهة الأخرى أمام السجناء. إن المهمة التي كلف بها ضابط الصف كانت أمراً غير عادي، لم يعهده من قبل، وقد ملأته فزعاً. ولكن كان من المستحيل عليه أن لا يرفع تقريره إلى الماجور على الفور. أولاً، إذا وقع التمرّد في السجن، كان يمكن أن يتوقع المرء ما هو أسوأ، ثم إن جميع رؤسائنا كانوا في غاية الجبن، لما كان الأمر يتعلق بالسجناء. وفي المقام الثاني، إذا لم يحدث شيء خطير، ولو عدل السجناء عن رأيهم وتفرقوا، لا يستطيع ضابط الصف أن لا يسجل في تقريره كل ما وقع. وها هو ذا إذن يهرع إلى الماجور، ممتقع اللون، ومضطرباً رعباً، دون أن يحاول استفسار السجناء أو ردّهم إلى الصواب. فقد أدرك أن السجناء غير راغبين في الكلام معه.

ودون أن أعرف ما يجري حولي، وقفت أنا أيضاً في الصف. ولم أعلم بتفاصيل الموضوع إلا فيما بعد. وفي هذه اللحظة، كنت أظنّ أننا بصدد المراقبة والعدّ، فلما لم أرَ الحرس المكلفين عادة بتعدادنا، دهشت وأخذت أنظر حولي. كانت الوجوه منفعلة وحانقة ومنها الشاحبة أيضاً. كان السجناء مشغولي البال وصامتين، يفكرون فيما يجب عليهم أن يقولوا للماجور. ولاحظت أن كثيراً منهم كانوا ينظرون إليّ بذهول كبير، ولكنهم كانوا يشيحون عني بوجوههم دون أن يقولوا لي شيئاً. كانوا يستغربون من أن يروني مصطفّاً إلى جانبهم. ولم يستطيعوا أن يصدقوا دون شك أنني يمكن أن أتظلم أنا أيضاً. وسرعان ما التفت إليّ تقريباً جميع مَن كانوا حولي محدقين فيَّ بنظرات متسائلة.

- ماذا تفعل أنت هنا؟

هكذا سألني فاسيلي أنتونوف، بأعلى صوته، وبلهجة فظة، وكان

أبعد الواقفين إلى جانبي، وكان يخاطبني قبل ذلك دائماً بصيغة الجمع «أنتم» ويعاملني بكثير من الأدب، وإذا به يخاطبني هذه المرة بصيغة المفرد «أنت».

نظرتُ إليه بارتباك شديد، محاولاً أن أفهم ماذا كان يعني ذلك، إلا أنني أدركت أن شيئاً غير عادي كان يجري في سجننا.

قال لي سجين شاب، عسكري قديم، لم أكن أعرفه حتى ذلك الحين، وهو فتى لطيف وهادئ:

- نعم، هذا صحيح، ماذا تفعل هنا؟ ادخل إلى الثكنة، هذا الأمر لا يعنيك.

فأجبته قائلاً:

- إننا نقف في الصف! أليس من أجل المراقبة؟

وصاح أحدهم قائلاً:

- هو ذا يحشر أنفه.

وقال آخر:

- يا للأنف الحديدي!

وأضاف ثالث باحتقار لا يوصف:

- هو ذا قاتل الذباب!

هذا اللقب الجديد جعل الجميع ينفجرون ضاحكين.

وأضاف أيضاً آخر:

- إلا أنهم أفضل في المطبخ، هؤلاء الناس.

- إنهم في كل مكان متنعمّون. هنا، في السجن، يأكلون أرغفة السميطة ويشترون خنازير رضيعة. أنت، تتناول طعامك على انفراد، وإذن، ماذا تفعل هنا؟

اقترب مني كوليكوف وقال لي بلا تكلُّف، وهو يمسك بيدي ويخرجني من الصف، ويخاطبني بصيغة الجمع:

- مكانكم ليس هنا.

كان هو أيضاً شديد الشحوب، وكانت عيناه السوداوان تسطعان، كان يعضّ على شفته السفلى. لم يكن من أولئك الذين ينتظرون وصول الماجور برباطة جأش.

بالمناسبة: كنت أحب كثيراً أن أتطلّع إلى كوليكوف وهو في مثل هذه اللحظات، أي في جميع الحالات التي كان عليه أن يكشف عن ذاته كاملاً بحسناته وسيئاته. كان يتكلف لكنه كان يتصرف أيضاً. وأظن أنه كان يمكن أن يمضي حتى إلى الإعدام برشاقة وأناقة. وبينما كان الآخرون جميعاً يخاطبونني بصيغة المفرد، ويسبونني، كان هو يضاعف أدبه معي، ولكن كلماته كانت حازمة وقاطعة، لا تحتمل أي جواب. قال متابعاً كلامه:

- نحن هنا من أجل أمور خاصة بنا، يا ألكسندر بيتروفيتش، لا شأن لك بها. فامضِ حيث شئت، وانتظر حتى ينقضي هذا، اسمع، جماعتك في المطبخ، فاذهب إليهم.

وقال آخر:

- إنهم في دفء هناك.

تطلعت من خلال النافذة المفتوحة فلمحت البولنديين داخل المطبخ فعلاً، وكثيراً من السجناء أيضاً. واتجهت إلى المطبخ مرتبكاً أشد الارتباك ترافقني ضحكات، وشتائم، وقهقهة خاصة كانت تقوم في سجننا مقام الصفير وصياح الاستهزاء.

- لم يعجبه هذا! تيو-تيو-تيو!... أدركوه!

لم يسبق لي أن أهِنْت بمثل هذه الإهانة القاسية منذ دخولي السجن. وفي هذه المرة، شعرت بألم لا يُحتمل. ولكنني وقعت في تلك اللحظة الحرجة، حيث كانت النفوس مهتاجة. وعلى مدخل المطبخ التقيت بالفتى ت. . .فسكي، وهو شاب من طبقة النبلاء، ليس له مستوى ثقافي كبير ولكنه حازم وكريم، وكان يحب بجنون ب. . . وكان السجناء يميزونه ولا يضمرون له ما يضمرونه من كره لكل السجناء النبلاء، وكانوا يحبونه تقريباً. وكل حركة من حركاته كانت تدل على أنه شجاع وجريء وقوي.

صاح يقول لي:

- ماذا تفعل، غوريانتشيكوف، تعال إلى هنا!

سألته:

- ولكن، ما الذي يجري إذن؟

- يريدون تقديم شكوى، ألا تعلم ذلك؟ طبعاً لن يظفروا بشيء، من سيصدق سجناء؟ سيبحث عن محرضين، فإذا كنا معهم، ستُلقى علينا التبعة. لا تنس لماذا نفينا إلى هنا! هم، سيجلدون فقط، أما نحن، فسيعودون بنا إلى المحاكمة. إن الماجور يكرهنا جميعاً، وسوف يسعد كثيراً بضياعنا، وسيجد فينا تعلّة لتبرئة ذمته.

وأضاف م. . .تسكي قائلاً حين دخلنا إلى المطبخ:

- سيبيعنا السجناء مقيدي الأيدي والأرجل.

وأضاف أيضاً ت. . .فسكي قائلاً:

- لن يرحمونا أبداً.

كان في المطبخ، فضلاً عن السجناء المنتمين إلى طبقة النبلاء، حوالي ثلاثين من السجناء، الذين لم يكونوا يريدون الاشتراك في

التظلم العام، بعضهم عن جبن، والآخرون، لاقتناعهم المطلق بأن هذه الشكوى لا جدوى منها. وكان أكيم أكيميتش، العدو الطبيعي لجميع الشكاوى ولكلّ ما يمكن أن يعرقل النظام ويعطل الخدمة - هادئاً ينتظر انتهاء هذه القضية دون أن يبالي بعاقبتها، إذ كان مقتنعاً تماماً بأنّ الفوز الفوري سيكون حليف النظام والسلطة الإدارية. وكان إشعيا فوميتس، خافضاً أنفه، وشديد الارتباك، يصغي إلى ما كنا نقول بفضول مذعور، كان قلقاً إلى حدٍّ بعيد. وانضم إلى البولنديين النبلاء سجناء من العامة المنتمين إلى الجنسية البولندية، ولحق بهم كذلك بعض الروسيين، من ذوي الطبيعة الوجلة، وهم أناس بلهاء وصامتون دائماً، لم يجرؤوا على الاصطفاف إلى جانب الآخرين، وكانوا حزانى ينتظرون نتيجة القضية. وكان هنالك أيضاً بعض السجناء المتجهمين والمستائين الذين مكثوا في المطبخ، ليس خوفاً، ولكن لاعتقادهم أن هذا التمرد سخيف، ولا طائل منه، وأظن أنني لاحظت أنهم كانوا في تلك اللحظة متضايقين، وأن نظراتهم كانت حائرة. كانوا يشعرون بأنهم على حق، وبأن نتيجة الشكوى ستكون كما توقعوها، ولكنهم كانوا يعدون أنفسهم متنكرين لمبادئهم، كأنهم خانوا جماعتهم وباعوا رفاقهم للماجور.

وكان في المطبخ أيضاً يولكين، ذلك الفلاح السيبيري الداهية، الذي أرسل إلى الأشغال الشاقة بسبب تزييف النقود، والذي انتزع من كوليكوف زبائنه البيطريين في المدينة. وكان هنالك أيضاً شيخ ستارودوب. ولم يبارح مكانه أي طباخ، لأنهم على الأرجح كانوا يعتبرون أنفسهم جزءاً كاملاً من الإدارة، ولم يكن مقبولاً، في نظرهم، أن ينحازوا إلى تمرد عليها.

قلت مخاطباً م. . .تسكي بلهجة غير واثقة:

- ولكن جميع السجناء خرجوا، ماعدا هؤلاء.

فقال ب. . . متذمراً:

- ما شأننا نحن بذلك؟

- لو تبعناهم، لتعرّضنا للخطر أكثر منهم، ولماذا؟ إنني أكره هؤلاء اللصوص(*)، قال م. . .تسكي هذه الجملة بالفرنسية: «Je haïs ces brigands». وهل تظن أنهم سيعرفون كيف يشتكون؟ أنا لا أرى ما هي اللذة التي يجدونها في توريط أنفسهم في هذه السخافة.

وأكّد شيخ عنيد وخشن:

- صحيح، لن يظفروا بقلامة ظفر.

وسارع ألمازوف، الذي كان معنا، إلى مشاطرة هذا الرأي نفسه:

- إلا أن يجلد منهم خمسون، ما نفع ذلك؟

ثم صاح صوت:

- وصل الماجور!

وهرع الجميع إلى النوافذ.

جاء الماجور مسرعاً، واضعاً نظارتيه على عينيه، هائجاً، مسعوراً، محمرّ الوجه. واتّجه نحو صفّ السجناء، مباشرة، ثابت الخطى، دون أن يقول كلمة واحدة. في مثل هذه الظروف كان يبدو جريئاً حقّاً، ولا يفقد رباطة الجأش: ولا بد من القول إنه يكاد أن يكون دائماً نشوان. وحتى قبعته الملوثة بالدهن، ذات الإطار

(*) بالفرنسية: Je hais ces brigands

البرتقالي اللون، وكتْفِيّاته الفضية المتسخة، كان لهما في هذه اللحظة منظر يوحي ببعض الشؤم. وعلى إثره كان يمشي الموظف دياتلوف، وهو شخص وجيه مهم جداً في السجن، لأنه هو الذي كان في حقيقة الأمر يدبر كل شؤون السجن، ويؤثر تأثيراً كبيراً حتى في الماجور نفسه. كان هذا الفتى داهية خفي القصد، ولكنه غير شرير. لذلك كان السجناء مرتاحين إليه. وعلى إثر دياتوف جاء ضابط الصف، الذي نال بالتأكيد توبيخاً عنيفاً ولا شك أنه كان يتوقع أن ينال المزيد من التأنيب أضعافاً مضاعفة، وكان يتبعه خفراء، ثلاثة أو أربعة، لا أكثر. كان السجناء الذين ظلوا حاسري الرؤوس، فيما يبدو، منذ اللحظة التي طلبوا فيها حضور الماجور، قد انتصبوا وتأدبوا الآن، وبدّل كل واحد منهم رجله بالأخرى، ثم جمدوا في أماكنهم، بانتظار الكلمة الأولى أو على الأصح الصيحة الأولى، التي ستصدر عن رئيسهم الأعلى.

وسرعان ما انطلقت هذه الصيحة المدوية. منذ الكلمة الثانية، أخذ الماجور يعوي بأعلى صوته. ورفع عقيرته حتى بالعويل في هذه المرة: فقد كان حقاً خارجاً عن طوره. كنا نراه من النوافذ يركض أمام الصفوف، وينقضّ على السجناء ويلقي عليهم أسئلة تلو أخرى. ولما كنا بعيدين جداً، لم نستطع أن نسمع لا أسئلته ولا أجوبة السجناء عنها. كان يتناهى إلينا فقط صياحه المدوي متذمراً أو متحسِّراً من بعيد:

– العصاة!... السياط!... المحرضون!..

ثم صرخ وهو ينقض على سجين:

– أنت محرض، أنت محرض!

لم نسمع جواب السجين، ولكن رأينا بعد لحظة سجيناً يخرج من الصف، ويتَّجه نحو مقر الحرس... وبعد لحظة أخرى تبعه سجين آخر، ثم ثالث.

- ستحاكمون جميعاً! سوف... وفي المطبخ، ماذا هنالك أيضاً؟

هكذا قطع كلامه حين لمحنا من النوافذ المفتوحة.

ثم تابع كلامه قائلاً:

- إلى هنا جميعاً، هاتوهم جميعاً!

واتجه الموظف دياتلوف نحو المطبخ. قلنا له نحن لا نشكو من شيء. فعاد على الفور ليخبر الماجور بذلك.

قال الماجور وهو يخفض صوته طبقتين، ويلوح عليه الرضا والفرح:

- آه! أولئك، لا يشتكون! لا بأس: جميعاً هنا!

خرجنا من المطبخ: كنت أحسّ بنوع من العار، وفوق ذلك كانوا جميعاً يسيرون مطرقين.

خاطبنا الماجور بصوت لاهث، ولكنه صوت حفيّ، وغدت حتى عيناه بشوشتين:

- آه! بروكوفييف! يولكين أيضاً، وأنت كذلك، ألمازوف! هنا! تعالوا إلى هنا، دفعة واحدة!

وتابع الماجور يقول:

- وأنت أيضاً بينهم، يا م... تسكي... سجلوا أسماءهم، يا دياتلوف! سجلوا جميع الأسماء، أسماء الراضين على حدة، وأسماء الساخطين على حدة، سجل جميع الأسماء بلا استثناء، وستقدم لي

لائحة بالأسماء... سأحيلكم جميعاً على المجلس... لسوف أفعل... أيها اللصوص!

وكان للائحة مفعولها. وهذا أحد الساخطين يصيح بصوت بهيم متردد:

- نحن راضون!

- آه! راضون! من هو الراضي؟ فليخرج كلّ مَن هم راضون من الصف!

وهتفت أصوات أخرى تقول:

- نحن! نحن!

- هل أنتم راضون عن الطعام؟ حرّضوكم إذن؟ كان هناك إذن محرضون، عصاة؟ الويل لهم...!

وقال صوت من بين الحشد:

- رباه! ماذا يعني هذا؟

زمجر الماجور مندفعاً نحو الجهة التي صدر منها الصوت:

- مَن صاح بهذا السؤال؟ من الذي صاح؟ أأنت الذي صاح، يا راستورغوييف؟ هيا إلى مقر الحرس!

راستورغوييف، شاب ممتلئ الخدين، طويل القامة، خرج من الصف واتجه ببطء نحو مقرّ الحرس. لم يكن هو الذي صاح، ولكنه لم يحاول أن يعترض لمّا سماه الماجور.

قال الماجور مزمجراً:

- السمنة هي التي تجعلكم مسعورين!

وتابع قائلاً:

- انتظر، يا ضخم الخطم، خلال ثلاثة أيام، لن تستطيع...!

انتظروا، سوف أقبض عليكم جميعاً. فليخرج الذين لا يشتكون!

قال بعض السجناء المتجهمين:

- إننا لا نشتكي، يا صاحب النبالة الرفيعة!

والتزم الآخرون بالصمت. ولكن الماجور لم يكن يرغب في أكثر من ذلك: كان يرى مصلحته في أن ينهي هذه المسألة بأقصى سرعة ممكنة، وبإجماع السجناء.

قال متمتماً:

- آه! الآن لا يشتكي أحد من شيء. رأيت ذلك... كنت أعرفه. إنهم المحرضون... هناك دون شك محرضون!

وتابع يقول مخاطباً دياتلوف:

- يجب الكشف عنهم جميعاً. والآن.. حان موعد الذهاب إلى العمل. فليُقرع الطبل!

وشارك الماجور بنفسه في تشكيل فرق العمل. وتفرق السجناء حزانى، دون كلام، فرحين بالتواري عن أنظار الماجور، الذي اتّجه بعد انطلاق الفرق، مباشرة إلى مقر الحرس، حيث اتخذ إجراءاته في حقّ «المحرضين»، ولكنه لم يسرف في القسوة. كان واضحاً أنه يريد الانتهاء بأقصى سرعة من هذه المشكلة. حدثنا بعدئذٍ أحد الذين أخذوا ليُجلدوا في مقر الحرس فقال إنه طلب العفو من الضابط فأفرج عنه سريعاً.

لا شك أن الماجور لم يكن مرتاح البال، وربما كان خائفاً، لأنّ التمرد مسألة شائكة دائماً، ورغم أن تظلم السجناء لم يكن في واقع الأمر تمرداً (لم يخبر به إلا الماجور، أما القائد فلم يعلم به) فهو على كل حال لا يخلو من إزعاج وإحراج، وما كان يقلقه أكثر، هو

إجماع السجناء على العصيان، فكان لا بد بالتالي من خنق احتجاجهم بأي ثمن.

أفرج سريعاً عن «المحرضين». وفي الغداة كان الطعام مقبولاً، ولكن هذا التحسن لم يستمر طويلاً، وفي الأيام التالية، أخذ الماجور يزور السجن في أغلب الأحيان، ويعاقب دائماً على كلّ مخالفة للنظام. وكان ضابط الصف يمضي ويجيء مضطرباً قلقاً كأنه لم يستطع الخروج من ذهوله. أما السجناء، فلم يهدؤوا إلا بعد مدة طويلة، إلا أن غليانهم لم يعد شبيهاً بغليان الأيام الأولى: فقد كانوا قلقين، مرتبكين. كان بعضهم يحنون رؤوسهم ويصمتون، بينما كان آخرون يتكلمون عن هذا الغليان مدمدمين وكأنهم مرغمون. وكان الكثيرون يسخرون من أنفسهم بمرارة كأنما ليعاقبوا أنفسهم على هذا العصيان.

قال أحدهم:

- خذْ، يا أخي، تناول وكُلْ!

وأضاف آخر:

- لا تحصد إلا ما تزرع!

وعلق ثالث:

- أين الفأر الذي أراد أن يعلق الجرس في ذيل الهر؟

- نحن لا يمكن إقناعنا دون هراوة، هذا مؤكد. لنهنئ أنفسنا على أننا لم نجلد جميعاً.

ولاحظ أحدهم مغتاظاً:

- فكر أكثر، وثرثر أقل، سيكون الأمر أفضل!

- هل تريد أن تلقّنني درساً؟ هل أنت معلم مدرسة؟

- طبعاً، ألقِّنك درساً.

- من أنت حتى تنطّ هكذا؟

- أنا حتى الآن لا أزال رجلاً، وأنت من تكون؟

- أنت عظمة كلب! هذا هو أنت!

- عظمة الكلب هو أنت!

- هيا، كفى! ما هذا الزعيق والنهيق؟

هكذا كانت تتعالى الصيحات من كل جانب محاولة إخراس المتخاصمين.

وفي مساء ذلك اليوم الذي حدث فيه التمرد، التقيت بيتروف خلف الثكنات بعد عمل النهار. كان يبحث عني. وسمعته يتمتم ببعض الهتافات غير المفهومة وهو يدنو مني، وسرعان ما صمت شارد الذهن وسار إلى جانبي بخطى آلية. كنت لا أزال مهموماً بتلك القضية، واعتقدت أن بيتروف يمكن أن يفسر لي بعض الأمور فيها.

سألته:

- بيتروف، أخبرني، هل أصحابك غاضبون منا؟

فأجاب كمن ثاب إلى رشده فجأة:

- غاضبون؟ من؟

- السجناء... هل هم غاضبون، من النبلاء؟

- ولماذا سوف يغضبون؟

- لأننا لم نشاركهم شكواهم.

قال بيتروف محاولاً أن يفهم ما كنت أقول له:

- ولماذا عليكم أن تشتكوا؟ أنتم تتناولون طعامكم الخاص على انفراد!

- آه، يا إلهي! ولكن بين أصحابك من لا يتناولون طعام السجن المعتاد، وقد اشتركوا معكم في عرض الشكوى. كان علينا أن نساندكم. . . باعتبارنا رفاقاً لكم.

سألني بيتروف ذاهلاً:

- ولكن، أنتم، كيف يمكن أن تكونوا رفاقاً لنا؟

نظرت إليه، لم يستطِع أن يفهمني ولم يدرك مطلقاً ما كنت أودّ أن أقول له: أما أنا فقد فهمته تماماً. إنّ الفكرة التي كانت تدور في رأسي غامضة وظلَّت تحاصرني زمناً طويلاً، قد تبلورت لأول مرة نهائياً، فأدركت عندئذٍ بوضوح ما كنتُ أخمِّنه بغموض حتى ذلك الحين. لقد فهمت أنني لن أصير أبداً رفيقاً للسجناء، حتى ولو حكم عليّ بالسجن المؤبد، ولو أصبحت أنتمي إلى سجناء «القسم الخاص»، وانحفرت هيئة بيتروف في ذهني منذ تلك اللحظة، وظلت ماثلة في ذاكرتي إلى الأبد. كان في سؤاله: «كيف يمكن أن تكونوا رفاقاً لنا؟» من السذاجة الصريحة، والدهشة البريئة، ما جعلني أتساءل ألا يخفي قوله ذاك شيئاً من الاستهزاء، وشيئاً من الخبث المتهكِّم؟ كلا! لست رفيقاً لهم، وهذا كل شيء. اذهب أنت يميناً، ونذهب نحن يساراً: لك شأنك، ولنا نحن شأننا.

كنت أظنّ حقّاً أنهم بعد هذا العصيان سيمزِّقوننا دون رحمة، وأن حياتنا ستغدو جحيماً، ولكن لم يحدث شيء من ذلك: فلم نسمع أي لوم، وأي غمز أو لمزٍ خبيث. ظلوا يناكدوننا كما كانوا يناكدوننا من قبل، حين تُتاح لهم الفرصة، ولا شيء أكثر من ذلك. لم يضمر أحد حقداً على الذين لم يريدوا أن يتمرّدوا، والذين بقوا في المطبخ، ولا على أولئك الذين كانوا أول الصائحين بأنهم راضون

عن كل شيء. لم يفُه أحد بكلمة واحدة عن هذا الأمر. وهذا الصمت بالأخص هو الذي أذهلني ولم أستطع فهمه أبداً.

8. الرفاق

كما يمكن للبعض أن يظنّ، فإن الذين اجتذبوني أكثر من غيرهم، إنما هم المنتمون إلى طبقتي، أي «النبلاء»، ولا سيما في الأوقات الأولى، ولكن من بين قدماء النبلاء الروس الثلاثة، الذين كانوا في سجننا وهم: أكيم أكيميتش، والجاسوس أ. ف، والشاب الذي كان يعتقد أنه قاتل أبيه، لم أكن أعرف إلا أكيم أكيميتش ولا أكلّم غيره. وفي الواقع، لم أكن أخاطبه إلا في حالة اليأس، وفي لحظات الحزن التي لا تُطاق، حين كان يبدو لي أنني لن أقترب أبداً من أيّ شخص آخر. في الفصل السابق حاولت تصنيف سجنائنا إلى فئات مختلفة، ولكنني إذ أتذكر أكيم أكيميتش، أظنّ أنّ عليّ أن أضيف إلى تصنيفي فئة أخرى. والحق أنه يشكّل فئة وحده. هذه الفئة هي فئة السجناء الذين لا يبالون بأي شيء تماماً، يعني أولئك الذين يستوي عندهم أن يعيشوا أحراراً أو في سجن الأشغال الشاقة، وهذا الذي كان وما كان يمكن أن يكون عندنا إلا استثناء. لقد استقرّ أكيم أكيميتش في سجن الأشغال الشاقة كما لو كان سيقضي فيه حياته كلها: كل ما كان في حوزته، فراشه، وسائده، أوانيه، كان مرتباً ترتيباً ثابتاً ونهائياً. لا شيء كان يوحي بحياة مؤقتة. كان عليه أن يمكث في سجن الأشغال الشاقة عدة سنين ولكنني أشكّ في أنه فكر في إطلاق سراحه: وإذا كان تصالح مع الواقع، فليس ذلك من باب

الخضوع وإنما عن طيب خاطر، والأمران بالنسبة إليه سيان. إنه إنسان طيب، وقد ساعدني في الأوقات الأولى بنصائحه وخدماته، ولكنه في بعض الأحيان، أقرّ بذلك، كان يبعث في نفسي حزناً عميقاً، لا نظير له، ويزيد ويفاقم أيضاً ميلي إلى القلق.

وكنت متى استولى عليَّ اليأس، أتحدّث معه، كنت أحبّ سماع كلماته الحية، مهما تكن مبغضة أو مغيظة، فسوف نسخط معاً على مصيرنا على الأقل، ولكنه كان يصمت، ويلصق مصابيحه هادئاً، وهو يحكي أنهم قاموا باستعراض عسكري عام . . 18، وأنّ قائد الفرقة كان اسمه فلاناً، وأنه كان مسروراً بالمناورات، وأنّ علامات جنود المدفعية قد غيرت. . . إلخ. كان يقول كلّ ذلك بصوت رصين ومتساوٍ، كالماء الذي يتساقط قطرة قطرة. لم يكن ينشَط حتى حين كان يحكي لي أنه قلد وسام «القديسة آنا» وازدان سيفه بشريط هذا الوسام في قضية وقعت بالقوقاز لا أذكر ما هي تلك القضية. غير أنّ صوته كان يغدو أكثر رصانة ورزانة، ويخفضه قليلاً، عندما ينطق باسم «القديسة آنا» ويضفي عليه شيئاً من الغرابة، وخلال ثلاث دقائق على الأقل، كان يظلّ صامتاً وجادّاً وأثناء هذه السنة الأولى كلها، كانت تنتابني حالات عبثية، كدت أكره فيها أكيم أكيميتش، دون أن أعرف لماذا، وكانت تعتريني نوبات من اليأس، كنت ألعن فيها القدر الذي جعل سريري لصق سريره بحيث كان رأسه يلامس رأسي. وبعد ساعة، لمْت نفسي على هذه الفورات. فضلاً عن أنني لم أصَبْ بهذه النوبات إلا خلال النسنة الأولى من وجودي في السجن. وبالتالي تعوّدت على طبع أكيم أكيميتش وشعرت بالخجل من اندفاعاتي السابقة. ولا أذكر أننا تشاجرنا صراحة أبداً.

أثناء سجني، عدا النبلاء الروس الثلاثة الذين تحدّثت عنهم، كان من النبلاء أيضاً ثمانية آخرون: كانت لي صداقة قوية ببعضهم، وليس معهم جميعاً. كان أفضلهم مرضى، ومتحيزين ومتعصبين بدرجة كبيرة. وقد كفَفْت حتى عن الكلام مع اثنين منهم. ولم يكن بينهم سوى ثلاثة مثقفين هم ب...سكي، وم...كي، والشيخ ج...كي، الذي كان قديماً أستاذاً للرياضيات، - وهو رجل طيب القلب، وغريب الأطوار، ومحدود جداً فكرياً، رغم علمه - وأمّا م...كي وب...كي فكانا شيئاً آخر. من أول وهلة، تفاهمت مع م...كي: لم أتشاجر معه مرة واحدة، كنت أقدّره كثيراً، لكن دون أن أحبه وأن أرتبط به، ولم أستطع أبداً أن أصل إلى ذلك. لقد كان عميق المرارة والريبة، وشديد السيطرة على نفسه: وذلك بالذات ما لم يكن يعجبني فيه، ويحسّ المرء بأنّ هذا الرجل لن يفتح نفسه لأحد أبداً: إلا أنني يمكن أن أكون على خطأ. كان ذا طبيعة قوية ورفيعة ... وكان ارتيابه المتأصِّل يكشف عن براعة خارقة، وحذر شديد في تعامله مع المحيطين به. كان يعاني من ازدواجية نفسية، إذ كان في الآن ذاته شديد الشك وعميق الإيمان، الذي لا يتزعزع ببعض الآمال والقناعات. وعلى الرغم من براعته العملية، كان في حرب سافرة مع ب...كي وصديقه ت...سكي. الأول، ب...كي، كان رجلاً مريضاً، مع استعداد للإصابة بداء السلّ، وسريع الغضب وعصبي المزاج، ولكنه طيِّب وكريم. كان اهتياجه العصبي يجعله ذا نزوات كطفل: فلم أكن أستطيع أن أحتمل مثل هذا الطبع، وانقطعت عن رؤية ب...كي، دون أن أكفّ عن حبه مع ذلك. تماماً على عكس م...كي، الذي لم أتشاجر معه أبداً، ولكنني لم أحبّه. ولمّا قطعت

جميع العلاقات مع ب. . .كي اضطررتُ إلى قطع كل علاقاتي أيضاً مع ت. . .سكي، الذي تحدَّثت عنه في الفصل السابق، وأسفتُ كثيراً لذلك، لأنه إن كان قليل الثقافة فهو طيب القلب، وكان رجلاً ممتازاً، وشجاعاً جداً. كان يحب ب. . .كي ويحترمه كثيراً، بحيث إن كل الذين يقطعون صلتهم بصديقه يصبحون أعداءه. وهكذا ساءت علاقته مع م. . .كي بسبب ب. . .كي، إلا أنه قاوم ذلك مدة طويلة.

كل هؤلاء الرجال كانوا غضوبين ومزاجيين ومرتابين ويعانون من فرط الحساسية وذلك أمرٌ له تعليله، فقد كان وضعهم شاقاً جداً، أقسى من وضعنا كثيراً، لأنهم نفوا عن بلادهم وأبعدوا عشر سنين أو اثنتي عشرة سنة، وما كان يجعل إقامتهم في السجن شاقة بالخصوص هي الأحكام المسبقة وطريقة نظرتهم إلى كل واقعة وإلى السجناء، الذين لم يكونوا يرون فيهم إلا حيوانات كاسرة، ويأبون أن يقرّوا بأي شيء إنساني فيهم. وقد تورطوا في هذه النظرة بفعل الظروف وبحُكم مصيرهم. كانت حياتهم في السجن قلقاً وعذاباً. كانوا ودودين ولطفاء مع الشراكسة والتتر، ومع إشعيا فوميتش، ولكنهم لم يكونوا يكنّون إلا الاحتقار لباقي السجناء. وحده، الشيخ المنتمي إلى الملة المنشقّة كان يحظى بكامل احترامهم. ومع ذلك، لم يكن، طوال المدة التي قضيتها في سجن الأشغال الشاقة، أيّ سجين يعيب عليهم لا أصلهم ولا عقيدتهم الدينية، ولا مبادئهم، أو غير ذلك من الأشياء المعتادة لدى الطبقة الدنيا من الشعب، في علاقاتهم مع الأجانب، وبخاصة الألمان. وفي الواقع، لم تكن السخرية تنقطع عن الألماني، الذي كان في نظر الشعب الروسي رجلاً دجالاً وفظّاً. كان سجناؤنا يحترمون النبلاء البولنديين أكثر ممّا يحترموننا نحن النبلاء الروس،

كانوا لا «يمسّون» أولئك، ولكنني أظنّ أن البولنديين لم يكونوا يريدون أن يلاحظوا هذه الواقعة وأن ينظروا إليها بعين الاعتبار. - لقد تحدّثت عن ت. . .سكي: فلأعد إليه. عندما غادر مع رفيقه أول محطة على طريق المنفى لينتقل إلى قلعتنا، كان قد حمل طوال الوقت تقريباً صديقه ب. . .كي، الضعيف البنية، والصحة، والمنهك القوى بعد نصف مرحلة من السفر. لقد نفيا في أول الأمر إلى أو. .غورسك حيث كانا مرتاحين، فالحياة هناك كانت أقلّ قسوة من الحياة في قلعتنا. ولكن على أثر مراسلة بريئة مع منفيين في مدينة أخرى، ارتأت السلطات أن يُنقلا إلى سجننا لكي يكونا فيه تحت المراقبة المباشرة للإدارة العليا. وحتى وصولهما، كان م. . .كي وحيداً. كم كان عليه أن يذوي، خلال السنة الأولى من منفاه!

كان ج. . .كي ذلك الشيخ المنهمك دائماً في الصلاة، والذي تحدّثت عنه سابقاً. كان جميع السجناء السياسيين شباباً، بل في ريعان الشباب، بينما كان ج. . . كي في الخمسين من عمره على الأقل.

كان بالتأكيد إنساناً شريفاً، ولكن غريب الأطوار. كان رفيقاه ب. . .كي وت. . .كي يكرهانه ولا يكلّمانه، ويصفانه بأنه عنيد ونكد وأستطيع أن أشهد بأنهما كانا على حق. أعتقد أن الناس حين يكونون في السجن، - كما في أي مكان آخر يجتمعون فيه كرهاً وليس عن طيب خاطر، - يختصمون ويكرهون بعضهم أسرع ممّا لو كانوا أحراراً. هناك أسباب كثيرة تساهم في خلق هذه الخصومات المستمرة. كان ج. . .كي فعلاً مزعجاً ومحدوداً، ولا أحد من رفاقه كان على علاقة طيبة معه، لم نتخاصم قط، ولكننا لم نتصادق أبداً.

أظنّ أنه كان جيداً في الرياضيات. وقد شرح لي ذات يوم، برطانته التي نصفها روسي، ونصفها بولندي، نظاماً فلكياً كان قد ابتدعه، وقيل لي إنه ألف كتاباً في الموضوع، سخر من تعالمه الناس جميعاً، وأظنّ أن حكمه على الأمور فسد قليلاً. كان يصلي جاثياً على ركبتيه أياماً بكاملها، ممّا جلب له احترام السجناء، وحظي باحترامهم حتى وفاته، لأنه مات أمام عيني، في السجن، على أثر مرض أليم. كان قد اكتسب تقدير المعتقلين منذ وصوله، عقب قصة وقعت له مع الماجور. فحين جيء بهؤلاء السجناء من أو. . .غورسك إلى قلعتنا على مراحل، لم يحلقوا لهم، لذلك كان شعر رؤوسهم ولحاهم طويلاً جداً، ولمّا مثلوا أمام الماجور، استشاط هذا الأخير غضباً شديداً، من مثل هذه المخالفة للنظام، التي لا ذنب لهم فيها مع ذلك. وزأر الماجور قائلاً:

- ما هذه الهيئة! هؤلاء متشردون، قطّاع طرق.

ولما كان ج. . .كي لا يفهم الروسية جيداً، فقد ظنّ أنهم يسألون هل هم قطاع طرق أو متشردون، وأجاب بقوله:

- إننا سجناء سياسيون، ولسنا متشردين.

وإذا بالماجور يزمجر قائلاً:

- ك. . .يف؟ ما هذه الوقاحة؟ والفظاظة؟ خذوه إلى مركز الحرس! واجلدوه مائة جلدة حالاً! الآن فوراً!

وعوقب الشيخ: رقد على الأرض تحت السياط، دون أن يبدي أدنى مقاومة، واضعاً يده بين أسنانه، وتلقى عقابه بلا شكوى، ولا أنين، جامداً تحت الضربات. وفي تلك اللحظة وصل ب. . .كي وت. . .كي إلى السجن، حيث كان م. . .كي ينتظرهما عند باب

الدخول، فلما رآهما ارتمى على عنقيهما، رغم أنه لم يرهما قبل ذلك قط.

وحكيا له، حانقين من استقبال الماجور، ذلك المشهد القاسي الذي وقع. وفيما بعد قال لي م. . .كي إنه خرج عن طوره لمّا علم بذلك: لم أشعر بنفسي من شدة الحنق، وأخذت أرتعد من الحمى. انتظرت ج. . .كي عند الباب الكبير، لأنه كان عليه أن يعود من مركز الحراسة بعد عقابه مباشرة. فتح الباب، فرأيت ج. . .كي يمرّ أمامي مرتعش الشفتين، المبيضّتين تماماً، وشاحب الوجه، لم ينظر إلى أي أحد، واجتاز جماعات السجناء المحتشدين في الفناء - كانوا على علم بأنّ نبيلاً عوقب - ودخل الثكنة، ومضى مباشرة إلى مكانه، ودونما كلمة، جثا على ركبتيه وأخذ يصلي. فدهش السجناء، بل تأثروا كثيراً. لما رأيت هذا الشيخ الأشيب الذي ترك في وطنه زوجة وأطفالاً، حين رأيته، بعد ذلك العقاب المخزي جاثياً ومصلياً، خرجت هارباً من الثكنة، وخلال ساعتين صرت كالمجنون، كنت كالسكران. ومنذ ذلك الحين، أصبح السجناء ينظرون بكثير من الاهتمام والاحترام إلى ج. . .كي وما أثار إعجابهم فيه خاصة أنه لم يصرخ تحت ضربات السياط.

لا بد من الإنصاف وقول الحقيقة: لا يمكن أن نحكم، وفق هذا المثال، على علاقات الإدارة بالمنفيين النبلاء، سواء كانوا روسيين أم بولونيين. إنّ حكايتي لهذه النادرة تظهر أن من الممكن أن نصادف إنساناً شريراً: فإذا كان هذا الرجل الشرير آمراً مطلقاً لسجن من السجون، وإذا اتّفق أن كره منفياً، فهيهات أن يحسد هذا الأخير على حظه السيئ. ولكن الإدارة العليا لسجون الأشغال الشاقة في سيبيريا،

وهي التي تزوّد الآمرين التابعين لها بأسلوب المعاملة والتعليمات، فإنها تميز المنفيين النبلاء، بل إنها في بعض الحالات تتسامح معهم أكثر ممّا تتسامح مع السجناء الآخرين من الطبقة الدنيا.

وأسباب ذلك واضحة: أولها أنّ الرؤساء أنفسهم من طبقة السادة، ثم إنه يُحكى أن نبلاء رفضوا أن يرقدوا تحت ضربات السياط، وانقضّوا على منفذيها، وكانت نتائج هذه التمردات سيئة العواقب دائماً، وأخيراً - وأظنّ أن هذا هو السبب الأساسي - فقد حدث منذ مدة طويلة، قبل خمسة وثلاثين عاماً على الأقل، أن مجموعة كبيرة من المنفيين النبلاء أرسلت دفعة واحدة إلى سيبيريا، فأظهر هؤلاء من الرصانة والرزانة ما جعل رؤساء سجون الأشغال الشاقة ينظرون، بحُكم عادة قديمة، إلى المجرمين من النبلاء نظرة مختلفة تماماً عن نظرتهم إلى السجناء العاديين. واقتدى الآمرون المرؤوسون بمثال رؤسائهم، وخضعوا خضوعاً أعمى لهذا النوع من الرؤية. وكان منهم كثيرون ينتقدون هذه الإجراءات التي يتخذها رؤساؤهم وينزعجون منها، وكانوا يسرّون كثيراً حين يُسمح لهم بالتصرف على هواهم، ولكن حرية التصرف لم تكن واسعة، وثمة ما يدعوني إلى الاعتقاد بذلك. وهذه هي الأسباب. إن الفئة الثانية من الأشغال الشاقة، وهي الفئة التي كنت أنتمي إليها، والتي كانت تتألف من سجناء أقنان خاضعين للسلطة العسكرية، كانت أقسى من الفئة الأولى (المناجم) والفئة الثالثة (عمل المصنع). كانت ظروفها أقسى ليس بالنسبة إلى النبلاء فحسب، بل إلى السجناء الآخرين أيضاً، لأن الإدارة وبنية التنظيم كانتا عسكريتين تماماً، وتشبهان كثيراً الإدارة والتنظيم في سجون روسيا. إن الرؤساء أشدّ فظاظة والعادات أكثر

صرامة ممّا في الفئتين الأخريين: فالسجناء مسلسلون دائماً، ومخفورون دائماً، ومحبوسون دائماً، ولا وجود لهذا في مكان آخر، حسب قول السجناء على الأقل، وبالتأكيد كان بينهم مطّلعون. كان يسعد السجناء جميعاً أن يذهبوا إلى العمل في المناجم، وهو العمل الذي كان يعتبره القانون عقوبة قصوى، وكانوا يحلمون بذلك العمل في المناجم. إنّ جميع الذين كانوا في السجون الروسية قد تحدّثوا عنها بهلع وأكدوا أنه لا جحيم مثل هذه الجحيم، وأن سيبيريا كانت جنة حقيقية، بالقياس إلى الاعتقال في قلاع روسيا. وإذن إذا كنا نحن النبلاء نحظى ببعض المراعاة أكثر قليلاً من الآخرين في سجننا الذي كان تحت الإشراف المباشر للجنرال الحاكم، والذي كانت إدارته كلها عسكرية، فلا بد أن يحظى بمزيد من العطف أيضاً سجناء الفئة الأولى وسجناء الفئة الثالثة. إنني أستطيع أن أتحدث عن علم ودراية عمّا كان يجري في كل سيبيريا: والأقاصيص التي سمعتها من منفيين ينتمون إلى الفئتين الأولى والثالثة إنما تؤكد الخلاصة التي وصلت إليها. لقد كنا نراقب بدقة أكثر ممّا في أي مكان آخر: لم تكن لنا أيّة حصانة فيما يتعلق بالأشغال والسجن: الأعمال نفسها، الأغلال نفسها، والحبس نفسه كباقي السجناء، وكان من المستحيل تماماً أن تؤمن لنا حماية، لأنني كنت أعرف أنّ الوشايات، والدسائس، التي تريد النيل من مكانة بعض الموظفين، كانت «إلى عهد قريب جداً» قد تضاعفت كثيراً، بحيث كانت الإدارة تخشى الوشايات، وفي ذلك الوقت، كان إظهار التسامح مع إحدى طبقات السجناء يعدّ جريمة!. . . لذلك كان كل موظف يخاف على نفسه: فأنزلنا إلى مستوى السجناء الآخرين، باستثناء العقوبات الجسدية، - ومع ذلك

كان يمكن أن نجلد لو ارتكبنا أية جريرة، لأنّ الخدمة العسكرية تقتضي أن نكون سواء أمام العقاب، - ولكننا لا نُجلَد بطيش، ودون سبب، مثلما يُجلد باقي السجناء. ولمّا علم آمر السجن بالعقاب الذي تكبّده ج. . .كي، غضب غضباً صادقاً من الماجور وأمره بأن يكون أكثر احتراساً في المستقبل. وعلم الجميع بذلك. وعلموا كذلك أن الجنرال الحاكم، الذي كان يثقُ في الماجور ثقة كبيرة ويحبه لدقته في مراعاة القانون، قد وبخه توبيخاً عنيفاً، حين أخبر بالقصة. وأخذ الماجور من ذلك عبرة. فقد كان يريد، على سبيل المثال، أن يستمتع بجلد م. . .كي، الذي كان الماجور يكرهه على أساس وشايات أ. ف، ولكنه لم يستطع أن يحقق مبتغاه، ورغم البحث له عن ذريعة، واضطهاده وتجسُّسه عليه، فإنه لم يحظَ بتلك المتعة. وذاع خبر قضية ج. . .كي في المدينة، واستاء الرأي العام من الماجور، فأنّبه بعضهم، وأهانه آخرون.

إنني أتذكر الآن أول لقاء لي مع الماجور. كانوا قد أفزعونا - أنا ومنفي آخر نبيل - ونحن بعد في توبولسك، بحكايات كثيرة عن فظاعة طبع هذا الرجل. كان منفيون قدامى (حكم عليهم سابقاً بخمس وعشرين سنة من الأشغال الشاقة) وهم نبلاء مثلنا، قد زارونا زيارة ودية، أثناء إقامتنا في سجن مؤقت، وحذّرونا من رئيسنا القادم، ووعدونا أيضاً بأن يفعلوا من أجلنا كلّ ما في وسعهم لدى الأشخاص الذين يعرفونهم لكي يجنّبونا اضطهاداته. وبالفعل، كتبوا رسائل إلى بنات الجنرال الحاكم الثلاث، اللواتي تشفَّعن لنا، فيما أظن. ولكن ماذا كان بإمكانه أن يفعل؟ لقد اكتفى بالقول للماجور إن عليه أن يكون منصفاً في تطبيق القانون. - في حوالي الساعة الثالثة بعد

الظهر، وصلنا، رفيقي وأنا، إلى هذه المدينة، فقادنا الحارس رأساً إلى الطاغية. بقينا في غرفة المدخل، ننتظر، ريثما يحضر ضابط الصف الذي يعمل في السجن وقد أرسلوا في طلبه. ولم يكد يصل هذا الأخير، حتى دخل الماجور. إنّ وجهه المحتقن بحمرة شديدة والمصاب بعُدة وردية والموحي بالخبث والشر، قد بعث فينا إحساساً أليماً. كان يبدو كأنه عنكبوت يهم بأن ينقضّ على ذبابة مسكينة تتخبط بين خيوط نسيجه بعد أن وقعت في شُعّه.

سأل رفيقي:

- ما اسمك؟

كان يتكلم بصوت قاسٍ، متقطع، وهو يريد أن يؤثر فينا.

ذكر رفيقي اسمه.

واتجه إليَّ وحدَّق فيَّ من خلف نظارتيه وسألني:

- وأنت؟

وذكرت له اسمي.

فقال لضابط الصف:

- أيها الرقيب! فليؤخذا إلى السجن، وليُحلق شعرهما في مركز الحرس، كما يُحلق للمدنيين. . . أي نصف الجمجمة، وليكبَّلا بالأغلال غداً! ما هذان المعطفان اللذان ترتديان؟ من أين جئتما بهما؟

هكذا سألنا فجأة حين لمح المعطفين الرماديين المرقّعين بدوائر صفراء على الظهر، وقد تسلمناهما في توبولسك.

ثم تابع قائلاً لنا:

- هذا زيّ موحّد جديد، لا شك أنه زي موحّد جديد... ما زالوا ينوون أن... إنه آتٍ من بطرسبورغ...

قال ذلك وهو يتفحّصنا واحداً بعد آخر.

وفجأة خاطب الجندي الذي كان يحرسنا:

- أليس معهما شيء؟

فأجابه هذا الأخير واضعاً بندقيته على كتفه، ومرتجفاً قليلاً خوفاً. كان الجميع يعرفونه ويخشونه. قال له الحارس:

معهما ثيابهما الخاصة، يا صاحب النبالة الرفيعة.

- انتزع منهما كل ذلك! لا ينبغي أن يحتفظا إلا بملابسهما الداخلية، البيضاء، ولتُنزع منهما الملابس الداخلية الملونة، إن كان معهما شيء منها، ولتُبع بالمزاد العلني. وليسجَّل المبلغ في الدخل. فسجين الأشغال الشاقة لا يملك شيئاً.

ثم أضاف قائلاً لنا وهو يرمقنا بنظرة قاسية:

- انتبها! ليكُن سلوككما حسناً! لا أحب أن أسمع شكاوى! وإلا... فالعقاب الجسدي! - لأبسط ذنب - الجلد بالس-س-سوط.

كدت أن أمرض في ذلك المساء من ذلك الاستقبال الذي لم أعتدْه: إذ اشتدّ ألمي أكثر ممّا كان حين دخولي إلى هذه الجحيم. ولكنني تحدثت سابقاً عن كل ذلك.

ذكرت آنفاً أننا لم تكن لنا أيّة حصانة، وما كان لنا أي تخفيف في عملنا بحضور السجناء الآخرين، إلا أنهم حاولوا أن يساعدونا فأرسلونا لمدة ثلاثة أشهر، ب...كي وأنا، إلى مكاتب المهندسين كناسخين، ولكن سرّاً، وكل الذين كان عليهم أن يعرفوا ذلك قد

علموا به، ولكنهم تظاهروا بأنهم لم يروا شيئاً. كان الرؤساء المهندسون هم الذين تفضّلوا علينا بهذه النعمة الكريمة، خلال الوقت القصير الذي ظلّ فيه ليوتنان كولونيل غ. . .كوف قائداً لنا. إنّ هذا الرئيس (الذي لم يبقَ أكثر من ستة أشهر، لأنه سرعان ما عاد إلى روسيا) قد بدا لنا نعمة كبرى هبطت علينا من السماء وخلّف تأثيراً عميقاً في نفوس جميع السجناء. لم يكونوا يحبونه، بل يعبدونه إذا صحّ هذا التعبير. لا أعرف كثيراً ما فعل، ولكنه نال محبتهم منذ الوهلة الأولى. إنه «أب حقيقي!» هكذا كان المنفيون يقولون في كل لحظة طوال المدة الذي ظلّ فيها مديراً لأشغال الهندسة. كان إنساناً مرحاً محبّاً للحياة. وهو رجل قصير القامة، ذو نظرة جسورة، وثقة قوية بنفسه، وكان لطيفاً وظريفاً مع جميع السجناء، الذين كان يحبهم حباً أبوياً حقاً. لا أدري بالضبط لماذا أحبه الجميع كل ذلك الحب، ولكنه لم يكن يستطيع أن يرى سجيناً دون أن يوجّه إليه كلمة حفية، ودون أن يضحك له ويمازحه. ولم يكن في مزاحه شيء سلطوي، ولا شيء يشعر بأنه السيد، بأنه الرئيس. لقد كان للسجناء رفيقاً، ونداً. ورغم كل هذا التسامح، لا أذكر أنّ السجناء أباحوا لأنفسهم يوماً أن يقلّلوا من احترامهم له أو أن يرفعوا الكلفة بينهم وبينه. بالعكس. غير أنّ السجين كان وجهه يُشرق فجأة حين يصادف هذا الرئيس، وكان ثغره يفتر عن ابتسامة عريضة، ويمسك طاقيته بيده، لمجرد أن يراه يقترب. وإذا خاطبه الرئيس بكلمة فذلك شرف عظيم له. هناك أناس من هذا القبيل ذوو شعبية واسعة! كان غ. . .كوف يبدو مهوب الطلعة، مسرع الخطى، منتصب القامة: إنه «نسر!» هكذا كان يقول عنه السجناء. لم يكن يستطيع مساعدتهم، لأنه كان يشرف

على أشغال الهندسة، التي كانت تتم في عهد جميع الرؤساء وفق أصول قانونية مرسومة لا محيد عنها. ولكنه إذا اتفق أن التقى جماعة من السجناء أنهوا عملهم، فإنه كان يسمح لهم بالعودة قبل قرع الطبل. كان السجناء يحبونه لثقته فيهم، ولمقْته أسلوب النكد والإزعاج الذي يثير دائماً أعصاب السجناء في علاقاتهم بالرؤساء. وأنا على يقين تامّ، أنه لو أضاع ألف روبل من الأوراق النقدية، فعثر عليها أكبر لصّ في سجننا لردّها إليه كاملة. نعم، أنا واثق من ذلك. وكم تعاطف معه السجناء جميعاً حين علموا بأنه تشاجر شجاراً عنيفاً مع ماجورنا الكريه! حدث ذلك بعد وصولنا بشهر: وقد بلغ فرحهم أوجه. كان الماجور في الماضي رفيقاً له في السلاح، وحين التقيا بعد فراق طويل، عاشا معاً في أول الأمر حياة سعيدة، ولكنهما سرعان ما انقطعت بينهما أواصر الصداقة الحميمة. ثم تخاصما، وأصبح غ. . . كوف عدواً لدوداً للماجور. حتى لقد قيل إنهما تبادلا اللكمات، ولم يثِرْ ذلك استغراب مَن كانوا يعرفون الماجور: كان يحبّ العراك. ولمّا علم السجناء بهذا الشجار، طفح فرحهم، وكانوا يقولون: «هل يستطيع ماجورنا ذو الثماني عيون أن يتفاهم مع رجل من طينة هذا الكومندان؟ إن الكومندان نسر، أما ماجورنا فهو. . . » وهنا اعتادوا على إضافة كلمة فاحشة خادشة للحياء غير لائقة بالطبع. كانوا أشدّ شوقاً إلى أن يعرفوا من كانت له الغلبة في هذا الصراع، ومَن الذي أوسع الآخر ضرباً. ولو كذبت هذه الشائعة، لشعر السجناء بحسرة شديدة. كانوا يقولون: «أكيد، الكومندان هو الذي أنهكه، وإن كان قصيراً، فإنه شجاع، ولا شك أنّ الآخر اختبأ تحت السرير من شدة الخوف». ولكن غ. . . كوف لم يلبث أن غادر، تاركاً

في السجن أسفاً شديداً. كان المهندسون جميعاً أناساً طيبين، وقد غيّروا ثلاث مرات أو أربعاً خلال وجودي في السجن. كان السجناء يقولون: «إن نسورنا لا تبقى أبداً مدة طويلة، لا سيما حين تحمينا».

إن غ...كوف هذا هو الذي أرسلنا، ب...كي وأنا، للعمل في مكتبه، لأنه كان يحبّ المنفيين النبلاء. وحين ذهب ظلَّ وضعنا مقبولاً، إذ كان هناك مهندس يُظهر لنا كثيراً من المودة. كنا ننسخ تقارير منذ مدة، ممّا حسَّن خطنا، حين وصل أمر عالٍ يقضي بإعادتنا إلى أعمالنا السابقة. وفي الحقيقة، لم نستأ كثيراً، لأننا كنا قد سئمنا من عمل النسخ هذا. وبقيت سنتين كاملتين أعمل دون انقطاع مع ب...كي، في الورشات دائماً تقريباً. كنا نثرثر ونتحدث عن آمالنا ومعتقداتنا. وكانت هذه الأخيرة غريبة، خاصة ومتفردة، لدى صاحبنا الممتاز ب...كي: إن هناك أناساً في غاية الذكاء، تكون آراؤهم أحياناً متناقضة جداً، ولكنهم تعذّبوا كثيرا من أجلها، عانوا كثيراً في سبيلها، وضحّوا كثيراً للاحتفاظ بها، وبالتالي يصبح انتزاعها من عقولهم أمراً مستحيلاً وفي غاية القسوة. كان ب...كي يتألم من أي اعتراض يوجَّه إليه، ويرد عليه بأجوبة عنيفة. ربما كان على حقّ، ولعله كان على حق أكثر مني في بعض الأمور، ولكننا اضطررنا إلى أن نفترق، فشعرتُ بأسف شديد على ذلك، إذ كنّا متفقين على كثير من الآراء المشتركة.

ومع توالي السنين، أصبح م...كي حزيناً وكئيباً أكثر فأكثر. كان قد أضناه اليأس. خلال الأوقات الأولى لدخولي السجن، كان أكثر تواصلاً، وإفصاحاً عمّا يفكر فيه. حين وصلت إلى السجن، كان قد أنهى سنته الثانية من الأشغال الشاقة. قبل كل شيء، كان يهتم

كثيراً بالأخبار التي نقلتها إليه، لأنه لم يكن يعرف شيئاً عمّا جرى في الدنيا خارج السجن خلال تلك السنتين: كان يسألني كثيراً، ويُصغي إليّ بانتباه شديد، وينفعل انفعالاً قوياً، ولكنه أصبح شيئاً فشيئاً ينطوي على نفسه أكثر فأكثر، من دون أن يفصح عمّا يدور في باله. كالجمر يغطيه الرماد. إلا أنه كان يزداد سخونة وحدَّة وخشونة. كان يقول لي ويُعيد عليّ قوله: «إنني أكره هؤلاء اللصوص» وهو يتحدث عن أولئك السجناء الذين كنت قد بدأت أعرفهم معرفة جيدة، ولم تكن لحججي إنْ حاولتُ الدفاع عنهم أي تأثير فيه. كان لا يفهم ما كنت أقول له، وأحياناً يشاطرني رأيي ولكن بلا انتباه: وفي اليوم التالي يعود ويكرِّر عليّ قوله من جديد: «إنني أكره قطاع الطرق هؤلاء» (كان يقول ذلك بالفرنسية: je hais ces brigands لأننا كنا نتكلم معه بها في كثير من الأحيان، ولذلك كان أحد مراقبي الأشغال، الجندي في سلاح الهندسة، درانيشنيكوف، يسمينا دائماً: «مساعدي الجراحين» ويعلم الله لماذا!. لم يكن م. . .كي ينشط إلا يحين يتحدّث عن أمه. كان يقول لي: «إنها عجوز وعاجزة، وتحبني أكثر من أي شيء في الدنيا، ولا أدري حتى إن كانت على قيد الحياة. آه، لو علمَت بأنهم جلدوني. . .» لم يكن م. . .كي من طبقة النبلاء، وقد جلد قبل نفيه. وكان حين يستعيد هذه الذكرى يصرف بأسنانه، ويشيح بوجهه. في آخر عهده بالسجن كان يتجول دائماً تقريباً وحيداً. وذات يوم، ظهراً، دُعي لمقابلة الكومندان، الذي استقبله بابتسامة عريضة على شفتيه. وسأله:

- قل لي، يا م. . .كي، بماذا حلمت هذه الليلة؟

حدّثني م. . .كي عن هذه المقابلة فيما بعد فقال: «لمّا سألني

الكومنداان ذلك السؤال، ارتجفت، وخيِّل لي أن قلبي قد شق».

وأجابه:

– حلمتُ بأنني تلقيت رسالة من أمي.

فقال له الكومندان:

– هنالك ما هو أفضل من ذلك، أفضل من ذلك، أنت حر. لقد توسّلت أمك إلى الإمبراطور... فاستجاب الإمبراطور لتوسّلها. خُذْ، هذه رسالته، هذا الأمر بإطلاق سراحك. ستغادر السجن في هذه اللحظة بالذات.

عاد إلينا، شاحب الوجه وهو لا يكاد يصدق سعادته.

هنأناه. صافحنا بيديه الباردتين والمرتعشتين. وهنأه أيضاً كثيرٌ من السجناء، الذين سعدوا لسعادته.

أصبح مستوطناً واستقر في مدينتنا، حيث عيِّن موظفا بعدئذٍ بقليل. كثيراً ما كان يأتي لزيارتنا في السجن، وينقل إلينا شتى الأخبار، متى استطاع إلى ذلك سبيلاً. كانت الأنباء السياسية هي التي تعنيه بصفة خاصة.

بالإضافة إلى البولنديين الأربعة (م...كي، ت...كي، ب...كي، وج...كي) السجناء السياسيين، الذين تكلمت عنهم، كان هنالك اثنان آخران ما زالا في ميعة الشباب، نُفيا فترة قصيرة جداً، لم يكونا على قدر كبير من الثقافة، ولكنهما شريفان، بسيطان وصريحان. وكان هناك ثالث يسمى أ...تشوكوفسكي، وهو شاب بسيط جداً وليس فيه شيء لافت للنظر، أما الرابع، ب...م، وهو رجل متقدم في العمر قليلاً، فقد تَرك في نفوسنا أسوأ انطباع. لا أدري سبب نفيه، رغم أنه حكاه بطيبة خاطر: كان فظاً غليظ القلب،

ضيق الأفق، بأفكار وآراء فظة لصاحب دكان حديث الثراء. لم يتلقَّ أي تعليم ولم يكن يهتم إطلاقاً بأي شيء لا يتعلق بمهنته، كدهان نقاش، ولكنه كان نقاشاً خارقاً للعادة، ودهاناً ممتازاً للغاية. وسرعان ما سمع رؤساؤنا عن مواهبه واستخدمت المدينة كلها ب. . .م في تزيين الجدران والسقوف. خلال سنتين، زخرف تقريباً جميع بيوت الموظفين، الذين كانوا يكافئونه على عمله بسخاء، لذلك لم يكن يعيش حياة مفرطة البؤس. وأرسل للعمل مع ثلاثة من رفاقه، أتقن اثنان منهم مهنته إتقاناً كاملاً، أحدهما، اسمه ت. . .جيفسكي، كان لا يقلّ عنه مهارة. كان ماجورنا يقيم في مسكن تابع للدولة، فاستدعى ب. . .م وأمره بزخرفة الجدران والسقوف. فبذل ب. . .م جهداً كبيراً جعل منزل الجنرال الحاكم لا يعدُّ شيئا بالقياس إلى مسكن الماجور. كان بيتاً قديماً ومتداعياً، من طابق واحد، وسخاً جداً، من الخارج، بينما كان من الداخل مزيناً مثل قصر، فابتهج ماجورنا. . . وكان يفرك يديه ويقول لجميع الناس إنه سيتزوج. - «كيف لا يتزوج، من له مثل هذا المسكن؟» هكذا كان يقول جادّاً جداً. كان فرحه دائماً أشدّ من فرح ب. . .م ومساعديه. استغرق هذا العمل عاماً. وأثناء هذا الشهر كله، غيَّر الماجور رأيه فينا، بل وأخذ يحمينا، نحن السجناء السياسيين. ذات يوم دعا ج. . .كي وقال له:

- ج. . .كي، لقد أسأت إليك، وجعلتك تُجلد دون سبب. إنني نادم على ذلك، هل تفهم؟ أنا، أنا، نادم.

فأجابه ج. . .كي بأنه فهم تماماً.

- هل فهمت أنني أنا، أنا، رئيسك، دعوتك لأطلب منك الصفح؟ هل تتخيل هذا؟ من أنت بالنسبة إليّ؟ دودة! بل أقل من دودة

الأرض: أنت سجين، وأنا، بنعمة الله(*)، ماجور... ماجور، هل فهمت هذا؟

وأجابه ج...كي بأنه فهم هذا أيضاً.

- وإذن! أريد أن أتصالح معك. ولكن هل تدرك جيداً ما أفعله؟ هل تدرك كلّ العظمة التي يتَّصف بها عملي؟ هل أنت قادر على أن تحسّ به وأن تقدّره؟

تصور: أنا، أنا، الماجور!... إلخ.

حكى لي ج...كي هذا المشهد. عاطفة إنسانية إذن كانت توجد في هذا الرجل الوحشي الثمل دائماً، والفوضوي، والمزعج! إذا نظرنا بعين الاعتبار إلى أفكاره ونموّه العقلي، يجب أن نعترف بأن عمله كان حقاً كريماً. وربما ساهم سكره المستمر الذي داوم عليه في ذلك العمل الكريم.

لم يتحقّق حلم الماجور، لم يتزوج، رغم أنه قرر الزواج حالما يتم تزيين مسكنه. وبدلاً من أن يتزوّج، قدِّم إلى المحاكمة، وألزِم بتقديم استقالته. آثام كثيرة أعيد البحث فيها: كان، فيما أظن، مديراً للشرطة في مدينتنا... قضت عليه هذه الضربة المفاجئة. ابتهج جميع السجناء، حين علموا بالنبأ العظيم، كان عيداً، واحتفالاً. قيل إن الماجور بكى كامرأة عجوز وأعول بالبكاء. ولكن ما العمل؟ كان مضطرّاً إلى أن يقدِّم استقالته، وأن يبيع حصانيه الشهباوين، وكل ما كان يملك، ثم وقع في هوة البؤس. كنا نلتقي به أحياناً، فيما بعد،

(*) وأنا، بنعمة الله: لم يكن ماجورنا وحده يستعمل هذه العبارة، بل عدة ضباط صغار لا سيما الذين ارتقوا من رتب أدنى.

بلباس مدني رثّ، وكسكيت من قماش مكمش. كان ينظر إلى السجناء شزراً. كانت هالته وهيبته قد زالتا منذ أن خلع عنه سترته الرسمية. ما دام رئيسنا، كان مهولاً، إلهاً. ولما ارتدى اللباس المدني، فقد كل شيء، وصار شبيهاً بخادم.

عجباً، كم يساوي اللباس العسكري كثيراً عند هؤلاء الناس!

9. الفرار

بعد استقالة الماجور بوقت قصير، أعيد تنظيم سجننا رأساً على عقب. ألغيت الأشغال الشاقة وعوِّضت بسجن عسكري على غرار السجون في روسيا. وبعد ذلك لم يعد يُرسل إليه المنفيون من الفئة الثانية، وأصبح لا يضمّ من الآن فصاعدا إلا المعتقلين العسكريين وحدهم، أي سجناء يحتفظون بحقوقهم المدنية. كانوا جنوداً، كسائر الجنود، ولكنهم ضربوا بالسياط، ولم يكونوا سجناء إلا لفترة قصيرة جداً (ست سنين على الأكثر) وعندما تنتهي مدة عقوبتهم يعودون إلى كتائبهم بصفتهم جنوداً عاديين، كما كانوا من قبل. أما أصحاب السوابق فكان يُحكم عليهم بالسجن مع الأشغال الشاقة عشرين سنة. كان في سجننا حتى ذلك الحين قسم عسكري، ولكن ليس إلا لأنهم لم يجدوا مكاناً يضعون فيه الجنود. ما كان الاستثناء أصبح هو القاعدة.

أما السجناء المدنيون، المحرومون من كل حقوقهم، الموسومون بالحديد الحامي والمحلوقة رؤوسهم، فكان عليهم أن يبقوا في القلعة حتى انتهاء المدة المحكوم بها عليهم، ولمّا لم يَعد يأتي إلى هذا

المعتقل سجناء جدد وبما أن السجناء القدامى أفرج عنهم بعضاً إثر بعض، فإن هذا السجن لن يضمّ سجيناً واحداً بعد عشر سنين. وأبقي على القسم الخاص أيضاً، فمن حين إلى آخر كان لا يزال يصل مجرمون عسكريون خطيرون، كانوا يودَعون في سجننا، بانتظار بداية الأشغال الشاقة في سيبيريا الشرقية.

لم يتغير نمط حياتنا. فالعمل والنظام ظلّا كما كانا من قبل. وحدها، الإدارة كانت قد جدِّدت وعقِّدت. وعيِّن ضابط كبير برتبة قائد سرية، رئيساً للسجن، كان تحت إمرته أربعة ضباط مرؤوسين كانوا حراساً بدورهم. وصُرِف معطوبو الحرب وعوِّضوا باثني عشر رجلاً من ضباط الصف ومراقب ترسانة. وقسم السجناء إلى مجموعات تضمّ كل مجموعة عشرة أشخاص، واختير من بينهم عرفاء، لم يكونوا بطبيعة الحال يملكون إلا سلطة اسمية على رفاقهم. فكان في عدادهم أكيم أكيميتش. وفوِّض أمر هذه المؤسسة الجديدة إلى القائد، الذي بقي رئيس السجن.

ولم تمضِ هذه التغييرات إلى أبعد من ذلك.

في بادئ الأمر اضطرب السجناء كثيراً، فكانوا يتجادلون، ويحاولون أن ينفذوا إلى أعماق رؤسائهم الجدد، ولكن لمّا رأوا أنّ كل شيء بقي في الواقع كما كان من قبل، ما لبثوا أن هدأوا وعادت حياتنا إلى مجراها العادي. كنا قد تحرَّرنا على الأقل من الماجور، وتنفّس الجميع الصعداء واستعادوا شجاعتهم. كان الرعب قد زال، وكان كلّ واحد منّا يعرف أنّ من حقه عند الحاجة أن يشتكي إلى رئيسه، وأنه لن يعاقب أبداً إذا كان على حق، ما عدا في حالات الخطأ. وظلّت الخمرة تهرب إلى السجن كما كانت تهرب إليه من

قبل، رغم أن المشرفين الآن ضباط صف بدلاً من معطوبي الحرب.

كانوا جميعاً أناساً شرفاء وفطنين، يدركون وضعهم. كان من بينهم بعض المتبجِّحين أرادوا أن يتسلَّطوا وأن يعاملونا كجنود، ولكنهم سرعان ما انساقوا مع التيار العام. وأولئك الذين قضوا وقتاً طويلاً حتى يفهموا عادات سجننا، تكفَّل السجناء أنفسهم بتعليمهم هذه العادات. وكانت هناك حكايات في غاية الطرافة. فقد أغرى السجناء ضابط صف بشرب الخمر، فسكر، ثم لمّا صحا من سكره، شرحوا له بطريقة مقنعة أنه ما دام قد شرب مع السجناء، فعليه بالتالي أن لا يعترض... وانتهى ضباط الصف إلى غض الطرف عن تجارة الخمرة. وأصبحوا يذهبون إلى السوق كما كان يذهب إليه معطوبو الحرب، ويحملون للسجناء خبزاً أبيض ولحماً وأخيراً كلّ ما كان يمكن إدخاله إلى السجن دون مخاطرة، لذلك لم أستطع أن أفهم لماذا كان ذلك التغيير كله، ولماذا أصبح السجن سجناً عسكرياً. حدث ذلك قبل خروجي بسنتين. وكان عليّ أن أعيش سنتين أخريين في ظلّ هذا النظام...

هل يجب عليّ أن أصف في هذه المذكرات كلّ الوقت الذي قضيته في السجن؟ كلا. فلو شئت أن أروي بالترتيب كل ما رأيت، لضاعفت عدد الفصول مثنى وثلاث، ولكن مثل هذا الوصف سيكون رتيباً. إنّ كل ما قد أحكيه عندئذٍ سيدخل حتماً في الفصول السابقة، التي استمدّ القارئ من تصفُّحها فكرة عن حياة السجناء من الفئة الثانية. لقد أردتُ أن أصف السجناء وأن أقدِّم حياتي بصورة صحيحة ودقيقة، فلا أدري كثيراً هل حقَّقت هذا الهدف. لا أستطيع الحكم على عملي بنفسي. ولكنني أظنّ أن بوسعي أن أختمه هنا. إنني حين

أحرك هذه الذكريات القديمة يصعد الألم القديم ويخنقني. ومن جهة أخرى لا أستطيع أن أتذكر كل ما رأيت، لأن السنوات الأخيرة امَّحت من ذاكرتي، وأنا على يقين أنني نسيت أشياء كثيرة.

إنّ ما أتذكره مثلاً هو أن هذه السنوات مضت بطيئة، كئيبة، وأن الأيام كانت طويلة، مملة، وكانت تسقط قطرة قطرة. وأتذكر أيضاً رغبة جامحة عنيفة في أن أُبْعَث، وأن أوْلَد في حياة جديدة تمنحني القدرة على الصمود، والانتظار، والأمل. وقسوت أخيراً: فأنا أنتظر: وأعدّ الأيام يوماً بعد يوم، ورغم ذلك بقي لي ألف يوم في السجن، وكان يفرحني، في الغداة، أن أستطيع القول لنفسي إنه لم يبقَ إلا تسعمائة وتسعة وتسعون يوماً، وليس ألف يوم. وأتذكر أيضاً أنني وأنا محاطٌ بمئات الرفاق، كنت أشعر بوحدة رهيبة وأنني ما لبثت أن أحببت هذه الوحدة. كنت منعزلاً وسط حشد السجناء أستعيد حياتي السابقة، كنت أحلِّلها بأدقّ تفاصيلها، كنت أمعن التفكير فيها، وكنت أحكم على نفسي بلا شفقة، بل كنت في بعض الأحيان أشكر القدر الذي منحني هذه الوحدة، التي لولاها لما استطعت لا أن أحكم على نفسي ولا أن أغوص إلى أعماق حياتي الماضية. أيّة آمال كانت تنبت حينئذٍ في قلبي! كنت أفكر، وأقرِّر، وأحلف أن لا أرتكب الأخطاء التي اقترفتها، وأن أتجنب السقطات التي حطمتني. ووضعت برنامجاً لمستقبلي. وآليت على نفسي أن أبقى وفيّاً له. وكنت أؤمن إيماناً أعمى بأنني سأنفِّذ، وأستطيع أن أنفذ كل ما أردت... كنت أنتظر، وأنادي بحماس حريتي... كنت أريد أن أجرب مرة أخرى قواي في نضال جديد. كان يستولي عليّ في بعض الأحيان برم محموم... إنني أتألم من مجرد إيقاظ هذه الذكريات. ذلك لا يهم

أحداً غيري بطبيعة الحال. . . أكتب هذا لأني أظنّ أنّ كل إنسان سيفهمني، وأن كل إنسان سيحسّ بالإحساس نفسه، إذا شاء له حظه السيئ أن يحكم عليه ويسجن، وهو في زهرة العمر، وفي كامل قواه.

ولكن ما الفائدة!. . . إنني أفضِّل إنهاء مذكراتي بحكاية ما، حتى لا أنهيها بصورة مباغتة جداً.

إنني أتصور ذلك، قد يسأل أحد، هل يستحيل الفرار من السجن، وألم تقع محاولة فرار طوال المدة التي قضيتها فيه. قلت سابقاً إنّ سجيناً، قضى سنتين أو ثلاث سنوات، بدأ يحسب حساب هذا الرقم، ويقدِّر أن الأفضل أن يقضي مدته الباقية بلا عائق ودون خطر، وأن يصبح مستوطناً بعد الإفراج عنه. ولكن الذين يحسبون كذلك إنما هم السجناء المحكوم عليهم بمدة قصيرة نسبياً: أما الذين حكم عليهم بمدة طويلة فهم دائماً مستعدون للمخاطرة. . . غير أن محاولات الفرار كانت نادرة. هل يجب أن يعزى ذلك إلى جبن السجناء، أو إلى قسوة النظام العسكري، أم إلى وضع مدينتنا التي لم تكن تسهل الفرار كثيراً (إذ كانت ملء السهب المكشوف)؟ لا أعرف من ذلك شيئاً. وأظنّ أنّ كل هذه الأسباب كان لها تأثيرها. . . كان من الصعب الفرار من سجننا: طوال مدة سجني، حاول الفرار سجينان: كانا من المجرمين العتاة.

لمّا استقال الماجور بقي أ. ف (جاسوس السجن) وحيداً وبدون حماية. إنه ما زال شاباً، وكان طبعه يزداد صلابة مع تقدمه في السجن: فهو وقح، جريء، وذكي جداً. ولو أطلق سراحه لظلّ يتجسَّس قطعاً ويتحايل بكل الوسائل الممكنة، مهما تكن مخزية، ولكن ما كان يمكن القبض عليه بسهولة لأنه اكتسب خبرة في

السجن. فقد تعاطى تزوير جوازات سفر. ولكنني لا أؤكد ذلك، لأنني سمعته من سجناء آخرين. وأظنّ أنه كان مستعداً لأن يخاطر بأي شيء من أجل أمل وحيد، بأن يغيّر مصيره. لقد أتيح لي أن أنفُذ إلى قرارة نفسه، وأن أرى كلّ ما فيها من دمامة: كانت وقاحته الباردة مثيرة للحنق وتبعث في نفسي تقززاً خفيّاً. أظنّ أنه لو اشتهى أن يشرب خمراً وكان السبيل الوحيد إليها أن يقتل إنساناً، لما تردّد لحظة، بشرط أن تظلّ جريمته سرّاً. وقد تعلّم في سجننا أن يحسب كل شيء. وعليه وقَعَ اختيار كوليكوف، سجين «القسم الخاص».

سبق لي أن تكلّمت عن كوليكوف. تجاوز سن الشباب، ولكنه مفعم حماسة وحياة وقوة. كان يتمتع بملكات خارقة. وكان يحسّ بقوته ويريد أن يعيش طويلاً: هؤلاء يريدون أن يعيشوا حتى حين تكون الشيخوخة قد جعلت منهم فريستها. كنت سأستغرب كثيراً لو أن كوليكوف لم يحاول الفرار. ولكنه كان قد عزم على ذلك. أي منهما كان أكثر تأثيراً في الآخر، كوليكوف أم أ. ف، لا أدري، كانا متساويين، ومتوافقين من جميع النواحي. لذلك سرعان ما ارتبط أحدهما بالآخر. أظنّ أن كوليكوف كان يعوّل على أ. ف ليزوِّر له جواز سفر، علاوة على أنّ هذا الأخير كان من أصل نبيل وينتمي إلى المجتمع الراقي - ممّا كان يعدُهما بحظوظ سعيدة، إذا استطاعا العودة إلى روسيا. يعلم الله على ماذا تفاهما وماذا كانت آمالهما، وعلى كلّ حال، لا شك في أنها كانت خارجة عن روتين المتشردين السيبيريين. كان كوليكوف ممثلاً بارعاً، يستطيع أن يقوم بعدة أدوار في الحياة، ومن حقّه أن يعقد على مواهبه آمالاً كثيرة. إن أمثال هؤلاء الرجال يخنقهم السجن. لقد تواطآ إذن على الفرار.

ولكن كان من المستحيل أن يفرّا بدون جندي حراسة، فكان لا بد من كسب هذا الجندي. وكان يوجد في أحد أفواج ثكنات القلعة بولندي مسنّ قليلاً، ولكنه رجل حيوي وجدير بمصير أفضل، وشجاع. عندما وصل إلى سيبيريا، يفيض شباباً، كان قد فرَّ من الجندية، إذ استبدّ به الحنين إلى الوطن. فقُبض عليه وجُلد، وألحق بسرايا التأديب عامين. ولما عاد إلى فوجه، انهمك في الخدمة بهمة وحماسة، فكوفئ على ذلك بمنحه رتبة عريف. كان محبّاً لذاته، ويتكلم بلهجة من يقدِّر نفسه تقديراً عالياً.

كنت ألاحظه في بعض الأحيان بين الجنود الذين كانوا يحرسوننا، لأن البولنديين حدَّثوني عنه. خِلْتني أرى الحنين إلى الوطن وقد تحوّل إلى حقد أخرس، ولدود. ما كان له أن يتقهقر أمام أي شيء، وكان كوليكوف ذكياً حين اختاره شريكاً في الفرار. كان هذا العريف يسمى كولليير. اتفق مع كوليكوف وحدّدا اليوم. كنا في شهر حزيران/ يونيو أيام الحرّ الشديد. كان مناخ مدينتنا معتدلاً، خاصة في فصل الصيف، ممّا كان يناسب المتشردين كثيراً. ما كان يجب التفكير في الفرار من القلعة مباشرة، لأن المدينة كانت تقع فوق هضبة، في فضاء مكشوف، والغابات المحيطة بها على مسافة بعيدة جداً. فكان لا بد من الاختباء. ومن أجل ذلك كان يجب الوصول إلى الضاحية، حيث كان كوليكوف قد أعدَّ ملجأ منذ مدة طويلة. لا أدري إنْ كان معارفه الجيّدون في الضاحية على علم بالسرّ. يجب الاعتقاد باطِّلاعهم على السر، وإن كانت هذه النقطة غير مؤكَّدة. وفي تلك السنة، كانت قد أقامت بأحد أركان الضاحية فتاة طائشة السلوك، لطيفة المظهر، تلقَّب بفانكا-تانكا (اسم دمية)، كانت تبشِّر

بآمال كبيرة، أثبتت الأحداث صحتها بعد ذلك. وكانت تلقب أيضاً (بنار ولهب) وأظنّ أنها كانت متفقة مع الهاربين، لأن كوليكوف قام بحماقات من أجلها طوال سنة كاملة. عندما شكلت الفصائل، في الصباح، دبّر أصحابنا الثلاثة أمرهم كي يرسَلوا مع السجين شيلكين، مهنته مواقدي - جصّاص - لإعادة تمليط الثكنات الفارغة التي غادرها جنود المعسكر. كان على أ. ف وكوليكوف أن يساعداه في نقل المواد الضرورية. وقُبل كولليير في الحراسة، وبما أن النظام يقضي بأن يكون جنديان لحراسة ثلاثة سجناء، فقد عهد إليه بمجند شاب، كان عليه أن يعلِّمه الخدمة بصفته عريفاً. لا بد أن يكون لصاحبينا الهاربين تأثير كبير في كولليير حتى يثق بهما ويقرِّر الفرار معهما، وهو الرجل الجاد، الذكي، والماهر في التخطيط، الذي كانت له في السنوات الأخيرة خدمة عسكرية موفَّقة وطويلة الأمد.

وصلوا إلى الثكنات حوالي السادسة صباحاً. كانوا وحدهم تماماً. وبعد أن عملوا ساعة تقريباً، قال كوليكوف وأ. ف لشيلكين إنهما ذاهبان إلى الورشة لرؤية شخص ما وإحضار أدوات عمل كانا في حاجة إليها. كان لا بد لهما أن يستخدما الخداع مع شيلكين وأن يحكيا له ذلك بلهجة طبيعية جداً. كان شيلكين من موسكو، مهنته صانع مواقد، وهو ماكر، ذكي، قليل الكلام، ضعيف الجسم وشديد النحول. إن هذا الرجل الذي كان عليه أن يقضي حياته مرتدياً صداراً وقفطاناً، في أحد دكاكين موسكو، وجد نفسه منتمياً إلى «القسم الخاص» في عداد أعتى المجرمين العسكريين، بعد ترحال طويل، هكذا شاء له قدره. لا أدري ماذا فعل ليستحق عقوبة في غاية القسوة؟ لم يكن يُظهر أدنى خشونة، وكان يعيش هادئاً، ومن حين إلى آخر،

كان يسكر مثل إسكاف، وما عدا ذلك، كان ممتاز السلوك. لم يُطْلعوه على السرّ كما ينبغي، وكان عليهم أن يضلِّلوه. قال له كوليكوف غامزاً بعينه إنهما ذاهبان لإحضار خمرة، خبآها في الورشة منذ البارحة، وذلك أمر كان يهم شيلكين كثيراً، ولم يخامره أي شك، وبقي وحده مع المجند الشاب، بينما اتجه كوليكوف، وأ. ف وكوللير إلى الضاحية.

مضى نصف ساعة، ولم يرجع الغائبون. أخذ شيلكين يفكِّر: فبَرَقت في ذهنه فكرة. تذكّر أن كوليكوف كان يبدو عليه شيء غير مألوف، وأنه كان يتهامس مع أ. ف غامزاً بعينه، لقد رآه، وهو الآن تذكر كل شيء. كوللير أيضاً أثار انتباهه، حين كان العريف ذاهباً مع السجينين، شرح للمجند ما كان عليه أن يفعل أثناء غيابه، وهو أمر لم يكن من عاداته. كلما كان شيلكين ينقب في ذكرياته، كلما تعاظمت شكوكه. وكان الوقت يمضي والسجينان لم يعودا، وبلغ القلق مداه، إذ أدرك أنّ الإدارة قد ترتاب فيه فتعتبره متواطئاً مع الهاربين، وبالتالي فإنّ جلده معرَّض للخطر. كان يمكن الظن أنه شريكهم، وأنه سمح لهم بالذهاب، وهو يعلم بنيَّتهم، وإذا تأخر في الإبلاغ عن غيابهم، فإن هذه الشكوك سوف تتعاظم. فكان عليه إذن أن لا يضيع وقتاً. وتذكر عندئذٍ أن كوليكوف وأ. ف أصبحا حميمين منذ مدة، وأنهما كانا كثيراً ما يتآمران وراء الثكنات، على انفراد. وتذكر أيضاً أن هذه الفكرة راودته آنفاً، وأنهما كانا يدبران أمراً... نظر إلى جنديه الحارس، فكان هذا الأخير يتثاءب، متكئاً على بندقيته، ويحكّ أنفه بمنتهى البراءة، لذلك لم يرَ شيلكين من الضروري أن يُطلعه على أفكاره: فطلب منه ببساطة أن يرافقه إلى ورشة الهندسة. كان يريد أن

يسأل هناك هلا رأى أحد رفيقيه. - تراهما ذهبا فقط ليعربدا في الضاحية، كما كان يفعل كوليكوف كثيراً... ولكن شيلكين رأى ذلك الأمر مستحيلاً. وإلا لكانا أخبراه به، فما جدوى أن يخفياه عنه؟ ترك شيلكين عمله وحتى دون أن يعود إلى الثكنة التي كان يعمل فيها، مضى مباشرة إلى السجن.

كانت الساعة تقارب التاسعة حين وصل إلى السيرجان - ماجور، وأخبره بشكوكه. فارتاع هذا الأخير، ولم يشأ أن يصدِّقه في أول الأمر، إذ أن شيلكين لم يعرض عليه فكرته إلا على شكل شبهة. هرع السيرجان ماجور إلى الماجور، الذي هرول هو الآخر إلى الكومندان. ولم يمضِ ربع ساعة حتى اتُّخذت جميع الإجراءات الضرورية. ورُفع تقرير إلى الجنرال الحاكم. وبما أن السجينين كانا خطيرين، فقد كان من الممكن أن تتلقى الإدارة عقوبة قاسية من بطرسبورغ. كان أ. ف معدوداً بين السجناء السياسيين، خطأً أو صواباً، وكان كوليكوف منتمياً إلى «القسم الخاص»، أي أنه مجرم عريق، وفضلاً عن ذلك، عسكري قديم. وتذكّر المسؤولون عندئذٍ أن النظام يقضي بأن يحرس جنديان كلّ سجين ينتمي إلى القسم الخاص، حين يذهب إلى العمل، والحال أنّ هذه القاعدة لم تُحترم، الأمر الذي كان يمكن أن يسيئ إلى الجميع. وسرعان ما أرسل السعاة إلى جميع المراكز المحيطة بالمدينة، وإلى كل المدن الصغيرة المجاورة، لإبلاغ السلطات بفرار سجينين، والإخبار بأوصافهما. ووُجِّه جند من القوقازيين لملاحقتهما، وبعثت مراسلات إلى جميع الدوائر والأقاليم المجاورة... وعلى كلّ حال، شاعَ ذعر رهيب.

لم يكن الاضطراب أقل في سجننا، كلما عاد السجناء من

العمل، كانوا يعلمون بالنبأ العظيم، الذي ينتقل من فمٍ إلى فم، وكان كل سجين يتلقاه بفرح مكتوم وعميق. كان قلب السجناء يخفق من الانفعال. . . زيادة على أنّ هذا النبأ كان يكسر رتابة السجن ويسلّي السجناء، فهو فرار، وهروب كان يجد صدى من التعاطف في جميع النفوس ويهز أوتاراً غافية منذ مدة طويلة، وهو نوع من الأمل، والجرأة، كان يحرك كل هذه القلوب، ويجعلهم يوقنون بإمكانية تغيير مصيرهم، «وإذن! لقد هربوا رغم كل شيء! فلماذا نحن لا . . .» وكان كل واحد، تخطر بباله هذه الفكرة، ينهض ويلقي على رفاقه نظرة محرّضة. بدا على جميع السجناء الزهو والخيلاء، ونظروا إلى ضباط الصف باستعلاء. وكما كان متوقعاً، هرع رؤساؤنا جميعاً. وصل الكومندان ذاته. كان السجناء ينظرون إليهم جميعاً بنظرات جريئة، تنمُّ عن احتقار، ووقار قاسٍ: «هيه؟ نحن نعرف كيف ندبر أمورنا، متى نشاء؟» كان يتوقع الجميع أن يقوم الرؤساء بزيارة تفتيشية عامة، وكان معروفاً سلفاً أن يجري تحقيق وتفتيش، لذلك خبئ كل شيء، إذ كان معلوماً أنّ إدارتنا لا بد أن تزداد نباهة بعد هذه الحادثة. وقد تأكّدت هذه التوقعات: كانت هناك بلبلة كبيرة، انقلب السجن رأساً على عقب، وفتش كل مكان - وطبعاً لم يُعثر على أي شيء.

ولما حانت ساعة العمل بعد الظهر، ساقونا إليه تحت حراسة مضاعفة. وفي المساء كان الضباط وضباط الصف من الحرس يداهموننا كل لحظة، ويعدوننا أكثر من مرة كما جرت العادة، لذلك أخطأوا مرتين. الأمر الذي أدى إلى مزيد من الفوضى، وإذا بهم يخرجوننا إلى الفناء، ليعدّونا من جديد. ثم، عدّونا مرة أخرى في الثكنات.

لم يقلق السجناء من هذه الفوضى على الإطلاق، وتظاهروا باللامبالاة. وكما يحدث دائماً في مثل هذه الحالات، تصرّفوا بمنتهى اللياقة طوال السهرة. «لن يستطيعوا جرّنا إلى الشجار على الأقل». كانت الإدارة تتساءل: إن كان بيننا متواطئون مع الفارين، فأمرت بمراقبتنا والتجسُّس على أحاديثنا ولكن، دون طائل. - «ليسوا أغبياء حتى يتركوا وراءهم شركاء!» - «يخفي المرء سرّ اللعبة حين يُقبل على مثل هذه الضربة!» «إن لكوليكوف وأ. ف. من المَكر ما يمكِّنهما من إخفاء أي أثر. لقد قاما بفعلتهما كمعلمين حقيقيين، دون أن يَشتبه فيهما أحد. لقد تبخّرا، هذان النذلان، كان بإمكانهما أن يمرّا عبر أبواب موصدة!» وبكلمة واحدة، فإنّ مجد كوليكوف وأ. ف. قد عظم مائة مرة. كان السجناء جميعاً فخورين بهما. وأحسّ الجميع أنّ مفخرتهما سينتقل خبرها إلى أقصى الأجيال القادمة، وأنها أطول عمراً من السجن نفسه.

كان بعضهم يقول:

- يا للمغامرين الجسورين!

ويضيف الآخرون:

- إيه! كان يظنّ أن الفرار غير ممكن... ولكنهما فرّا مع ذلك!

ويعقب ثالث وهو يتطلع إلى رفاقه بنظرة متعجرفة:

- نعم، ولكن مَن هما هذان اللذان فرا؟... فهل تستحقون أنتم حتى أن تحلّوا لهم سيور أحذيتهم؟

في ظرف آخر، ما كان لسجين خوطب بهذا الأسلوب إلا أن يردّ على التحدي وأن يدافع عن شرفه، ولكنه لزم الصمت متواضعاً.

«صحيح! ليس كل الناس مثل كوليكوف وأ. ف، على المرء أن يثبت قيمته أولاً...»

وعلى حين غفلة قطع الصمت سجين، كان جالساً قرب نافذة المطبخ، فقال بصوت فاتر، ولكنه ينمّ عن ثقة خفية، وهو يحكّ خده براحة يده:

- حقاً، يا رفاق، لماذا نبقى هنا؟ ماذا نفعل هنا؟ إننا نحيا بلا حياة، ونحن أموات دون أن نموت، إيييه!

فردّ عليه أحدهم قائلاً:

- ليس الفرار من السجن كخلع حذاء، إنه يشدّك من ساقيك، ما بالك تتأوه؟

وتدخّل شاب غرّ، من أشدّ المتحمسين:

- لكن، خُذْ، كوليكوف، مثلاً...

وأجاب بحدّة سجين آخر، وهو ينظر إلى الفتى الغرّ شزراً:

- كوليكوف؟ كوليكوف! إنّ أمثال كوليكوف لا يُخلقون بالعشرات!

- وأ. ف! يا رفاق، يا له من شجاع!

- إيه! إيه! يستطيع أن يلفّ كوليكوف متى شاء وقدر ما يشاء، إنه داهية!

- هل هم بعيدون؟ هذا ما أودّ أن أعرفه...

وتتواصل الأحاديث وتتداخل: هل هم الآن على مسافة بعيدة من المدينة؟ من أيّة جهة هربوا؟ ما هي الجهة الأوفر حظاً لفرارهم؟ ما هي الناحية الأقرب؟ وبما أنّ هناك سجناء كانوا يعرفون تلك

النواحي، فقد أخذ الآخرون يصغون إليهم بكثير من الانتباه والفضول.

ولما وصل الحديث إلى سكان القرى المجاورة قرّر الجميع أنهم شريرون. على مشارف المدينة، كانوا جميعاً أناساً يعرفون ما عليهم أن يفعلوا، إطلاقاً، لن يساعدوا الهاربين، بالعكس، سيطاردونهم ليسلّموهم.

- لو تعرفون كم هم شريرون هؤلاء الفلاحون! آه! يا لهم من بهائم بشعة!

- فلاحون حقراء!

- السيبيري في غاية الشرّ. يقتل الإنسان من أجل لا شيء.

- آه! جماعتنا...

- طبعاً، سنرى من سيكون الأقوى. جماعتنا لا يخشون شيئاً.

- على كل حال، إذا لم نهلك، سنسمع عنهم.

- أتظن أنهم سيُقبض عليهم؟

هكذا سأل أحدهم فردّ عليه بحدّة سجين من أشدّ السجناء اهتياجاً وهو يهوي على المائدة بضربة قوية:

- أنا على يقين أنه لن يُقبض عليهم أبداً!

وقال آخر:

- هممم! تبعاً لمجرى الأمور.

وقال سكوراتوف:

- وإذاً! يا رفاق، لو هربت أنا فلن يُقبض عليّ طوال حياتي!

- أنت؟

وانفجر بعض السجناء مقهقهين، وتظاهر آخرون بأنهم لا يريدون حتى أن يستمعوا إليه. لكن سكوراتوف قال بحرارة وحماس:

- لو هربت، لن يقبضوا عليّ أبداً. كثيراً ما أقول هذا لنفسي، يا رفاق، وأستغرب من ذلك أيضاً. سأمرق من ثقب قفل على أن أتيح لهم أن يقبضوا عليّ.

- لا تخف، عندما تتضور جوعاً، ستذهب طوعاً، لتطلب خبزاً من فلاح!

وانطلقت القهقهات من جديد.

- خبزاً! كذاب!

- ما هذا الهراء؟ لقد قتلتما، عمّك فاسيا وأنت، «موت البقر»(*)، لهذا نفيتما إلى هنا.

وتضاعفت القهقهات. وبدا على السجناء الوقورين الاستنكار.

وصاح سكوراتوف:

- أنت كذاب! إنّ ميكيتكا هو الذي حكى لكم ذلك، لا يتعلق الأمر بي أنا، بل بالعم فاسيا، فحشرتموني معه. أنا موسكوفي، ومتسكّع منذ نعومة أظفاري. هاكم مثلاً، حين كان الكاهن يعلمني تلاوة الصلاة، كان يقرص أذني قائلاً لي: «ردِّد معي: اشملني برحمتك الواسعة يا رب»... إلخ. وكنت أردِّد معه: «أخذوني إلى الشرطة برحمتك الواسعة يا رب»... إلخ. وهذا ما فعلت منذ نعومة أظفاري.

(*) قتلتما موت البقر: يعني أنهما قتلا فلاحاً أو فلاحة للاشتباه في إصابتهما الماشية بالعين الشريرة. كان في سجننا مجرم من هذا النوع.

وانفجر جميع السجناء ضاحكين. وذلك ما كان يرغب فيه سكوراتوف، كان يحبّ أن يهرج. وسرعان ما عاد السجناء إلى الأحاديث الجادة، الشيوخ منهم خاصة، والخبراء في أمور الفرار. أما بقية السجناء من الشباب أو من ذوي الطباع الهادئة جداً، فكانوا يصغون بغبطة شديدة وبرؤوس ممدودة، وفي المطبخ احتشد جمهور غفير. لم يكن هناك طبعاً ضباط صفّ، وإلّا لما استطاع السجناء الكلام أمامهم بصراحة. ولاحظت بين أكثرهم بهجة تترياً قصير القامة، ناتئ الوجنتين، وذا سحنة مضحكة جداً. كان يسمى ماميتكا، ولا يتكلم الروسية تقريباً، ولا يفهم إطلاقاً ما كان يقول الآخرون، ولكنه مع ذلك كان يمدّ رأسه في الجمهور، ويصغي، إلى ما يُقال، وينصت بابتهاج.

قال له سكوراتوف الذي التفت إليه بعد أن كفّ عن الاهتمام به الجميع:

- وإذن! ماميتكا، ياكشي؟

وأخذ ماميتكا يتمتم منتعشاً وهو يحرك رأسه الضخم نحو سكوراتوف:

- ياكشي! أوه، ياكشي! ياكشي!

- لن يقبض عليهم؟ إيّوك؟

- إيّوك! إيّوك! قال ماميتكا وهو يهز رأسه، ويلوح بذراعيه.

- أنت إذن كذبت، وأنا لم أفهم، هه؟

قال ماميتكا وهو لا يزال يحرك رأسه:

- هو ذاك، هو ذاك، ياكشي!

- حسناً، خذْ هذه ياكشي أيضاً.

قال له ذلك سكوراتوف وهوى على رأسه بضربة أسقطت طاقيته فوق عينيه، ثم خرج مسروراً، تاركاً ماميتكا مبهوراً.

خلال أسبوع كامل، ظلَّ النظام يطبَّق صارماً وقاسياً في السجن، واستمرَّت المطاردات الدقيقة للهاربين في المناطق المجاورة، لا أعرف كيف كانت تتمّ، ولكن السجناء كانوا دائماً على علم بالإجراءات التي كانت تتخذها الإدارة للقبض على الهاربين. في الأيام الأولى، كانت الأنباء سارة جداً: فقد اختفى الفارون دون أن يتركوا أي أثر. لم يكفّ السجناء عن السخرية بالرؤساء ولم يعُد يراودهم أيّ قلق على مصير رفاقهم. كانوا يقولون مبتهجين:

- لن يجدوا شيئاً، سترون لن يستطيعوا القبض عليهم!

- كلا، لا شيء، لقد انطلقوا مثل رصاصة!

- الوداع، دون ارتياع، سأعود قريباً.

كنّا نعلم أنّ جميع الفلاحين في المناطق المجاورة كانوا قد استنفروا، وأنهم كانوا يراقبون الأماكن المشبوهة، مثل الغابات والوديان.

كان السجناء يقولون هازئين:

- حماقات! لا شك أنهم قد اختبأوا عند أحد معارفهم.

- بالتأكيد! إنهم أقوياء لا يخاطرون دون أن يعدّوا كل شيء سلفاً.

ومضت الافتراضات أبعد من ذلك، قيل إنهم ربما ما زالوا مختبئين في الضاحية، في أحد الكهوف، ريثما يزول الذعر ويطول شعرهم. وقد يمكثون هناك ستة أشهر، ثم يخرجون ليحثّوا السَّير أبعد هادئين ومطمئنين...

باختصار، كان للسجناء جميعاً مزاجٌ حالمٌ واهم. وفجأة، بعد الفرار بثمانية أيام، انتشرت شائعة تقول إن مكان الهاربين اكتُشف. فكذَّب السجناء هذه الشائعة طبعاً باحتقار شديد، ولكن لم يكد يأتي المساء حتى قويت الشائعة. فاضطرب السجناء. وفي صباح اليوم التالي كان قد قيل في المدينة إن الهاربين قُبض عليهم وهم مساقون إلى السجن. وبعد العشاء عرفت تفاصيل جديدة: لقد اعتُقلوا على بُعد سبعين فرسخاً من المدينة، في قرية صغيرة. وأخيراً وصل الخبر اليقين. إذ أكَّد السيرجان ماجور، الذي كان عائداً من عند الماجور، أنهم سيقادون إلى مركز الحراسة في هذا المساء بالذات. لقد قبض عليهم، ولا مجال للشك في ذلك. من الصعب وصف الأثر الذي تركه هذا الخبر على السجناء، فقد اغتاظوا في أول الأمر ثم ما لبثوا أن أحبطوا. وسرعان ما لاحظت لديهم ميلاً إلى السخرية. لقد أخذوا يتهكّمون، ليس على الإدارة، بل على الفارين الفاشلين. كان عددهم قليلاً في البداية، ثم جاراهم الآخرون، باستثناء بعض السجناء الوقورين والمستقلين، الذين لا تثيرهم السخريات. فكان هؤلاء ينظرون باستخفاف إلى الجموع النزقة ويلزمون الصمت.

وبقدر ما مدحوا من قبل كوليكوف وأ. ف أصبحوا يذمّونهما بعد ذلك، بل كانوا يستمتعون بذمِّهما، كأنهما أهانا رفاقهم حين أتاحا للإدارة أن تقبض عليهما. قيل بازدراء إنهما على الأرجح كانا متضورين جوعاً ولم يستطيعا احتمال آلامهما، فذهبا إلى ضيعة ليطلبا من الفلاحين خبزاً، وذلك منتهى الذلّة بالنسبة إلى متشرد. هذه الروايات ليست صحيحة، لأن المطاردين اقتفوا أثر الهاربين: وحين دخل الفارون إلى إحدى الغابات، حاصر المطاردون الغابة التي كانوا

فيها. ولمّا لم يجد الهاربون سبيلاً إلى النجاة، استسلموا، وما كان في وسعهم أن يفعلوا غير ذلك.

أعيد الهاربون في المساء، مقيَّدي الأرجل والأيدي، تحت حراسة رجال الدرك، فهبَّ جميع السجناء إلى السياج ليروا ما سيُصنع بهم. لم يروا غير عربتي الماجور والكومندان تنتظران أمام مقر الحراسة. لقد أخفي الهاربون، بعد تقييدهم من جديد، وفي الغداة قدِّموا إلى المحاكمة. وانقطعت سخريات السجناء من رفيقيهما تلقائياً وكفوا عن احتقارهما، وحين عرفوا التفاصيل، علموا أنهما اضطرّا إلى الاستسلام، لأنهما حوصرا من كل جهة، واهتم السجناء جميعاً بالقضية اهتماماً فيه الكثير من التعاطف والودّ.

- سيُجلدون مائة جلدة على الأقل.

- أوه! أوه! سيُجلدون حتى الموت. وقد لا يضرب أ. ف إلا ألف ضربة بالعصا، ولكن الآخر، سوف يقتلونه دون شك، لأنه، أنسيت، من القسم الخاص.

خاب ظن السجناء. فقد حكم على أ. ف بخمسمائة ضربة بالعصا، إذ اعتُبر سلوكه الماضي من الأسباب المخفِّفة، ثم، إنه ارتكب ذنبه الأول. أما كوليكوف فأظنّ أنه عوقب بألف وخمسمائة ضربة. وكما يبدو فالعقوبة كانت خفيفة.

وكان الرجلان عاقلين، فلم يورّطا في قضيتهما أحداً وصرَّحا بأنهما فرّا من القلعة دون أن يدخلا إلى أي مكان. أشفقت على كوللير خاصة: فقد فقد أمله الأخير، دون حساب العقاب الذي ناله وهو ألفا جلدة. وأرسل فيما بعد إلى سجن آخر. ولم يكد يعاقب أ. ف، إذ أعفي من الجلد، بفضل الأطباء. ولكنه لم يكد يدخل إلى

المستشفى حتى أخذ يتباهى وأعلن أنه الآن لن يتراجع أمام أي شيء وأنه سيجعل الناس يتحدثون عنه. بقي كوليكوف كما كان رجلاً مقبولاً ورزيناً، وحين عاد إلى السجن، وبعد عقابه، كان كأنه لم يغادر السجن أبداً. ولكن السجناء لم يعودوا ينظرون إليه كما كانوا من قبل، رغم أنه لم يتغير، فقد كفوا عن تقديره في قرارة نفوسهم، وأصبحوا يعاملونه معاملة الندّ للندّ.

وبعد محاولة الفرار هذه، خبا نجم كوليكوف بشكل ملموس. فالنجاح يعني كل شيء بين هؤلاء الناس...

10. الخروج من السجن

حدث كل هذا أثناء السنة الأخيرة من إقامتي في سجن الأشغال الشاقة. إنني أتذكر جيداً هذه المرحلة الأخيرة مثلما أتذكّر الأولى بوضوح، ولكن ما جدوى أن أستفيض في سرد التفاصيل؟ حسبي أنْ أقول إنّ هذا العام الأخير كان أقلّ أعوام منفاي مشقّة وعذاباً، رغم أني كنت أتحرَّق شوقاً إلى إنهاء مدّة سجني. كان لي كثير من الأصدقاء والأصحاب بين السجناء، الذين استقرّ رأيهم على أنني رجل طيب. وكثير منهم أخلص لي الودّ وأحبّني بصدق. كاد جندي سلاح الهندسة أن يبكي حين شيّعنا أنا ورفيقي إلى خارج السجن، ولما أفرج عنّا تماماً ظلّ يأتي كل يوم تقريباً ليزورنا في مبنى تابع للدولة، حدّدت إقامتنا فيه خلال الشهر الذي قضيناه في المدينة. غير أن هناك وجوهاً قاسية ومتجهّمة، لم أستطِع كسب رضاها، يعلم الله لماذا! كأنّ بيننا كان يقوم حائلاً حاجز ما منيع.

في الأيام الأخيرة حظيتُ على العموم بامتيازات أكثر من أيّ وقت مضى في السجن. في هذه المدينة عثرت بين الموظفين العسكريين على أناس أعرفهم وحتى على بعض رفاق الدراسة القدماء. فربطت معهم علاقات جديدة. واستطعت بفضلهم أن أتلقى مالاً وأن أكتب إلى أسرتي رسائل وأن أمتلك حتى بعض الكتب. لم أقرأ أي كتاب منذ عدّة سنوات، لذلك يصعب عليَّ أن أصف الشعور الغريب، والشديد الانفعال الذي بعثه في نفسي أوّل كتاب أتيح لي أن أقرأه في السجن. أذكر أنني بدأت أقرأه في المساء، عندما أغلقت علينا الأبواب، وأخذت أقرأ الليل كله حتى مطلع الفجر. كان هذا عدداً من إحدى المجلات. كأن رسولاً هبط عليَّ من العالم الآخر، كل حياتي السابقة ارتسمت بارزة واضحة أمام عيني، فحاولت أن أعرف عبر القراءة: هل بقيت أنا متخلفاً كثيراً عن هذه الحياة؟ وهل عاشوا كثيراً هم هناك بدوني؟ ماذا يشغلهم الآن، وما هي المسائل التي يهتمون بها اليوم؟ كنت أتوقف عند الكلمات، أقرأ بين السطور، وأحاول أن أجد المعنى الخفيّ، وإشارات إلى الماضي الذي أعرفه، كنت أبحث عن آثار لما كان سابقاً في وقتي يهزّ الناس، وما أشدّ حزني حين أدركت أنني كنت غريباً عن الحياة الجديدة، وأنني الآن أصبحت عضواً منفصلاً عن المجتمع! كنت متأخراً، وكان عليَّ أن أعرف الجيل الجديد. فانهمكت في قراءة مقالة، مذيَّلة باسم إنسان كان قريباً إليّ. . . ولكن إلى جانب أسماء جديدة ذائعة الصيت، كان هناك عمال جدد على المسرح، فأسرعت إلى التعرف بهؤلاء العمال الجدد، وأحزنني أن لا أملك إلا عدداً قليلاً من الكتب، وأن يكون الحصول عليها كثير الصعوبة. فيما قبل، على عهد الماجور السابق،

كان حمل كتب إلى السجن مجازفة كبيرة. إذا عثرت الإدارة أثناء التفتيش على كتاب، فتلك مشكلة كبيرة، وأسئلة كثيرة، من أين جئت به، - «لا شك أنّ لك شركاء؟» وبماذا كان يمكن أن أجيب؟ لذلك عشت بلا كتب، منطوياً على نفسي، طارحاً مشكلات، كنت أحاول أن أحلّها، وكان حلّها يقلقني كثيراً... ولكنني لا أستطيع التعبير عن كل ذلك...

بما أنني وصلت في الشتاء، كان ينبغي الإفراج عني في الشتاء، في يوم الذكرى السنوية لدخولي السجن. كم كنت أنتظر بفارغ الصبر هذا الشتاء السعيد! وبأيّ فرح كنت أرى الصيف يوشك على الانتهاء، والأوراق تصفرّ على الأشجار، والعشب يجفّ في السهب! ومرّ الصيف... وإذا بريح الخريف تعوي وتئنّ، وها هو الثلج الأول يهطل مدوّماً... هذا الشتاء، المنتظر طويلاً، قد وصل أخيراً! يخفق قلبي خفقاناً سريعاً بلا رنين حين الشعور باقتراب الحرية. شيء غريب! كلما مرّ الوقت، واقترب الموعد، أصبحتُ هادئاً وصبوراً. أنا نفسي دُهشت، واتهمتني بالبرودة واللامبالاة. كثير من السجناء، الذين كنت ألتقي بهم في الفناء بعد انتهاء الأشغال كانوا يتحدثون معي ويهنئونني.

قال لي أحدهم:

- هيه، أيها الأب العزيز! سيُطلَق سراحك قريباً، وستتركنا وحيدين، كأشقياء مساكين!

فسألته:

- وأنت، يا مارتينوف، أما زال لك وقت طويل من الانتظار؟

- أنا؟ إيه! إيه! سبع سنين من الكدّ والعناء!

قال ذلك مارتينوف وتنهّد، ثم توقّف وتطلّع بعيداً شارد الذهن، كما لو كان ينظر إلى المستقبل . . .

نعم، كان كثير من رفاقي يهنئونني بصدق وحرارة. حتى لقد بدا لي أنهم كانوا يعاملونني بمزيد من اللطافة والبشاشة، لم أعد أنتمي إليهم، ولست شبيههم، لذلك كانوا يقولون لي وداعاً. كذلك ك- تشينسكي، وهو شاب نبيل بولندي، حلو الطبع هادئ وديع، كان يحب أن يتجول مثلي في فناء السجن. كان يأمل أن يحافظ على صحته بالرياضة واستنشاق الهواء النقي، تعويضاً عن ضرر الليالي الخانقة داخل الثكنات.

قال لي ذات يوم باسماً حينما كنا نتجول معاً:

- إنني أنتظر بفارغ الصبر إطلاق سراحك. عندما ستغادر السجن، سأعرف حينئذٍ أنه بقي لي عام من الأشغال الشاقة.

أذكر هنا، عابراً، أن الحرية، كانت بفضل ما نسبغه عليها، من خيالنا وفكرنا، تبدو لنا أكثر حرية من الحرية كما هي في الواقع. كان السجناء يضخّمون فكرة الحرية، وهذا أمر مشترك بين جميع السجناء. إن خادماً رثّ الثياب من خدم الضباط كان يبدو لنا ملكاً أو يكاد، إنه مثال الإنسان الحر، بالنسبة إلى السجناء، ليست له قيود، ولم يحلق شعر رأسه، ويذهب حيث يريد، دون حراسة.

عشية إطلاق سراحي، في الغسق، قمت للمرة الأخيرة بجولة حول السجن. كم طفتُ آلاف المرات حول هذا السياج طوال هذه العشر سنوات! لقد تسكّعت هنا خلف الثكنات خلال السنة الأولى، وحيداً، ويائساً. إنني أتذكر كيف كنت أعدّ الأيام التي كان عليّ أن أقضيها في السجن. كان عددها عدة آلاف. يا إلهي! ما أبعد ذلك

العهد! في هذا الركن عاش خاملاً نسرُنا السجين، في هذا المكان كنت أصادف بيتروف كثيراً. إنه لا يفارقني الآن. كان يسرع إليّ، ويتجول بجانبي صامتاً، كأنه كان يخمِّن ما يدور في ذهني من أفكار، وكان يدهش بينه وبين نفسه، يعلم الله من أي شيء. كنت أقول ذهنياً وداعاً للعوارض الخشبية المربعة السوداء التي تتألف منها جدران الثكنات. كم من فتوة وقوة معطّلة دُفنت وضاعت بين هذه الأسوار، بلا فائدة لأي أحد! لا بد من القول: إن جميع هؤلاء الرجال ربما كانوا خير أبناء شعبنا موهبة وقوة. ولكن هذه القوى الجبارة ضاعت إلى الأبد. من المذنب في ذلك؟

نعم، مَن المذنب؟

غداة ذلك المساء، في الصباح الباكر، قبل أن يصطفّ السجناء للذهاب إلى العمل، طفتُ بجميع الثكنات، لأودِّع السجناء. كثير من الأيدي الخشنة القوية امتدّت إليّ تصافحني بودّ. بعض السجناء شدوا على يدي وصافحوني مصافحة رفاقية، ولكن هؤلاء كانوا قلّة. أما الآخرون فكانوا يدركون جيداً أنني أصبحت رجلاً آخر تماماً، وأنني لم أعد واحداً منهم. كانوا يعرفون أنّ لي معارف في المدينة، وأنني سأذهب فوراً إلى بيت «سادة» وسأجلس إلى مائدتهم، وسأكون نِدّاً لهم. كانوا يفهمون ذلك، ورغم ما كان في مصافحتهم من ودّ ولطف، فلم تكن مصافحة الند للند، إذ أصبحت بالنسبة إليهم مجرّد سيد. وهناك سجناء آخرون أداروا لي ظهورهم بقسوة، ولم يردّوا عليّ تحية الوداع، بل نظر إليّ بعضهم بحقد.

قرع الطبل، وانصرف السجناء جميعاً إلى العمل. وبقيتُ وحدي. كان سوشيلوف قد نهض قبل الجميع، وأخذ يتململ من أجل

أن يعدّ لي الشاي مرة أخيرة. يا للمسكين سوشيلوف! لقد انهمرت دموعه حين أعطيته ثيابي، وقمصاني، وسيوري الجلدية التي توضع تحت القيود، وقليلاً من المال. قال لي وهو يعضّ على شفته المرتعشة:

- لا، ليس هذا، ليس هذا ما أفقده، إنما أنت الذي أفقده يا ألكسندر بيتروفيتش! ماذا عساي أن أفعل الآن بدونك؟

وودّعت أيضاً أكيم أكيميتش قائلاً له:

- سيحين دورك قريباً.

فشدَّ على يدي هامساً:

- سأبقى هنا زمناً طويلاً، طويلاً جداً..

وارتميت عليه وتعانقنا.

بعد خروج السجناء بعشر دقائق، غادرنا السجن، رفيقي وأنا - لكي لا نعود إليه أبداً. توجَّهنا إلى ورشة الحدادة حيث كان يجب أن تُنزع عنّا أغلالنا. لم يرافقنا حراس مسلحون، بل ذهبنا مع ضابط صفّ. وتولى تكسير سلاسلنا سجناء كانوا يعملون في ورشة الهندسة. انتظرت حتى يتخلص رفيقي من سلاسله، ثم اقتربت من السندان. أدار الحدادون ظهري، وأمسكوا بساقي ومددوها فوق السندان... كانوا يضطربون ويتحركون كثيراً، إذ كانوا يريدون أن يفعلوا ذلك بخفّة ومهارة. قال معلم الحدادة آمراً:

- المسمار! أدر المسمار أولاً، ضعه هكذا، جيداً! والآن اضربه بالمطرقة...

سقطت الأغلال. فرفعتها... كنت أريد أن أمسكها بيدي، وأن أنظر إليها مرة أخرى. أذهلني أنها منذ لحظة كانت تقيد ساقي.

قال لي السجناء الحدادون بأصواتهم الفظة والمتقطعة ولكنها كانت تبدو فرحة:

- هيا، في أمان الله! في أمان الله!

- نعم، في أمان الله! الحرية، الحياة الجديدة، الانبعاث من بين الأموات... يا لها من لحظة رائعة!

المحتويات

تقديم: بقلم المترجم 5

القسم الأول

مدخل 19
1. البيت الميت 26
2. الإحساسات الأولى 45
3. الإحساسات الأولى (تابع) 70
4. الإحساسات الأولى (تتمة) 90
5. الشهر الأول 112
6. الشهر الأول (تتمة) 131
7. معارف جدد - بيتروف 152
8. رجال حازمون - لوتشكا 169
9. إشعيا فوميتش. الحمّام. حكاية باكلوشين. 179
10. عيد ميلاد المسيح 202
11. التمثيل 224

القسم الثاني

1. المستشفى 251
2. المستشفى (تابع) 271
3. المستشفى (تتمة) 291
4. زوج أكولكا (حكاية) 316
5. فصل الصيف 334
6. حيوانات السجن 358
7. التظلم 374
8. الرفاق 402
9. الفرار 421
10. الخروج من السجن 440

اعتُقل دوستويفسكي عام 1849 لتردده على حلقات أدبية مناهضة لنظام القيصر نيقولا الأول. ولما نجا بأعجوبة من عقوبة الإعدام، نُفي إلى أحد سجون سيبيريا، حيث أمضى أربع سنوات من الأشغال الشاقة. وعن هذه التجربة الذاتية، تمخضت هذه الرواية التي تحكي - بشكل مذكرات - عن الحياة في المعتقل، والنظام السائد فيه، وقسوة الجلادين، والجوع، والعمل الشاق... ويصور فيها الرعب والجور تصويراً دقيقاً، وكثير من الوقائع المختلفة تروى فيها بالتفصيل وبصورة إنسانية مؤثرة للغاية.

بالإضافة إلى فائدته التاريخية وطابعه الذاتي، فإن هذا العمل يمثل منعطفاً في حياة دوستويفسكي الأدبية، حيث استوحى هذا الكاتب من السجناء الذين عاشرهم في حينها الكثير من شخصيات روائع أعماله الإبداعية التالية. وعن هذه السنوات التي قضاها في معسكرات الاعتقال، يكتب دوستويفسكي في إحدى مراسلاته: «لم يذهب وقتي هدراً، إذ استطعتُ أن أعرف الشعب الروسي معرفة جيدة، قد لا تتأتى إلا لقليل من الناس».

إنها نشيد للحياة قبل كل شيء، **هذه المذكرات من البيت الميت** تشق الطريق لكل الأدب اللاحق الخاص بمعسكرات الاعتقال. هي أكثر من رواية، هذه المذكرات من أجمل التحقيقات وأصدقها.



المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com

ISBN 978-9953-68-690-5



لوحة الغلاف لفنان غوخ